المجتمع العربي

تأليف

الدكتور السيد الباز العريني
الدكتور السيد احمد خليل

الدكتور محمد فتحي الشنيطي

الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد
الدكتور محمد عبد الغني سعودي

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

بيروت - ت : ٢٠٣٨١٦


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

تصـــــدير

بسم الله الرحمن الرحيم وعلى هديه الإلهي أقدم هذا الكتاب عـن المجتمع العربي لطلبة كلية الآداب بجامعة بيروت العربية ، ولكل دارس لمادة المجتمع العربي في الجامعات ، وأخيراً لكل محب للاطلاع والقراءة والبحث .

ولقد أدخلت هذه المادة ضمن مقررات الدراسة في الجامعات العربيـة في العام الجامعي ١٩٥٩ / ١٩٦٠ وسرعان ما حذت الجامعات العربية في شتى أنحاء الوطن العربي الكبير حذو شقيقاتها بالجمهورية العربية المتحدة ، فأدخلت هـذه المادة في الجامعات السورية والعراقية والليبية ... فضلاً عن معاهد التعليم العالي في الدول العربية المختلفة .

وكانت الفكرة في تقرير هذه المادة ، هي أن الطالب في أية بقعة من بقـاع الوطن العربي يجب أن يعرف كل شيء عن وطنه الكبير ، يعرفه معرفة علمية موضوعية ، فإذا كان لكل عصر خصائصه ومميزاته ، فإن سمة هذا العصر هي العلم ، ولكي يستطيع أهل العصر أن يعيشوا عصرهم ويحققوا أهدافهم ، وأن يواجهوا مسئولياته ، فيجب أن يعرفوا وطنهم ومجتمعهم الذين يعيشون فيه . فالفرد لا يستطيع أن يتجاوب مع الأمة ، ولا أن يقوم بدوره كاملاً في الحياة السياسية والاقتصادية والإجتماعية المعاصرة إلا إذا فهم مقومات الأمـة التي يعيش في ظلها ويشارك فيها (جغرافياً واقتصادياً وتاريخياً وحضارياً) ، أي

يجب عليه دراسة هذا الوطن موقعاً وموضعاً ، وسكاناً ، واقتصاداً . وعليه دراسة تاريخ هذا الوطن العربي الكبير ليرى كيف أن كل أجزاء هذا الوطن قد مرت بإحداث تاريخية جسام أصبحت تكون جزءاً من تاريخها الطويل وأصبح كل فرد في الأمة العربية ينفعل بها ، إذ تثير في نفسه ذكريات ومفاخر وآلاماً ، كل حدث حسب طبيعته وظروفه . وعليه أن يدرس الحضارة العربية ، فبدراستها ، يظهر ما للأمة العربية من أمجاد وقيم روحية وثقافية وحضاريه ذات أثر في تقدم الإنسانية وتطور مدنية العالم ، وأننا إذا كن نعيش عصر إستفادة من مدنية الغرب ، فإننا قد قدمنا البذور الأولى التي نمت بها هذه المدينة . وعلى الطالب أن يدرس بعد ذلك الوحدة العربية وأسسها والظروف الجغرافية والتاريخية والإجتماعية التي اكتنفتها حتى يلمس قوة هذه الوحدة وما تقوم عليه من روابط متينة ، وهي الروابط التي نشأت في كنفها القومية العربية .

ولقد كان في تقرير هذه المادة في الجامعات والمعاهد العليا تصحيح الأوضاع كانت سائدة في البلاد العربية قبل ثورة يوليه (تموز) ١٩٥٢ ، إذ كانت كل دولة من دول العالم العربي تهتم بوطنها الصغير دون كبير التفات إلى الوطن الكبير . وكان هذا الوضع يتمشى مع التفتيت الكبير الذي أصاب المنطقة العربية ، تفتيت أسهم فيه كل من الإستعمارين التركي والغربي ضماناً للقضاء على التضامن والتكتل العربي أي على الوحدة والقومية العربيتين .

ولقد ألفت كلية الآداب بجامعة بيروت العربية لجنة من الأساتذة المتخصصين في موضوعات مادة المجتمع العربي ليقوم كل منهم بمعالجة الموضوعات التي تدخل في نطاق تخصصه ، على أن تجمع الموضوعات المختلفة في كتاب واحد .

وإنا نرجو أن نكون بهذا المؤلف قد قدمنا صورة كاملة لدارس المجتمع

العربي ، وأن نحقق الأهداف المعقودة على تدريس هـذه المادة في الجامعات العربية ، وأن غرضنا من تأليف هذا الكتاب هو توجيـه الشباب العربي إلى الأهداف العليا للمجتمع العربي حتى يعملوا ويعمل كل عربى على تحقيقها على خير وجه .

فاقرأ هذا الكتاب على هدى ما تقدم ؛ لتكون ذلك المواطـــن الواعي الإيجابي الذكي ، وأنت تأخذ مكانك في موكب المواطنة العربية الصحيحة .

وفقك الله ونفع بك نفسك وأمتك العربية .

دكتور محمد عبد الغني سعودي



فهرس

الباب الاول :

المقومات الجغرافية للأمة العربية

الباب الثاني :

الأصول التاريخية للقومية العربية

الباب الثالث :

الحضارة العربية

الموضوعات والأساتذة المسهمون بها

أولا : المقومات الجغرافية للأمة العربية

للدكتور محمد عبد الغني سعودي

ثانيا : الأصول التاريخية للقومية العربية

للدكتور السيد الباز العريني

ثالثاً : الحضارة العربية

للدكتور السيد احمد خليل

رابعاً : العالم العربي في العصر الحديث

للدكتور السيد الباز العريني

خامساً : القومية العربية ، مقوماتها وأهدافها

للدكتور فؤاد عبدالمعطي الصياد

سادساً : المجتمع العربي (تحليل لمقوماته الحضارية)

للدكتور محمد فتحي الشنيطي


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

المقومات الجغرافية للأمة العربية

الفصل الأول

تميز شخصية الإقليم

كان الكتّاب الأجانب يشيرون إلى وطننا العربي ، بتعبيرات عديدة ، لعل أقلها هي تسميته الحقيقية ، أي الوطـن العربي . فتارة نسمع الشرق الأدنى ، وتارة سمعنا الشرق الأوسط ، وكلا التعبيرين ليس له مدلول واضح ، ولا يشير إلى إقليم محدود فالشرق الأدنى كان يقصد به أملاك الدولة العثمانيـــة ، من ثم كان يضاف إلى أجزاء العالم العربي الخاضعة للدولة العثمانية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، أجزاء من شبه جزيرة البلقان ، واختفى ذلك الإسم ليحل محله الشرق الأوسط مع الحرب العالمية الثانية ، وكان تعبيراً عسكرياً سياسياً ، أكثر منه جغرافياً ، وسرعان ما شاعت التسمية ، وجرّ العسكريون والسياسيون الجغرافيين وراءهم ، وكان الواجـب للعكس ! وظهرت الكتب والدوريات المختلفة ، الجغرافي منها وغير الجغرافي ، يحمل إسم الشرق الأوسط . وليس أبلغ من ضعف هذه التسمية ، وعدم وجود حدود طبيعية ، أو شخصية متميزة له ، من إختلاف الكتاب والباحثين أنفسهم في مضمون الأقطار التي تقع ضمن إطار هــذه التسمية ، فتارة يضيفون مصر إلى جنوب غربي آسيا ، وتارة يضيفون ليبيا ، ولكن بماذا اختلفت الصحراء الليبية عن نظيرتها الجزائرية — سواء من حيث ظروفهــا الطبيعية أو البشرية — حتى نقف بالإقليم

عند ليبيا ؟ قد تختلف ليبيا من ناحية البناء الجيولوجي عن المغرب الكبير . ولكن متى كان للعسكريين دراية بالتركيب الجيولوجي ؟ وكما اختلف الكتاب في حدود الإقليم الغربية ، اختلفوا أيضاً في حدوده الشرقية : منهم من وصل به إلى إيران ، ومنهم من ضم إليه أفغانستان وباكستان الغربيـة ، أو شمال غرب الهند حينذاك . وإذا كان العامل الإستراتيجي له الإعتبار الأول عند العسكريين والسياسيين ، لأن الأقليم الذي يعنونه ، أضفى عليه موضعه أهمية كبرى ، كملتقى ومفترق في آن واحد للطرق العالمية ، أو عقدة للمواصلات البرية والبحرية والجوية ، فإن بروز تونس في البحر المتوسط ، كشرطي المرور بين حوضيه الشرقي والغربي يعطيها أهمية إستراتيجية كبيرة ، كما تشرف طنجة المغربية ، وسبته المغربية أصلاً – والإسبانية إغتصاباً – تشرفان على ممر مائي عالمي وهو بوغاز جبل طارق . من ثم لا تقل أهمية غرب الإقليم إستراتيجياً عن مشرقه . وكان لأهميته الإستراتيجية أثرها في أن أصبح الوطن العربي من المناطق الرئيسية للتوتر العالمي ، كما عاش لمدة تزيد على الخمسين قرناً وهو في تفاعل مع العالم الخارجي ، يحيا حياة ديناميكية ، حياة أخذ وعطاء ، وما يأخذه اليوم ليس إلا جزءاً من عطائه السخي بالأمس ، وقـد ظهر البترول ليجعله مرة أخرى في دور العاطي .

وخلاصة القول ، ليس هناك من داع لتعدد التسميات والمسميات غـير الواضحة ، وشخصية الوطن العربي واضحة جليـة ، شخصيته المتميزة أولاً وقبل كل شيء لغوياً ، فأصبح اللسان العربي الفصيح ، مفهوماً في العراق ، كما هو مفهوم في المغرب ، ولعل هذا الغطاء اللغوي الذي افترش الإقليم من أول عوامل وحدة الإقليم ، وتمييزه عمـا جاوره من أقاليم أخرى ، كإيران أو تركيا . فاللبناني أو السوري يفهم الجزائري على بعد آلاف الأميـال ، ولكنه لا يفهم التركي على بعد مئات الأميال ، بل وأحياناً عشرات الأميال . والفاصل الطبيعي هنا هو الجبال ، بينما لا نجد هذا الفاصل بين ليبيا التي انتهى عندها تحديد الشرق الأوسط (في نظر بعض الكتّاب) ، وبين المغرب الكبير .

ولكن هل الأهمية الإستراتيجيه واللسان المشترك هما العاملان الوحيدان اللذان يميزان الإقليم ؟ الواقع هناك عوامل أخرى ، منها سيطرة المناخ الجاف على قلبه ، بحيث جعل مشكلة الماء ، وأعمال الري ، من الأوليات ، وحتى على أطرافه ، وخاصة الشمالية ، تميز المطر بذبذبات حادة ، تصيب الإنتاج الزراعي بضربات حادة ، فيتأرجح المطر بين الوفير حيناً ، والضئيل حيناً آخر . وتميز الوطن العربي بندرة غاباته ، التي لا ترجع ندرتها إلى عوامل مناخية فحسب ، بل إلى الإستقرار البشري الذي زاد على الخمسمائة قرن ، كان الإنسان فيها مستهلكاً للحياة الشجرية ، ومنها قلة السكان ، وإن تفاوتت مساحة أقطاره بين الجزائر والسودان من ناحية ، وبين لبنان والكويت من ناحية أخرى ؛ ونقول قلة السكان وإن كانت لا تشترك جميعاً في فقرها السكاني ، وأدت هذه الحقيقة إلى إنخفاض الكثافة العامة السكانية .

وكان الفضل كل الفضل لسكان الإقليم ، في إستنبات القمح ، والشعير . والكروم ، والتين والزيتون ، والسمسم ، والمشمش ، واللوز ، والجوز ، فضلاً عن التمور ، وكان الإقليم في نفس الوقت موصلاً جيداً للحرير وقصب السكر والحمضيات والارز والورق والبارود من آسيا إلى أوربا . واختمرت في الإقليم كثير من الافكار ، والتكنيك ، وتبلورت ، ثم نقلت إلى جهات أخري ، كنظام ري البساتين الذي نقله العرب إلى أسبانيا ، ولا زال إلى يومنا هذا من عناصر نمو الزراعة الاسبانية ، كذلك الحال في علوم الهند واليونان ، التي حفظها العرب في عصور الظلمة الاوربية ، وأصبحت في متناول الغرب فيما بعد ، ولكن عن طريق العرب .

وشهدت أرض هذا الوطن ، المراكز الروحية لنحو نصف سكان الارض ، وفيها ظهرت أقدم المدنيات التي عرفتها البشرية ، فهذه حضارات وادي النيل ، وتلك حضارات الرافدين ، ولا يسعنا إلا أن نستشهد بالاعداء قبل الاصدقاء في بروز وتميز شخصية الوطن العربي ، حين يقول مارشال ليوتي الفرنسي : « إن العالم العربي أشبه بالدف ، ليس من المهم أين الدق عليه ، فإن الصدى يشمله كله » .

* * *

الفصل الثاني

الموقع الجغرافي للوطن العربي وأثره في استراتيجية المواصلات العالمية

إمتداد الوطن العربي وحدوده :

إذا نظرنا إلى خريطة الوطن العربي نجد أنه يمتد في بقعة ضخمة من المحيط الاطلنطي الى الخليج العربي بمسافة تزيد على اثني عشر مليون كيلو متر مربع ، كما يمتد في مسافة لا تقل عن السبعة آلاف كيلو متر من شواطيء الأطلنطي إلى خليج عمان ، أي ما يعادل سُدس محيط الكرة الأرضية . أكثر من ثلاثة أرباع هذه المساحة في إفريقية والباقي في آسيا ، وبذلك تفوق مساحة الوطن العربي مساحة الولايات المتحدة الامريكية ، بل ومساحة القارة الأوروبية بما في ذلك روسيا الأوروبية .

ولعل ضخامة مساحة الوطن العربي من العوامل التي تزيد في وزنه السياسي ذلك أن المساحة الكبيرة إذا اقترنت بعدد كبير من السكان ، واستغلت موارد هذه المساحة الضخمة استغلالاً حسناً . كان معنى هـذا ظهور كتلة قوية تنتزع لنفسها مكاناً رئيسياً على المسرح العالمي ، إذ أن اتساع المساحة يؤدي الى تنوع في الظروف المناخية والنباتية و في التكوينات الجيولوجية ، وبمعنى آخر يؤدي إلى تنوع في موارد الإقليم .

وكان الكتاب أول الأمر ، يشيرون إلى سعة مساحة الوطن العربي بقليل من المبالاة ، ذلك أنهم كانوا يقرنون هذه المساحة الكبيرة بالصحاري المجدبة ، فيصبح عنصر المساحة غير ذي قيمة في تقييم المنطقة العربية ، ولكن الوضع تغير بعد تدفق البترول ، ووضح أن اتساع المساحة رغم جدبها زراعياً ، هي خير وبركة ، واشتد الصراع بين الشركات الأمريكية والشركات البريطانية حتى على المساحات الصغيرة ، مستغلين في ذلك عدم وضوح الرؤية للحدود السياسية الفاصلة ، ولعل في مشكلة البوريمي خير دليل . فلقد برزت الصحراء نفسها إقتصادياً ، ولم تعد بمجرد خرقة بالية أو شرنقة واسعة تحيط بالنواة الزراعية الساحلية ، بل أصبحت قطباً اقتصادياً جديداً يناظر القطب الزراعي القديم .

الوطن العربي وطن آسيوي افريقي ومن ثم كانت اهتمامات العرب بمشكلات القارتين معاً . ولقد لعبت شبة جزيرة سيناء دوراً كبيراً في الوصل بين جناحي الوطن العربي ، فكان الطريق الشمالي بمطره الشتوي وكثبانه الرملية الحافظة للماء ، صلة بين الجانبين للحاجة اليها في فصل الصيف الحار ، فتظهر المياه على طول الطريق بين مصر وفلسطين . وهذا هو الطريق الذي سارت عليه جميع الغزوات ، بل الانتقالات السلمية من الشرق سواء كانت في شكل جماعات قبلية أو موجات فردية [١] . ومن هذه الهجرات ما اتجه جنوباً مع النيل الى السودان ، ومنها ما واصل السير غرباً الى الشمال الافريقي .

والى جانب الطريق الرئيسي الشمالي ، هناك طرق أخرى غير محدودة على طول الأودية الجافة في وسط سيناء تؤدي الى خليج العقبة وشمال الحجاز ولكنها لا تقارن بحال بالطرق الشمالية .

كذلك لعب **البحر الاحمر** دوراً كبيراً في الوصل بين غربي العالم العربي الأسيوي وشرق العالم العربي الإفريقي ، أي بين مصر وغرب وجنوب شبه الجزيرة العربية ، فإذا ما تركنا تلك القناة التي كانت تصل بين النيل والبحر الأحمر ، كانت هناك طرق للقوافل استفادت من ثنية قنا كأقرب

جزء من النيل إلى البحر الاحمر ، ومستفيدة في نفس الوقت من الاودية الجافة في الصحراء الشرقية ، فأفادت هذه الطرق الاخيرة في ربط وإقامة علاقات بين الاطراف الجنوبية للعالم العربي [٢] .

وصلة الجناح الغربي من الوطن العربي بالجناح الشرقي ترجع إلى الالف الثانية قبل الميلاد ، عندما وصل الفينيقيون إلى المغرب من سواحل الشام ، وأنشأوا المراكز التجارية ، ونشروا الحضارة الفينيقية واللغة الفينيقية بين سكان المغرب .

ولعب المغرب العربي دوراً كبيراً في التاريخ بسبب موقعه الجغرافي ، فهو يقع في إفريقية ، ولكنه قريب من أوربا ، لا يفصله عنها إلا مضيق جبل طارق ، ولا يزيد اتساعه على ١٣ كيلو متر ، كما أنه يقترب في طرفه الشرقي من جزيرة صقلية ولا يزيد اتساع هذا المضيق على ١٤٠ كم ، وبذلك وصلت الهجرات السلمية منها والحربية هذه المنطقة من الشرق إلى الغرب ، ووصلت الهجرات العربية إلى أوربا عن طريق المغرب سواء إلى صقلية أو إلى الاندلس . ولا زال في أسبانيا الى اليوم ما يقرب من ٧٠٠ علم جغرافي تحمل الاسماء العربية . لذلك قد يكون من اللائق أن نقول بأن منطقة المغرب بوحداتها الثلاث منطقة التقاء ، يلتقي فيها العالمان الاوروبي والافريقي .

وتبدو أهمية المغرب العربي أيضاً لعالم المحيط الاطلنطي ؛ فقد كان هذا المحيط يمثل في وقت ما بحراً غير مطروق . ولكن بعد أن تم الكشف عن العالم الجديد أصبح مركزاً للنشاط التجاري . وبرزت أهمية سواحل المغرب كمراكز استراتيجية وقواعد ومحطات للسفن بين العالم القديم والعالم الجديد .

والحدود الخارجية للوطن العربى تظهر واضحة أحياناً ، كما هو الحال في البحر المتوسط شمالاً وشرقاً ، كما هو الحال في البحر والخليج العربيين ، ولكن فيحدوده البرية كثيراً ما لا يتفق الخط السياسي مع الاوضاع الاثنولوجية ذلك أن الحدود السياسية في الوطن العربي ، سواء الخارجية منها التي تفصله

عن القوميات الأخرى ، أو سواء الداخلية بين أقطاره بعضها والبعض الآخر ، هي صناعة أوربية أكثر منها صناعة محلية ، من ثم جاء تخطيطها لخدمة أغراض خارجية ، أكثر منها لخدمة مصالح محلية ، أو بمعنى أخرى هي حدود مفروضة من الخارج ، أكثر منها نابعة من الداخل .

فإذا سرنا مع **الحدود البرية** ، نلاحظ أن خط الحدود لا يتفق والحدود الطبيعية ذلك أن خط الحدود يسير مع خط سكك حديد (حلب-الموصل). بل ويسير جنوب هذا الخط بحيث يصبح معظم هذا الخط داخل الأراضي التركية ، بينما كان من الطبيعي أن تنتهي سوريا بنهاية جبال طورس وهضبة الأناضول ، فإذا أطفنا إلى هذا أيضاً بتر لواء الاسكندرونة الذي كان قطعة من سوريا . اقتطعته فرنسا منها لتمنحه لتركيا عام ١٩٣٩ [٣] . رغم أن هذا الميناء هو ميناء سوريا بل والعراق الشمالي ، أدركنا أن هذا الحد السياسي في هذه المنطقة غير طبيعي .

أما **الحدود الشرقية فهي** تتفق في الركن الشمالي مع سفوح جبال زاجروس فاصلة بين القومية العربية وبين القومية الإيرانية في مشارف لواء العمارة . ولكن الحدود السياسية ابتداء من هذه المنطقة تفترق عن خط الجبال وتتجه رأساً حتى تقابل شط العرب وسط منطقة من المستنقعات ، بينما تتجه السلسلة الجبلية نحو الجنوب الشرقي لتصل إلى رأس الخليج العربي . وبين خط الحدود وخط الجبال اغتصبت منطقة عربية (عربستان) أخرى لتصبح جزءاً من إيران وبعيدة عن كتلتها الأصلية في العراق . من ثم كانت الحدود في هذه المنطقة مثار نزاع بين إيران والعراق .

ويسير **الحد الجنوبي** كحد بحري في آسيا يتمثل في الخلج العربي والبحر العربي والمحيط الهندي ، أما في أفريقية ، فإن هذا الحد غير واضح ، فهو وإن امتد مع حدود السودان الجنوبية ، إلا أنه في المغرب يجب أن يمتد إلى أبعد من حدود ليبيا ، وأبعد من حدود المغرب فقد انتشر الاسلام وانتشرت العروبة إلى تشاد وموريتانيا والصحراء الاسبانية (ريو دورو) فالحد الجنوبي

في الحقيقة يصل إلى حوض السنغال ومنحنى النيجر [٤] .

فالاقليم واضح التحديد إذا سرنا مع الحدود الطبيعية : البحر شمالاً وجنوباً والصحراء جنوباً والجبال (خط زاجروس) شمالاً وشرقاً ، فهنا فضل الجبال راضح في فصل الحضارات والأجناس واللغات الإيرانية والتركية عن الوطن العربي رغم بعض التسربات الهامشية الثانوية فهذه الجبال هي سور العرب العظيم [٥] .

أهمية الموقع وتطور هذه الأهمية على مر العصور

يمتد الوطن العربي بين درجتي عرض ٤ و ٣٧ شمالاً ، فإذا استثنينا جنوب السودان كان معنى هذا أن الوطن العربي يقع في مكان وسط بين المنطقة المدارية بالمعنى الدقيق وبين المناطق المعتدلة الباردة والباردة ، كذلك يقع الوطن العربي في منطقة التقاء العالم القديم ، وتلتقي عنده وخلاله البحار الدفيئة بالبحار المعتدلة وما ورائها من باردة ، من ثم فهو وسط أيضاً بين البحار ؛ فهناك المحيط الهندي الذي يمتد بذراعيه البحر الأحمر والخليج العربي ، هذان الذراعان يمتدان إلى الشمال ولكنهما لا يتصلان بالبحر المتوسط ، وعلى هذا الأساس اضطرت المواصلات العالمية إلى عبور أرض هدا الوطن ، واضطر العابرون إلى تغيير وسيلة الانتقال من سفينة الماء إلى سفينة الصحراء .

كان من الطبيعي إذن أن تصبح هذه المنطقة ممراً للشرق ، والغرب ، واقليم اتصال بين المناطق المتباينة ، بل أن تجار العرب وملاحيهم انتشروا إلى جهات بعيدة عن هذا الوطن . فهم أول من كون علاقات مباشرة مع الصين من سكان غرب آسيا ، ويرجع وجودهم في جنوب الصين إلى القرن الثالث بعد الميلاد كما يمثلون جاليات كبيرة في الملايو وأندونيسيا وبخاصة جزيرة جاوه التي تعتبر مهجرهم الأول في جنوب الصين إلى القرن الثالث بعد الميلاد . إلا أن المنطقة التي كانت اكثر استهواءلهم هي منطقة شرق إفريقية بما فيها مدغشقر وفي هذا الاقليم — اقليم الزنج — اشتغل العرب بتجارة التوابل والأخشاب

وغيرها ، وبلغت حركة الهجرة إلى شرق إفريقية ذروتها من القرن السادس إلى القرن التاسع ، وإن كانت لم تبطل بعد ذلك ، واستقر بعضهم في المنطقة وساعد على نشر الثقافة العربية والاسلامية مع بقية المهاجرين من جنوب وجنوب غرب شبه الجزيرة العربية بين بعض القبائل المحلية . وقويت العلاقات بين هذا الساحل وبين الساحل العربي المواجه نتيجة لبقاء العلاقات الودية مع الوطن الأم .

وانتقلت بعض المظاهر الحضارة الافريقية إلى شبه الجزيرة العربية ؛ فأكواخ عسير المصنوعة من القش والطين إلى جانب تمرها وموزها وذرتها الرفيعة ما يجعلها أقرب إلى شرق إفريقية والسودان منها الى شبه الجزيرة العربية ، بل إن الزراعة المتنقلة التي تظهر في عسير قد لا توجد في أي مكان آخر في شبه الجزيرة [٦] .

وكذلك الحال في غلات الجنوب العربي التي أصبحت أقرب إلى غلات الهند والشرق الافريقي ، فالذرة الرفيعة هي الغلة الرئيسية يليها الشعير والقمح ، وحتى الحياة الشجرية نجد معظمها من نخيل البلح والساجو والمانجو والباباز والموز والنيلة ، فضلاً عن القطن والطباق وبذرة الخروع [٧] .

وخلاصة القول أن المنطقة العربية مثلت همزة الوصل ولا تزال . وحمل سكانها لواء هذا الاتصال حينما كانوا يحملون منذ أقدم العصور السلع المختلفة من الحرير والتمور والبهار الى جانب ألوان من المعرفة والأفكار .

وكانت هناك عدة طرق رئيسية تسير فيها التجار :

الطريق الشمالي : يتجه من الصين إلى أواسط آسيا إلى بحر قزوين ثم إلى البحر المتوسط أو إلى البحر الأسود .

الطريق الأوسط : يتجه من شرق آسيا أو من الهند إلى الخليج العربي ثم براً في سهول دجلة والفرات إلى دمشق وصور أو إلى انطاكية وآسيا الصغرى .

الطريق الجنوبي : وكان طريقاً مزدوجاً ، يبدأ من الهند إلى جنوب

الجزيرة العربية خاصة إلى عدن وتحمل السلع بعد ذلك بواسطة القوافل إلى البتراء ثم موانيء الشام . ومنها ما كان يكمل رحلته البحرية عبر البحر الأحمر إما إلى القلزم (السويس) أو إلى أحد موانيء الساحل العربي مثل ليو كوس ليمن[٨] (ميناء القصير) غير أن نقل التجارة على البحر الأحمر لم يكن يستهوي التجار في العصور الأولى ، وكانوا يفضلون طريق غرب شبه جزيرة العرب .

ويرجع ذلك إلى أن الملاحة في البحر الأحمر شاقة وعسيرة ، إذ تسود فيه الحرارة المرتفعة المصحوبة بالرطوبة التي تكاد تخنق الأنفاس وذلك في فصل الصيف . كما يتعرض كثيراً لهبوب رياح شمالية عاصفة ، هذا فضلاً عن أن شواطئه كثيرة الحواجز المرجانية التي لا تجعل من السهولة بمكان اللجوء إليها وقت الخطر .

إذا قارنا بين الطرق الثلاث سنجد أن الطريق الأول يستبعد من المقارنة ذلك أنه يسير في مناطق صحراوية وشبه صحراوية ، تتميز بالبرودة في فصل الشتاء ، وأحياناً تسد الثلوج مسالكه ، بينما الطريقين الآخرين سواء الصاعد في الخليج العربي أو شبه جزيرة العرب أو البحر الأحمر تتميز بأنها تسير في أقاليم دفيئة ، وبذلك تتفادى التجارة والنقل البري الباهظ التكاليف .

وكانت هناك عوامل طبيعية وبشرية ساعدت على أهمية طرق الوطن العربي منها : **جدب الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية** مما أدى بالسكان إلى الاتجاه نحو البحر وذلك لجدب البيئة فأخذوا يعملون بصيد الأسماك وبالملاحة البحرية ونقل التجارة . وصادف أن كانت الرياح في المحيط الهندي مثالية للملاحة ، فهي تتجه نحو قارة آسيا في فصل الصيف ، وهي خارجة من قارة آسيا في فصل الشتاء . لذلك كان العمانيون والحضارمة وسطاء تجارة منذ العصور القديمة حتى حق عليهم القول بأنهم « فينيقيو المحيط الهندي » .

ومن هذه العوامل أيضاً أن الصحاري العربية عرفت **الابل** منذ القدم ، والجمل فيها أصيل[٩] بل هو الحيوان المثالي لحمل السلع والمتاجر ، من ثم كان

حداة الإبل بطبيعتهم رجال تجارة ، خاصة وأن هذه التجارة لا تكلفهم شيئاً ، وكان من الطبيعي أن يستعين المنتجون بهؤلاء البدو لأنهم أعرف الناس بمسالك الصحراء ودروبها .

ومنها أيضاً ان بحراً قديماً يمتد في الوطن العربي وهو **البحر المتوسط** كان مهداً لكثير من الحضارات ، وكان بحراً مثالياً للملاحة البحرية ، فالبحر المتوسط بحيرة هادئة تهب عليها نسائم التجاريات بانتظام عجيب إذا استثنينا فصل الشتاء حين تمر الأعاصير فيضطرب ريحه ويعلو موجه . وحتى في هذا الفصل يمكن للملاح ان يلجأ لجزره العديدة المتناثره خاصة في جزئه الشرقي هذه الجزر التي أصبحت للملاحين هادياً ومرشداً ، ترى في الأفق البعيد (يقدر انها ترى على بعد ٥٠ ميلا إذا كان الجو صافياً [١٠] ، من ثم كان من يسير في البحر المتوسط كأنه يسير على درب محدد معلوم ، ليس بعجيب إذن ان تكون مسالكه المائية طرقاً للانسان في مراحل مبكرة من تاريخ البشرية .

ولعب **الساحل الفينيقي** خاصة الشمالي بموانيه الطبيعية وتقاليده البحرية دوراً كبيراً في الاتصالات بين الجناح الاسيوي للعالم العربي وعالم البحر المتوسط فحتى أيام الملك سليمان كانت التجارة البحرية لفلسطين تمر عن طريق الموانيء الفينيقية ، واستمر هذا الساحل هو بوابة التوغل الحضاري والتجاري إلى الشرق ، وإذا كانت هناك بعض الموانيء ذات مواقع جيدة على الساحل الجنوبي كرينو كلورا (العريش) وغزة ويافا إلا أنها ما لبثت أن تدهورت إذا ما قورنت بالموانيء الشمالية . على عكس انطاكية مثلاً التي كانت حلقة ربط ، بل ومركزاً هاماً للفلسفة الإغريقية والفكر الإغريقي على الساحل السوري [١١] .

وإذا كان الساحل السوري يمثل إحدى نهايات الطرق المتجهة من الشرق الى الغرب ، فان **الخليج العربي** الذي يعتبر ذراعاً من البحر العربي استمر يلعب دوراً كبيراً في نقل التجارة الشرقية وغيرها من الاتصالات البشرية الأخرى بين عالم المحيط الهندي وبين عالم البحر المتوسط حتى فتح طريق السويس .

ولم يكن النشاط البحري الذي شاهده هذا الخليج خلال العصور القديمة إلا ثمرة فترة طويلة من التقاليد البحرية ، فالخليج العربي ميدان مناسب للملاحة البحرية بفضل جزره العديدة وهدوء مياهه ووفرة مصائده من السمك واللؤلؤ مما زاد من اعتماد سكانه على البحر ، بل إن هناك نظرية تقول بأن الخليج كان المدرسة الأولى التي تعلم فيها الملاحون الفينيقيون الأوائل ركوب البحر .

وقد استمرت طرق الوطن العربي حافظة لأهميتها في العصور الوسطى أيضاً حتى كشف البرتغاليون رأس الرجاء ، فأصيبت هذه الطرق خاصة الطريق المصري بنكسة لمدة ثلاثة قرون . ولم تعد لهذا الطريق أهميته الأولى إلا بعد حفر قناة السويس التي اختصرت المسافة بين بومباي ومرسيليا بنحو ٥٦ ٪ ومن بومباي هامبورج بنحو ٤١ ٪ ، وكان معنى الاختصار في المسافة وفر في الوقت ، وزيادة عدد الرحلات التي تقوم بها السفينة ، فضلاً عن وفرة الوقود وبالتالي قلة تكاليف النقل . لذلك لا يلجأ إلى طريق رأس الرجاء الصالح إلا في الظروف السياسية الحرجة – ظروف الصراع الدولي – وتعرض منطقة قناة السويس للإغارات كما حدث في الحربين العالميتين الأولى والثانية حينما تحول البحر المتوسط إلى بحيرة تسبح فيها الغواصات الألمانية والايطالية . وإذا كان هناك من يعوزه الدليل على أهمية طريق القناة فحسبه إكفهرار وجه العالم حتى بات قاب قوسين أو أدنى من حرب عالمية رهيبة حين استكملت مصر سيادتها على أراضيها بتأميم قناة السويس ، وحسبه كذلك اضطراب الحياة في غرب أوروبا حين أدي الاعتداء على القناة إلى تعطيل حركة المرور فيها بضعة أشهر ، بسبب اعتماد تلك الحياة إلى مدى بعيد على ما يمر بالقناة من سلع لا سيما البترول .

هذا ولا تقل أهمية المغرب العربي عن مشرقه ، ففي الحرب العالمية الثانية استطاعت الجيوش البريطانية والأمريكية غزو إيطاليا عن طريق تونس وجزيرة صقلية ، ومن ثم أصبح من الممكن لأي قوة أن تعترض الطريق

البحري في حوض البحر المتوسط إذا كانت لديها إعدادات كافية في تونس والمغرب أو الجزائر ، كما لا ننسى أيضاً أن ميناء طنجة ، وهو المقابل لجبل طارق ميناء مغربي .

وإذا كانت قناة السويس قد أعادت للإقليم أهميته في الاتصالات العالمية فإن النقل الجوي وتطوره عاد فأبرز مرة أخرى أهمية هذه المنطقة ، فالخطوط الجوية تكاد تتبع المسالك المائية والبرية القديمة [١٢] ، طريق الشام والعراق والخليج العربي ، طريق القاهرة جنوباً إلى الخرطوم ثم شرق وجنوب افريقية . ورغم أن هذه الطرق قد تغير اتجاهها تبعاً لظروف سياسيـة معينة ، إلا أن اتجاهها العام يظل كما هو من الغرب إلى الهند والشرق الأقصى . فلا بد وأن تعبر ممراتها سماء الشرق العربي بيابسه ومائه ، وأصبحت مطارات القاهرة ، وبيروت وبغداد والخرطوم والجزائر ، والدار البيضاء وغيرها تخدم النقل الجوى عبر القارات .

وأخيراً ظهرت مادة استراتيجية تدفقت من أرض الوطن العربي بغزارة ، ألا وهي البترول ، فالمنطقة هي الأولى من حيث الاحتياطي العالمي ، بها ما يقرب من ثلثي هذا الاحتياطي ، كما أنها الثانية من حيث الانتـاج العالمي ، بل وأصبحت الاولى أول مرة عام ١٩٦٦ ويكفي أن نعلم أن ٦٥ ٪ مـــن بترول الوطن العربي يتجه إلى غرب أوروبا والولايات المتحدة الامريكية .

وإذا كان استعمار منطقة الشرق العربي استراتيجياً في بدايته ، كممر بين الشرق والغرب فان الثروة البترولية قد أضافت اليه استعماراً اقتصادياً ،ثبت الاستعمار القديم (البريطاني) وجذب استعماراً جديداً ، وقوى جديدة ، لم يكن يعرفها الوطن العربي من قبل ، وهي الولايات المتحدة الامريكية .

وعاد الموقع الجغرافي المتوسط مرة أخرى ليؤكد أهميته في عملية توزيع البترول ، فإذا تركنا العالم الجديدجانباً لكان الوطن العربي هو المخزن البترولي الرئيسي في العالم القديم ويتميز هذا المخزن بموقعه المتوسط بين زبائنه الثلاث

الكبار ، أوروبا وآسيا وافريقية .

لا غرابة إن يصبح الوطن العربي ذا إغراء لكل من المعسكرين ، ويعمل كل معسكر على إبعاد قوة الآخر عنه . فبالنسبة للمعسكر الغربي نجد أنه منطقة بترولية من الدرجة الاولى . كما أنه منطقة يسهل الوصول عن طريقها إلى مراكز المواد الخـــام ، ومنها يسهل ضرب حقول البترول السوفيتية ، وبالنسبة للمعسكر الشرقي منطقة يسهل الوصول عن طريقها إلى المياه الدفيئة ، كما أنها طريق إلى البترول العربي ، وإذا أمكنه الوصول إلى هذه المنطقة خاصة إلى شمال افريقية أمكنة أن يضع الغرب بين فكي (كماشه) .

فالمنطقة إذن منطقة إلتحام أو صدام أما أن تكون عاجزة فتتقاسمها هذه الكتل أو تبتلعها احدى الكتلتين وإما أن تكون قوية فتمنع هــذا الصراع ، ولعل دعوة الحياد الايجابي هي الاخرى من آثار هذا الموقع الجغرافي المتوسط .



الفصل الثالث

قناة السويس في خدمة التجارة العالمية

وصل البحرين فكرة مصرية قديمة :

لم يكن فرديننند دلسبس أول من فكر في توصيل البحر المتوسط بالبحر الأحمر فإن هذه الفكرة تمتد إلى العصر الفرعوني عندما وصل الفراعنة البحر الأحمر بالنيل بواسطة قناة سيزوستريس، التي تعرضت للإهمال في بعض العصور. فلما جاء العرب إلى مصر عرض عمرو بن العاص على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب توصيل البحر المتوسط بالبحر الأحمر بطريق مائي مباشر ، فلما رفض لأسباب كانت وجيهة في ذلك الوقت ، أعيد شق القناة القديمة وأطلق عليها اسم خليج أمير المؤمنين ثم تعرضت للإهمال مرة أخرى في العهد التركي ، وكانت هذه القنوات القديمة لا تعمل إلا في فصل الفيضان ثم يصيبها الإطماء وتظل معطلة إلى موسم الفيضان التالي .

وكانت القناة تيسر نقل المتاجر بين أوربا وأقطار المحيط الهندي ، على أنه حتى في العصور التي تعرضت فيها القناة للردم والإهمال كانت السفن تفرغ حمولتها في السويس لتنقل بالإبل إلى القاهرة ومنها إلى البحر المتوسط ، فلما اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس ، انصرفت معظم التجارة إليه ، خاصة لما ساد مصر في ذلك الوقت من تدهور وعدم إستقرار .

ولما قدم بونابرت إلى مصر قائـــداً للحملة الفرنسية ، فكر في وصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر مباشرة ، ولكن أخطأ مهندسوه عندما إعتقدوا أن البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر المتوسط ، وأن حفر القناة قد يؤدي إلى إغراق الوجه البحري . ثم ثبت بعد ذلك خطأ تقديرهم ، مما شجـع فرديناند دليسبس الفرنسي على السعي لدى سعيد والي مصر للحصول على إمتيـاز شق القناة ، ونجـح في ذلك بشروط بلغت من القسوة على مصر ، حتى وصفها أحد الكتّاب الإنجليز قائلاً يندر (أن توجد إتفاقية حملت من الغبن لما نحيها ومن الغنم لمن منحت لهم مثل ما حملته إتفاقية قناة السويس) وقد تم إفتتاح القناة للملاحة في عام ١٨٦٩ .

وظلت شركة قناة السويس تستغل القنـــاة لصالحها ، فتحصل على أموال طائلة من رسوم مرور السفن في القناة ، دون أن تستفيد مصر من ذلك إلا قدراً ضئيلاً ، وخاصة بعد أن باع حكامها ما كانت تمتلكه من أسهم تشمل أكثر من ٤٠ ٪ من رأس المال . ورغم المحاولات المتكررة من جانب مصر لرفع نصيبها من الأرباح فإنه لم يتجاوز ٧ ٪ من صافي أرباح الشركة . وكان لا بد من علاج لهذا الموقف الغريب . فكان تأميم القناة في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ .

تمتد قناة السويس عبر برزخ السويس ، ويبلغ طولها نحو ١٦١ كيلو متراً ، رغم أن المسافة بين البحر المتوسط والبحر الأحمر نحو ١٢٠ كيلو متراً ، وتخترق القناة بحيرة التمساح والبحيرات المرة . وكان عرضها عند إفتتاحها نحو سبعين متراً ، وعمقها لا يتجاوز ثمانية أمتار . على أن استمرار عمليات التحسين أدى إلى إتساع القناة قبيل تأميمها إلى ١٢٠ متراً وازداد عمقها إلى ٣٥ قدماً .

حركة الملاحة في القناة :

على أن قنـــاة السويس لا تسمح للسفن بالمرور في إتجاهين متقابلين ولذلك تسير السفن على هيئة قوافل بقيادة المرشدين ، ولتسهيل الملاحة ، شقت قنـاة فرعية شمال الفردان يبلغ طولها نحو ١١ كيلو متراً مما ييسر مرور قوافل السفن


البحر المتوسط
قناة السويس
افريقيا
الى العريش
القنطرة
بحيرة التمساح
فايد
جنيفة
الى القاهرة
السويس
قناة السويس

المتجهة جنوباً والذاهبة شمالاً في وقت واحد ، كما تلتقي القوافل أيضاً في بحيرة التمساح والبحيرات المرة .

وقد ازدادت حركة الملاحة في القناة ، فكان عدد السفن التي كانت تعبر القناة يومياً عند الافتتاح لا يتجاوز سفينتين ، وصل عام ١٩٥٠ إلى ٣٢ سفينة ثم ازداد حتى وصل عام ١٩٦٤ إلى أكثر من خمسين سفينة يومياً . ولا زالت القناة هي الشريان الرئيسي لنقل البترول فقد مثل البترول أكثر من ٧١ ٪ من صافي الحمولة عام ١٩٦٤ ، كما ازدادت الحمولة الصافية بوجه عام من نحو ١٤٢ مليون طن عام ١٩٥٠ إلى نحو ٢١١ مليون طن عام١٩٦٤ ولعل هذا خير شاهد على حسن الإدارة العربية .

تطور حركة البترول في قناة السويس

١٩٥٥– ١٩٦٥ بالمليون طن [١٣]

السنة	شمالاً مجموع الشحنات	بترول	جنوباً مجموع الشحنات	بترول
١٩٥٥	٨٧	٦٧	٢٠	٢
١٩٦٥	١٥٥	١٥٥	٤٢	٨

ويتضح من أرقام تطور حركة القناة لعامي ١٩٥٥–١٩٦٥ ما يلي :

أولاً : أن تيار البترول يتجه في معظمه من الجنوب إلى الشمال : إذ بلغ ٨٥٪ من الحمولة المتجهة شمالاً عام ١٩٦٥، بينما بلغت نسبة البترول المتجهة جنوباً نحو ١٩٪ من الحمولة المتجهة جنوباً ، ومما هو جدير بالذكر أن أكثر من تسعة أعشار الشحنات البترولية المتجهة شمالاً من البترول الخام .

ثانياً : لا وجه للمقارنة بين حجم الشحنات البترولية المتجهة جنوباً بنظيرتها المتجهة شمالاً . إذ أنها لم تمثل إلا نحو ٢٠ ٪ من حجم التجارة المتجهة جنوباً ، والواقع أن الشحنات التي تعبر القناة من الشمال إلى الجنوب ناشئة

بصفة أساسية عن اتفاقيات أملتها ظروف التبادل التجاري وتسهيلات الدفع التي تبرم بين الدول ، وتخرج أربعة أخماس هذه الشحنات من موانىء الاتحاد السوفييتي ورومانيا على البحر الأسود ، ويليها إيطاليا .

ومن استعراض **جنسيات السفن** العابرة نجد أن أهم الدول التي تستخدم القناة حسب الترتيب التنازلي : المملكة المتحدة ، ليبريا ، النرويج ، فرنسا ، ايطاليا ، هولندا ، اليونان . هذا وتشرف على الملاحة في القناة حالياً هيئة قناة السويس ، وقد عينت بتوجيه عناية فائقة إلى تحسين القناة ، فأدخلت التعديلات على المشروع الثاني لتحسين القناة ، وأطلقت عليه اسم مشروع ناصر .

مشروع ناصر :

يهدف هذا المشروع الى تحسين الملاحة في قناة السويس ، وقد تم تنفيذ المرحلة الأولى منه ، فازداد عمق القناة مما سمح للسفن التي يبلغ غاطسها ٣٨ قدماً وحمولتها ٤٦،٠٠٠ طن بالمرور فيها اعتباراً من فبراير سنة ١٩٦٤ . كما انخفضت الفترة اللازمة لعبور القناة من ١٣ ساعة إلى ١١ ساعة .

وقد ترتب على هذه التحسينات ، أن تناقصت رحلات ناقلات البترول حول رأس الرجاء الصالح حتى كادت تتوقف تماماً سنة ١٩٦٠ ، كما أدى تخفيض أجور الشحن البحري على الناقلات إلى تناقص كميات البترول المدفوعة عن طريق أنابيب البترول السعودية (التابلاين) بنحو الثلث خلال عام ١٩٦٠ .

وتهدف بقية مراحل المشروع إلى زيادة العمق بدرجة تسمح للسفن التي يبلغ غاطسها ٤٨ قدماً ، وتصل حمولتها إلى ١١٠ ألف طن ، بالمرور في القناة عام ١٩٧٢ ، وذلك أن هناك اتجاهاً ظاهراً نحو استعمال ناقلات حمولتها ١٠٠ ألف طن ، فضلاً عن تحقيق مرور السفن في اتجاهين متقابلين في وقت واحد على طول القناة ، بل لقد ثبت أنه من الأفضل للناقلات التي تناهز حمولتها ١٠٠ ألف طن أن تعود فارغة عن طريق القناة ، لأن التكاليف

في هذه الحـالة تكاد توازي تكاليف قيام ناقلة حمولة ٤٦٠٠٠ طن برحلتي الذهاب والإياب عن طريق القناة فضلاً عن الوفر في الزمن .

قناة السويس والجمهورية العربية والعالم :

ربطت قناة السويس بين الشرق والغرب ولذلك كانت أهميتها عالمية ، فهي لا تربط دولاً ببعضها فحسب ، بل تربط قارات بقارات فهي حلقة وصل بين بين أوروبا الصناعية وبين آسيا الناهضـة واستراليا الزراعية الرعوية وبشرق أفريقية ، ومن الناحية السكانية تربط بين أربعة أخماس سكان العالم الذين يختلفون فيما بينهم في مستويات حضارية واقتصادية ، ولذلك تبحر السفن الآتية من أوروبا إلى آسيا محملة بالمصنوعات المختلفة والآلات وأدوات النقـل كالسيارات وعربات السكك الحديدية ، بينما نظائرها المتجهة شمالاً محملة بالبترول الذي يكون نحو ثلثي السلع والثلث الباقي من القمح والصوف الخام والجـلود والمواد الخام .

وطريق القناة هو الطريق العالمي المفضل بين هذه القارات ، لأن طريق السويس يختصر المسافة بينها ؛ فطريق رأس الرجاء الصالح يزيد المسافـة بين لندن وموانيء استراليا بنحو ١٠ ٪ . ويزيدهـا بنحو ٨٠ ٪ بين لندن وموانيء الخليج العربي . وفضلاً عن هذا فإن طريق السويس تقع عليه دول مزدحمـة بالسكان ، وتتوفر فيه الأسواق مما يتيح للسفن أن تفرغ حمولتها وتشحن من جديد . لذلك كانت المنافسة بين طريق رأس الرجاء الصالح ، وطريق السويس منافسة معدومة تقريباً ولا يلجـأ لطريق رأس الرجاء إلا في ظروف الصراع الدولي كما ذكرنا .

ويكفي لمعرفة فضل قنـاة السويس على التجارة العالميـة قول وزير الخزانة البريطاني « ان الخزانة تتحمـل شهرياً ٢٠ مليون جنيه نتيجة إغلاق قناة السويس وتحول السفن الى طريق الرأس » (بعد عدوان ٥ حزيران ١٩٦٧) .

تسهم قناة السويس مساهمة طيبة في النشاط الاقتصادي للجمهورية العربية المتحدة، فقد ساعد شق قناة السويس على ربط ثغورها المطلة على البحر المتوسط بتلك المطلة على البحر الأحمر ، وساعد على إحياء مدن كانت قد فقدت أهميتها مثل السويس ، وأدى في نفس الوقت إلى إنشاء مدن جديدة مثل الاسماعيلية وبور فؤاد وبور سعيد وقد أصبحت الأخيرة الآن ثاني موانيء مصر نشاطاً بعد الاسكندرية ، وستنشأ بها منطقة حرة يتم فيها التبادل التجاري مما يؤدي إلى زيادة نشاطها .

وقد ارتبط بشق قناة السويس توصيل المياه العذبة إلى منطقة البرزخ عن طريق ترعة الاسماعيلية التي تأخذ مياهها من النيل وتتفرع قبيل الاسماعيلية إلى فرعين : الأول شمالاً إلى بور سعيد والثاني جنوباً إلى السويس ، فساعد وجود مياه النيل في هذه المنطقة على زراعة عشرات الآلاف من الأفدنة .

على أن الزراعة ليست الحرفة الرئيسية لسكان منطقة القنال ، ذلك أن معظم السكان هناك يشتغل بأعمال مرتبطة بالقناة ، كالتجارة أو النقل أو خدمة المسافرين .

وزادت قناة السويس من **أهمية الموقع الجغرافي للجمهورية العربية المتحدة** مما دفع الدول الأوروبية إلى السيطرة على مصر ونجحت في ذلك لمدة سبعين عاماً ، حتى استردت مصر استقلالها وقناتها ، وأصبحت القناة لمصر بعد أن كانت مصر للقناة . وزاد الدخل القومي لأن الرسوم التي تحصل عليها إدارة القناة من السفن المارة في القناة، ينفق جزء منها في إدارة القناة وتحسينها والباقي يساهم في الاقتصاد القومي ، وقد بلغت قيمة هذه الرسوم نحو ٨٦ مليون جنيه عام ١٩٦٥ .

وربما كانت أفضل طريقة لإظهر أهمية قناة السويس باعتبارها مورداً للنقد الأجنبي ، هي إجراء مقارنة بين نسبة حصيلة رسوم المرور في القناة إلى مجموع المتحصلات الجارية للجمهورية العربية المتحدة في عامي ١٩٥٥

وهو العام السابق لتأميم القناة ، وعام ١٩٦٢ . ففي العام الأول كانت رسوم المرور تمثل ١٤ ٪ من هذه المتحصلات في حين ارتفعت هذه النسبة إلى ٢٠ ٪ في عام ١٩٦٢ .

وعلى ذلك فلا غرابة إن أطلق عليها الكتّاب « **نيل مصر الثاني** » .

وكثيراً ما لوّح الاستعماريون بمشروع لقناة جديدة تبدأ من خليج العقبة وتنتهي في البحر المتوسط ، إلا أنه مشروع يستحيل تنفيذه ، لأن شق قناة من خليج العقبة الى البحر المتوسط ، عند حيفا أو المجدل قرب غزة يواجه صعوبات عديدة ، منها التضاريس المعقدة ، إذ أن الأرض تنخفض إلى ٤٠٠ متر متر تحت سطح البحر ثم ترتفع إلى ما يزيد على ٥٠٠ متر . وهـذا معناه ضرورة وجود الأهوسة التي ترفع الماء إلى نحو الألف متر وما يتطلبه هذا من تعقيد وتعطيل لحركة المرور ، ومنهـا التكاليف الباهظة التي تصل إلى حوالي ١٥٠٠ مليون جنيه بالإضافة إلى أن طول القناة المقترحة يزيد على طول قناة السويس بمسافة تتراوح بين ١٢٠ كيلو متراً ، ٢٨٠ كيلو متراً كما أن تنفيذها يستغرق مـدة طويلة لا تقل عن عشرين عاماً .

فلا خوف إذن على مستقبل قناة السويس من هذه الناحية ، وستظل دائمـاً علماً فرداً يخدم البشرية جمعاء ، وشرياناً يخدم التجارة العالمية .

ولا يسعنا في خاتمـة المطاف سوى الاستشهاد بأندريه سيجفريد في مجلة الشئون الخارجية الأمريكية (يولية ١٩٥٣) بشأن قناة السويس ، « لم يكن يتسنى لحركة التصنيع الأوربية إطراد التقدم خلال القرن المـاضي لو لم يتيسر لها سبيل الوصول إلى الخامات من أقصى بقاع العـالم وافتتاح أسواق جديدة لمصنوعاتها ، وهو ما وفرته قناة السويس » .

الفصل الرابع

سكان الوطن العربي

يسكن أرض الوطن العربي ما يزيد على ١٠٠ مليون نسمة ، غير أن توزيع السكان هنا غير متساو ، فتتفاوت أقطاره من حيث نصيب كل منها ، فإذا كانت الجمهورية العربية المتحدة قد وصلت إلى ٣٠ مليوناً ، والمملكة المغربية والسودان كل منهما يبلغ نحو ١٣ مليون نسمة ، فهناك الكويت التي يبلغ عدد سكانها ٣٥٠ ألف نسمة .

أما إذا نظرنا إلى جناحي الوطن العربي سكانياً ، فسوف نجد أن الجناح الأفريقي يتفوق على الجناح الأسيوي ، إذ يسكن الجناح الافريقي ما يقرب من تلثي السكان ، بينما لا يسكن الجناح الأسيوي إلا نحو الثلث الباقي .

نمو السكان

تمهيد :

تتفاوت دقة الإحصاء في الوطن العربي بين قطر وآخر ، ويرجع هذا إلى عدم تقدم الوعي الإحصائي في كثير من الأقطار العربية وريبة السكان في الغرض من الإحصاء واتباع بعض التقاليد ، إلي جانب صعوبة تعداد البدو

الرحل . فلم تقم تعدادات منذ مدة طويلة سوى في مصر . وكان أول تعداد لها بالمعنى المفهوم عام ١٨٨٢ ، أما سوريا والعراق والأردن فلم تقم بتعدادات سوى في العشرين سنة الأخيرة .

ولا يزال عدد كبير من المواطنين في سوريا غير مسجل وخاصة البدو والرحل ، وتعرف دوائر النفوس (السكان) في لبنان بأن تسجيلات الولادة والوفيات والزيجات والطلاقات لا تمثل الواقع .

ويشوب تعدادات العراق عدم الدقة بسبب ريبة الأهالي في نية الحكومة فضلاً عن صعوبة حصر البدو والفلاحين ، وأجرى العراق أول تعداد له عام ١٩٤٧ ، وقد ذكرت بعثة البنك الدولي للإنشاء والتعمير أن التفاوت الكبير بين الذكور والأناث يرجع إلى اتجاه كثير من السكان في العراق إلى تسجيل الأطفال الذكور على أنهم إناث .

وكذلك يعاب على تعدادات المغرب أنهـا أقل من الواقع بسبب عدم انتظام تقييد السكان ولا سيما الإناث .

أما الأقطار التي تغلب عليها حياة البداوة والإرتحال فأرقامها بعيدة عن الدقة ، فأرقام السعودية مثلاً إنما هي نتيجة لتقديرات أجرتها شركة أرامكو لسكان عدة مدن سعودية ، وقابلتها بالتقديرات السابقة لهذه المدن ، وعدلت تقديرات مجموع السكان السابقـة على ضوء الفرق بين التقديرات الحديثة والتقديرات السابقة للمدن المذكورة . وقام أول تعداد في السودان عام ١٩٥٥ - ١٩٥٦ ، واختار المشرفون على التعداد ٦٨ مركزاً حضارياً قاموا فيها بعمل تعداد شامل ، بينما كان التعداد في بقية السودان بطريقة العينات .

وعلى هذا الأساس تتفاوت دقة التعدادات بين الجمهورية العربية المتحدة من ناحية ، وبين السعودية والسودان من ناحية أخرى ، وكان لعامل التقدير نصيب كبير في تعدادات أقطار الوطن العربي باستثناء الجمهورية العربية المتحدة .

ويلاحظ على نمو السكان ما يأتي :

الوطن العربي

المساحة وعدد السكان [١٥]

القطر	المساحة بالكيلو	السكان بالألف		
الجمهورية العربية المتحدة	١ر٠٠٠ر٠٠٠	٣٠،٦٤١	تقدير	١٩٦٥
ليبيا	١ر٧٥٩ر٥٤٠	١،٥٥٩	احصاء	١٩٦٤
تونس	١٦٤ر١٥٠	٤،٣٨٦	تقدير	١٩٦٤
الجزائر	٢ر٤٦٦ر٨٢٣	١١،٤٠٠	تقدير	١٩٦٤
المملكة المغربية	٤٤٣ر٦٨٠	١٢،٨٨٠	تقدير	١٩٦٤
السودان	٢و٥٠٦ر٠٠٠	١٣،٢٠٠	تقدير	١٩٦٤
سوريا	١٨٤ر٤٧٩	٥،٤٦٧	تقدير	١٩٦٤
لبنان	١٠ر٤٠٠	٢،١٥٢	تقدير	١٩٦١
الأردن	٩٦ر٥٠٠	١،٨٦١	تقدير	١٩٦٣
فلسطين المحتلة	٢٠ر٧٠٠	٢٨٦	تقدير	١٩٦٤
قطاع غزة	٢٠٢	٣٩٥	تقدير	١٩٦٣
العراق	٦٥٣ر١٥١	٦،٩٣٧	تقدير	١٩٦٣
المملكة العربية السعودية	١٥٠٠ر٠٠٠	٦،٤٠٠	تقدير	١٩٦٣
الكويت	١٠ر٣٦٠	٤٦٨	تقدير	١٩٦٥
قطر	١٠ر٣٦٠	٥٥	تقدير	١٩٦٤
البحرين	٥٩٨	١٨٣	تقدير	١٩٦٥
مسقط وعمان	٢١٢ر٣٨٠	٧٥٠	تقدير	١٩٦٣
ساحل الصلح	٦٣ر٦٦٠	١١١	تقدير	١٩٦٣
عدن والجنوب العربي	٢٩ر١٩٥	١،٢٥٠	تقدير	١٩٦٣
اليمن	١٩٥ر٠٠٠	٥،٠٠٠	تقدير	١٩٦٣
موريتانيا	١ر٦٩ر٠٠٠	٩٠٠	تقدير	١٩٦٣
	١٢ر٨٣٣ر١٨٨	١٠٦،٢٠١		

أولاً : يتراوح معدل المواليد في غالبية أقطار الوطن العربي بين ٣٠ ، ٤٠ في الألف بل إن منهـا ما يزيد على ٤٠ في الألف ، وبذلك يعتبر الوطن العربي ضمن المناطق العالية المواليد قياساً على المستوى العالمي فلا ترتفع عن هذا سوى في بعض أقطار أمريكا اللاتينية ، بينما تصل إلى هذه النسبة بعض أقطار قليلة في آسيا .

وترجع هذه المعدلات العالية للمواليد إلى عدة أمور : منهـا أن الأطفال يعتبرون من الناحية العملية في عداد القوى العاملة في بعض الجهـات كالجمهورية العربية المتحدة والسودان في ميدان العمليات الزراعية ، فالطفل يبدأ يشارك في العمل الزراعي من السنة الخامسة تقريباً ، وخاصة تنقية الدودة وعمليـات جمع القطن بحيث تصبح أجرته منخفضة . وقد دعى هذا البعض إلى القول بأن زراعة القطن لا تتطلب كثافة سكانية عالية فحسب ، بل نسب مواليد مرتفعة عن المعدل العام . وقد أشار سعد الدين فوزي إلى هذه الظاهرة في السودان ، ذلك أن ٤٢٫٣ ٪ من الأطفـــال ما بين الخامسة وسن البلوغ عاملين من الناحية الاقتصادية [١٩] . وترجع ظاهرة المواليد المرتفعة أيضاً إلى الرغبة في تضخم عدد أفراد الأسر من بعض المناطق البعيدة عن السلطة المركزية كما هو الحال على أطراف المنـاطق الصحراوية ، أي أن الزيادة هنا لها وظيفة دفاعية. وتعتقد المرأة في كثير من الأقطار العربية أن كثرة الذرية هي حماية لها من الطلاق ، وأخيراً يمكن أن نضيف عامل الزواج المبكر سواء عند الذكور أو الأناث ، كعامل يساعد على ارتفاع المواليد ، وذلك لطول فترة الإخصاب وسني الحمل . ولعل مقارنة الأرقام تعطي صورة واضحة ، ففي إحصاء ١٩٤٧ بلغت نسبة المتزوجات من الإناث (بين ١٥ – ١٩ سنة) ٢٤٫٢ ٪ في الجمهورية العربيـــة المتحدة بينما تنخفض في غرب أوربا إلى ٦ ٪ ، وبلغت في الولايات المتحدة الامريكية ١٦٫٧ عام ١٩٥٠ [١٧] ولا تختلف أحوال الاقطار العربية الاخرى عن مصر فنسبة الزواج المتعارف عليه في جنوب العراق بين ١٤ ، ١٦ للإناث ، ومن دراسة لخمس

قرى في البقاع بلبنان وجد أن متوسط سن الزواج هو ١٥ سنة بالنسبة للذكور، ١٣ سنة بالنسبة للإناث رغم أن الحد الادنى من الناحية القانونية هو ١٦، ١٤ على الترتيب . هذا وقد حاول البعض إرجاع هذه النسبة العالية من المواليد إلى تعدد الزوجات . ولكن هذه الظاهرة ليس لهـــا من أثر يذكر بسبب اختفائها تقريباً بين الطبقات المتوسطة والعليا .

ثانياً : إذا كان معدل المواليد عالياً فإن معدل الوفيات يعتبر عالياً أيضاً ، إذ يصل في كثير من الاقطار العربية إلى ما يزيد على ٢٥ في الالف ، ويرجع هذا إلى انخفاض مستوى المعيشة وما يتبعه من سوء التغذية ، فقد ظهر أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين معدلات الوفيات وبين متوسط الدخل الفردي وتأخر الخدمات الطبية مثل عدم توفر المستشفيات والادوية ، وعدم الفهم الحقيقي للأمراض . كذلك ترجع نسبة الوفيات العالية إلى إرتفاع وفيات الاطفال التي تقدر في الجمهورية العربية المتحدة بنحو ١٤٠ في الالف[١٨] ، وإذا أخذنا الوطن العربي ككل سنجد أن هناك نسبة تتراوح بين ٣٥٪ و ٥٠٪ من الاطفال يموتون قبل الوصول إلى سن العاشرة[١٩] .

ثالثاً : غير أنه يجب ملاحظة أن معدل المواليد المرتفع ومعدل الوفيات المرتفع ليس معناه أن سكان الوطن العربي لا يزالون في المرحلة المالتوسية التي تتصف بمعدلات مرتفعة في المواليد ومعدلات مرتفعة جداً في الوفيات ، بل لقد تخطى الوطن العربي هذه المرحلة الى مرحلة النمو المرتفع[٢٠] . أي التي قلت فيها الوفيات نتيجة للقضاء على الأمراض الوبائية بفضل استخدام المبيـــدات الحشرية والمضادات الحيوية وبداية الإهتمام بمستويات المعيشة ، بينما لم يحدث نقص يذكر في معدلات المواليد ، وبالتـــالي تظهر معدلات مرتفعة في الزيادة تصل كما هو واضح من الجدول ص ٤٧ بين ١٥ و ٥٢ في الألف . ولا ينتمي للمرحلة المالتوسية فعلاً إلا سكان جنوب السودان حيث تصل معدلات الوفيات في المديريات الجنوبية الثلاث إلى ٣٠ في الألف بينما تصل معدلات المواليد الى ٥٢ في الألف[٢١] ، كما ينتمي إلى هذه المرحلة

أيضاً سكان البوادي ، حيث سوء التغذية والأصابة بمختلف العاهات وأما من حيث التركيب الجنسي فظهر أن عدد الذكور يفوق عدد الإناث في معظم الأرقام ، ويرجع هذا إلى إهمال تسجيل المواليد الإناث ، وهذه الحالة كانت معروفة في بريطانيا في القرن التاسع عشر . وينطبق هذا على العالم العربي في القرن العشرين ، ويمكن تفسير هذه الظاهرة على أساس أنه في المجتمعات التي لا تقوم فيها المرأة بدور إيجابي في الحياة (خارج أعمال المنزل) تصبح لشهادة الميلاد أهمية أكبر لدى الذكور عن الاناث . أما عن التركيب العمري فيلاحظ أيضاً تلك الظاهرة المميزة للسكان وهي النسبة العالية للأطفال دون سن الخامسة ؛ فهي تتراوح بين ١٢ ٪ و ٢٠ ٪ إذا قورنت بالولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا حيث تبلغ ١١ ٪ و ٨ ٪ على الترتيب[٢٢]. وإذا أضفنا إلى هذا أن نسبة السكان الذين يقلون عن العشرين عاماً تبلغ نحو نصف السكان إن لم تزد ، كان معنى هذا أن الشعب العربي شعب فتي مقبل على زيادة سكانية كبيرة . بيد أنه يظهر من تطور توزيع مجموعات السن في مصر خلال العقود الماضية اتجاه نحو انخفاض نسبة الصغار ، فعلى سبيل المثال كانت نسبة الفئة (٠ — ٩) سنوات ٣٠،١ ٪ في إحصاء ١٩٠٧ بينما انخفضت في إحصاء ١٩٤٧ إلى ٢٦،٤ ٪ من مجموع السكان [٢٤] لذلك إن دلت زيادة نسبة الصغار بوجه عام على ارتفاع معدلات المواليد والوفيات بعامة ، فإن هذا الانخفاض التدريجي في نسبة الصغار يرجع إلى انخفاض معدلات الوفيات .

هل معنى هذا أن هناك مشكلة سكانية في الوطن العربي ؟

هل يتهدد الوطن العربي انفجار سكاني ؟

هل الزيادة السكانية تفوق موارده الطبيعية ؟

والواقع أنه لا يمكن الاجابة على هذه الأسئلة على مستوى الوطن العربي ككل ، ذلك أن توزيع السكان في الوطن العربي — كما رأينا في الجدول —

جدول يبين نمو السكان في أقطار الوطن العربي[٢٣]

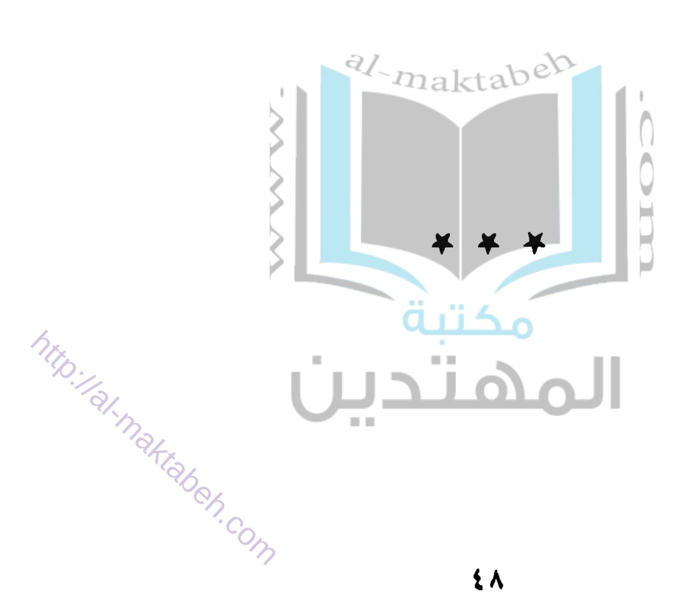
القطر	المواليد في الألف	الوفيات في الألف	الزيادة السنوية في الألف
الجمهورية العربية المتحدة	٤٠	١٥	٢٥
تونس	٤٧	٢٦	٢٢
الجزائر	—	—	٢٠
المملكة المغربية	٤٦	١٩	١٨
موريتانيا	٤٧	٢٥	٢٢
السودان	٤١	١٩	٢١
سوريا	٤٥	٢٥	٢٠
لبنان	٢٧	٧	٢٠
الأردن	٣٨	٨	٣٠
العراق	٣٣	٨	٢٥
المملكة العربية السعودية	٤٣	٢٥	١٨
اليمن	٤٠	٢٥	١٥
عدن	٤٠	٢٠	٢٠

غير متساو ، إلى جانب اختلاف المساحات المنتجة والقابلة للزراعة في كل قطر عربي . ففي الجمهورية العربية المتحدة تصل كثافة السكان في أرض مصر الزراعية إلى نحو ٩٨٠ نسمة للكلم٢ ، ذلك أن معظم السكان يتجمعون في شريط الوادي والدلتا الذي لا يتعدى نحو ٣٪ من مساحة البلاد ، وهذه الكثافة العالية تفوق كثافة السكان في كثير من البلدان الصناعية ، بينما كثافة السكان العامة مضللة فهي تبلغ ٢٤ نسمة ، وفي العراق الذي تبلغ كثافته الفزيولوجية ٢٥٠ للكلم٢ ، بينما هي بالنسبة للقابل للزراعة ٥٥ نسمة ، كما

تبلغ الكثافة بالنسبة للمساحة المزروعة في سوريا ١١١ نسمة للكلم[2] وتنخفض إلى ٢٢ نسمة بالنسبة إلى مجموع المساحة .

ومن ثم ، فإنه إذا كانت هناك مشكلة سكانية في الوطن العربي فهي مشكلة اكتظاظ في منطقة ، ومشكلة نقص سكاني في منطقة أخرى ، وكلاهما يؤدي إلى انخفاض في مستوى المعيشة وعدم الاستغلال الكامل للأرض وللموارد ، وبصفة خاصة في الحالة الثانية .

فالجمهورية العربية المتحدة ولبنان والجزائر تعاني من اكتظاظ السكان ، بينما نجد أن أقطار العراق وسوريا والسودان مثلاً تعاني من مشكلة النقص السكاني ، ولعل هذا من العوامل التي توحي بضرورة تسهيل انتقال السكان بين أجزاء الوطع العربي الموحد ، بمعنى أن البلد الفقير في السكان يستمد السواعد المنتجة من البلد المفرط السكان ، ولعل لنا في دول السوق الأوربية المشتركة أسوة حسنة ، حيث استوعبت المانيا نحو مليون عامل إيطالي أفادوا الإقتصاد الألماني من ناحية وأفادوا الوطن الأم من ناحية أخرى .



الفصل الخامس

المعالم الاقتصادية

أولا : الإنتاج الزراعي

أهمية الانتاج الزراعي في الوطن العربي :

عرف هذا الأقليم الزراعة منذ القدم ، بل ويتفق الباحثون على أن المنطقة كانت للزراعة مهداً ، ومنها انتشرت كحرفة حولت البشرية من حياة رعي وقنص إلى حياة إنتاج واستقرار . وتدل الآثار القديمة على أن المنطقة كانت في بعض أجزائها على الأقل أكثر استغلالاً فيما مضى ، يدل على ذلك بقايا السدود والقنوات القديمة التي ظهرت في سوريا ولبنان والأردن والعراق وليبيا والمغرب ، ووصف الكتاب القدماء خصوبة كثير من الأراضي التي تعد في الوقت الحاضر أراضي جدباء مهجورة . ويبدو أن الظروف المناخية فضلاً عن الإهمال البشري كانا مسئولين عن هذا التدهور .

وتمثل الزراعة حرفة رئيسية في الوطن العربي ، إذ يعمل بها ثلثا السكان ، ومعظم الثلث الباقي يشتغل بأعمال تعتمد بطريق مباشر أو غير مباشر على الزراعة ، كما يسهم الدخل الزراعي بنصيب كبير في الدخل العام للأقطار

التي لا يوجد فيها البترول بكميات كبيرة ، أو التي لم تكتشف بها احتياطات بترولية يمكن بها مساهمة البترول التالي مساهمة فعالة في الدخل القومي. وهذه الأقطار كما هو ظاهر في الجدول التالي الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والمملكة المغربية وتونس وليبيا ، فيتراوح مساهمة الدخل الزراعي فيها بين ٤٠٪ و ٥٠٪ من مجموع الدخل العام .

وأحياناً يمثل الدخل الزراعي جانباً هاماً من جوانب الدخل القومي ، ولكن يمثل البترول ما بين ١/٤ و ١/٣ الدخل القومي كما هو الحال في العراق . غير أن هناك أقطاراً عربية لا تعتبر الزراعة فيها ذات أهمية كبيرة سواء من ناحية عدد المشتغلين بها أو من حيث مساهمتها في الداخل القومي ، ويرجع ذلك إلى البيئة الصحراوية من ناحية ، وإلى تدفق البترول من أراضيها بكميات كبيرة من ناحية أخرى . وهذه هي أقطار شبه جزيرة العرب وليبيا .

وتبرز أهمية الزراعة أيضاً في عملية التنمية بعامة ، فما دام من يعتمدون على الزراعة يبلغون نحو ٧٠ ٪ من السكان ، فمعنى هذا أن التطوير الصناعي لا يمكن عزله عن الأحداث التي تجري في القطاع الزراعي ، فالتطوير الصناعي يتطلب من القطاع الزراعي بعض المنتجات كالأغذية والمواد الخام . فضلاً عن أن التطوير الزراعي كان في بعض الأحيان مصدر رأسمال للصناعة ، كذلك تؤدي الزراعة النامية وارتفاع الدخل الفردي منها إلى زيادة الطلب على السلع الإستهلاكية من ناحية ، وزيادة الطلب على الآلات الزراعية والأسمدة وغيرها . ومن ثم يصبح الإهتمام بالإنتاج الزراعي إهتماماً بالإنتاج الصناعي أيضاً .

هذا وتزيد مساحة الأراضي المزروعة في الوطن العربي على ٤٣ مليون هكتار أو ما يقرب من ١٠٠ مليون فدان ، بينما تبلغ مساحة الاراضي الممكن زراعتها ضعف هذا الرقم أي ما يقرب من ٢٠٠ مليون فدان .

مدى مساهمة الزراعة في نشاط السكان وفي الدخل العام [٢٥]

القطر	من يعتمدون على الزراعة ٪	الدخل الزراعي ٪
الجمهورية العربية المتحدة	٧٠	٤٣ — ٤٥
سوريا	٦٥ — ٧٠	٥٠
العراق	٧٥	٢٤
لبنان	٤٠	٢٠
الاردن	٨٠	٤٠
فلسطين المحتلة	١٨	٢٠
غزة	٩٠	
محمية عدن	٩٠	
السودان	٧١	
الجزائر	٧٢	٣٤
ليبيا	٨٠	
تونس	٦٠	٤٠
المغرب	٨٥	٤٠

خصائص الزراعة العربية .

يلاحظ على الجدول التالي (ص ٥٢) ما يأتي :

أولاً : تفاوت المساحة المزروعة بين قطر وآخر ، وهـذا أمر طبيعي يتوقف على الظروف الطبيعية والبشرية السائدة في كل قطر .

ثانياً : لا تفيد زيادة المساحة كثيراً في الدلالة على الإنتاج وذلك لاختلاف

الظروف الطبيعية والبشرية ، فهناك أقطار تعتمد على الري بدرجة كبيرة كالجمهورية العربيه المتحدة والعراق ، بينما هناك أقطار لا يسهم الري فيها بنصيب كبير كأقطار المغرب العربي أو الاردن ولبنان ، وهنا يظهر الفرق في الإنتاج بين المجموعتين حيث يكون إنتاج مجموعة الري أقرب إلى الثبات ، بينما المجموعة المطرية يكون إنتاجها أميل إلى الذبذبة ، كما يختلف الإنتاج تبعاً لخصوبة التربة وطريقة استغلال الاراضي .

مساحة الأراضي الزراعية في أقطار الوطن العربي ومدى اعتمادها على الري [٢٦]

القطر	مجموع المساحة المزروعة بالهكتارات	المساحة المتمدة على الري ٪
المغرب	٦٨٦٠	٣،٥
الجزائر	٧٠٦٦	٣
تونس	٤٩١٢	٠،٧
ليبيا	٢٥٠٩	٤
السودان	٧١٠٠	٣٤
الجمهورية العربية المتحدة	٢٤٩٠	١٠٠
سوريا	٤٥٩٠	١٤
فلسطين المحتلة	٤٠٢	٢٧
لبنان	٢٧٠	١٨
الاردن	١١٢٦	٩
العراق	٥٤٥٧	٥١
موريتانيا	٩٢٧	—
العربية السعودية	٣٤١	١٠٠
الجنوب العربي	٢٥٩	—
	٤٣٣٧٩	

ثالثاً : تبلغ مساحة الأراضي المزروعة على الري نحو ٨ مليون هكتار أو ٢٠ مليون فدان ، منها ٦ ملايين في الجمهورية العربيـة المتحدة ومثلها في العراق وفي السودان ، وحوالى مليون في سوريا ، أما باقي الأراضي الزراعية وتبلغ نحو ٨٠ مليون فدان فتزرع اعتماداً على المطر .

رابعاً : لا يرجع تفوق المساحة المطرية على مساحة الري في الوطن العربي إلى وفرة أمطاره ، فقد وجدنا أنه يقتصر على هوامشه ، وإنما يرجع إلى اعتماد الري على مجاري الأنهار والمياه الباطنية . وحتى مجاري الأنهار الرئيسية تستمد مياهها من خارج الوطن العربي كما هو الحال في النيل وفي دجلة والفرات ، لهذا تظهر مساحات واسعة دون استغلالها لضرورة الاتفاق على توزيع المياه ، كما حدث في اتفاقية النيل بين السودان والجمهورية العربية المتحدة ، أما المناطق التي تعتمد على الآبار فهي محدودة تقتصر على واحات الصحراء وأوديتها كما هو الحال في واحات الهفوف والأحساء ، وواحة الخرج جنوب الرياض ، وواحات الطائف في الحجاز ، والداخلة والخارجة وغيرها في الجمهورية العربية المتحدة .

خامساً : تعتمد الزراعة العربية على التخصص في المحصول الواحد ، ويقصد بذلك أن دول المنطقة تقوم بزراعة عدة غلات ولكنها تعتمد في التصدير على غلة واحدة رئيسية وبعض الغلات الثانوية ، فالقطن ومشتقاته يمثل ٧٥٪ من صادرات الجمهورية العربية المتحدة ، كما يمثل ٧٠٪ من الصادرات السودانية ، والتمر والحبوب والصوف يمثل ٨٠٪ من صادرات العراق باستثناء البترول ، والفواكه تمثل ٢٥٪ من صادرات لبنان . كما يمثل الزيتون وزيته ٣٠٪ من صادرات تونس ، والكروم والموالح والخضروات تمثل ٧٠٪ من صادرات الجزائر .

سادساً : يتميز الاقتصاد الزراعي العربي بغلبة المحاصيل الزراعية على الإنتاج الحيواني ، وبذلك لا يوجد هناك تنويع في الإنتاج الزراعي ولا توجد

فيه الزراعة المختلطة حيث يفيد الإنتاج الحيواني الأرض ويستفيد منهـا ، ويرجع ذلك إلى قلة الأراضي المزروعة علفاً حيوانياً ، فضلاً عن فقر الفلاح العربي الذي لا يستطيع إقتناء الماشية .

بعض مشكلات الإنتاج الزراعي في الوطن العربي

أولاً : **مشكلة الماء** : تظهر هذه المشكلة سواء في المناطق الجافة وهي الغالبة في الوطن العربي ، أو في المناطق المطرة ، ففي المناطق الجافة تقتصر الزراعة على أودية الأنهار ، وحتى هذه الأنهار تجري في أكثر من قطر ، وبعضها تقع منابعه خارج حدود الوطن العربي كما هو الحـال في دجلة والفرات وكما هو الحال في نهر النيل . فهناك مشكلات الاتفاق على التحكم في مياه دجلة والفرات واستغلالها ، فهذه المشروعات تحتاج في تنفيذها إلى اتفاق بين العراق وتركيا وسوريا وكذلك نهر الأردن الذي يحاول الصهاينة استغلاله لصالحهم بصرف النظر عن لبنان وسوريا والأردن ، أما نهر النيل فقـد حلت إتفاقية الخرطوم – القاهرة في نوفمبر ١٩٥٩ مشكلة استغلاله بـين الجمهورية العربية والسودان .

وتعتبر مشكلة التحكم في مياه الأنهار مشكلة جميـع دول أقطار الري ، ذلك أن المياه تأتي وفيرة في فصل الفيضان وتكون فوق حاجـة الأرض الزراعية ، بل وتؤدي إلى إغراق مساحات كبيرة وإتلاف المزروعـات ، على حين تشح في وقت تشتد الحاجة اليها .

أما المناطق التي تعتمد على المطر في الزراعة ، فتماني من مشكلة تقلب الإنتاج ، ذلك أن المطر غير منتظر في أغلب الأحوال ، فإذا سقـط المطر موزعاً توزيعاً حسناً تأتي الغلة وفيرة ، أما إذا شح المطر أو تأخر عن موسم البذر أو سقط بغزارة في فصل النضج ، فقد يتبع هذا تدهور في الإنتاج الزراعي . ويزداد انحراف المطر عن المتوسط العام كلما اتجهنا نحو المناطق الهامشية التي يصل فيها إلى ٥٠٪ . وهذه أمور أثرهـا كبير على الاقتصاد

القومي لمعظم أقطار المنطقة ، وليس أدل على خطر هذه الذبذبات المطرية من قول أحد مديري المالية التونسيين « ينقص ميزانيتي هذا العام ٥٠ ملمتراً من المطر » .

والأرقام الآتية تبين مدى تقلب إنتاج غلة القمح في عامين مختلفين نتيجة لتقلبات المطر .

تونس	١٩٤٥	١٧٣,٠٠٠ طن	١٩٥٧	٦٨٧,٠٠٠ طن
سوريا	١٩٥٠	٥٠٠,٠٠٠ طن	١٩٥١	٩٠٠,٠٠٠ طن

ثانياً : مشكلة تدهور التربة : وتظهر في مناطق الري ، وخاصة الدائم ، لأن الفلاح يزرع الأرض أكثر من مرة وبذلك يرتفع مستوى الماء الباطني من ناحية ، ويتبخر جزء من المياه السطحية تاركاً الأملاح فوق السطح من ناحية أخرى ، ومع توالي السنين ترتفع المياه الجوفية وتختنق جذور النباتات ، كما تزداد نسبة الأملاح في التربة السطحية .

وقد ظهر أن إنتاج العراق يهبط ما بين ٢٠٪ و ٥٠٪ بسبب هذا العامل كما تنبهت الجمهورية العربية المتحدة إلى هذا الخطر منذ زمن بعيد ، فبعد بناء سد أسوان وزيادة الري الدائم أصبحت مشكلة الزراعة ليست الحاجة إلى ماء بقدر ما أصبحت صرف الماء الزائد عن الأرض ، فكانت مشروعات الصرف التي انتشرت في أرجاء الجمهورية .

وهناك مشكلة جرف التربة ، وتظهر في المناطق التي كانت تغطيها الحياة الشجرية ، وقطعت الأشجار بالوسائل غير العلمية مما أدى إلى كشف التربة للأمطار كما هو الحال في كثير من المناطق الجبلية في لبنان التي أصبحت جرداء قاحلة بسبب استغلال هذه الاشجار منذ أمد بعيد، كذلك قدتنكشف التربة نتيجة إنهاك الرعي كما هو الحال في كثير من جهات وسط وجنوب السودان وجبال لبنان .

ثالثاً : تتميز الزراعة العربية بقلة استعمالها للأسمدة والآلات إذا قورنت بجهات أخرى من العالم ، فيبلغ عدد الجرارات المستعملة في لبنان ٦٠٠ جرار وفي العراق نحو ٢٥٠٠ جرار وفي الجمهورية العربية المتحدة نحو ١١ ألف جرار ، بينما نجد ان عدد الجرارات في اليونان ٢٩ ألف جرار وفي الدانمرك ٧٤٨ ألف جرار . وترجع هذه الظاهرة إلى تفتيت الملكية الزراعية أحياناً ووفرة الأيدي العاملة كما هو الحال في الجمهورية العربية المتحدة وإلى تأخر المزارعين وفقرهم كما هو الحال في لبنان والعراق والجزائر ، كذلك استهلكت الدانمرك من الأسمدة بأنواعها نحو ٤٦٠ ألف طن سنوياً بينما استهلكت المغرب ٥٠ ألف طن ، والجمهورية العربية نحو ٢٤٠ ألف طن عام ١٩٦٢ .

رابعاً : مشكلة اليد العاملة : إذا استثنينا الجمهورية العربية المتحدة فيمكن أن نقول أن اليد العاملة الزراعية قليلة بالنسبة للمساحات القابلة للزراعة ، وهذا معناه بالتالي عدم استغلال كامل للبيئة العربية ، ويزيد من هذه المشكلة جهل الفلاح وانخفاض مستوى المعيشة وسوء أحواله الصحية مما فصلناه في باب السكان . وحتى نعرف خطورة هذا العامل في التنمية الزراعية نذكر عبارة أحد وزراء الزراعة في العراق بمناسبة إفتتاح سد الكوت « ليس لدينا العدد الكافي من المزارعين لاستغلال الأرض التي تروي الآن »[٢٧] .

خامساً : مشكلة التخصص في غلة معينة : كما سبق أن ذكرناها في خصائص الإنتاج الزراعي العربي تجعل هذه الاقطار المتخصصة في حالة تبعية تامة للاقتصاد الخارجي ، فالتقلبات الاقتصادية التي تحدث للغلات الزراعية في الخارج تنعكس آثارها على الدول العربية ، وبذلك تصبح اقتصاديات الدول الزراعية منها وكأنها وضعت في أرجوحة تحركها تأثيرات خارجية .

ثانياً : الإنتاج الصناعي

ظهور الصناعة الحديثة في الوطن العربي

كانت الصناعة في الوطن العربي في مستهل القرن التاسع عشر على درجة كبيرة من التأخر فقد اقتصرت على تزويد السكان بالضروريات الأولية من الغذاء والكساء والأدوات المنزلية ، ولم تكن صناعات تحويلية تتطلب استخدام عدد أو آلات معقدة الصنع ، أو قوى محركة سوى القوة العضلية والمواشي[٢٧] . وكان المشتغلون بالصناعة ينتظمون في نقابات طائفية Guilds ، ولكل طائفة شيخ يرعى شئونها ، أي أنها كانت امتداداً لنظام العصور الوسطى . وظل هذا النظام الطائفي حتى ظهر محمد علي على المسرح السياسي في مصر ، وبدأ عملية تنشيط الصناعة من أجل الجيش والتوسع الحربي ، ولم يكن هناك مفر من قيام الحكومة بالتوجيه والإنشاء لخلق صناعة قوية يمكن الاستناد إليها في تسليح الجيش ، فخرجت بعض الصناعات في مصر من دور العصور الوسطى ، وكانت هي القطر الوحيد في العالم العربي الذي بدأ فيه هذا التطور ، غير أن هذه الصناعات ما لبثت أن زالت بزوال نفوذ محمد علي وبقوقعته داخل حدوده الأولى مرة أخرى .

وأتاح هذا التدهور العظيم للصناعة في مصر والعالم العربي أجمع ، أتاح الفرصة كاملة للبضائع الأجنبية لأن تجد سوقاً متسعاً ، وادعى الاستعمار أن الوطن العربي لا تتوفر له مقومات الصناعة ، وشعوبه زراعية بالفطرة ، ومن ثم لا يمكن أن تشارك في الصناعة الحديثة ، وكان من أثر هذا طغيان السلع الأجنبية تماماً ، واندثار كثير من الصناعات اليدوية التي وجدت نفسها عاجزة أمام المنافسة الآلية .

غير أن رد الفعل الشرقي للتأثر الغربي كان صحوة . وتفتح الشرق على

مصنوعات الغرب بفضل زيادة وسائل المواصلات البحرية بين لندن وتريستا ومرسيليا وموانيء مصر وشرق البحر المتوسط ، فضلاً عن زيادة الحركة على الطرق البرية والجوية وانتشار الهاتف والبرق والمذياع ، فأدى هذا إلى طلب الشرق للتكنيك الصناعي الغربي وبدأ الإهتمام بالتعليم الفني ، وأرسلت البعثات إلى الجامعات والمعاهد الأجنبية للتدريب واكتساب الخبرة .

وتضافرت عوامل كثيرة ، اقتصادية وسياسية واجتماعية في مستهل القرن العشرين – وخاصة بعد الحرب العالمية الاولى – لوضع الاسس الاولية للصناعة الآلية في البلاد العربية منها النقص الذي عانته هذه الدول في كثير من السلع التي كانت تأتيها من الخارج . إلى جانب كثير من التغييرات الإدارية التي حدثت عقب هذه الحرب ، فقد أصبحت دول المنطقة بعد زوال السيادة العثمانية عليها أقدر على استعمال الرسوم الجمركية كوسيلة لحماية بعض الصناعات المحلية ، ذلك أن الحكومات العثمانية بحكم انحطاط هيبتها الدولية وضعفها (الرجل المريض) كانت عاجزة عن زيادة رسومها الجمركية إلا بعد استئذان الدول الصناعية ، ولم تكن تلك البلاد لتأذن بهذه الحماية فالدولة العثمانية تعتبر ضمن أسواقها الرئيسية .

وكانت لتحديد الولايات المتحدة الامريكية للهجرة إليها بعد الحرب العالمية الاولى ، أثره في إبقاء كثير من العناصر التي كانت ستتبع طريق الهجرة ، كما كان للهزة الاقتصادية في العشرينات والثلاثينات أثره في عودة كثير من المهاجرين الاوائل بأموالهم وخبرتهم من العالم الجديد إلى أوطانهم الاصلية ، وقد استفادت من هؤلاء بصفة خاصة سوريا ولبنان [٢٩] .

ويعتبر عام ١٩٣٠ الذي تخلصت فيه مصر وسوريا ولبنان من النظام الجمركي السابق هو عام مشهود بالنسبة للصناعة في هذه الاقطار ، وقد ساعد على هذا النمو ظهور الوعي السياسي والتفكير القومي في البلاد العربية ، فبدأت الاصوات الوطنية تنادي بأن تخلف العرب السياسي يرجع إلى تخلفهم

الصناعي ، وإن الدول الصناعية مصرة على إبقاء العرب زراعيين ، فلما نشبت الحرب العالمية الثانية وانعدمت المنافسة الأجنبية تقريباً اتسع المجال أمام الصناعات الوطنية مرة أخرى فأخذت تتطور ، وكان هذا التطور ظاهراً في مصر أكثر من الدول العربية الأخرى التي أخذت تتطور بنسب متفاوتة .

ليس معنى هذا أن الدول العربية أصبحت دولاً صناعية في المرتبة الأولى ولكن بدأ يظهر في بعضها نظام الصناعة الحديث في أوروبا Factory System ، كما هو الحال في الجمهورية العربية المتحدة وفي سوريا ولبنان والعراق، ورغم ذلك فالدخل الصناعي لا يسهم إلاّ بنحو ٢١٪ في الجمهورية العربية المتحدة ، ١٣٪ في سوريا ولبنان والمغرب والجزائر ، ٣٩٪ في العراق ، (تشمل الصناعة البترولية) ، ٥٪ في الأردن وتونس ، كما لا يعمل بالصناعة سوى ١٥٪ في الجمهورية العربية المتحدة ، ٧٪ في العراق ، ٤٪ في الأردن ، ٤٢٪ في لبنان ، ٤٠٪ في سوريا وذلك من مجموع القوى العاملة [٣٠] بل أن كثيراً من أجزاء الوطن العربي لا زالت إلى اليوم لا تعرف هذا التصنيع كالسعودية وليبيا باستثناء مناطق البترول ، والمغرب العربي باستثناء المدن الرئيسية وكذلك السودان ، والأردن ، فهذه لاتعرف التصنيع بالمعنى الواسع ، بل لا زال كثير من السكان ولا زالت كثير من المساحات تعيش في دور الرعي بل ودور الصيد والقنص .

وتتميز الوحدات الإنتاجية الصناعية في الوقت الحاضر بصغر حجمها ، ويرجع هذا إلى نمو كثير منها من مرحلة الصناعة اليدوية ، فضلاً عن عدم إتساع السوق والقوة الشرائية المحدودة . كما تتميز باستخدامها للأيدي بصورة كبيرة نظراً لرخصها عن الآلات الباهظة التكاليف ، خاصة وأن المنطقة تعاني من قلة رؤوس الاموال لتعدد مشروعات التنمية . أما الوحدات الإنتاجية الكبيرة ، فلا ترجع في نموها إلى تطور الصناعات القديمة لمواجهة التحديات

الجديدة ، بقدر ما هي نتيجة توجيه وتدخل الدولة وتشجيعها .

والصناعات الرئيسية التي تقوم في الوطن العربي هي الصناعات الاستخراجية أي استخراج المعادن كالحديد والفوسفات والرصاص والمنجنيز في أقطار المغرب العربي ، أو استخراج البترول في أقطار البترول . أما الصناعات التحويلية فأهمها صناعة الغزل والنسيج على أساس توفر القطن والحرير والصوف في كثير من الدول العربية ، ومن ثم كانت الصناعة الرئيسية ، بينما نجد أن هناك تركيزاً لصناعة الحديد والصلب في الجمهورية العربية المتحدة والجزائر ، وتستهلك صناعة الاسمدة كميات قليلة من فوسفات العالم العربي ، كما تقوم صناعة الصابون اعتماداً على زيت الزيتون أو على زيت بذرة القطن . وهناك الصناعات الغذائية التي تشمل عدداً كبيراً من الصناعات سواء تعليب السردين والتونة في المغرب والجمهورية العربية المتحدة ، أو تعبئة التمور في العراق وتعليب الفاكهة وصناعة النبيذ في الاقطار المنتجة للفاكهة فضلاً عن صناعة السكر وغيرها . وقد ظهرت صناعة جديدة وهي تكرير البترول ولكنها محدودة تقتصر على الاقطار المنتجة للبترول ، كما في الجمهورية العربية المتحدة والعراق والسعودية والكويت والبحرين أو الاقطار التي تقع عند نهايات خطوط الانابيب كما في حمص وفي سوريا وذلك لتكرير حصتها . هذا ، وهناك صناعات أخرى منتشرة انتشاراً متفـــاوتاً في أجزاء أخرى من الوطن العربي كالصناعات الجلدية والزجاج والاسمنت وغيرها .

الفصل السادس

نحو تكامل إقتصادي عربي

لعلنا نتفق جميعاً في أن الطبيعة لم توزع هباتها على أقطار الأرض بصورة عادلة ، أو أن تخطيط الحدود السياسية لم يراع فيه أن تكون الوحدات السياسية المختلفة ذات اكتفاء ذاتي أو شبه اكتفاء . فهناك مناطق حبتها الطبيعة بخصوبة في تربتها ووفرة في مطرها ، وهناك مناطق حبتها الطبيعة بثروة معدنية متنوعة ولكنها حرمتها من التربة الخصبة المنتجة ، من ثم نشأ ما يعرف عند الاقتصاديين ما يعرف بالمزايا المطلقة لزراعة غلة ما أو إنتاج سلعة ما . فالمزايا المطلقة في جانب إندونيسيا في زراعة المطاط ولكنها ليست في جانب الاتحاد السوفيتي في إنتاج هذه الغلة ، والمزايا المطلقة في جانب الجمهورية العربية المتحدة في زراعة القطن ولكنها ليست في جانب فرنسا وهكذا . وفي بعض الأحيان نجد أنه يمكن لدولة ما إنتاج غلتين أو سلعتين إحداهما بتكاليف مرتفعة نسبياً بينما تنتج الثانية بتكاليف أقل وتبيعها بربح أكبر ، فتتجه نحو إنتاج السلعة الثانية ذات التكاليف الأقل . فمما لا شك فيه أنه يمكن لبريطانيا إنتاج الزبد وبعض الغلات الغذائية بتكاليف كبيرة ، بينما تنتج الآلات ذات القيمة الكبيرة والربح الأكبر ، من ثم اتجهت نحو إنتاج الآلات والأجهزة وتستورد بأرباحها احتياجاتها الغذائية ، ذلك أن خبرة

ومهارة عمالها في الصناعة ، والسبق الزمني في إنتاجها (المزايا النسبية) أتاح لها فرصة إنتاج هذه السلعة بتكاليف أقل منها في دولة أخرى ، (فضلاً عن توفر المزايا المطلقة ممثلة في الفحم والحديد) . وقد نتج عن توفر المزايا المطلقة والمزايا النسبية شيء من التخصص الأقليمي في الإنتاج Regional specialization ونقول شيئاً نظراً لأن ظروف التوتر الدولي والتكتلات الدولية وعدم حرية التجارة أدّى إلى اتجاه كل دولة نحو تنويع الإنتاج . وهذا التخصص بين المناطق المختلفة هو الذي أدى إلى قيام التجارة الدولية .

بدأنا بهذه المقدمة لننتقل إلى الوطن العربي بأقطاره المختلفة نبحث في التوزيع الجغرافي لتجارته وأي وجهة ولت ؟ هل تشير أسهم التجارة إلى أقطاره أم تشير إلى أقطار خارج المنطقة العربية ؟ .

تبين الأرقام التالية بعض الدول العربية إلى العالم الخارجي ، وهي (الجمهورية العربية المتحدة والعراق والسودان ولبنان والأردن) .

النسب المئوية لقيمة صادرات الدول السابقة في الاتجاهات المختلفة عام ١٩٦٠ [٣١] .

للبلدان العربية	١٤،٨	الولايات المتحدة الأمريكية	٤،٥
الكتلة الشرقية	٢٥،٣	اليابان	٢،٥
السوق المشتركة	١٦،٤	يوغوسلافيا	٤،٤
المملكة المتحدة	٧،٤	أقطار أوروبية أخرى	٥،١
الهند	٧،٦	أقطار أخرى	١٢،٩

أي أن صادرات الدول العربية إلى بعضها نحو خمسة عشر بالمائة فقط ، بينما خمس وثمانون بالمائة يتجه نحو أقطار خارج الوطن العربي ، ويلاحظ أننا في اختيارنا لهذه الأقطار راعينا ألا تكون من دول تصدير البترول (باستثناء العراق) حتى لا يقال أن الصادرات البترولية تكون معظمها .

وإذا انتقلنا إلى أقطار المغرب العربي سنجد هذه الصورة أكثر تضخماً ،

فالأقطار الثلاثة ترتبط بفرنسا في المرتبة الأولى التي تتجه إليها أكثر من نصف صادراتها ، ثم تأتي منطقتا الدولار والاسترليني في المرتبة الثانية ويصبح نصيب الأقطار العربية أتفه من أن يذكر بمجال ٣٢.

هذا وجه من التجارة فكيف حالة الوجه الآخر .. الواردات ؟ . ليس من شك أنه ضئيل أيضاً ، إذا كانت صادرات الدول العربية لبعضها ضئيلة ، فمعنى هذا أن وارداتها ضئيلة أيضاً . فلا تكون واردات الجمهورية العربية المتحدة من الدول العربية إلا ما يتراوح بين ٣،٤ و٦،٦٪ من مجموع وارداتها ، ولا تسهم منتجات الأقطار العربية في واردات العراق إلا بنحو ٣٪ بينما يرتفع الرقم قليلاً إلى ١٥٪ في الاردن ، وإلى نحو ٢٠٪ في سوريا ، ٢٧ في لبنان وينخفض في الكويت إلى ٥٪ . وإذا انتقلنا إلى أقطار المغرب العربي سنجد حالها في الواردات لا يختلف عن حالها في الصادرات ، لا زالت مشدودة إلى فرنسا . وهذا معناه أن الأقطار العربية تعطي ظهرها لبعضها ، والعجيب في الأمر أن معظمها يعاني عجزاً في ميزانه التجاري ، أي أنه يستنزف خيراته للأجانب ، وفي النهاية يصبح مديناً لهم .

ما السبب في هذا ؟ .

يلجأ البعض في تحليل هذا الوضع التجاري إلى تشابه الإنتاج العربي في مجموعه فهو إنتاج زراعي رعوي في المرتبة الاولى ولا تأتي الصناعة إلا على هوامش اقتصاده ، ومن ثم كيف يكون هناك تبادل في منتجات متشابهة ؟ بل إن هذه المنتجات تقف في السوق الخارجية متنافسة ينافس بعضها بعضاً ، وبالتالي يضعف بعضها بعضاً .

إذا ناقشنا هذا التعليل سنقسمه إلى شطريه : ونبدأ أولاً بالشطر الاول وهو الإنتاج الزراعي الرعوي ، سنجد كما ذكرنا فعلاً غلبة الإنتاج الزراعي على جميع فروع الإنتاج باستثناء دول البترول الصحراوية ، ولكن هل تتماثل الغلات الزراعية في كل الاقطار العربية ؟ وهل يكفي إنتاج كل قطر عربي

استهلاكه المحلي ؟ الواقع لا ، فهناك نوع من التخصص داخل الإنتاج الزراعي ، فنجد القطن في الجمهورية العربية المتحدة والسودان ، ونجد الفاكهة في لبنان وسوريا والجزائر والمغرب ، ونجد الحبوب في سوريا والعراق وأقطار المغرب ، ونجد النخيل في العراق والجزائر والمغرب وتونس ، ونجد الزيتون في تونس والجزائر والمغرب وسوريا ، هذه أمثلة للغلات المختلفة التي تنتجها أقطاره وتزيد عن استهلاكها المحلي ، أما من حيث الثروة الحيوانية فنجد السودان وسوريا والعراق وأقطار المغرب العربي بها فوائض من ثروتها الحيوانية ، بينما هناك أقطار عربية تعاني نقصاً في هذه الغلات الزراعية .

وفي إنتاجها الحيواني خذ مثلاً الجمهورية العربية المتحدة أصبح إنتاجها من الحبوب ومن الإنتاج الحيواني لا يكفي الاستهلاك بسبب زيادة السكان وارتفاع مستوى المعيشة ، وكذلك الحال في ليبيا رغم قلة سكانها ، فإذا أضفنا إليها أقطار البترول الصحراوية في المشرق العربي أدركنا أن هناك سوقاً وحاجة لهذه الفوائض وأن غلبة الإنتاج الزراعي على معظم الأقطار العربية لا يمنع مجال من تبادل هذه المنتجات ، لنضرب مثلا بالكويت وهو الذي توفرت أرقامه أمامي ، بلغت مجموع وارداته عام ١٩٦٢ المنتجات النباتية والحيوانية نحو ٢٦ مليون دينار لم تسهم الأقطار العربية في مجموع وارداته سواء كانت نباتية أو صناعية إلا بنحو ٦ مليون دينار[٣٣] ، استوردت كذلك الجمهورية العربية المتحدة في نفس العام من المواد الغذائية ما قيمته ٦٩ مليون جنيه [٣٤] ما نصيب الدول العربية منها ؟ أقل من أن يذكر . وهكذا ينطبق الحال على معظم الأقطار دون دخول في تفاصيل الارقام . إن إنتاج الوطن العربي ككل من الإنتاج الزراعي والحيواني يكفي سكان هذا الوطن ويزيد إذا كان هناك تخطيط وتعاون وتنظيم وتنسيق بيننا ، بحيث لا نحتاج إلى الخارج إلا فيما تعجز المنطقة العربية عن إنتاجه .

إذا انتقلنا إلى الشق الثاني ، وهو الصناعة نعترف أولاً بتخلفنا الصناعي في

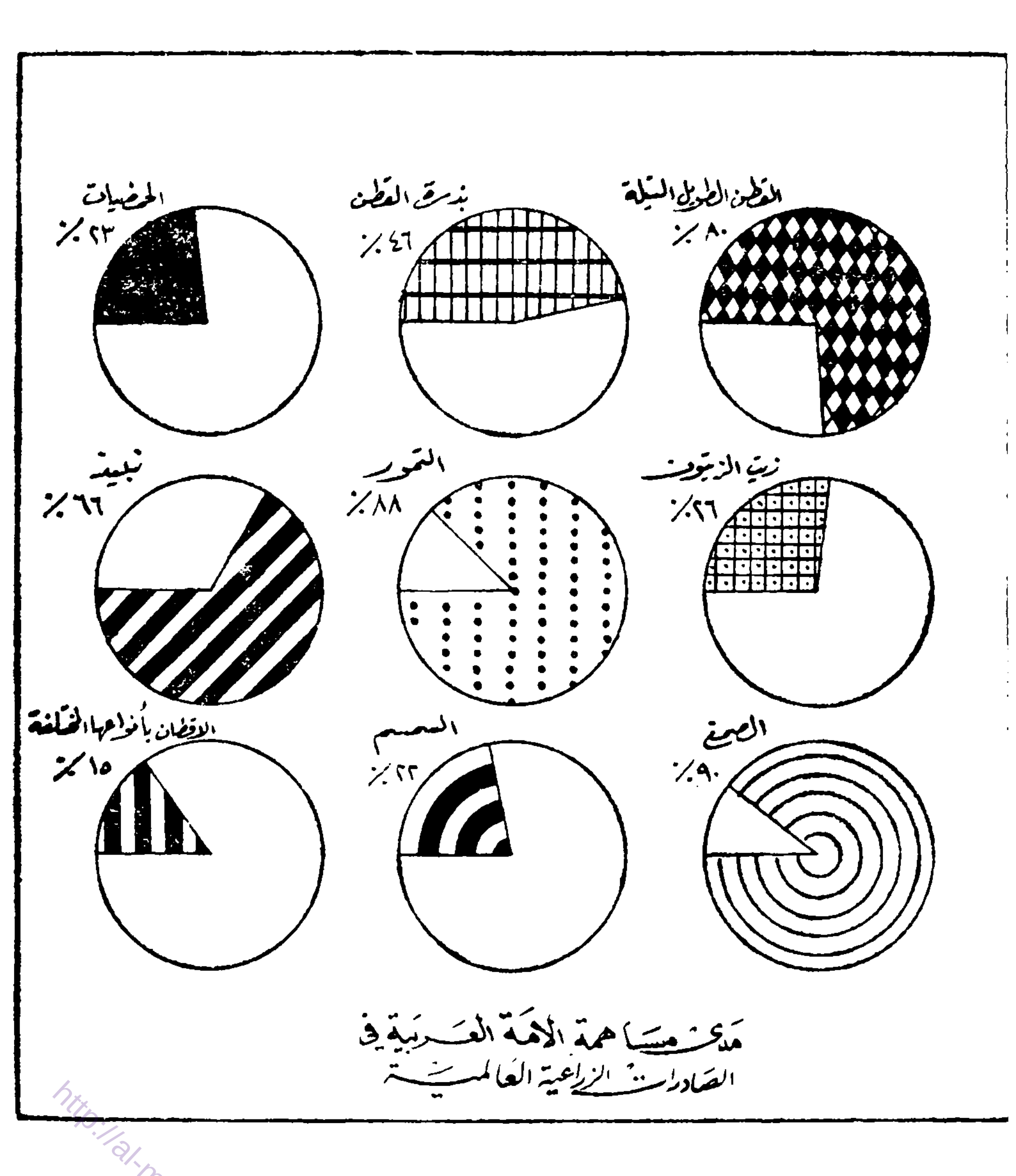
المرحلة الحاضرة وهذا ناتج عن ظروف تاريخية وسياسية مر بهـا الوطن العربي ولم ينتج عن عجز وقصور في مواردنا وفي مواهبنا ، أراد المستعمر لنا أن تظل أرضنا مناجم يحصل منها على خامات بأرخص الأثمان ، كما أراد لأرضنا أن تظل سوقاً كبيرة متسعة لخاماتنا المصنعة يبيعنا إياها بأرفع الأسعار ، فرفع من مستوى معيشته على حساب انخفاض مستوى معيشتنا . ولكن هذه النغمة انكشفت ، وأصبحنا أحراراً فلمـاذا نصدر الحديد والمنجنيز خاماً من أقطار المغرب ، ولماذا نصدر الفوسفات خاماً من أقطار المغرب والأردن ، بل ولماذا نصدر البترول خاماً ؟

أين صناعة تكرير البترول داخل الوطن العربي؟ لا تتعدى سد الاحتياجات المحلية بينما نجدها في الخارج قد بلغت شأواً بعيداً ، ويكفي لتوضيح ما بلغته هذه الصناعات من أهمية في الوقت الحاضر أن نذكر أن أكثر من ٨٠ ٪ من المواد الكيماوية العضوية التي تنتجها الولايات المتحدة الأمريكية مشتق من البترول ، وأن قيمة هذه المواد البتروكيماوية وصلت في هذه الدولة إلى ما يعادل أكثر من نصف قيمة جميع انتاجها من المواد الكيماوية عام ١٩٥٨ [٣٥] . إن نظرة إلى سواحـل البحر المتوسط ودراسة لمواقع معامل التكرير في أسبانيا وايطاليا وفرنسا وملاحظة طاقة التكرير فيها ومقدار الاستهلاك المحلي يتبين منها أن معامل التكرير هناك أنشئت بقصد تصدير منتجاتها فضلاً عن كفاية الاستهلاك المحلي ، فقد بلغت طاقـة التكرير في عام ١٩٦٥ في ايطاليا ٨٤ مليون طن بينما لا يزيد استهلاكها عن ٥٢ مليون طن فقط ، وبلغت طاقة التكرير في فرنسا ٦٩ مليون طن بينما استهلاكها ٥٣ مليون طن ، وبلغت طاقة التكرير في اسبانيا ١٦ مليون طن بينما لا يتعدى استهلاكها ١٢ مليون طن [٣٦] . لقد كان بالامكان إقامة هذه المعامل عند نهايات خطوط الأنابيب ، أي كان من الواجب أن يرصع الساحل الشرقي للبحر المتوسط بهذه المعامل قبـل ايطاليا واسبانيا وغيرها لرخص الأيدي العاملة ولقرب البلاد من منابع البترول ولكن الشركات لم تشجع هذا .

ولن يحدث هذا إلا بتضامن بلدان المرور وتوحيد مطالبها حيال الشركات .
إن تصنيعاً لخاماتنا المعدنية فضلاً عن الزراعية لا شك يحل كثيراً من مشكلات استيراد المنتجات الصناعية وهي التي تمثل شطراً كبيراً من واردات البلاد العربية ، ولعل النهضة الصناعية التي بدأت في الجمهورية العربية المتحدة القائمة على استغلال حديدها وطاقتها الكهربائية وفوسفاتها وبترولها وغلاتها الزراعية لمثل يضرب في هذا المضمار ، وحينئذٍ تظهر صناعات عربية في بعض أقطار الوطن العربي متنوعة ويتم تبادل وتكامل هذا الفرع من فروع الانتاج دون أن يستغلنا أجنبي ونصدر منتجاتنا مصنوعة بدلاً من بيعها خامات .

ولكن ألا يمكن أن يقوم تبادل وحركة تجارية في الانتاج الصناعي بحالته الراهنة ؟ يمكن لبعض أقطار الوطن العربي التى قطعت شوطاً في إنتاج بعض فروع الصناعة أن تمد الأقطار الأخرى ، يمكن للجمهورية العربية المتحدة مد كثير من الأقطار العربية بالمنسوجات القطنية بدلاً من الأنواع الأجنبية التي تمرح في أسواق العرب ، الملابس الجاهزة والأحذية ، إطارات الكاوتشوك وغيرها . انه من المؤسف حقاً أن نجد في أسواقنا منتجات صناعية غاية في البساطة ومع ذلك تطغي الأنواع الأجنبية فيها على الأنواع العربية ، خذ مثلاً الصابون كم نوعاً أجنبياً تجد في أسواق بيروت وبغداد والخرطوم وطرابلس وغيرها ؟ هل هذه صناعة ثقيلة تحتاج إلى خامات وخبرات طويلة ؟ صناعة السجائر التي يزرع دخانها السوريون والجزائريون والعراقيون ، والتي اشتهرت بصناعتها مصر منذ القدم ، هذه بدورها لا نجد للأنواع المحلية منها أثر يذكر بجانب الأنواع الأجنبية . بلادنا منتجة للخضروات والفاكهة ، ومع ذلك تجد المعلبات الأجنبية تملأ أسواقنا ، ولا يقتصر هذا على أسواق الأقطار الصحراوية بل على أسواق نفس الدول المنتجة للفاكهة والخضروات كأسواق لبنان بينما يعاني لبنان من مشكلة تسويق تفاحه وفواكهه . كل هذا على حساب أرصدتنا في الخارج ، وكأننا نضع القيود في أعناقنا بأيدينا .

هكذا يمكن أن يكون هناك تبادل تجاري على نطاق أوسع بكثير مما



مدى مساهمة الأمة العربية في الصادرات الزراعية العالمية

هو عليه الآن ، ولا عبرة للقول بأن ضعف التبادل التجاري في وقتنا الحاضر ناتج عن تشابه ظروفنا الطبيعية والاقتصادية .

هل هناك ميادين أخرى للتعاون العربي تؤدي الى تكامل بين أقطاره ؟

الواقع أن الميادين عديدة ، فعناصر الانتاج لا تتوفر بنفس القدر في كل دولة عربية على حدة مما يشل كثيراً من أوجه الانتاج ويضعف ويقلل من قيمة العناصر الأخرى ويجعل استغلالها غير أمثل . ولنضرب مثلا بعنصر الأرض الزراعية ، فهو معدوم أو نادر في الأقطار العربية الصحراوية ، وهو موجود ولكنه قليل بالنسبة للبنان والجمهورية العربية المتحدة والاردن والجزائر ، وهو ميسور في سوريا ولكنه يصل إلى حد الإفراط في السودان والعراق ، فهناك مساحات واسعة من أراضي العراق غير مستغلة ، فإذا كانت المساحة المستثمرة في الانتاج الزراعي نحو ١٣ مليون فدان فإن القابل للزراعة يبلغ نحو ٢٨ مليون فدان [٣٧] وتبدو هذه الصورة أكثر وضوحاً في حالة السودان الذي يزرع نحو ٦ ملايين فداناً بينما الاراضي الصالحة للانتاج الزراعي تقدر بنحو ٢٢٠ فداناً [٣٨] . وقد أدى هذا إلى إسراف وإهمال في الزراعة بسبب قلة الايدي العاملة ، وليس من شك أن تحويل جزء من الفائض البشرى من الجمهورية العربية المتحدة أو من الجزائر أو من لبنان إلى مثل هذه البلاد سوف يفيد الجانبين أيما إفادة ؛ وسوف يصل بالانتاج إلى حالته المثلى .

ولعل وضع الصناعة في العراق ومشكلاتها مثل آخر ينطبق على كثير من الاقطار العربية فرغم الجهود التي يبذلها العراق لتنمية الصناعة بإصداره قوانين ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ الخاصة بالتنمية الزراعية وإعفاء الخامات والآلات ، وإعفاء الارباح التي لا تزيد على ١٠٪ من رأس المال لمدة خمس سنوات ، والإعفاء من ضريبة العقار للعقارات التي يمتلكها المشروع ويجري فيها تشغيله أو خزن موارده ومنتجاته لمدة عشر سنوات إلا أن الصناعة في العراق تواجه

نفس المشكلات الأساسية التي تواجهها الصناعة في البلاد العربية ، من ضيق للسوق المحلية وضعف القوة الشرائية بين السكان مما يحد من إمكانيات قيام الصناعة الواسعة النطاق ، يضاف إلى ذلك ضعف إمكانيات التصدير خاصة إلى البلدان العربية المجاورة بسبب حماية هذه البلدان لصناعتها ، كما يعاني العراق من قلة المهارات الفنية وانخفاض مستوى انتاجية العامل . ومع أن تقرير مؤسسة أرثرد . ليتل وضع توصيات لصناعات جديدة غير أنه أكد أن السوق المحلية صغير جداً ولا تبرر تنفيذ برنامج واسع للانماء الصناعي [39] .

ماذا يحدث لإنتقال الأيدي العاملة في وقتنا الحاضر ؟ إذا استثنينا الانتقال السياحي الذي تصرح به كثير من الأقطار العربية فإن تأشيرة الدخول تعد من أصعب الامور « ثم هنـاك التصريح بالعمل وإجراءته ، وإذا كانت الدولة في حاجة إلى خدمات هذه الأيدي العاملة ، فإنها تعتبر مهمتها انتهت بانتهاء العمل بحيث لا يستطيع أحد منهم البقـاء ، وبذلك لا تأخذ الهجرة طابع الانتقال السكاني .

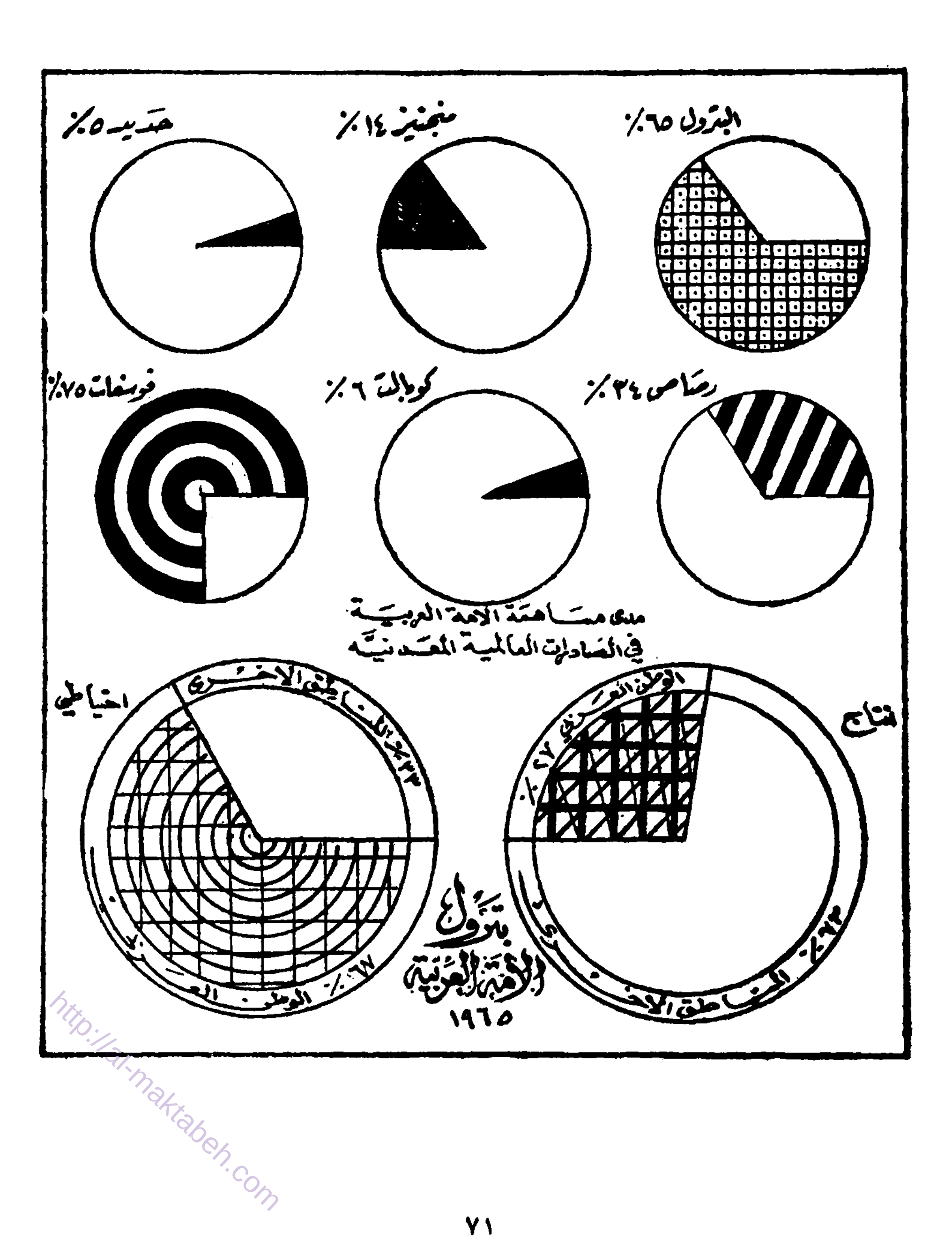
إذا انتقلنا إلى عنصر رأس المـال سنجد أنه موفور في أقطار البترول ولكن فرصة استثماره قليلة في معظم أقطاره نظراً لطبيعتها الصحراوية من ناحية ، ولقلة الأيدي العاملة من ناحية أخرى ، فيصبح عندئذ الاستثمار اللازم لأي غرض من الأعراض يبلغ أضعـافاً عديدة للاستثمار الذي يفي بذلك الغرض في جهات أخرى ، ويكفي أن نضرب مثلاً بأن كل شجرة تقام في الكويت لتزيين ميدان أو شارع تكلف الدولة سنوياً ٢٥٠ دولار ، بينما يكلف الفرد الدولة نحو ١٤٠ دولار سنوياً نظير إمداده بالماء والوقود [40] ، رغم أن جزءاً كبيراً من مياه شط العرب العذبة تذهب في الخليج هدراً . ماذا لو اتجهت هذه الأموال نحو الأقطار العربية التي تتوفر فيها فرص الاستثمار ، حقيقة يذهب جزء منها الى البلاد العربية لعدة أغراض كالسياحة وغيرها ،

كما يتجه جزء كبير منه الى العقارات سواء بشراء الأراضي وإعدادها للعمران ، أو بتأجير المباني ، وقد اتجه معظم هذا النوع من الاستثمار الى لبنان والجمهورية العربية المتحدة ، فكثير من المباني المشيدة في بيروت وبحذاء الشاطىء يملكها مواطنون غير لبنانيين . ويتجه جزء آخر من الاستثمارات إلى بعض المشروعات الأخرى كالتجارة ، غير أن الاستثمار في ميدان الصناعة لا زال ضئيلاً . أي أن توجيهها دون تخطيط ، أما الاستثمار غير المباشر فإن له مركزاً واحداً وهو بيروت ويتم هذا بواسطة الودائع المصرفية ، وذلك بسبب نظام سرية المصارف . وقد قدرت هذه الودائع عام ١٩٦٠ بنحو ٢٥٠ مليون ليرة لبنانية [٤١] . والواقع أن قسماً كبيراً من هذه الودائع لا يستقر في بيروت بل يعبرها الى الخارج ليوظف في البلاد الصناعية التي استعمرتنا من قبل سياسياً، ولا زالت الى الآن تحاول إحكام قبضتها الاقتصادية على أعناقنا وهناك أيضاً أرصدة عربية كبيرة في البنوك الأجنبية وخاصة في البنوك البريطانية والسويسرية . فإذا أراد قطر عربي قرضاً لانمائه ولجأ الى هذه البنوك أقرضته بأرباح فاحشة أي أن أموالنا يتم إقراضها لنا بأرباح عالية . كما لا ننسى محاولات الدول الكبرى فرض شروط سياسية نظير هذه القروض *.

نريد سوقاً عربية مشتركة ، ونقداً موحداً ، وشركات موحدة . نريد تخطيطاً اقتصادياً على مستوى الوطن العربي ككل لا على مستوى كل وحدة سياسية على حدة،فإن من الطبيعي أن يتكافل الاقتصاد العربي كله دون عوائق وحواجز حتى تتحرك عناصر الانتاج في هذه المساحة الضخمة بحرية تامة

---

* يجب أن نشير إلى البادرة الحسنة التي قامت بها الكويت ؛ إذ أنشأت الصندوق الكويتي للتنمية الإقتصادية العربية عام ١٩٦٢ برأسمال قدره ١٠٠ مليون جنيه ، وقد ساهم الصندوق مساهمة كبيرة في مشروعات الدول العربية. وبلغت مجموع القروض للدول العربية خلال السنوات الخمس (٥٨ / ٥٩ - ٦٢ / ١٩٦٣) نحو ١٢٠ مليون جنيه ، منها ٥٤ مليون جنيه من صندوق التنمية حتى ابريل ١٩٦٤ .



البترول ٦٥٪
منجنيز ١٤٪
حديد ٥٪
رصاص ٣٤٪
كوبالت ٦٪
فوسفات ٧٥٪
مدى مساهمة الامة العربية
في الصادرات العالمية المعدنية
انتاج
الوطن العربي ٢٧٪
٧٣٪ المناطق الاخرى
احتياطي
٣٣٪ المناطق الاخرى
٦٧٪ الوطن العربي
بترول الامة العربية
١٩٦٥

فتزيد من ثروات أقطار الوطن العربي جميعاً، تتحرك رؤوس الأموال نحو الأرض الوفيرة ، فيكمل بعضها بعضاً .

نريد سوقاً عربية موحدة تخلق تكاملاً بين الدول الأعضاء تتفكك معه القيود الجمركية ، وتوحد بالنسبة للواردات الأجنبية بحيث تعطي فرصة لصناعاتها وغلاتها الزراعية للتصريف الداخلي دون مزاحمة قاتلة من الخارج .

نريد صندوقاً اجتماعياً عربياً لتيسير العمالة في السوق العربية وإعادة تشغيل العمال وتأهيلهم .

نريد سياسة مشتركة للنقل والمواصلات بحيث ترتبط الدول العربية ببعضها ارتباطاً أوثق بدلاً من ارتباطها الواهي .

نريد بنكاً عربياً لنشر سياسة الاستثمار العامة في السوق وتوجيه رؤوس الأموال الأجهة الصحيحة بدلاً من اتجاهها في معظمها نحو العقارات أو تحول إلى الخارج .

نريد تكتلاً اقتصادياً كبيراً يتم فيه بيع وشراء على مستوى إنتاج وحاجات الوطن العربي ككل ، كتلة اقتصادية تعداد سكانها يزيد على المائة مليون نسمة لا ثلثمائة ألف ولا ثلاثين مليوناً حتى يمكنها أن تفرض مصالحها على البائع والمشتري . أي تصبح قوة اقتصادية بالمستوى العالمي . قوة اقتصادية لها نصيب الأسد في انتاج القطن الطويل التيلة ، وتسهم بنحو ٨٠٪ من صادرات الأنواع الممتازة ، ١٥ ٪ بالنسبة لجميع الأقطان ، وتسهم بنحو ربع الصادرات العالمية من الحمضيات وزيت الزيتون والسمسم ، كما تسهم بنحو نصف صادرات بذرة القطن وما يزيد على ثلثي إنتاج النبيذ ومعظم صادرات الصمغ العربي والتمور . كتلة تمون العالم بنحو ثلثي احتياجات الأسواق الاستيراد من البترول كما تمتلك أكثر من ثلثي رصيد العالم البترولي ، كتلة تضم في أرضها أعظم احتياطي للفوسفات في العالم وتشترك بثلاثة أرباع صادراته العالمية ، كما تغذي العالم بما يزيد على ثلث تجارته من الرصاص ، هذا فضلاً عن المنجنيز

والحديد الخام والكوبالت وغيرها من المعادن الاستراتيجية. ليس من شك أن هذه الكتلة الاقتصادية ستكون أقدر على المساومة واستخلاص المزايا أكثر من سوق أي قطر عربي على حدة . لن تستطيع شركات البترول حينئذ أن تضرب ببترول الجزائر بترول ليبيا من حيث الكمية والقيمة كما كانت تفعل في استنزاف بترول ليبيا وتخفيض إنتاج الجزائر حتى لا تقوم الحكومة الجديدة بمشروعاتها الضخمة ، وتخفض أسعار البترول الليبي حتى تنخفض أسعار بترول الجزائر ، تقوم بهذا لأنها مجموعة من الشركات المتضامنة المتآزرة التي تنسق إنتاجها جميعاً لصالحها ، بينما لا تجد أمامها سوى أقطار مفككة .

ولئن كان مجلس الوحدة الاقتصادية العربية قد قرر في دور انعقاده السادس (٨–١٣ أغسطس ١٩٦٤) إنشاء السوق العربية المشتركة ، وانضمت الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والعراق والكويت والأردن إليه، إلا أننا ننتظر انضمام بقية الأقطار العربية كما ننتظر التنفيذ العملي والنوايا السليمة ومراعاة مصلحة الأمة العربية .

إن الفترة التي يمر بها العالم في الوقت الحاضر هي فترة التكتلات السياسية والاقتصادية ، فهناك الغرب والشرق ، وهناك منظمة الفحم والصلب ، وهناك منظمة التجارة الحرة الأوربية ، وهناك السوق الأوربية المشتركه ، ومنظمة تبادل المعونات الاقتصادية في الكتلة الاشتراكية ، فأين نحن الآن كأقطار منفردة منعزلة من هؤلاء وأولئك ؟

★ ★ ★

مصادر البـــاب الأول

(١) عباس عمار : المدخل الشرقي لمصر: أهمية شبه جزيرة سيناء كطريق للمواصلات ومعبر للهجرات البشرية . القاهرة ١٩٤٦ ص ٥ .

(٢) Huzayyin, S.A. : Arabia and the Far East, Their commercial and cultural Relations in Graeco-Roman and Irano -Arabian Times, Cairo, 1942, p. 30 .

(٣) محمد رفعت : التيارات السياسية في حوض البحر المتوسط ، القـــاهرة : ١٩٤٩ ، ص ١٧٢ - ١٨٠ .

(٤) حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٧ ص ٤٥ .

(٥) جمال حمدان : دراسات في العالم العربي . القاهرة ١٩٥٩ ص ٣٨ .

(٦) Fisher. W. B. : The Middle East, London, 1961, p, 444

(٧) المرجع السابق .

(٨) ابراهيم نصحي : دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالمة ١٩٥٩ ص ١١٩ .

(٩) محمد رياض وكوثر عبد الرسول : الاقتصاد الافريقي ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٩١ .

(١٠) Warmington, Cary m. , The Encient Explorers, Pelican, 1963, p. 21 .

(١١) Huzzyyin, S. A. , Arabia and the Far East, p. 23 .

(١٢) Goblet, G M. , Political Geography and the world Map , London, 1955,p.274 .

(١٣) المؤسسة العامة للبترول : عدد خاص بمناسبة مؤتمر البترول ، العدد السادس — القاهرة : فبراير ١٩٦٦ .

(١٤) البنك الأهلي المصرى : النشرة الاقتصادية ؛ المجلد السابع عشر ، العـــدد الثاني ١٩٦٤ ص ١٨٠ .

(١٥) Europa Yerabook 1965-66 والاحصاءات المختلفة للدول العربية .

(١٦) محمد محمود الصيـــاد : محمد عبد الغني سعودي : السودان دراسة في الوضع الطبيعي والكيان البشري والبناء الاقتصادي ؛ القاهرة ١٩٦٦ ص ٢١٣ .

(١٧) Baer, G, ; Population and Society in the Arab East, London, 1964, p. 14 .

(١٨) محمد صبحي عبد الحكيم : سكان مصر في كتاب دراسات في جغرافية مصر ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٤٤٧ .

(١٩) Fisher, W, B. , The Middle East. p. 264 .

(٢٠) محمد السيد غلاب : محمد صبحي عبد الحكيم : السكان ديموغرافيا وجغرافيا القاهرة ١٩٦٣ ص ٦٠ ، ٩١ .

(٢١) المرجع السابق ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

(٢٢) Farrag, A.M. ; Demographic Trends in the Arab World;in The New Metropolis in the Arab World, Bombay, 1963.pp. 2-5 :

(٢٣) رجعنا في هذه الأرقام إلى Demnogrophic Yearbook 1965 ولكننا وجدناه غير كامل فيما يختص بالدول العربية فأكملناه من Fisher, W.B. , The Middle Easst, p. 263, Walker, D. S. The Mediterranean Lands, p. 485 .

(٢٤) Baer, G. , Op. Ci t. pp. 8-10 .

(٢٥) F. A. O. Probuction Yearhook 1964, p. 19 .

(٢٦) Ibid, pp. 5,7 .

(٢٧) Graunwald, K. , Rondelle, J. : Industrlization in the Middle East, Coucil for Middle Eastern Affairs, New York 1960, p. 45 .

(٢٨) أنظر علي الجريتلي : تاريخ الصناعة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر . القاهرة ١٩٥٢ ص ١٦ – ٢٥ .

(٢٩) Graunwald, Op. Cit. , p. 41.

(٣٠) Berger, M. , The Arab world, London, 1962, pp. 202,203 .

(٣١) الصادرات العربية حسب البلدان المصدرة إليها خلال عام ١٩٦٠ ، التقرير الاقتصادي العربي ١٩٦٢ ص ٧٨ .

(٣٢) Stewart, C. , The Economy of morocco, Harvard U. P. 1964, P. 33. & Gendarme, René, L'Economic d'Algerie, Paris, 1959. p. 41 .

(٣٣) تجارة الكويت الخارجية . التقرير الاقتصادي العربي ، حزيران ١٩٦٤ ص ١٩٠ .

(٣٤) تجارة الجمهورية العربية المتحدة الخارجية : التقرير الاقتصادي العربي ، حزيران ١٩٦٣ ص ٢٠٧ .

(٣٥) يوسف أبو الحجاج : البترول والتنمية الاقتصادية ، المؤتمر الجغرافي العربي الأول ، القاهرة ١٩٦٢ .

(٣٦) مجلة البترول والغاز الطبيعي : العدد الثاني بيروت ١٩٥٠ ص ١٣ ، ١٤ .

(٣٧) جاسم الخلف : الانتاج الزراعي في العراق : المؤتمر الجغرافي العربي الأول ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

(٣٨) محمد محمود الصياد ، محمد عبد الغني سعودي : السودان . القاهرة . ١٩٥٠ ص .

(٣٩) التقرير الاقتصادي العربي ، كانون أول ص ٣٠ ، ٣١ .

(٤٠) Fakhir Shehab, Kwait, A super-Affluent Society, Foreign Affairs, April 1964, p. 464 .

(٤١) سليم الحص : حرية رؤوس الأموال وميزان المدفوعات اللبناني ، التقرير الاقتصادي العربي ، كانون أول ١٩٦٢ ص ٦٢ .



البابُ الثّاني

الأصول التاريخيـــة للقومية العربية



العالم العربي في العصور الوسطى الاسلامية

الفصل الأول : بناء الأمة العربية

- مقومات الأمة والقومية
- أحوال العرب قبل الاسلام من النواحي السياسية والاجتماعية والفكرية .
- عوامل الوحدة العربية قبيل ظهور الاسلام .
- الاسلام وقيام الدولة العربية .
- التوسع العربي ونتائجه في التاريخ العربي .
- الوحدة الشاملة في نظم الحكم .
- الوحدة الثقافية والفكرية .

الفصل الثاني : الوحدة العربية ومقاومة عوامل التحدي .

- العوامل الداخلية .
  - الاختلافات المذهبية .
  - النزعات الاقليمية .
  - الحركة العنصرية .
- العوامل الخارجية .
  - الحروب الصليبية .
  - المغول .
- حركات الجهاد إزاء أعداء الوحدة العربية زمن الأيوبيين والمماليك .

تمهيد

إذا كان مفهوم القومية العربية مرتبطاً تمام الارتباط بتعريف الأمـة ، إذ الأمة والقوم في اللغة شيء واحد . فما المقصود بالأمة ؟ وما العوامل التي تجعل بعض الجماعات البشرية تحس بأنها أمة واحدة ، فتنزع إلى تقوية كيانها بإقامة دولة خاصة بها .

والتعريف السائد للأمة : إنهـا مجتمع إنساني طبيعي مؤسس على وحدة الأرض والأصل والتقاليد واللغة ، على نحو متكامل متفاعل في الحياة ، وفي الوعي الاجتماعي .

أما القومية فهي نزعة اجتماعية تربط الفرد بأمته وتجعله يحبها ويعتز بها ، ويعمل من أجل حاضرها ومستقبلها ، فالقومية هي الشعور والإحساس بمقومات الأمة : السكان ، ووحدة الأرض واللغة والتاريخ والمصالح المشتركة ، والتكوين النفسي المشترك (وحدة الأمل والأماني) ، فضلاً عن الاقتصاد المشترك .

وإذا كانت القومية العربية تعتبر من أهم الخصائص التاريخية في النصف الثاني من القرن العشرين ، فالواقع أن هذه الحقيقة التاريخية ترجع إلى قيام الدول العربية .

والمقصود بالأصول التاريخية للقومية ، التجربة التاريخية المشتركة التي عاشها

الشعب فترة طويلة من الزمان ، صنع في أثنائها حضارة وثقـــافة ، وصهرته الأحداث السياسية وجرى التقارب بين النفوس ، واجتمع القوم على مثل ومقومات وآمال وأماني واحدة .. ولا شك أن الشعب العربي عاش هذه التجربة منذ ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي حتى الوقت الحاضر ، وأصبحت دعوته إلى الترابط والوحدة ذات نبع قوي . منبثق من الماضي المجيــــد .

وهذه الفترة التي تمتد منذ القرن السابع حتى الوقت الحاضر ، تقع في مرحلتين :

المرحلة الاولى تشمل دراسة العالم العربي في العصور الوسطى الإسلامية .

والمرحلة الثانية تختص بدراسة العالم العربي في العصر الحديث .

الفَصْلُ الأول

بنــــاء الأمة العربية

٦١٠ — ١٠٥٠ م

ترتب على ظهور الإسلام ، أن جمع العرب تحت لواء واحد ، وأخضعهم لحكومة واحدة ، وفرض عليهم الوحدة السياسية والثقافية والفكرية ، فأرسى بذلك الأسس والمقومات التي نبني عليها اليوم الدعوة إلى توحيد العرب وتضامنهم وتكتلهم ، وبذا تهيأت للقومية العربية أن تنهض منذ القرن السابع الميلادي حتى اليوم .

على أنه ما كان لهذه التطورات أن تتم ، وما كان للحركة الإسلامية أن تحرز ما أحرزته من النجاح ، لو لم يكن العرب في وطنهم الأول ، بلاد العرب ، قد تهيأوا لقبول هذا الحدث الضخم . فما وقع في بلاد العرب قبل ظهور الإسلام من الأحداث ، ولّد شعوراً بالقومية المشتركة ، فقطعت الأمة العربية عندئذ خطوة كبيرة في طريق تحقيق الوحدة ، وظهر العرب في شبه جزيرتهم متحدين في مثلهم وثقافتهم وتقاليدهم الاجتماعية .

أحوال العرب قبل ظهور الاسلام :

المعروف أن بلاد العرب كانت موطن الهجرات التي ارتحلت منذ آلاف

السنين إلى منطقة الشرق الأدنى ، ومنها خرجت آخر الهجرات في أعقاب الفتوح الإسلامية .

لم يكن ببلاد العرب في الجاهلية ، أي قبل ظهور الإسلام ، حكومة مركزية تخضع لسيد واحد ، وقانون واحد ، إنما يصح القول أنه كان بها مقومات الأمة في صورة متفرقة ، ذلك أن العرب لم يجمعهم وقتذاك شمل سياسي واحد ، بل خضعوا لأنواع مختلفة من الحكومات . فما غلب على بلاد اليمن من الحضارة والاستقرار ، تطلب قيام حكومة ثابتة ، توالت عليها أسرات مختلفة . على أن موقع بلاد اليمن في الطرف الجنوبي الغربي لبلاد العرب ، ووقوعها على البحر الاحمر والمحيط الهندي ، واتصالها بأفريقية عبر البحر الاحمر ، وما كان لها من أهمية تجارية نظراً لما يرد إليها من تجارة الهند والشرق الاقصى ، فضلاً عن وقوعها على الطريق التجاري الممتد على الساحل الشرقي للبحر الاحمر ، من الجنوب إلى الشمال ، كل هذه العوامل أدت إلى التسابق بين الدولة الفارسية والدولة البيزنطية والحبشة إلى فرض السيطرة عليها قبل ظهور الإسلام ، وإلى ثورات اليمن للتخلص من التسلط الاجنبي الذي حاول مد نفوذه إلى مكة ، فانهزمت حملة ابرهة في السنة التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، عام الفيل .

وقام في مكة ما يشبه النظام الجمهوري ، إذ اقتسمت بطون قريش ، الوظائف العامة ، مثل سدانة الكعبة وسقاية الحج ، والرفادة ، والتحكيم ، والحرب والفداء .. ودانت مكة لزعيم قريش الذي تولى توجيه سياسة هذه الدولة ، بفضل ما كان له من سلطة أقرها أهل قريش ، وبما كان يجري من الشورى في دار الندوة .

وكان لمكة مكانة خاصة بين سائر القبائل العربية ، لأنها موطن الكعبة ، التي لها قداستها الدينية عند العرب جميعاً ، ولما أصابها من الرخاء الاقتصادي لوقوعها على الطريق التجاري الذي يجتاز بلاد العرب من اليمن إلى الشام ،

فضلاً عن اتصالها بالطرق المؤدية إلى العراق .

ويختلف مجتمع يثرب (المدينة) عن مجتمع مكة في أنه يتألف من عناصر مختلفة ، من العرب واليهود ، ويشتغل كثير من السكان بالزراعة ، ولم تقم بيثرب حكومة مركزية .

ومن الحكومات العربية ، ما قام على أطراف الدولتين الفارسية والبيزنطية من إمارتين عربيتين ، الأولى في الحيرة حيث حكم المناذرة ، الذين خضعوا لسياسة الفرس التي تقوم على منع غارات العرب ، والنضال ضد الدولة البيزنطية. ولم يختلف وضع دولة الغساسنة بجنوب الشام على أطراف ممتلكات الدولة البيزنطية ، عن وضع المناذرة ، فقد كانت إمارتهم تعتبر دولة حاجزة ، تمنع غارات العرب من جهة . وتنهض لمساعدة البيزنطيين في حروبهم مع الفرس .

يضاف إلى هذه الأنواع ، حكومات القبائل ، فالمعروف أن القبيلة جماعة من الناس ترجع إلى جد واحد ، وترتبط فيما بينها برابطة الدم ، فكانت القبيلة هي الوحدة السياسية في سائر بلاد العرب ، وتختار القبيلة رئيساً لها ، من بين أشخاص اختصوا بصفات لها أهميتها في تسيير شئون القبيلة ، منها كبر السن ، والشجاعة والسخاء ، والحلم ، والخبرة ، فضلا عن الثروة ، حتى يسهم فيما تؤديه القبيلة من الفديات والغرامات .

ومن الطبيعي أن تنشب الحروب بين القبائل لتوافر أسباب الاحتكاك كالتنافس على المراعي والآبار ، وحراسة طرق القوافل ، والتفاخر بالأنساب والتباهي بالأمجاد ، وما يؤدي إليه أتفه الأسباب من حروب قد تستمر سنوات مثل حرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس .

واختلف العرب في حياتهم الاجتماعية ، فمنهم من عاشوا في البادية ، متنقلين من مكان إلى مكان ، سعياً وراء العشب والماء ، فلا يستقرون في مكان معين ، على الرغم من أنه كان لبعض القبائل منازل تحل بها في الصيف ، ومنازل تستقر فيها في الشتاء .

ومنهم من أقاموا بالمدن أو قريباً منها ، مثلما حدث في اليمن ومكة والطائف ويثرب ، وعلى حدود فارس وبيزنطة .

هذا الخلاف نلحظه أيضاً في انقسام العرب إلى قحطانيين (من الجنوب) ، وعدنانيين (من الشمال) ، وما كان من علاقات ودية أو عدائية بين الفريقين .

يضاف إلى ذلك ما كان من اختلافهم في العقيدة الدينية ، إذ اعتنق العرب ديانات عديدة ، كالمسيحية واليهودية والوثنية وعبادة الكواكب والنجوم والظواهر الطبيعية .

وكان للعرب قبل الإسلام لغتان ، لغة العرب الجنوبيين ، ولغة العرب الشماليين ، وهما لغتان مختلفتان من حيث القواعد والبناء ومدلولات الألفاظ ، بل حتى من طريقة الكتابة ، وشهدت الحياة العربية صراعاً بين هاتين اللغتين من أجل زعامة الحياة الفكرية في شبه جزيرة العرب كلها ، ولم تلبث أن تعرضت اللغة العربية الجنوبية للضعف منذ القرن الرابع الميلادي ، بسبب اضمحلال الدول العربية الجنوبية سياسياً ، ووقوعها في قبضة الاحتلال الأجنبي فضلاً عن اختلال أحوالها الاقتصادية ، بسبب انهيار سدّ مأرب من ناحية ، وانتقال زمام التجارة الدولية إلى أيدي القوى الطامعة في الشرق الأدنى (الفرس والبيزنطيين) من ناحية أخرى ، لذا دفع الانهيار الاقتصادى كثيراً القبائل اليمنية إلى البحث عن مواطن جديدة تطيب لها الحياة فيها .

وفي نفس الوقت ، بدأت نهضة العرب الشماليين التي امتدت من القرن الرابع إلى القرن السابع الميلادي ، وذلك بعد أن فشلت غارة الأحباش على مكة ، وعجز الفرس والروم عن اجتياز بادية العراق والشام نحو الجنوب . فارداد نشاط مكة والطائف ويثرب (المدينة) وانتعشت الواحات المنتشرة على أطراف الحجاز الشمالية ، وارتفع شأن القبائل البدوية في نجد والحجاز .
وامتدت أسباب هذه النهضة إلى اللغة العربية ، فأضحت في أوائل القرن

السابع الميلادي ، لغة الكتابة والفكر والحيـــاة الثقافية للعرب في الشمال والجنوب ، بعد أن تداعت لغة الجنوب .

على أن هذه الاختلافات السياسية والاجتماعية والثقافية انطوت أيضاً على إحساس أصيل بوحدة الأصل والأماني والعـــاطفة ، ومن الدليل على ذلك ، ما كان يربط أفراد القبيلة الواحدة ، من التعصب للقبيلة ، والولاء لها ، وقد اتسع نطاق هذه العاطفة حتى شملت ، ما قام بين القبائل من أحلاف . وأكثر ما ظهرت هذه العاطفة ، حين تعرض الوطن العربي لخطر مشترك ، وعندئذ ينهض العرب للدفاع عنه ، فحينما تعرضت بلاد اليمن للخطر الحبشي ، وجد ملوك اليمن في أرض الشمال ملاذاً لهم ، بل حرص الشماليون على مساندة عرب الجنوب في حركاتهم التحررية ،فساعدوا سيف بن ذي يزن في الخلاص من سيطرة الأحباش . ولما تعرضت مكة للغزو الحبشي بقيادة أبرهة ، أحس الجنوبيون بأن هذا الهجوم موجه إليهم ، وإلى بيت يحترمونه ويقدسونه .

ومن عوامل الوحدة أيضاً ، ما كان من اشتراك العرب جميعاً من تقاليد وعادات اجتماعية تتمثل في الطقوس والأعيـاد والمثل . فالحج إلى مكة والاشتراك في تقديس الكعبة ومراعاة الأشهر الحرم ، كانت كلها شعائر عربية اشترك في إحيائها الجنوبيون والشماليون .

يضاف إلى ذلك ما كان للعرب من أعياد قومية مشتركة ، تتضح فيما كانوا يقيمونه من أسواق ، فلم تقتصر هذه الأسواق على النشاط الاقتصادي ، بل حفلت أيضاً بالنشاط الأدبي والاجتماعي ، فما كان من إنشاد القصائد والتحكيم بين القبائل والعشائر وتسوية المنازعات ، وتوقف الحروب في الأشهر الحرم ، واشتراك ملوك العرب في هذه المواسم ، كل ذلك جعل لهذه الأسواق أهمية في التقارب بين القبائل العربية وتلاقي أفكارهم ، ونمو عاطفتهم القومية .

وانعكست صور المثل العربية بوضوح في التراث العربي القديم ، وبخاصة في الشعر ، الذي صور فضائل العرب ، كالشجاعة والبسالة ونصرة الضعيف

وإغاثة الملهوف ، والسخاء وحفظ الجوار . كل هـذه الصفات نلمسها في المعلقات والشعر الجاهلي . ويدل القصص الشعبي الذي ينسب إلى الجنوبيين والشماليين ، على أن قلوب العرب جميعاً كانت تخفق بهذه المثل المشتركة التي كانت موضع التقدير عند أهل الجنوب والشمال سواء .

وسبق الإشارة إلى ما كان من تفوق لغة العرب الشماليين ، فأضحت سجل الإنتاج الأدبي لأهل الشمال والجنوب ، ودوّنت بها أيضاً الأساطير العربية ، ثم كان نزول القرآن الكريم بلغة أهل الشمال مؤكداً لأهميتها ، فقد نزل باللغة التي يفهمها العرب جميعاً .

والخلاصة أن العرب قبيل الإسلام ، تجاوبوا بعـاطفة قوية مشتركة ، وحازوا تقاليد اجتماعية وعناصر حضارية واحدة ، وقطعوا شوطاً بعيداً في طريق الوحدة الفكرية .

وكل هذه العوامل التي تتألف منها الأمة قد توافرت للعرب قبيل ظهور الإسلام ، إذ ساد بينهم من عوامل الوحدة السياسية والأقتصادية والثقافية والاجتماعية ، ما هيأ الأمّة العربية لدور جديد ، وهو دور الانطلاق .

وخلاصة القول ، أنه إذا كانت الأمة العربية قد افتقرت قبل الإسلام إلى الوحدة السياسية ، فإنها تجاوبت بعاطفة قوية مشتركة ، وتمتعت – شأن الأمم الراقية في التاريخ – بتقاليد اجتماعية وعناصر حضارية واحـدة ، وقطعت شوطاً بعيداً في طريق الوحدة الفكرية ، وهكذا تمخض تاريخ هذه الأمة في الفترة السابقة لظهور الإسلام عن أسس قوية لبناء محكم متين نما في ظل الإسلام ، وعندئذ تهيأت الأمة العربية لدور جديد ، هو دور الانطلاق .

الاسلام وقيام الدولة العربية

تعتبر الفترة الممتدة من سنة ٦١٠ حتى سنة ٦٣٢ – على قصرها – من أهم الفترات في تاريخ الأمة العربية ، نظراً لما شهدته من تطورات عظيمة الشأن

بعيدة الأثر . ويكفي أنها شهدت بعث نبي عربي - هو محمد بن عبد الله - في مدينة مكة ، حاضرة شبه الجزيرة العربية في العالم الفكر والروح والمال . وجاء هذا النبي بدعوة جديدة كل الجدة من الحياة العربية ، فنادى بنهج جديد في العبادة والسلوك والمعاملة وغيرها من الآراء . وحسبنا - في هذا المقام - أن نتبين أثر هذه الدعوة الجديدة في رسم مستقبل الأمة العربية ، وفي الاتجاهات نحو الوحدة الشاملة التي سبق أن أشرنا إلى بعض عناصرها .

والواقع أن الدعوة الإسلامية التي ظهرت في مكة رسمت للأمة العربية طريقاً جديداً واضح المعالم . ذلك أنها أرست أسساً جديدة في العقيدة الدينية ، وهيأت للأمة العربية مثلاً عليا جديدة في السلوك والأخلاق وفي الحياة الاجتماعية ، أي أنها وضعت أسساً قوية لبعث عربي شامل . أما من ناحية العقيدة الإلهية ، فإن الدعوة الإسلامية أتت بجديد لأنها تعبر عن وحدانية مطلقة لا شبهة فيها ، أوضح بكثير من الوحدانية التي التي أتت بها العقائد والديانات السابقة . كذلك أتت العقيدة الإسلامية بجديد في ميدان الأخلاق والسلوك ، فالكرم لم يعد وسيلة للفخر بل أصبح زلفي إلى الله ، ويرى الأخلاقيون أن الإسلام جاء بجديد في ميدان الأخلاق ، حينما حض على حياة جديدة تقوم على تطهير النفس من أدران الشر والتقريب بينها وبين الخير . وقد حاولت الدعوة الإسلامية أن تعالج النزعة المادية عند القرشيين خاصة وعند القرب عامة ، ووسيلتها في العلاج واضحة ، هي الإيمان بالله . ويحمل هذا الإيمان معه مفهوماً واضحاً هو أن المال عرض زائل يأتي به الله أو يذهب به ، وأن الفارق الاقتصادي بين الناس يعالج بالإحسان ورعاية الفقير والأخذ بيد الضعيف .

كذلك وضع الإسلام قواعد ناجعة لعلاج المشاكل الاجتماعية ، وإيجاد نوع من الأخوة المشتركة بين البشر على قدم المساواة ؛ فكان هذا معارضة صريحة للنزعة القبلية عند العرب .

وهكذا ظهرت هذه الدعوة الجديدة لتعد الأمة العربية لتنهض بدور

بارز في الحياة الإنسانية ، أو بمنى آخر الخروج بالعرب من تاريخهم المحلي الصرف إلى المسرح العالمي العام . ذلك إن الإسلام لم يكن دعوة خاصة للقرشين وحدهم أو العرب دون غيرهم ، وإنما للعالم كله . حقيقة أن الرسول ردد دعوته أولاً في الوسط الذي نزلت عليه في فيه الرسالة النبوية ، كما يتبين مما جاء في القرآن : « وانذر عشيرتك الأقربين » وأنه قد بعث لينذر « أمّ القرى وما حولها » ولكن مما لا شك فيه أن نظرة الإسلام امتدت منذ البداية الأولى إلى مدى أوسع وأفق أرحب . فرسالة النبي محمد وصفت منذ أول الأمر بأنها « رحمة للعالمين » وتكررت عبارة هذه في القرآن كثيراً ليقصد بها الإنسانية جمعاء .

وكان المفروض أن العرب إذا تمّ دخولهم في الإسلام ، أصبحو عدة عده الدعوة وجندها وحملتها ومبلغيها إلى أمم الأرض . وليس بعد هذا رفعاً لمقام الأمة العربية وإعطاءها وزناً في الحياة الإنسانية ، وأهمية في رسم المستقبل العظيم الذي ينتظرها .

وأهم من هذا كله أن الدعوة الجديدة أتاحت للأمة العربية فرصة للوحدة في صورة لم تتوافر لها من قبل . ذلك أنها هيأت لهذه الأمة وحدة دينية جديدة إذا اعتنقت الذين الجديد . فالمعروف أن الأمة العربية لم تتوافر لها وحدة العقيدة قبل ظهور الإسلام ، إذا انتشرت اليهودية في أرجائها وبخاصة بعد استقرار قبائل من اليهود في يثرب ، وتهود بعض ملوك اليمن ، ولكن الدعوة إلى اليهودية لم تلق من العرب استجابة ذات أهمية . كذلك تسربت المسيحية إلى بلاد العرب ونفذت إلى بلاد اليمن ، حيث شيدت الكنائس ودخل بعض الداخلين في هذه الديانة . وكان أن اشتد تيار المسيحية نوعاً ما في ظل الاحتلال الحبشي ، ولكنها لم تلق من أمة العرب أذناً صاغية ، ولعل العرب نفروا منها لما حوته من فلسفات لا تتفق وتفكيرهم ، أو لما كان وراء دعوتها من نفوذ أجنبي ، بيزنطي أو حبشي . وكان أن تمسكت غالبية

العرب بوثنيتهم القديمة ، رغم ما فيها من إسفاف وضلال ، حتى انبثق الدين الجديد من نبع عربي أصيل ، فدعا اليه نبي عربي صريح النسب ، جاء بكتاب عربي مبين فصيح اللسان ، فظهر أن الدعوة الجديدة تتلاءم مع تفكير العرب وبيئتهم .

على أن الديانة الجديدة لم تهيىء للعرب فرصة توحيد العقيدة فحسب ، وإنما أتاحت فرصة للتقاليد العربية أن تنصهر في بوتقة وحدة ، وتمد الأمة العربية بتقاليد جديدة معدلة وأخلاق كريمة دعا إليها هذا الدين وحث على التمسك بها . وأهم ما في هذا كله هو أن الديانة الإسلامية هيأت للعرب نوعاً من الأخوة لا تعتمد على نسب أو جاه ، وإنما تعتمد على وحدة الخضوع لرب واحد ، وعلى مساواة حقة لا شبهة فيها . وهذه المساواة في الحقوق والواجبات لم تستهدف غرضاً دنيوناً وإنما قامت على صدق الإيمان والرغبة في الفداء والجهاد ، وبذلك صهرت الديانة الجديدة العصبية العربية في سبيكة واحدة ذات طابع جديد .

وكان أن تحقق حلم العرب في الوحدة السياسية بزعامة النبي ، وتم للأمة العربية ما كان ينقصها من أركان الوحدة الشاملة بعد أن اتحدث في العقيدة واتحدث في النظم ، واتحدث في التشريع والمثل والتقاليد . أما اللغة فقد تأصلت وحدتها بعد أن غلبت لغة القرآن ولهجة قريش على لهجات العرب كلهم . وبذلك برزت الأمة العربية في التاريخ أوفر ما تكون قوة ووحدة ونضوجاً . ثم كان أن بدأت الأمة العربية تطل على تاريخ الشرق الأدنى ، وتتهيأ لتحمل الأمانة ، أمانة تبليغ دعوة الإسلام لأمم الأرض قاطبة . وقد وضح الاتجاه نحو هذا الطريق في صورة الكتب التي بعث بها النبي إلى الملوك والأمراء المعاصرين يبلغهم فيها الدعوة ويدعوهم إلى الدخول في الإسلام . كذلك بدأ هذا الاتجاه في صورة الغزوات التي قامت بها جيوش النبي على أطراف الشام مثل غزوة تبوك . ويرى بعض المؤرخين أن هذه

الغزوات بداية التدفق إلى بلاد الشام ؛ وأنها بمثابة اختراق الخطوط الأماميه لجبهة الدفاع البيزنطية . وهكذا توفي النبي سنة ٦٣٢ م والأمة العربية على هذا القدر من الوحدة . وجيش أسامه بن زيد رابض قرب المدينة يريد أن يشق طريقه إلى بلاد الشام .

التوسع العربي ونتائجه في تاريخنا القومي :

وفي الوقت نفسه الذي شهدت بلاد العرب هذا البعث الجديد ، ورأت تحرر الأمة العربية وجمع شملها على هذا النحو ، كانت بقية بلاد الشرق الأدنى قد تناهت أحوالها في السوء. وذلك أن شعوب هذه المنطقة وجدت نفسها وقوداً لحرب ضروس وصراع طاحن لا مصلحة لها فيه ، بعد ان اشتد التنافس بين الكتلتين الفارسية والبيزنطية ، كل منها تريد ان تحقق مصالحها على أشلاء هؤلاء الناس . وقد بدأ هذا الصراع المسلح منذ القرن السادس الميلادي ، وفي القرن السابع استطاع الفرس أن يدخلوا بلاد الشام وأن يستولوا على بيت المقدس ، وأن تتوغل قواتهم في آسيا الصغرى حتى أشرفت على القسطنطينية بل أمعنوا في هجومهم فدخلوا مصر واحتلوها . ثم استطاع البيزنطيون بعد ذلك ان ينهضوا من كبوتهم وأن يردوا كيد الفرس ، فأجلوهم عن مصر واستردوا منهم بيت المقدس ، ثم أخذوا يغيرون على العراق انتقاماً لما نالهم على أيدي الفرس . وسواء انتصر الفرس وانهزم البيزنطيون أو أنتصر البيزنطيون وانهزم الفرس ، فان أهالي مصر والشام والعراق هم الذين دفعوا الثمن غالياً ، إذ خربت ديارهم وأتلفت مزارعهم وبساتينهم ، وتعطلت مصالحهم ، ومثل بزعمائهم . ولم تسلم بلاد العرب نفسها من هذه الحرب الضروس ، فالاحتلال الحبشي لبلاد اليمن لم يأت إلا بتدبير من البيزنطيين ، وطرد الأحباش من اليمن لم يكن إلا بإيحاء من الفرس . وفوق هذا وذاك فقد كان على أهل الشرق الأدنى الراسفين في إغلال الحكم الفارسي أو البيزنطي أن يظلوا محرومين حتى من حقهم المشروع في حرية العقيدة ، فأضحت مصر وبلاد الشام — على

وجه الخصوص – مسرحاً لصراع مذهبي عنيف لم تشهده هذه البلاد من قبل . واشتد هذا الصراع بسبب الخلاف حول تفسير طبيعة المسيح ، فآمن أهل مصر وفريق كبير من أهل الشام بمذهب الطبيعة الواحدة، في حين آمن آخرون بمذهب الطبيعتين . وهنا اختارت حكومة القسطنطينية أن تؤيد مذهب الطبيعتين ، ثم تجاوزت التأييد الشفوي إلى فرض هذا المذهب على من لا يقبله ، واضطهاد ما عداه من أتباع المذهب المونو فيزيتي أو الطبيعة الواحدة . وهكذا تعرض رجال الدين المسيحيون في مصر والشام لعدوان ربما لم يشهدوا مثله من قبل ، فضيق على الكنائس واضطهد الناس ، وعذبوا وحرموا من حقهم الطبيعي في حرية العقيدة ، حتى بدا الحكم البيزنطي في هذه الفترة عبئاً ثقلاً لا يمكن احتماله .

هذا ألى أن المعاصرين في مصر والشام وشمال إفريقة لم يروا في الحكم البيزنطي الموت والدمار والاضطهاد المذهبي فحسب ، وإنما وجدوا أيضاً ان ذلك الحكم يحمل في ركابه الأزمات الأقتصادية والضائقات المالية . ذلك أن حاجة الدول الملحة إلى المال لتغطية نفقات الحروب ضد الفرس وغيرهم من أعداء الدولة البيزنطية ، دفعتها إلى المغالات في فرض الضرائب دون مراعاة لطاقة الناس أو لمقدرتهم الإنتاجية حتى اضطر كثيرون إلى الهجرة تاركين مزارعهم وديارهم فراراً من قسوة الضرائب . ولم تقتصر هذه السياسة الظالمة على مصر والشام وإنما امتدت على الساحل الشمالي لإفريقية ، حيث ظل سكان البلاد الأصليون يعيشون على هامش الحياة ويشهدون من ألوان العسف البيزنطي الشيء الكثير .

أما أهل العراق الخاضعون للفرس فلم يكونوا أحسن حالاً من أهالي الشام ومصر وشمالى إفريقية الخاضعين للبيزنطيين ، إذ أضحت بلاد العراق في الوقت نفسه تقريباً مسرحاً لصراع ديني بين الزرادشتية ، الدين الرسمي للدولة ، والمانوية ، وهي مذهب فلسفي ينزع بالناس إلى الزهد المطلق وعدم الإنتاج ،

هذا فضلاً عن المزدكية الشيوعية وهو مذهب هدام ، أثار الفقراء من الأغنياء . وكان أتباع الزرادشتية يضطهدون أتباع المذاهب الأخرى ، مستخدمين الوسائل نفسها التي استخدمها البيزنطيون في مصر وبلاد الشام وغيرهما من البلاد . وهكذا يبدو من كتابات المعاصرين في مصر وبلاد الشام والعراق وغيرها من بلدان الشرق الأدنى شعور النقمة على الحكم الأجنبي – الفارسي أو البيزنطي – البغيض ، والضيق الشديد بهذه الحريات الدينية المكبوتة ، والسخط البالغ على الأوضاع الاقتصادية الحافلة بمظاهر الضنك والضيق .

على أنه قدر لهذه الشعوب المضطهدة أن تنعم بالخلاص من جميع هذه الشرور ، والفكاك من ذلك الأسر المذهبي الكريه . وقد أتى هذا الخلاص من ركن ليس بمنأى عن هذه الأركان المعذبة ، وهذا الركن هو شبه الجزيرة العربية . وبعبارة أخرى فإن الأمة العربية حملت في هذا الدور الهام من أدوار التاريخ أمانة كبرى ، تتمثل في تحرير الشرق الأدنى من نير العبودية وتخليص المعابد والكنائس والأديرة من ظلمة الأضطهاد ، ورد كرامة البشر الضائعة في تلك المنطقة ، وبث رسالة جديدة في الأصلاح ، وكان أن ظل العرب في حركة جهاد طويلة استمرت من ١٢ هـ حتى سنة ١١٤ هـ (٦٣٣ م – ٧٣٢ م) فخاضت جموعهم القتال في موجات متلاحقة ودخلوا أعنف المعارك التي شهدتها البشرية من أجل التحرير والعقيدة ، وضربوا أروع الأمثلة في الدفاع عن المبادىء الإنسانية الشريفة . وفي خلال هذه المعارك الطويلة سقط كثير من الشهداء فوق كل بقعة من هذا الوطن الفسيح الممتد من الخليج العربي حتى المحيط الأطلسي ، حتى غدت الدولة الإسلامية العربية تشمل الأندلس وشمال إفريقية ومصر والشام والعراق وفارس وشمال الهند ، فضلاً عن شبه الجزيرة العربية . لذلك لاعجب إذا كانت هذه الفتوح تعتبر حدثاً ضخماً بارزاً في تاريخ الإنسانية من حيث أسبابها أو النتائج التي ترتبت عليها . حتى لقد اصطلح المؤرخون أن حركة التوسع العربي من أهم العوامل التي

ساعدت على انتقال العالم من العصور القديمة إلى العصور الوسطى .

والواقع أن الفتوح العربية تركت أثراً بالغاً في تاريخ هـذه المنطقة التي تشغلها شعوبنا اليوم . وقد أجمع الباحثون الذين عرضوا لهذه الظاهرة بالدراسة على أنها لم تستهدف مجرد الفتح والتوسع وأنها ليست اندفاعة من الاندفاعات المدمرة التي تحمل في أعقابها البؤس والخراب كغزوات المغول ، وإنما كانت الكتائب العربية تحمل في زحفها شعارات واضحة غاية الوضوح خلاصتها الجهاد ضد الحكومة الباغية إذا اختارت سبيل المقاومة ، والسلام للشعوب بعد تحريرها ، وتطبيق المثل الانسانية العليا في الحرية والاخاء والمساواة .

ولاتعنينا كثيراً تفاصيل الفتوح العربية ، فحوادثها مشروحة بأسهاب في الكتب التاريخية المتداولة ، وإنما المهم هو أن نوضح النتائج التي ترتبت عليها في تاريخنا القومي ، أعني في الوطن العربي اليوم ، وهو الوطن الممتد من الخليج إلى المحيط . ولعل أهم هذه النتائج أن نوضح أن الفتح العربي خلص منطقة الشرق الادنى من أي أثر لاحتلال أجنبي دخيل . بمعنى أن العرب حرروا شعوب هذه المنطقة تحريراً كاملاً ، فقضوا على دولة الفرس قضاءاً مبرماً ، واقتطعوا الشام ومصر وشمال إفريقية من الدولة البيزنطية ، وحصروا الدولة البيزنطية عند حدود معينة لا تتخطاها . وبعبارة أخرى فإن العرب قضوا على العدوين التقليديين اللذين ظلا أمداً يمثلان خطراً جاثماً على صدور الاهالي في هذه المنطقة فبدأت بالحكم العربي فترة سلام طويلة واستقرار متصل ، وعاشت شعوب البلاد التي فتحها العرب نحو خمسة قرون بعيدة عن أن تمتد إليها يد أجنبي حتى عصر الحروب الصليبية . وهذا هو المقصود من القول بأن العرب حققوا ما يسمى بالسلم الاسلامي الذي أظل هذه المنطقة من الخليج إلى المحيط .

على أن العرب لم يحرروا هذه المنطقة من الخوف ويحققوا لها الطمأنينة والسلام فحسب ، وإنما حملوا لأهل البلاد الاصليين مبادىء المحبة والإخاء والمساواة والحرية . ومصداق ذلك عقود الصلح التي عقدها العرب مع شعوب

المنطقة كلها : مع أهل العراق والشام ومصر والمغرب . وأول ما يلاحظ على هذه العقود أنها تنبع من نبع واحد ، وتكفل للشعوب المتعاونة مع العرب حرية النفس والعقيدة والمال ، فحررت الكنائس اليعقوبية والنسطورية في مصر والشام والعراق ، وظفر الأهالي الذين اختاروا البقاء على دينهم بما لم يظفروا به من قبل من حريات ، وهـــذا ميخائيل الأكبر بطريرك انطاكية اليعقوبي يقول : « تخلصنا من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا ، ووجدنا أنفسنا في أمن وسلام » .

ويضيف المستشرق بارتولد إلى هذه المآثر حقائق أخرى ، فيذكر أن المسيحيين أصبحوا تحت حكم العرب أحسن حالاً من قبـل ، لأنهم لم يحصلوا على حرياتهم فحسب ، بل استطاعوا في كنف السلام العربي أن ينشروا المسيحية في جهات لم تبلغها من قبل ، وذلك بفضل تسامح العرب واتساع رقعة الدولة العربية . كذلك قامت روابط وثيقة بين مسيحيي الشرق جميعهم المستظلين بظل العرب ، وهي روابط لم تتوفر لهم من قبل ، بل استطاعوا تحت حـكم العرب أن يتصلوا اتصالاً وثيقـاً بإخوانهم في الدين في أوربا ، وأن يتلقوا منهم الإعانات للمؤسسات الدينية . هذا فضلاً عن أن غـــير المسلمين من العناصر الخاضعة لحـكم العرب استطاعوا أن يعاودوا نشاطهم الثقافي القديم ، بـــل تضاعف هذا النشاط عن ذي قبل بفضل تشجيع العرب ، فأخذت المدارس اليهودية والمانوية والمسيحيه تؤدي رسالتها في سلام وطمأنينة . ولم يلبث أن اشتد التعاون إلى أبعد الحدود بين المسلمين والمسيحيين في الميادين الثقافية ، فأمدوا العرب بثمرة أفكارهم وأعانوهم على فهم مغاليق الفلسفة اليونانيـــة . وكان كثير من الأعمال الفكرية والإدارية حتى النصف الثاني من القرن الحادي عشر لا يزال في أيدي المسيحيين في البلاد العربية ، كما ظلت التجارة في أيدي أثرياء اليهود ، يزاولون نشاطهم طليقين من كل قيد . وهكذا استطاعت مختلف الديانات السماوية أن تعيش وتتعاون في ظل الحكم العربي بصورة ليس لها نظير في تاريخ البشرية . وقد بقيت روح الأخـــاء تجمع بـين المسلمين والمسيحين

في البلاد العربية حتى اليوم ، رغم ما سببته الحروب الصليبية من اضطرابات مؤقتة زالت بانتهائها .

وثمة نتيجة أخرى ترتبت على حركة الفتوح العربيـة ، وهي أن المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط أصبحت بعد الفتح العربي مسرحاً لتطورين هامين صبغا شعوب المنطقة ،لصبغة الماثلة حتى اليوم ، وهي الصبغة التي صارت أساس ما تنعم به بلاد المنطقة من تعاطف أخوي وتضامن عربي ، بفضل ما حظيت به من وحدة العادات والتقاليد والمقومات الفكرية والروحية . أمـا هذان التطوران فأولهما هجرة كثير من القبائل العربية من مواطنها في أعقاب الفتح واستقرارها في البلاد المفتوحة ، وثانيهما انتشار الإسلام واللغة العربية على نطاق واسع بين الشعوب التي أظلها حكم العرب .

وذلك أن القبائل العربية خرجت من شبه الجزيرة في موجات متلاحقة . ولم يكن هذا الخروج مفاجئاً وإنما كانت عملية بطيئة من شبه جزيرة العرب إلى الأطراف النائية التي دخلت في حكم العرب . وقد استمرت ظاهرة الهجرة هذه حتى القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، فـكانت آخر الهجرات هجرة قبائل بني هلال وسليم ورباح ، وهي القبائل التي أقامت في مصر زمناً ثم هجرتها إلى بلاد المغرب.) وعندما خرجت أولى القبائل العربية مهاجرة عقب الفتح الإسلامي ، قصدت أولا بلاد العراق ثم امتدت هجرتهـا إلى بلاد الشام وانتشرت في هذا القطر كلـه ، ثم تدفقت إلى مصر ومضت جنوباً حتى بلاد النوبة وسهول السودات الفسيحة لتصبغ هذا القطر الشقيق بالصبغة العربية الواضحة . كذلك مضت هذه الهجرات في أعقاب الفتح العربي متجهة الى بلاد المغرب ، وانتشرت في برقة وطرابلس وتونس والجزائر حتى بلغت المغرب الأقصى ، ثم عبرت بعض البطون العربية إلى بـلاد الأندلس واستقرت فيها وصبغتها بالصبغة التي ظلت تلازمها وقتاً طويلا .

على أن القبائل المهاجرة ظلت أول الأمر في مهاجرهـا الجديدة تعيش

عزلة اجتماعية عن أهالي البلاد ، فعاش العرب المهاجرون في مدن عربية أو في معسكرات أقاموها خصيصاً لهذا الغرض : في البصرة والكوفة في العراق ، وفي بعض الأجناد في بلاد الشام ، وفي الفسطاط والاسكندرية في مصر ، وفي القيروان في تونس ، وفي بعض المراكـز العسكرية في المغرب الأقصى . ذلك أن الدولة العربية اعتمدت في أول عهدها في اداء رسالتها على العنصر العربي وحده ، فالعرب هم عدة الحرب وهم أداة الجهـاد ، ولذلك كان من الأهمية بمكان أن يظل العربي محتفظاً بخصائصه العسكرية كاملة . ومن أجل هذا حيل بين المهاجرين العرب وبين الأشتغال بالزراعـــة . وكانت الدولة تجند رجال العرب في الجيش ، وتمين لهم الأرزاق والأعطيات لإعـالة أسرهم والانفاق عليها .

ومع ذلك فإنه حدث في هذا الدور المبكر أن بدت بوادر الاختلاط بين المهاجرين العرب وبين سكان البلاد الأصليين . وكان هذا الاختلاط في مراحله الأولى يكاد يسلك سبلاً معينة لا يتجاوزها ، أولها طريق السبايا اللائي اعتنقت كثيرات منهن الإسلام وأنجبن أولاداً مما أدى إلى خلق جيـل جديد من المولدين ، آباؤهم عرب وأمهاتهم من غير العرب . وثمة وسيلة أخرى تم عن طريقها اختلاط العرب بأهالي البلاط الأصليين ، هي الزواج ، وهـذا ما يبيحه الإسلام . والعرب في المهجر رجالهم أكـــثر من نسائهم ، ولذلك كانوا عندما يستقرون في المهجر يتزوجون من أهالي البلاد .

على أن حياة العرب لم تكن لتستمر على هذا النحو مع اطراد الهجرة وتزايد الأعـــداد في المعسكرات الجديدة ، ثم تضخم عبء العطـاء الذي تدفعه الدولة من بيت المال . لذلك بدأت الدولة العربية في العصر الاموي تبيح للقبائل العربية حيازة الارض والاشتغال بالزراعة إلى جانب حصولها على العطاء . وقد شهد ذلك العصر مغادرة المهاجـرين العرب لمراكز تجمعهم في المعسكرات أو المدن الكبرى للاقامة في المناطق الزراعية . وكان معنى هذا ان العنصر العربي الوافد خطا خطوة واسعة نحو الاقتراب من الشعوب الأخرى

المقيمة معه في نفس المنطقة ، حتى اذا كان القرن الثاني الهجري وبعض الثالث (الثامن الميلادي وبعض التاسع) بدأ العرب المهاجرون يفقدون امتيازاتهم القديمة ، فحرموا من العطاء وفرضت عليهم الضرائب أسوة بغيرهم ، كما أخذوا يفقدون معظم امتيازاتهم العسكرية . وقد أدى هذا إلى انسياب العرب في المناطق الزراعية وإقامتهم فيها واشتغالهم بالزراعة على نطاق واسع ، ومن ثم اندمجوا في أهل البلاد حتى أصبحوا - بعد إقامة دامت أكثر من قرن أو قرنين - من أهل البلاد الأصليين .

وقد جاء تداخل العرب في أهل البلاد على هذا النحو وامتزاجهم بهم امتزاجاً كاملاً مصحوباً بتطور آخر بعيد الأثر ، هو دخول شعوب المنطقة في الإسلام على نطاق واسع . وبدأت هذه الظاهرة ضئيلة بعد الفتح ، ثم أخذت تشتد بمضي الوقت ، حتى إذا كان القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) غلب الاسلام على الأمصار ودخل الناس فيه أفواجاً ، سواء في العراق وفارس أو في الشام ومصر والمغرب .

ولا شك أن هذا كله أدى إلى سرعة تداخل الدماء العربية في دماء اهل البلاد وكان ذلك من أهم النتائج التي حققها الفتح العربي ، إذ بدت المنطقة الواقعة بين الخليج والمحيط وقد اكتسبت صبغة عربية في غاية الوضوح بفضل من استقر فيها من عرب وبفضل من أسلم من أهلها ، وبذلك اتسع مفهوم الوطن العربي ، فلم يعد قاصراً على جزيرة العرب وإنما شمل كل هذه الأقاليم الممتدة من الخليج إلى المحيط . على أن هذه المنطقة ألفت بين شعوبها أواصر أخرى إلى جانب وحدة الدين واللغة ، إذ خضعت لحكومة عربية واحدة خضوعاً أصبح جزءاً من تراثها وتقاليدها ، بحيث صارت لا تفهم إلا وحدة على هذا النحو ، كما أخذت تفكر بعقلية واحدة وتتمتع بثقافة واحدة .

الوحدة الشاملة في نظام الحكم :

استطاعت الأمة العربية بعد توسعها على النحو السابق إن توحد منطقتنا هذه تحت حكم واحد ؛ وهي وحدة فريدة في تاريخ المنطقة لم تشهد مثلها من قبل . حقيقة أن الدول التي شهدها تاريخ العراق القديم تمكنت من التوسع في صورة ما صوب الغرب ، كما استطاع ملوك مصر القديمة ان يتوسعوا على نحو مشابه صوب الشرق ، وإذا كان الاسكندر المقدوني قد أفلح في أن يخضع أغلب بلاد الشرق الأدنى لسلطانه ، فان الوحدة التي حققها كانت قصيرة العمر ، فلم تلبث امبراطوريته أن تفتت بعد وفاته . أما العرب فحققوا وحدة شاملة طويلة العمر عميقة الاثر ، جمعت بين بلاد العرب والعراق والشام ومصر والسودان وبلاد المغرب تحت لواء واحد . وبقيت هذه الوحدة التي تحققت تظل شعوب المنطقة بضعة قرون ، حتى أصبحت الوحدة جزءاً من تراث العرب وتفكيرهم بعد أن عاشوا دهرهم كله وقد اتحدت كلمتهم وتآلفت قلوبهم .

على أن وجه الإهمية فيما حققه العرب ، هو أن النظام الذي رسموه لهذه الوحدة الخالدة ، لم يكن نظاماً فرضه غالب على مغلوب ، وإنما هو نظام أصبح عند أهل البلاد جزءاً من إيمانهم وركناً من عقيدتهم ، لذلك شارك أهل المنطقة في تطبيق هذا النظام وفي تنفيذه مشاركة حقيقية ، حتى إذا انتشرت هذه الوحدة في عصور الضعف ، كان انتشارها في مفهوم أهل البلاد كارثة ما بعدها كارثة ومجلبة لما تعرضت له بلادها من اطماع ، وما نزل بهم وبلادهم من أهوال ، وما داهمهم من غارات وغزوات من الشرق والغرب وعندما استطاع أهل البلاد أن يتخلصوا من هذه المصائب وأن يملكوا زمانهم بأيديهم كان طبيعياً أن يميلوا إلى تلك الوحدة التي عاش في ظلها تاريخهم وأينعت في رعايتها حضارتهم وبنيت بفضلها امجادهم .

ويمكننا ان نحدد اركان هذه الوحدة في نظم الحكم ، وأن نبين طبيعتها وملاءمتها لأهل البلاد ، ومشاركة أهل البلاد كلهم فيما رسمته النظم من حقوق

وواجبات . وهنا يبدو أن تحديد السلطة العليا في هذه الوحدة كان سر بقائها ومغالبتها للأحداث ولعوامل التفرقة . وكانت السلطة العليـــا في الدولة العربية الإسلامية ممثلة في نظام الخلافة ، وهو النظام الذي شهدتــه الدولة العربية بعد وفاة النبي مباشرة ، والذي نبـع من تقاليد العرب ومن تقاليد الثورة الكبرى التي أظلت البلاد في عهد النبي . وقد ظفر هذا النظام بالولاء العميق من المسلمين العرب في شبه الجزيرة ، وبعد اتساع الدولة العربيـــة وامتدادها من الخليج إلى المحيط حظى بولاء جمـوع العرب المهاجرين الذين انسابوا في الأرض واستقروا بها على النحو الذي بيناه . وكان انتشار الاسلام على نطاق واسع ، ودخول معظم شعوب لا تؤمن به ،قد أدّى إلى نظام يحوطه الولاء العميق من كافة المسلمين الذين غلبوا على هذه المنطقة منذ القرن الثالث الهجري فصاعداً . وهكذا أصبح الناس في جميع البلاد الإسلامية لا يتصورون إسلاماً بغير خلافة ولا يفهمون دولة الا على هذا النحو ، وإن انحلال الخلافـة في نظرهم جاء مصحوباً بانحلال وحدة الأمة العربيـة وتفرقها في عصور الضعف والاضمحلال .

وهناك عامل آخر ساعد على تحقيق الوحدة السياسية الشاملة للبـلاد العربية ، هو أن النظم التي استخدمها العرب في حكم تلك البلاد لم تكن جامدة ، وإنما امتازت بالمرونة إلى حد بعيد ، بمعنى أنها كانت ذات قابليـة عظيمة للأخذ والعطاء ، فأخذ العرب من النظم والتقاليد العظيمة ما لا يتعارض مع أحكام الشريعة ، حتى أصبحت النظم العربية بمضي الزمن متلائمة مـع كل بيئة وكل ثقافة وكل تقاليد . فأهالي مصر يحسبونها مصرية وأبناء الشام يرونها شامية ، والمقيمون في العراق يعتبرونها عراقية ، والمغاربة ينادون بأنها مغربية ، وهي في الحقيقة جماع أساليب شعوب المنطقة كلها وتقاليدها وعاداتها ونظمها . والواقع أن العرب ظلوا فترة طويلة – ربمـا بلغت أربعين سنة – محتفظين في البلاد التي خضعت لسلطانهم بنفس الأساليب القديمة في

نظم الحكم دون أن يمسها تغيير يذكر ، فكانت النظم في العراق ساسانيةفي بلاد الشام ومصر والمغرب تكاد تكون بيزنطية . ولم ير العرب في ذلك مخالفة لأحكام الدين ، بل رأوا أن هذه السياسة خير وسيلة لجمع ولاء الناس حول الحكم العربي وإعطائهم مزيداً من الحريات المدنية إلى جانب ما حصلوا عليه من حريات دينية واجتماعية واقتصادية . حقيقة أن النظم التي استخدمها العرب في حكم البلاد اكتسبت منذ عهد الخليفة عبد الملك بن مروان طابعاً عربياً واضحاً كل الوضوح ، وذلك حين عربت الدواوين في جميع البلاد وظهر الدينار العربي الخالص، ولكن لا شك في أن هذه النظم تشربت عناصر فارسية وبيزنطية كثيرة . على أن هذه العناصر غير العربية كانت في حقيقة أمرها أشبه بالصورة الكبيرة ، إطارها عربي واضح ، ولكن بها تفاصيل دقيقة تتلاءم مع كل شعب ومع كل بيئة . وكان من نتيجة ذلك أن شعوب المنطقة شعرت في ظل الحكم العربي براحة نفسية كبرى ، ولم تشعر ابداً بأن الحكومة الاسلامية حكومة غريبة عنها .

ويمكننا أن نضيف إلى ذلك نهجاً فريداً اتخذته الدولة العربية في نظمها السياسية ، وكان له أثر عظيم في الأبقاء على الوحدة السياسية وتأصلها في نفوس المنطقة كلها ، وهو نهج في الحكم يختلف عن الأساليب التي لجأت اليها الدول التي سبقت العرب على مسرح الشرق الأدنى . ذلك أن الدول اليونانية التي ورثت ملك الاسكندر مثلاً قامت على أساس امتياز العنصر اليوناني وتفوقه واحتفاظه بجميع الحقوق والسلطات ، في حين ظل غيرهم من أهالي البلاد رعية محكومين ، عليهم أن يسمعوا ويطيعوا دون أن يكون لهم نصيب يذكر في المشاركة في الحياة السياسية . كذلك لجأت الحكومة الرومانية إلى منح حقوق المواطنة لفئة محدودة معظمها من الرومان ، وهؤلاء صارت لهم كافة الحقوق السياسية من تولى الوظائف العامة أو الأشتراك في الجيش، في حين ظل غيرهم من الشعوب التي حكمها الرومان يتحملون كثيراً من الواجبات ولا يتمتعون إلا بقليل من الحقوق . أما النظم العربيـة فأنها اتجهت منذ

اللحظة الأولى إلى إشراك أهالي البلاد في حكوماتها العربية المحلية مهما كان لونهم أو دينهم ، فاستعان العرب بأهل الذمة في كافة البلاد التي دانت لسلطهم واستخدموهم في الأعمال الكتابية والإدارية والحسابية ، حتى أن الدواوين ظلت سنوات طويلة تكتب بالفارسية أو اليونانية . ويرى بعض المؤرخين أن الحكومة في كل أقليم ظلت مدة غير قصيرة محافظة على صفتها المحلية ، ولم يحتفظ العرب الا ببعض المناصب العليا التي كان لا بد لهم من الإشراف عليها . وظلت هكذا حتى بدأت الدولة تستجيب للحركة الإسلامية الضخمة التي عمت المنطقة بأسرها ، وللتغيرات الاجتماعية التي اجتاحتها فبدأت تسوي بين العرب وغيرهم من العناصر التي اكتسبت دماً عربياً واستخدمت لساناً عربياً .

وثمة ركن هام من اركان الوحدة التي تحققت بين البلاد التي صارت تتألف منها الدولة العربية الجديدة ، وهو الركن الذي يرتبط بوحدة التشريع بعد أن أصبح التشريع الإسلامي يطبق على ملايين المسلمين من الخليج إلى المحيط . ذلك أن الخلفاء أخذوا يبعثون بالقضاة إلى انحاء البلاد للفصل بين الناس وتطبيق مبادىء الشريعة الإسلامية ، وعن هذا الطريق أصبحت الدولة تتغلغل في صميم جياة الناس الخاصة ، لأن الشريعة تمس الأحول الشخصية لكافة المسلمين . ثم أن هذه الشريعة كانت تطبق على غير المسلمين إذا شاؤا ، في حين سمح لأهل الذمة بالاحتفاظ بمحاكمهم الخاصة ، كما قام رؤساء الكنائس وزعماؤها الروحيون مقام كبار القضاة بين المسيحيين في البلاد العربية . على أنه كان يجوز للذمي أن يلجأ المحاكم الإسلامية بمحض اختياره ، ولذلك خصص قضاة المسلمين يوماً للنظر في قضايا غير المسلمين ، بل كان يسمح للذميين بدخول المساجد للاحتكام إلى قضاة المسلمين .

الوحدة الثقافية والفكرية :

ولم تكن الوحدة التي أظلت هذه المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط

وحدة سياسية فحسب ، وإنما كانت أيضاً وحدة ثقافية وفكرية . ولا شك أن هـــذه الوحدة الثقافية من أعظم المقومات التي تتوفر للقوميات الناضجة ، بل هي أبقى أثراً وأوفر أهمية من الوحدة السياسية نفسها ، اذان الوحدة الثقافية والفكرية التي تحققت لشعوب هذه المنطقة فقد اتخذت اكثر من مظهر ، فكان من مظاهرها اللغة العربية الشمالية التي عرضنا لمظاهر فوزها قبل ظهور الاسلام والتي ذكرنا ان نزول القرآن بها أكد النصر الذي أحرزته ، ذلك أن هذه اللغة انتشرت في المنطقة كلها بعد الفتح العربي رغم ما وحد في هـــذه المنطقة من لغات قديمة ذات تقاليد وثقافات عريقة ، إذ كانت اللغة الفارسية منتشرة إلى حد كبير في بلاد العراق ، في حين كانت اللغة اليونانية منتشرة في بلاد الشام ومصر وبلاد المغرب أن هذا كله عدا لغات محلية أخرى كاللغة القبطية في مصر . ولم يحاول العرب أن يفرضوا لغتهم على شعوب البلاد التي فتحوها ، بل أبقوا على لغات شعوب هذه البلاد ، وعلى اللغات القديمـة السائدة فيها ولم يتعرضوا لها بسوء ، فظلت الفارسية لغة الحكومـــة في العراق نحواً من أربعين سنة بعد الفتح العربي ، كما ظلت اليونانية لغة الدواوين في كل من مصر والشام وبلاد المغرب . على أنه يبدو أن هذه البلاد شهدت في أول الأمر صراعاً – ظاهراً أو مستتراً بين اللغة العربية الوافدة وبين اللغات الأصلية السائدة في البلاد المفتوحة . وكان من الطبيعي أن تخرج اللغة العربية ظافرة من هذا الصراع ، بعد أن أثبت علمـاء اللغات أن التفوق السياسي هو العامل الفعال في انتصار اللغة . وحسب اللغة العربية انها كانت لغة دولة فتية ناشئة بسطت نفوذا على البلاد ، في حين كانت اليونانية لغة دولة مغلوبة على أمرها انكمشت رقعتها وفقدت كل ما لها من نفوذ في بـلاد الشام ومصر وشمال أفريقية . هذا إلى ما كان لانتشار الاسلام من أثر واضح في تفوق اللغة العربية وسيادتها ، لأن حركة الدخول في الأسلام « عن عقيدة وارادة حرة » أخذت تشتد بعض الوقت ، فصار لزاماً على معتنقي هـذه الديانة الجديدة أن يتعلموا اللغة العربية لفهم القرآن وأحكام الدين وإحياء شعائره .

هكذا وضح انتصار اللغة العربية منذ القرن الثالث الهجري فصاعداً ، ففي ذلك العصر دخلت أغلبية أهالي البلاد المفتوحة في الاسلام وأخذت تتجلى معالم النهضة الثقافية، وأصبحت اللغة العربية منذئذ لغة سكان المنطقة الممتدة من المحيط إلى الخليج . بل ان غير المسلمين من أهالي تلك البلاد ، بدأوا يتخذون هذه اللغة اداة للمخاطبة للثقافة والعلم ، فإذا أخذ أهل الذمة يؤلفون كتباً فإنما كانوا يؤلفونها بالعربية مما أدى إلى اختفاء اللغات القديمة اختفاء يكاد يكون تاماً .

ثم أن شعوب المنطقة كلها انفعلت بثقافة عربية موحدة . ذلك أنه حدث بعد أن تم للعرب السيطرة على البلاد الممتدة من المحيط إلى الخليج ، أن ازدهرت في ركابهم الحضارة نتيجة لما حققوه في جميع تلك البلاد من أمن واستقرار . ولم نلبث أن انتشرت الثقافة العربية فأصبحت الأماكن التي اسقر فيها العرب مراكز للعلم والمعرفة ، وظهرت مدارس عربية في كل من الكوفة والبصرة والقسطاط والقيروان . وأدى إسقاط القيود والحواجز بين أرجاء هذا الوطن العربي الكبير إلى تنقل العلماء والفقهاء بين أرجائه دون قيد . فانتشروا من المحيط إلى الخليج ، يفسرون القرآن ويروون الحديث ويبصّرون الناس بالعقيدة الإسلامية . على ان انتشار الثقافة العربية بين الناس على نطاق واسع كان رهيناً بأمرين : أولهما انتشار اللغة العربية ، وثانيهما انتشار العقيدة الاسلامية ؛ وهذان الأمران لم يتحققا بوضـــوح إلا في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) . لذلك شهد ذلك العصر نمو المدارس الاقليمية وتفوقهـا وكثرة علمائها وطلابها وإقبال اهل البلاد على الافادة منها إقبالاً عظيماً ، بل بدأت هذه المدارس تتجاوز دور التقليد إلى دور الإصالة والتجديد، وظهر من أهل المنطقة من تفوق في التفسير أو الحديث أو الفقه . ولا شك أن الوحدة السياسية التي شملت الوطن العربي كله، كانت من أهم ما أدى الى ازدهار هذه النهضة وتأصل الثقافة العربية في نفوس أهل البلاد ، فلم تكن هنالك قيود تحول دون تعاون مدارس المنطقة كلها ، ولم يجد طـلاب العلم عناء أو

مشقة في التنقل من المغرب إلى المشرق وبالعكس. وهكذا أخذ العلماء والطلاب يرحلون من العراق إلى الحجـــاز أو الشام إلى مصر ، ومن المغرب إلى مصر والشام والعراق ومكة والمدينة ، وهم أينما حلوا يجدون الحفاوة والترحيب . وأخذت المدارس الإسلامية تتبادل الأفكار وتتناقل المؤلفات والكتب ، فلا يكاد كتاب يظهر في المشرق إلا ويتلقفه الغرب ، كما كان أهل المشرق بدورهم يحرصون على الوقوف على إنتاج إخوانهم المغاربـة والأندلسيين . ولم يلبث أن أخذ الأمراء المحليون في العالم الاسلامي منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) فصاعداً يتنافسون في فتح المدارس واستقدام العلمـــاء والإغداق عليهم وتشجيع الحركة العملية بكافة السبل ، حتى فاقت المدارس الإقليمية مدارس الحجاز وبغداد في الدرسات العربية .

ولا شك أن أهم ما ساعد على ازدهار هذه الحركة الفكرية ، كان تسامح العرب مع الثقافات القديمة وإقبالهم عليها وترجمة خير ما فيها ، وتأثر الفكر العربي بثمار الفكر اليوناني والفارسي والهندي ، وغير ذلك من الثقافـات التي اتصل بها العرب وأخذوا عنها وأضافوا اليها . وكان أن استطاعت الحضارة العربية أن تهضم هذه الثقافات وأن تطبعها بطابع عربي واضـح ، ولا عجب فإن قابلية هذه الحضارة للتشرب وللأخذ والعطاء هي سر حيويتها وبقائها .

وهكذا أخذ الوطن العربي من المحيط إلى الخليج ينعم بوحدة شاملة ، سياسية وحضارية واجتماعية وفكرية .

* * *

الفصل الثاني

الوحد النضالية في مقاومة عوامل التحدي

(١٠٥٠ - ١٥١٧)

ومنذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي قد لعوامل ضعف معينـة أن تسعى إلى الوحدة العربية تريد أن تنال منها ، من كيانها السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني وأن تعرض الوطن العربي لمحن متلاحقة وتحديات سافرة . ذلك أن صورة الوطن العربي بدت في هذه الفترة أقرب إلى البعثرة السياسية والتفكك منها إلى الوحدة ، فظهرت إمارات إسلامية مستقلة في الشرق والغرب ، ورثت سلطان الخليفة الزمني واستقلت بالسلطات في نطاقها الإقليمي ولم يبق للخلافة من نفوذها القديم إلا السلطان الروحي فحسب . وكانت هـذه الإمارات حريصة على ألا تفصم الارتباط المظهري بخليفة المسلمين وذلك بالدعاء للخليفة على المنابر وكتابة اسمه على السكة ومده بحاجته من المال ، والحصول على تقليد بالولاية والسلطان . وكان ذلك في الوقت الذي تهاوت الخلافه العربية نحو الضعف ، فلم تفقد سلطانها في الامصار فحسب إنما فقدت سلطاتها حتى في الحاضرة نفسها في عهد نفوذ البويهيين والسلاجقة . وقد تكون الصورة الثقافية براقة على نحو ما ، بسبب تنافس هذه الإمارات في مضمار الانتاج الادبي

والثقافي ، ولكن الصورة السياسية كانت قائمة نتيجة للتفكك ، وربما كانت الخلافة كنظام سياسي مسئولة على نحو ما عن هـذا التدهور السياسي الذي أصاب الأمة العربية لأنها جمدت أمام التطور الناتج عن انتشار الإسلام في جميع البلاد وتحرر الشعوب التي لم تكن قد اعتنقت الاسلام بعد ، دون أن تحاول أن تبتدع نظاماً يعيد التوازن إلى الحياة العربيـة فيعطي السلطات الإقليمية حقها الطبيعي من الحقوق والواجبات ، وتكتفي الخلافة بالقيادة الفكرية والروحية . ومهما يكن من أمر فان هذه الفرقة السياسية كانت هي الغالبة على العالم العربي ساعة أن تعرضت الأمة لخطر العدوان الصليبي والمغولي .

وبالأضافة إلى الفرقة السياسية منيت الأمة العربية منذ منتصف القرن الحادي عشر بالفرقة المذهبية وانقسم العرب على أنفسهم بين سنة وشيعة . وكان هذا الانقسام موجوداً في جسم الأمة العربية منذ القرن الأول الهجري ولكنه كان أشبه بالجرثومة في جسم المريض لم تمنع الأمـة العربية من أن تنطلق إلى غايتها طوال عهد الامويين وصدر بني العبّاس ، حتى كان آخر القرن الثالث الهجري وأول الرابع حينما انطلقت عوامل الانقسام في قوة وعنف تهدد الوحدة الاسلامية بأفدح الاخطار، وعندئذ قامت الخلافة الفاطمية على مذهب الشيعة في تونس وامتد سلطانها الى مصر ، ومن مصر امتد النفوذ الفاطمي إلى اليمن والشام ، وبذلك شهد العالم العربي صراعاً عنيفاً بـين العباسيين والفاطميين .

وظل هذا الانقسام قائمـاً إلى أن كان التحدي الصليبي الذي أفاد منه لصالحه واراد ان يتسلل منه ليقضى على الكيان العربي كـله . ولم يكن في استطاعة الأمة العربية أن تقف على قدميها مرة أخرى إلا إذا اجتثت جذور هذا الانقسام من واقعها وحياتها .

ثم أن مظاهر التفكك لم تدهم الأمة العربية في واقعها السياسي والفكري فحسب بل دهمتها ايضاً في حياتها الاقتصادية . فبعد أن كانت أمة العرب في

الواقع تعيش نهضة اقتصادية عظيمة تدب في أوصالها منذ قيام الخلافة العباسية ، ومضت هذه النهضة قدماً طوال القرن الثالث ازجري وبعض الرابع، واتصلت الامة العربية اتصالاً وثيقاً بأسواق الشرق الاقصى بل امتدت هذه الصلات التجارية إلى شرق أوربا وغيرها ؛ إذا بالعالم العربي منذ آخر القرن الرابع الهجري يفقد هذا التفوق الاقتصادي . وكان ذلك بعد أن نمت سلطات الكنيسة في اورو، وتم التحالف بين البابوية والامبراطورية ونمت المدن الايطالية وبدأت تتجه بمغامراتها إلى أسواق الشرق الادنى ونمت البحريات الاوروبية وبدأ العرب يفقدون السيادة البحرية في غرب البحر الابيض المتوسط وشرقه . وكان الخطر الصليبي إلى حد كبير تحدياً اقتصادياً وطمعاً في أسواق الشوق الادنى ومداً للمغامرات الاقتصادية إلى عقر دار الامة العربية .

ولم يكن واقع الامة العربية ساعة وقوع التحدي يوحي بتفوق أو قوة في المجال العسكري ، فقد ضعف العنصر العربي وتلاشى منذ القرن الثالث الهجري . ولا ننكر كيف أصبح السلاجقة قوة للاسلام ومادة له في القرن الحادي عشر ؛ ولكن هذا البعث العسكري السلجوقي كان مركزه العراق في حين انتاب الضعف جيوش الفاطميين في مصر ، وجيوش القوى الاسلامية في الشام . وكانت الأمة في حاجة إلى من يعطيها الثقة التي افتقدت ، والروح التي عزت ويجمع طاقاتها العسكرية حول صيحة الجهاد من جديد .

هذه الظروف التي ذكرناها جعلت الأمة العربية تتعرض لخطرين فادحين أو تحديين عظيمين : التحدي الصليبي والمغولي . وخاضت الأمة العربية زوداً عن كيانها وعن وحدتها ووجودها معارك دامية ، وهذه البلايا التي ابتليت بها صهرتها وفجرت الطاقات الكامنة فيها . وعاشت الامة وحدة من نوع جديد ؛ وحدة النضال من مكاسبها ووجودها . وحدة النضال هذه التي أظلت الحياة العربية حتى مستها القرن السادس عشر حين وقع الوطن العربي في قبضة النفوذ العثماني .

الأمة العربية والتحدي الصليبي :

يعتبر التحدي الصليبي من أفدح الأخطار التي تعرضت لها الأمـة العربية طوال العصور الوسطى ؛ وقد كان تحدياً شمل جمع المقومات العربية في سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ؛ كان يهدد الوجـود العربي نفسه ؛ لأن الخطر الصليبي مأساة شملت العالم العربي كله . فهذه موجات صليبية تهاجم بلاد الشام ومصر وتلك موجات أخرى تتدفق من صقلية إلى تونس ، وموجات أخرى تباغت الامارات الاسلامية في الاندلس . واستمرت تلك المعارك فوق هذه الرقعة الفسيحة في البر والبحر على حد سواء وظل هذا المد الصليبي الكبير تتابع أمواجه ؛ كلما تخلص جيل من موجة تصدى الجيل الذي يليه لموجة جديدة ؛ وظل العرب يدفعون هذه الموجات المتلاحقـة حتى مستهل القرن السادس عشر الميلادي .

وكانت الموجة الصليبية الأولى تستهدف بيت المقدس أولاً وبـلاد الشام كلها ثانياً . أما الموجة الثانية التي استمرت من عام ١٢١٨ حتى ١٣٥٠ فقد كان هدفها مصر تريد أن تقوض زعامتها للعالم العربي ولحركـة الجهاد . ثم كانت الموجة الثالثة وطابعها بحرى اكثر منه برى ، موجهـة إلى مصر زمن المماليك مستخدمة اسلحة من نوع جديد ؛ منها الحصار الاقتصادي ومحاولة عزل مصر عن بقية العالم العربي . والموجة الرابعة التي تزعمها الاحباش للاطاحة بالقوى الاسلامية في شرق افريقية وقطع شريان التجارة المصرية المارة بالبحر الاحمر وشرق افريقية .

وقد نتساءل عن الاسباب الحقيقية الكامنة من وراء هذا العدوان الذي ظلت نارة تضطرم اكثر من ٤٠٠ سنة ، وهنا تواجهنا الحقيقة الكبرى وهي أن العامل الديني لم يكن العامل الاساسي الذي حرك تلك الحركة العدوانية . وقد أجمع المؤرخون الاوربيون المحدثون على أن الحجـاج المسيحيين لم يلقوا شيئاً من العنت أو الإرهاق عند زيارتهم الكنيسة القيامة وغيرها من الاماكن

المقدسة التي تقع داخل اراضي الدولة الاسلامية ، بل أن بعض هؤلاء المؤرخين يقرر أن المسيحيين كانو أسعد حظاً تحت حكم المسلمين منهم تحت حكم الرومان إذ نعموا بحرية التجارة والعيش في ظـل الامن والسلام ، والمسلمون لم يرهقوهم بالضرائب بل إن الحجاج الغربيين لقوا أثنـــاء مرورهم في اراضي الدولة البيزنطية المسيحية من العنف ما لم يلاقوه في بلاد المسلمين .

ونعتقد ان الحركة الصليبية كانت بمثابة رد فعل للتوسع العربي العظيم الذي استمر من القرن الرابع الميلادي حتى أول الحادي عشر ممثـلاً في المحاولات المتكررة للاستيلاء على القسطنطينية وغزو اوربا والاستيلاء على جزر حوض البحر المتوسط وفتح صقلية والتقدم إلى الاندلس وعبور جبال البرانس إلى جنوب فرنسا ، والتفوق البحري العظيم في حوض البحر المتوسط . وكان على القوى الاوربية أن توقف هذا التحدي العربي أولاً ثم تغلب الكفة من جانبها ثانياً منتهزة فرصة اضطراب أحوال البلاد العربية وتفرق شملها ، فقد صمد البيزنطيون في البسفور وآسيا الصغرى وصمد الفرنجة في فرنسا ، وتجمعت الامارات المسيحية في شبه جزيرة ايبريا وظهر النرمان في صقلبة وتزعمت الكنيسة الحياة في أور، لتأخذ بالثأر القديم .

وثمة أسباب اخرى نابعة من واقع الحياة الاوروبية . فمن الناحية السياسية طمع كثيرون من امراء الغرب الاوروبي في إقامة ممالك وإمارات لهم في الشرق، وظهرت هذه المطامع قبل وصول القوات الصليبية الغربيـة إلى بلاد الشام .

وثمة سبب آخر من الاسباب التي حركت الحروب الصليبية وشجعت عليها يتمثل في طمع الغرب ، وبخاصة مدن ايطاليا التجارية في تجارة الشرق وظهر اثر العامل التجاري الاقتصادي واضحاً طوال الحروب الصليبية ، إذ أن كثيراً من القوى التي اشتركت في تلك الحروب لم يكن يعنيها كثيراً الاحتفاظ بكنيسة القيامة وبيت المقدس بقدر ما يهمها الاحتفاظ بمراكزهـا في عكا

وصيدا وطرابلس الاسكندرية ودمياط تتخذها مفتاحاً للوصول إلى تجارة الشرق واحتكار هذه التجارة .

ومهما يكن من أمر ، فإن الموجة الصليبية الأولى أتت إلى الشرق الأدنى بين سنتي ١٠٩٧ و ١٠٩٩ واستطاع الصليبيون أن يقيموا اربع إمارات في الشرق الأدنى هي : الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس . وكان الصليبيون بعد أن ثبت أقدامهم على هذا النحو يريدون التوسع من هـذه الامارات للقضاء على مدن الشام كلها وتقويض معالم الحياة العربية .

وقد تصدى السلاجقة عامة وأتابكة الشام خاصة لهذه الموجة الصليبية الاولى لتفويت غرضها وليضعوا الاسس الاولى لجبهة عربية متحدة لدفع هـذا الخطر . ونخص بالذكر عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وقد اتجهت إلى توحيد إمارات الشام كلها تحت لوائهم ثم الاتجاه الى فتح مصر والحيلولة دون سقوطها في أيدي الصليبيين .

وبعد ذلك جاء دور صلاح الدين الذي قدر له أن يتصدى لهذه الموجة الصليبية الاولى وأن يحقق آمال عماد الدين زنكي ونور الدين محمود والمخلصين من قادة العرب في تدعيم الجبهة الاسلامية المتحدة وتوجيـه جهود مصر والشام جميعاً نحو صد الخطر الصليبي .

وبعد أن اطمأن صلاح الدين الى سلامة الجبهة الاسلاميـة المتحدة التي جمعت بين مصر والشام وشمال العراق ، قرر أن يقوم بهجومه الشامل على الصليبيين سنة ١١٨٧ ، فاجتمعت اليه قوات مصر والشام وحلب والجزيرة وديار بكر والموصل . وفي حطين دارت المعركة الفاصلة التي انتهت بما أحرزه صلاح الدين من انتصار ساحـق ووقوع قادة الصليبيين وزهرة فرسانهم في أيدي صلاح الدين .

وترتب على هذا النصر أن استولى صلاح الدين على معظم مدن مملكة بيت المقدس وموانيها ، ثم ختم هذه الاعمال الحربيـة بالاستيلاء على بيت المقدس

ذاتها سنة ١١٨٧ ، وبذلك لم يبق في حوزة الصليبيين على الساحل سوى صور وطرابلس وأنطاكية. ولم تغيّر الحملة الشليبية الثالثة برغم كثافة جندها وقيادة كبار ملوك أوروبا لهـا إلا قليلاً في الأوضاع الإقليمية ، فلم تعد مملكة بيت المقدس إلا رقعة من الأرض تمتد على الساحل من يافا إلى انطاكية .

وهكذا استطاع صلاح الدين في تصديه لهـذا التحدي الصليبي الأول أن يقضي على أمل الصليبيين في التوسع في البلاد، وأظهر أن الوحدة في حياة العرب هي قرين القوة والنصر .

ثم كانت الموجة الصليبية الثانية (١٢١٨ – ١٢٥٠) ، وقدر لجيل آخر من العرب أن يتم جهود صلاح الدين وأن يتصدى لها بنفس العنف الذي تصدى به أهل الجيل الأول ، فقد أصبح التفكير في غزو مصر والاستيلاء عليها ركناً من أركان السياسة الصليبية في هذه الفترة ، بل ازداد هـذا التفكير شدة حين تبين للصليبيين أن معظم المقاومة التي بذلها صلاح الدين وأكثر المؤن والأمدادات التي اعتمدت عليها جيوشه إنما جاءت من مصر . وهذا بالإضافة إلى أن القرن الثالث عشر يمثـل بداية اتجاه جديد في الحروب الصليبية بعد أن تغلبت المطامع السياسية والتجارية حتى صارت ذات أثر بالغ في توجيه هذة الحروب في مرحلتها الجديدة . ويبدو أن ما تعرضت له بلاد الشام من الحروب المستمرة ، وما ترتب على هذة الحروب من التخريب والتدمير ، جعـل الصليبيين يحاولون الإفادة من مركز مصر التجاري والوصول إلى البحر الأحمر ومـا يتصل به من تجـارة الشرق . وظهر من الصليبيين من قال بأنه إذا استولى الصليبيون على مصر أصبح أمر بيت المقدس هينـاً . ومن ثم ركزت هذه الموجـة الصليبية اهتمامهـا كله على مصر تريد أن تنال منهـا . وتتابعت الحملات على مصر وأهمهـا سنة ١٢١٩ ، ١٢٤٩ ، وكانت الحملة الأخيرة هي التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا .

والمعروف أن الصليبيين اتخذوا دمياط هدفاً لحملاتهم ، وعلى الرغم من أن

هذه الحملات إنما قدمت إلى دمياط زمن الفيضان وانها حاولت أن تخترق الدلتا للوصول الى القاهرة ، وبرغم ما حدث من النزاع بين القادة الصليبيين ، وتفشي الأمراض بين جموعهم، فالواقع أن ما أصاب الصليبيين من الفشل إنما يرجع إلى ما غلب على المسلمين من روح الجهاد الديني « ومبادرة المسلمين في الشام لنصرة اخوانهم بمصر، واشتراك الشعب في مقاومة المعتدين . وشهدت حملة لويس التاسع نهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك .

وقدر لهؤلاء المماليك - الذين أقاموا دولتهم ١٤٥٠ - أن يصدوا آخر الموجات الصليبية . والمعروف عن المماليك أنهم استعربوا منذ طفولتهم وتشربوا العروبة وروحها منذ حداثتهم ، فصاروا جزءاً لا يتجزأ من المحيط العربي الكبير الذي نشأوا فيه ، وأخذوا يحسون بالأحاسيس نفسها التي هددت الوطن العربي . وقد لمس هذه الحقيقة واعترف بها المعاصرون من العرب أنفسهم ، حتى أن المؤرخ ابن واصل وصف المماليك بأنهم « داوية الإسلام » أي جنوده وفرسانه المدافعين عنه . وقد أحرز هولاء الفرسان النصر في معركة المنصورة وصدوا أمواج الغزو التي أرادت أن تضرب مصر في قلبها وتنال من عروبتها .

وهكذا مضى المماليك في الاستعدادات الحربية في البر والبحر ، ربما أبعد مما وصل اليه صلاح الدين ، وعبأوا الشرق الأدنى بطاقة عسكرية كبرى . وقد جمعوا في ثقة بين مصر والشام ، ووحدوا بين شعبيها وجموعها في حركة نضالية واحدة ، ونفثوا القوة في البلدين واعتمدوا على مواردهما المادية والبشرية ، في وقت فترت فيه الحماسة في أوروبا وبدأت الفكرة الصليبية تخفت في الشرق، وتنقطع بالصليبيين في الشام أسباب الاتصال الوثيق بأوروبا .

ولم يكن جيل القرن الثالث عشر خلواً من بطولات تضارع بطولات الجيل السابق . فقد ظهر السلطان الظاهر بيبرس ليقود الجيوش الإسلامية في

آخر حلقات الصراع ، بعد أن استقرت له الأوضاع في الداخل وتم احيـــاء الخلافة العباسية في القاهرة فكسبت دولة المماليك سنداً شرعياً . وإذا كان بيبرس،قد نجح في الاستيلاء على كثير من المراكز الصليبية بالشام وأهمها أنطاكية ، فإن الحركة النضالية التي قام بها المماليك ضد الصليبيين لم تتوقف بوفاة الظاهر بيبرس بل تابع خلفاؤه حمل الأمانة بنفس القوة والروح ، ففي سنة ١٢٨٩ وجه السلطان قلاوون جهوده نحو امارة طرابلس وحاصرها واستولى عليها ، وقدر لخليل ابن قلاوون أن يتم مـــا بدأه أبوه فحوصرت عكا آخر قلاع الصليبيين بالشام وسقطت هذه المدينة في أيدي المسلمين عام ١٢٩١ . وتابـع خليل النصر في الأشهر التالية فاستولى على بقية المدن التي كانت لا تزال في قبضة الصليبيين . وهكذا استطاع العرب في آخر القرن الثالث عشر أن يتخلصوا من الكارثة التي دهمت بلادهم آخر القرن الحـــادي عشر . بعد أن تم طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام .

وتحملت مصر في عصر سلاطين المماليك ما بقي من آثار المعركة الصليبيـة وتعرضت للحصار الاقتصادي الذي يريد أن يقطع شرايين مصادرها التجارية . ذلك أن الغرب الأوروبي فكر في طعن تلك الدولة في أعظم موارد ثروتها بمنع التجار الأوروبيين من التردد على مواني مصر والشام ، وصدرت عـــدة مراسيم بابوية تحرم على الأوروبيين الاتجار مع المماليك ، كما حرمت هذه المراسيم تصدير الأخشاب والمعادن وغيرها من الضروريات التي كان الشرق العربي يستوردها من أوروبا في تلك العصور .

ولم تقف هذه الحملات العدوانية الحاقدة عند هذا الحد ، بـل حاولت تلك القوى المعادية أن تتخذ من جزيرة قبرس مركزاً لتلك الحرب الاقتصادية ولفرض الحصار على الشواطيء المصرية . وفتحت قبرس في عهد آل لوزجنان أبوابها للاجئين والمتشردين من الصليبيين الفارين من بلاد الشام حتى تعرضت الاسكندرية لغارة بحرية كبرى ، فدخـل الصيبيون في اكتوبر عام ١٣٦٥

المدينة في غفلة من أهلها ، وباشروا أسلوب القرصنة على نطـاق واسع ، ونهبوا الحوانيت والفنـــادق ، وأحرقوا القصور والحانات واعتدوا على النساء . وتكررت حملات الحصار على مصر وتعرضت الاسكندرية لغارات متلاحقة حتى قدر للسلطان الأشرف برسباي أن يثأر لهذه الحملات البحرية المتكررة ، فأرسل إلى قبرص قاعدة العدوان عدة حملات في سنة ١٤٢٤ و ١٤٢٥ و ١٤٢٦ نجحت في غزو الجزيرة وأسر ملكها . وبذلك انتهت حملات العدوان البحري على مصر .

على أن فكرة الحصار البحري والحرب الاقتصـــادية لم تلق قبولاً من دول الغرب الأوروبي في الشطر الأخير من العصور الوسطى فحسب ، بل صادفت استجابة أيضاً من بعض حكام المسيحية في غير القارة الأوروبية وبصفة خاصة الحبشة . ومن الواضح أن دخول الحبشة في هذا الميدان أمر له أهميته ، لأنه يعني تهديد تجارة مصر في الهند والبلاد الآسيوية فضلاً عن بلاد البحر الأحمر .

ذلك أن ملك الحبشة لم يكد يعلم نبأ غزو بطرس لوزجنان ملك قبرص الاسكندرية سنة ١٣٦٥ حتى بادر بإعداد قواته للمساعدة في ذلك الصراع ، ولم يمنعه من التنفيذ سوى سرعة انسحاب بطرس من الاسكندرية . كذلك لم يكد إسحق الأول ملك الحبشة يعلم باستيلاء المماليك على جزيرة قبرص وأسرهم ملكها سنة ١٤٢٦ حتى بادر بالاتصال بملوك أوروبا للقيام بهجوم مشترك ضد المماليك في مصر والشام . ومن الثابت تاريخياً أن ثمة سفارة حبشية وصلت إلى بلاد ألفونس ملك أرغونة في ذلك الوقت . وأن الاتفاق تم بأن يساهم ملك أرغونة بأسطول على نفقته الخاصة لمهاجمة مصر من الشمال ، في الوقت الذي يهاجمها ملك الحبشة من الجنوب .

ومن الواضح أن هذه المشروعات تضمنت إعلان الحرب الصليبية على مصر بإغلاق طرق تجارة المماليك وإقفال البحر الأحمر ، الأمر الذي جعـــل

سلاطين المماليك يعملون على مراقبة هذا البحر وعدم السماح للأوروبيين باجتيازه إلا بإذن خاص .

وفي الوقت الذي أخذ ملوك الحبشة يهددون مصر بمهاجمة الحرمين في الحجاز وتحويل مجرى النيل ، إذا بخطر صليبي آخر يظهر في ميدان شرق أفريقية هو خطر البرتغاليين. وكان هجوم البرتغاليين على مدن شرق أفريقية الإسلامية تحدوه الروح الصليبية الصرفة ، فاستولوا على جزيرة سقطرى عند مدخل البحر الأحمر ، كما استولوا على زيلع وأحرقوها عام ١٥١٧ ، أما الأحباش فقد هللوا لانتصارات البرتغاليين وأرادوا محالفتهم لتوحيد الجهود ضد العرب .

على أن القوى الإسلامية لم تقف مكتوفة الأيدي أمام ذلك الخطر الصليبي الذي شارك فيه الأحباش والبرتغاليون وملوك النوبة المسيحيون. من ذلك ما قام به السلطان الغوري من إرسال حملته البحرية المعروفة لحرب البرتغاليين في البحر الأحمر عام ١٥٠٨ .

التحدي المغولي :

قامت دولة المماليك كما قلنا في وقت مشحون بالمخاوف والأخطار التي لم تهدد مصر والشام فحسب ، بل هددت الوطن العربي الكبير بأجمعه . ففي بلاد الشام كان الصليبيون لا يزالون يحكمون إمارات في أنطاكية وطرابلس وعكا، فضلاً عن عشرات القلاع والحصون المنتشرة بين جنوب البلاد وشمالها . وكان ذلك في الوقت الذي أخذ المغول يقتربون سريعاً من العراق ، وبالتالي يهددون البلاد العربية جميعها بأشد خطر واجهه العالم العربي منذ وصول الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام في أواخر القرن الحادي عشر .

وزاد من وقع هذه الأخطار التي تعرض لها الوطن العربي حوالي منتصف القرن الثالث عشر أن الوحدة التي جمعت بين أهالي العراق والشام ومصر

منذ أيام صلاح الدين تمزقت في وقت كان العالم العربي أحوج ما يكون إلى الترابط والاتحاد .

ولم يكد النزاع بين المماليك في مصر والأيوبيين بالشام يتخذ شكل قتال بين الفريقين ، حتى اتضح خطر المغول على العراق ، حين تطلع هولاكو للاستيلاء على البلاد العربية في منطقة الشرق الأدنى بلداً بعد آخر .

وكان العراق أشد البلاد العربية إحساساً بالخطر المغولي نظراً لقربه المباشر من حدود دولة المغول في فارس ، فأسرع الخليفة العباسي إلى العمل على توحيد صفوف المسلمين لمواجهة الخطر ،وأنفذ رسولاً إلى زعيم الأيوبيين بالشام يطلب منه مصالحة المماليك في مصر حتى يتفق الجميع على حرب التتار . وهنا تناسى الجميع خصوماتهم وأدركوا أنه لا عاصم لهم من خطر المغول سوى الاتحاد . وهكذا تم الصلح بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر في ابريل ١٢٥٣ .

ومن ذلك الوقت أخذ هولاكو يقضي على كل أثر للمقاومة التي اعترضت سبيله ، ثم بدأ يزحف على بغداد نفسها . وقد حاصر هولاكو بغداد حتى سقطت في يده في فبراير ١٢٥٨ ، وحينئذ انساب المغول في احيائها يقتلون ويدمرون . ولم ينج من القتل الخليفة المعتصم نفسه ومجموعة من أبناء البيت العباسي .

ومن الواضح أن الخطوة التالية أمام هولاكو صارت الاستيلاء على الشام ومصر ، حيث أثارت أخبار سقوط بغداد وما فعله بها المغول موجة من الرعب والفزع . وفعلاً زحفت جيوش هولاكو على حلب ولم يمض وقت طويل حتى أرسل هولاكو خطاب تهديد إلى سلطان المماليك في مصر (قطز) يطالبه بالتسليم ، ويحذره من عاقبة العناد والمقاومة .ولكن السلطان قطز لم يضعف أمام هذا التهديد واستقر رأيه على المقاومة وعبأ جيوشه ، وخرج إلى الصالحية لصد المغول الذين كانت طلائعهم قد بلغت أطراف مصر الشرقية .

وجدير بالذكر أن المغول في زحفهم على بلاد الشام لم يكونوا وحدهم إنما

حالفتهم بقية القوى المعادية للعروبة ، بعد أن وجدت في الزحف المغولي خير فرصة لتحقيق أطماعها في الوطن العربي، وهكذا زحف المغول على بلاد الشام تؤيدهم قوات من المسيحيين في الشام وأطراف آسيا الصغرى .

وقد استولى المغول على دمشق في مارس ١٢٦٠ ومن ثم أخذوا ينفذون إلى فلسطين . وفوجىء المغول بوصول المماليك إلى طبرية وهو أمر لم يتوقعوه مما أدى إلى هزيمتهم في وقعة عين جالوت الفاصلة سنة ١٢٦٠ . وفي هذه المعركة قتل قائد المغول واندفعت الجيوش العربية خلف المغول تطاردهم حتى فروا من دمشق وسائر بلاد الشام إلى ما وراء الفرات .

وهكذا انهارت الخرافة القائلة بأن المغول لا يغلبون وأثبتت الحوادث مرة أخرى أن الإيمان كفيل بتحقيق النصر .

وكانت عودة المغول إلى ما وراء الفرات عودة مؤقتة، إذ لم يفقدوا الأمل في معاودة الهجوم . ولهذا تكررت إغارتهم على بلاد الشام بين حين وآخر طوال عصر المماليك البحرية . ولكن الوحدة التي تحققت بين مصر والشام عقب عين جالوت مكنت المماليك من الصمود لأية محاولة مغولية جديدة .

ولم يغير موقف مغول فارس وفاة هولاكو سنة ١٢٦٥ إذ خلفه أبنه أبغا الذي سار على سياسة أبيه في التطلع إلى بلاد الشام ومحالفة الصليبيين ، وحاولوا مصالحة الظاهر بيبرس ولكنه أعرض وأيقن أن مصالحة مغول فارس أمر لا يشرف حاكماً مسلماً بعد أن مزقوا قلب العالم العربي. وهكذا استمرت الحروب متقطعة بين المغول فى العراق من جهة والمماليك في الشام ومصر من جهة أخرى تبادلوا فيها النصر والهزيمة ، حتى تفككت دول المغول في فارس بعد أن اضطربت أحوالها نتيجة لما سادها من انقسام وفتن داخلية .

وبذلك تكون الأمة العربية قد خرجت من هذه المرحلة محتفظة بكيانها السياسي وبتراثها الفكري متغلبة على جميع التحديات التي واجهتها .

★ ★ ★

المراجـــع

١ -- أحمد سويلم العمري — الشرق الأوسط ومشكلة فلسطين

٢ — حسن ابراهيم حسن — تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي ثلاثة أجزاء

٣ — ارنولد — الدعوة إلى الإسلام
ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وآخرين

٤ — محمد خلف الله أحمد — الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة

٥ — سعيد عبد الفتاح عاشور — أوروبا العصور الوسطى - جزءان

٦ — سعيد عبد الفتاح عاشور — العصر المماليكي في مصر والشام

٧ — سعيد عبد الفتاح عاشور — الحركة الصليبية - جزءان

٨ — فؤاد عبد المعطي الصياد — المغول في التاريخ

٩ — حافظ أحمد حمدي — الشرق الإسلامي قبيل غزوات المغول

١٠ — محمد فؤاد شكري — النزاع بين البرجوازية والإقطاع

١١ — حسن أحمد محمود — الإسلام والثقافة العربية في أفريقية

١٢ — حسن أحمد محمود — قيام دولة المرابطين

١٣ — حسن أحمد محمود — مصر في العصر الطولوني

١٤ – السيد الباز العريني : الأيوبيون
١٥ – السيد الباز العريني : المماليك
١٦ – السيد الباز العريني : المغول
١٧ – السيد الباز العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية
١٨ – رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ترجمة السيد الباز العريني
١٩ – باركر الحروب الصليبية
(ترجمة الدكتور السيد الباز العريني)
٢٠ – ابن سعد الطبقات الكبرى
٢١ – ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر
٢٢ – البلاذري فتوح البلدان
٢٣ – أحمد أمين فجر الإسلام ، ضحى الإسلام ، ظهر الإسلام
٢٤ – راشد البراوي ثوزة البترول في افريقيا
٢٥ – الطبري تاريخ الأمم والملوك
٢٦ – ابن الأثير الكامل في التاريخ

72—Muir : The Caliphate ·
82—Stevenson : The Crusaders in the East .
92—Gibb ; Modern Islam .
30—Guidi ; L'Arabic Ante—Islamique ·
31—Pheby ; The Bakground of Islam .

البَابُ الثالِث

الحضارة العربيـــة



الحضارة العربية

نشأتها وتدرج حياتها

لقد جرى على ألسنة المؤرخين للفكر العربي الاسلامي لفظة الحضارة للدلالات بها على جميع أنواع النشاط الانساني في مختلف ميادين الحياة العملية التطبيقية ثم الثقافية ثم توسعوا في مدلول هذه اللفظة حتى شمل جميع ما ينتهي اليه النشاط الانساني في جميع هذه الميادين مما يزيد هذه الحياة ثباتاً ورسوخاً، ويهيىء لها جواً من الطمأنينة والرخاء ويشق لأهلها مسالك جديدة تنمو بها تجربتهم ويفتح لهم آفاقاً واسعة من المعرفة المتجددة على مدى السنين والأجيال.

وقد إستعمل العرب القدماء لفظ الحضارة مراداً بها ما يضاد البداوة فإذا كان التحضر سكنى الحاضرة فإن التبدي سكنى البادية وثمة فرق واضح بين طبيعة الحياة في هاتين البيئتين فلكل منهما طابعه الخاص فيما يتصل بأساليب الحياة ووسائل العيش وأنماط السلوك ونظام الحكم ويبدو أن العرب كالمحدثين تماماً أحسوا أن الحضارة تقترن بها دائماً الصناعة والتصنع في كثير من مظاهرها فالمتنبي مثلاً يقول :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية   وفي البداوة حسن غير مجلوب

كما أن القرآن يشير في بعض آياته الى أن الحضارة تتطلب الاستقرار

والنظام المؤدي الى سلامة الحياة واطمئنانها وليس ثمة استقرار يمكن أن ترتكز عليه الحياة إلا إذا كانت هنالك مدينة فسمى القرآن هذه المدينة بالحاضرة في قوله تعالى : « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر » والقرآن يستعمل القرية للدلالة بها على » المدينة » كما في قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

ولم يشع استعمال هذه اللفظة «الحضارة» إلا في العصر الحديث بعد أن اتجه بعض الاوروبيين المنصفون الى دراسة الفكر العربي الاسلامي كاشفين عن الدور الذي أداه في خدمة الحضارة الانسانية بعامة مما كان له أكبر الاثر في تطور المعرفة واتساع الثقافة وأصالة الفكر وحماية التراث الانساني من أن تعبث به أيدي الضياع وبخاصة أن العرب بعد الاسلام كان قد انتقل اليهم أمر قيادة هذا الفكر وترقيته والحفاظ عليه .

وقد آثر الكتاب العرب الذين نقلوا بعضاً من بحوث هؤلاء الاوروبيين الى العربية – كلمة حضارة على ما سواها من الالفاظ ترجمة لكلمة « Culture »[١] والمعروف أن الباحثين الاوروبيين اختلفوا حول مفهوم هذه اللفظة اختلافاً واسع المدى وما كادوا يتفقون فيه على رأي ، نلحظ ذلك واضحاً عند تناولهم لقضايا علم الاجتماع وأصوله .

ومن الاوروبيين من تصدى لدراسة الحضارة العربية وكان رائدهم في هذه الدراسة – برغم ما يسبغونه عليها من مظاهر البحث العلمي الدقيق – أن ينتهوا الى أن هذه الحضارة ليست من صنع العرب أنفسهم ، وإنما هي أشتات من

---

(١) وتكاد هذه الكلمة تشيع في جميع اللغات الأوروبية فهي في الانجلية Culture وهي في الفرنسية كذلك على اختلاف النطق بها وفي الايطالية Cultura وفي الألمانية Kultur وهي في أصل معناه تدل على الزراعة واستغلال الأرض وإنمائها .

المعارف وألوان من الثقافات ، استطاع العرب أن يصهروها وأن يؤلفوا منها نسيجاً حضارياً ليس لهم فيه ايداع يقترن بأسمائهم أو جديد أضافوه الى التراث الإنساني .. الى جانب تلك الأحكام العامة التي يصدرونها على الفكر العربي نفسه من أنه فكر لم تتوافر له أساليب الإبداع من التحليل والتركيب ، وأنه يعنى بالجزئيات دون القضايا العامة والتجريب البعيد والاستقراء الواسع – وهي أحكام كما نرى يمليها التعصب المجانف للمنهج العلمي المحرر .

فلما اتجه الباحثون العرب الى دراسة تراثهم والكشف عما فيه من وجوه الإبداع كان للحضارة العربية شأن آخر وقد شاركهم فيما صنعوا – كثير من الدارسين الاوروبيين الذين التزموا الموضوعية في بحوثهم واطرحوا تلك البواعث المؤدية الى التعصب فكشفوا جميعاً عن الدور الذي قامت به هذه الحضارة في ترقية المجتمع البشري وإمداد حياته بروافد جديدة أثرتها على مدى الحقب والأزمان. وإذا كان العالم – يوم أن ظهر العرب على مسرح الحياة العالمية يؤلفون قوة جديدة ويحملون معهم فاتحين حضارة أخرى تحكمه دولتان هما الدولة الفارسية في الشرق والدولة الرومانية في الغرب – فإن العرب وقد عاشوا في بيئة وسط بين هاتين القوتين أضحوا يمثلون قوة حضارية أخرى لها معاييرها في السياسة ، وموازينها في الإجتماع، وأصولها في الفكر والثقافة واتجاهها في النظرة إلى الإنسان صانع هذه الحضارة والموجه لحياتها [١] .

مراحل التدرج في حياة الحضارة العربية :

قلنا إن الحضارة العربية كغيرها من الحضارات التي عرفتها الانسانية في

---

(١) هنالك فرق كبير بين نظرة الإسلام الى الإنسان وبين نظرة اليونان اليه ، فالإنسان في الإسلام في حاجة الى التوجيه والرعاية وهو عند اليونان مصدر المعرفة والحكمة وقد أشار الى ذلك (بورا) في كتابه عن الأدب اليوناني القديم بالانجليزية .

تاريخها الطويل لم تظهر فجأة ، وإنما مرت حياتها بأطوار تاريخية شأن كل كائن وسبيل كل حي ، وإذا أردنا أن نتتبع مراحل هذا التدرج في حياة هذه الحضارة كان علينا أن نقسم هذه الأطوار ، وأن نحدد فتراتها ولا سبيل الى هذا التحديد والتقسيم إلا أن نتخذ الأحداث السياسية الكبرى التي مرت بها حياة المجتمع العربي حدوداً ومعالم لهذه الأطوار حتى نتبين الخصائص الحضارية لكل طور ، والحق أن تلك الحدود الزمنية ليست فواصل قاطعة ، وإنما هي كما قلت ـ معالم ـ يهتدي بها الدارس المتتبع سير هذه الحضارة في مجرى الزمن .

وإذا كان دارسو الادب قد قسموا العصور الادبية الى جاهلية وإسلامية وأموية وعباسية من حيث إن هذه الفترات الزمنية وما لابسها من أحداث كان لها أكبر الاثر في تطور الادب نفسه ، ذلك التطور الذي يحمل معه صوراً لتطور المجتمع العربي من حيث إن الادب فن تنعكس عليه وجوه النشاط التي يمارسها ذلك المجتمع بما تحمل من صراع بين قديم وجديد وتأثير وتأثر واستجابة أورد الكثير من الظواهر الفكرية والحضارية التي أدى الى الاتصال بها ذلك التطور في حياة الامة العربية .

إذا كان دارسو الادب قد تبعوا هذا التقسيم فإن مؤرخ الحضارة لا يستطيع أن يلتزم به وإنما يشير اليه عرضاً عند تناوله لظاهرة حضارية جديدة كانت وليدة نقلة تاريخية – في تاريخ أمة من الامم أو شعب من الشعوب !

والمعروف أن الاسلام كان الفيصل الأكبر بين عصري الحضارة العربية الكبيرين وهما العصر الجاهلي والعصر الإسلامي ، ونريد بالعصر الاسلامي ما يشمل هذه العصور كلها حتى الزمن الذي نعيش فيه .

ومن هنا سوف نقسم حياة الحضارة العربية الى هذين العصرين الكبيرين غير أنه ينبغي أن نلفت إلى أن العصر السابق على الاسلام والذي اصطلح على تسميته بالعصر الجاهلي – في دراسة الأدب – عصر تظلله سحابات كثيفة من الأساطير التي لا يكاد يطمئن اليها الباحث .

الحضارة العربية في العصر الجاهلي

عاش المجتمع العربي أول أمره في جزيرة العرب وهي بيئة صحراوية لم تجر بها أنهار ولم تنهض بها زراعة تعين على نشأة حضارة أو امتداد عمران أو استقرار إلا في أماكن قليلة من ذلك المضطرب الواسع وهي اليمن ، ثم تلك الممالك الصغيرة التي عاشت على مشارف الصحراء في الشمال متاخمة لحدود المملكة الفارسية في الشرق والأمبراطورية الرومانية في الغرب وتسمى الاولى مملكة اللخميين أو المناذرة وتشتهر الثانية بمملكة الغساسنة .

أما في وسط الصحراء فكان الحجاز إذا كان يحجز بين تهامة ونجد وما عدا هذه الممالك فكانت بيئة بدوية تغلب عليها بساطة العيش وقسوة الحياة، وشدتها على الناس ولكنها كانت منطلقاً واسعاً تضرب فيه القبائل البادية ترعي إبلها وأغنامها ، وتبحث في بطونه عن الماء .

وقد حفظ لنا التاريخ أسماء ممالك ظهرت في اليمن على اختلاف العصور التي تعاقبت عليه ، كذلك عثر الأثريون على بعض آثار كانت مطمورة في بطن الأرض تشهد لبعضها بدرجة من التحضر الذي لا نستطيع أن نتبين خصائصه إلا من خلال صورة عامة لا تستبين قسماتها وملامحها الدقيقة ، وأقدم هذه الممالك المملكة المعينية وقد ظهرت على أثرها مملكة سبأ وقد اشتهرت هذه المملكة بكثرة نقوشها كما اشتهرت بإقامة السدود وترقية الزراعة وتوفير أسباب الازدهار لها ، ويبدو أنها كانت بلغت درجة من التحضر تتمثل فيما يقصه القرآن عنها من نظام الحكم ، وترف الحياة إذ يقول في سورة « سبا » : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » كما أشار الى انهيار سد مأرب وكان أقوى ما شيدت هذه المملكة من سدود وقد أدى انهياره الى تفرق العرب شمالاً وجنوباً وحتى ضرب العرب المثل بهذا التفرق فقالوا في تفرق الجمع واضطراب الأمر : « تفرقوا أيدي سبأ » وقد ذكر القرآن في سورة النمل بعض مظاهر الحياة السياسية في هذه

المملكة حين دعا سليمان ملكتها بلقيس إلى الدين فجمعت الملأ [1] واستشارته فيما يعرضه عليها – في قوله تعالى : « قالت أيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين » ثم قامت مملكة حميَر ولكنها ذهبت هي الأخرى وبقيت بعض الآثار الدالة عليها .

ونلاحظ أن المظاهر الحضارية لهذه الممالك كانت تغلب عليها الناحية المادية التي لا تتصل أساساً بترقية الفكر وتنمية الإدراك وتربيـة الضمير المسيطر على السلوك الإنساني والموجه له .

أما مملكة الغساسنة التي قامت على مشارف الجزيرة متاخمة لبـــلاد الشام فقد تكونت نتيجة لهجرات يمنية بعد انهيـار سد مأرب – وهي الأخرى لم تنهض بها حضارة ذات طابع خاص أو اتجاه معين ، وإنمـا كانت تقوم بحماية حدود الدولة الرومانية ، ويظهر أن الرومان أولوها من عنايتهم ورعايتهم ما أتاح لأهلها لوناً من الحياة الناعمة الرخية ، حتى كانوا مقصد الشعراء يمدحونهم ، ويشهدون مجالسهم ، ويغشون نواديهم ويحظون بعطـاياهم ، وقد بقيت هـذه المملكة حتى ظهور الاسلام وأسلم آخر ملوكها « جبلة بن الأيهم » ثم ارتد عن الاسلام ومات على دينه القديم ... ويذكر تاريخ الأدب بعض الشعراء الذين كانوا يرحلون اليهم مادحين ومنهم حسان ثابت ، وكان يحن الى مجالسهم وتدور في ذاكرته ايامه التي قضاها بينهم .

أما مملكة المناذرة أو اللخميين فكانت تقوم بنفس الدور الذي كانت تقوم

---

(١) والملأ كما يبدو من استعمال القرآن وجوه القوم وأعيانهم وهم موضع الشورى ومنـاط الرأي ومعنى ذلك أن المجتمع الذي كانت تحكمه بلقيس كان ينقسم الى قسمين ، عامة ينشطون العمل والزراعة والكسب وخاصة يتولون تدبير أمر الدولة والحفاظ عليها .

به مملكة الغساسنة وهي تمثل خطاً دفاعياً لحدود مملكة فارس وقد عاشت هذه المملكة حتى ظهور الاسلام – وكان التنافس بين الغساسنة والمناذرة شديداً وكانوا يحاولون أن يجذبوا إليهم الشعراء ويقربوهم لمجالسهم ونواديهم . والتاريخ الأدبي حافل بكثير من أخبار هذا التنافس .

وهناك ممالك ظهرت في البادية نفسها وربما كانت هذه الممالك أكثر إمعاناً في التحضر وأقرب إلى دراسة الانسان والاستفادة من طاقاته في دعم الحياة والتمكين لها وأهمها النبط وكانت مركزاً لالتقاء القوافل وسوقاً تجارية هامة ، وقد اشتهرت بآثارها الباقية الدالة على مدى التقدم الحضاري الذي نعمت به وأهمه المسرح وكان قد أقيم على نمط المسارح اليونانية . ولا شك أن الأدب التمثيلي الذي يعتمد على المسرح والمسرحية لا تزدهر حياته إلا في أمة بلغت من الرقي العقلي والفكري مبلغاً كبيراً ، كما اشتهرت هذه المملكة بالكتابة النبطية وهو الخط الذي اتخذه المسلمون فيما بعد أداتهم لكتابة القرآن وقد امتاز بأنه لا يستعمل كثيراً من الحروف المتحركة وبأنه لا يستعمل التاء المربوطة إلا قليلاً وربما كان ذلك سبب ما نجده في كتابة المصحف من غرابة في الخط كما في كتابة « المؤمنت » جمعاً و « رحمت » وما إليهما من الكلمات التي لا تتفق كتابتها والخط الذي نكتب به اليوم ، وقد أشار ابن خلدون في المقدمة إلى أن هذه الطريقة في كتابة المصحف لا تنبغي المحافظة عليها لعدم معرفة القوم يومئذ بأصول الخط ولكنه لم يلتفت إلى أن تلك طريقة الخط النبطي الذي كان يكتب به العرب في هذه المنطقة من الجزيرة ، وقد أيد هذا الرأي الباحث الدكتور خليل يحيى نامي في بعض بحوثه .

أما مملكة تدمر فقد سميت باسم مدينة تدمر القديمة وقد امتازت هذه المملكة بقوتها الحربية وبأنها ورثت مركز مملكة النبط في أن صارت ملتقى تجارياً أكسبها الغنى والثراء وقد بقي من آثارها كثير وبخاصة حول حمص وبعلبك .

تلك هي الممالك التي ظهرت في أطراف الجزيرة العربية والتي شاركت

مجهودها في كثير من الأحداث السياسية التي دارت يومئذ وقد سجل المؤرخون اليونان والرومان ما قامت به كل مملكة في هذا السبيل .

ونلاحظ أن معظم هذه الممالك – كما ذكرت – إنما عنيت بالجانب المادي من الحضارة شأن كل مملكة تريد أن تقيم حياتها على دعائم قوية من رفاهة العيش ورخاء الحياة والتمكين لسلطانها ، والمحافظة على وجودها وكيانها ، أما الجانب المعنوي أو الروحي من الحضارة فلم يظفر من عنايتها بشيء يذكر غير ما أحدثته مملكة النبط مما أشرنا إليه وهو بناء المسرح وما يقتضيه من فنون متعددة ، ثم ذلك الخط الذي اقترن باسمهم .

وفي وسط الجزيرة – كما قلت – كانت تعيش القبائل البادية يلتقي شعراؤها في الأسواق يتناشدون الشعر ويغالبون به ، وقد ترك لنا اولئك الشعراء ثروة كبيرة منه تصور حياتهم وتكشف لنـــا عن طبيعة مجتمعهم وأصوله وقضاياه الكبرى .

والواقع أن الشعر هو المظهر الحضاري البارز عند البدو ولذا كان الشاعر يحتل مكانة خاصة بين عشيرته وذويه وهو المدافع عن أعراضهم والناشر لأمجادهم وهو كما يقول أبو حاتم الرازي : يحتل مكان النبي – في قبيلته .

الاسلام والحضارة العربية :

كان أهم ما أحدثه الإسلام من أثر في حيـــاة المجتمع العربي – ذلك التغيير الاجتماعي ، فقد أنشأ الفرد يحس بذاته ويشعر بكيانه ويحتمل وحده المسؤولية كاملة، كما ضمن الاسلام للفرد حرية التفكير والعمل في نطاق الجماعة وفي الحدود التي تكفل بقاءها وسلامتها وهنا اتجهت الحضارة العربية الإسلامية الى دراسة الإنسان بما هو قوة تتطلع الى الحياة ، وترنو إلى المثل ، وترجو من الغيب سداد التوجيه وهداية القصد ، فهي إذن حضارة تقدر طاقات الانسان ، وتعمل على استغلالها لخيره هو وتخطط لتوجيههـــا ، يهديها في ذلك دين يعتمد على وحي

موصولة أسبابه بالسماء ، ينظم هذه الطاقات ويشرع لها في أسلوب معجز وبيان مقنع ، تخاطب العقل ويثير الوجدان ويصقل النفس ويهذب الحس حتى يتم بذلك التعاون بين هذه الطاقات فتجد وتعمل ابتغاء تحقيق الرفاهية للانسان وحماية الجماعة .

وقد ظهر الإسلام في الحجاز - وهي بيئة وسط بين أطراف متقابلة فالرسول ﷺ قرشي مكي : أبوه عبدالله بن عبد المطلب وأمه آمنة بنت وهب من خيار نساء قريش وقد اشتهر معظم أسلافه بالسيادة فقصي أحد أجداده يرجع إليه الفضل في استيطان قريش مكة بعد أن قادها في حرب ناجحة مع خزاعة ، وهاشم أول من سن رحلتي الشتاء والصيف ، وعبد المطلب هو الذي شرف قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه فأعاد حفر بئر زمزم وقد طمست معالمه وكان يسقي منها الحجاج الوافدين على مكة ، فقد اختار الله رسوله من قبيلة كانت لها مكانتها بين العرب وقد اشتهرت برفاهة العيش وعلو النفس وقد أشار القرآن في بعض اياته إلى بعض ما كانت تمتاز به من الترفع والاستعلاء إذ كانوا يطوفون بالبيت من مكان لا يطوف منه الناس فقال تعالى ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، كما كانوا يدعون أنفسهم بالحمس فلا يتزوجون من غيرهم ولا يزوجون بناتهم من سواهم . ومن نشأ في بيئة كهذه لا تقبل الضيم ولا تفرط في حق ولا تستكين لمستذل ورث كل هذه الصفات وكذلك كان الرسول أول شبابه فقد اشتهر بالأمانة والصدق وهما الصفتان اللتان تتوافران لمن نشأ مثل نشأته وعاش في مثل بيئته ونسل من أجداد كأجداده واستظل بحسب كحسبه ، فلما بلغ الرسول الأربعين نزل عليه الوحي وكان نزوله أولى خطوات ذلك التغيير الاجتماعي الشامل الذي أصاب الحياة العربية والذي هز كيان الانسانية فيما بعد — هزة قوية — ولقد كان من أبرز مظاهر ذلك التغيير شعور الفرد بذاته وإحساسه بشخصيته وتحمله وحده مسؤولية عمله . وقد أدى ذلك الى تغير النظرة الى الشعر العربي ومكانة الشاعر في مجتمعه فلم يعد الشاعر قبلياً في فنه ، محدوداً في نطاق هذه القبلية وإنما طفق يترجم إحساسه ويصور مشاعره ويعبر عن دخائل نفسه ، ومعنى هذا أن الشعر أصبح فناً ذاتياً وأن قارئه أو

سامعه يستطيع أن يحدد منه أبعاد التجربة التي عاشها الشاعر في كل ناحية من نواحي الحياة : في الحب والبغض في الشجاعة والجبن ، في التطلع إلى الأمل أو اليأس في الترفع عن الدنايا أو الانحدار الى سفاسف الأمور وصغائرها ، أو بمعنى أدق أصبح الشعر العربي غنائياً بمعنى هذه الكلمة بعد أن كان مضطرباً بين الغنائية والقصصية فكان إذا تحدث عن القبيلة وأمجادها وبطولاتها كان شعراً قصصياً وإذا تحدث عن نفسه ، وقل أن يفعل كان شعراً غنائياً أما بعد الاسلام فإنك تلمح فيه اثار ذلك التحول في مجرى حياته ، في الألفاظ والأساليب والمعاني ، والأخيلة والصور وقد أشار السيوطي ، وابن القيم وسواهما إلى أن الاسلام أحيا ألفاظاً وأمات أخرى ، ونفر من عبارات كان العرب يستعملونها، كما أضاف إلى مدلول بعض الألفاظ أنواعاً أخرى من الدلالة قضى بها ذلك التطور الجديد .

نزول القرآن وأثره في الحضارة العربية :

قبل أن نعرض لنزول القرآن وأثره في الحضارة العربية ينبغي أن نتحدث عن اللغة الذي نزل بها القرآن وأن نقرر أن اللفظة هي المقياس الدقيق الذي يمكن أن نزن به رقي الأمم أو تخلفها إذ أنها المرآة الصافية التي يرى الدارس على صفحاتها تطور الأمة المتكلمة بها والتي اتخذتها وسيلتها في التعبير عن الألوان والظلال الحضارية المختلفة التي نعمت بها .

والعربيـة التي كانت ولا تزال لغـة الحضارة العربية التي نقول فيها — تمتاز عن غيرها من اللغات التي عرفها العالم المتحضر آنذاك والتي اتخذها وسيلته في التعبير عن ذاته ثم التعبير عن امكاناته الحضارية المتعددة — تمتاز العربية بأنها عاشت في جزيرة العرب حتى أدركها الاسلام وهذه الجزيرة لها طابعها الخاص وخصائصها المتفردة بها وإذا كانت الحضارات الانسانية قد اتخذت شواطىء الأنهار وبقاع الخصوبة والازدهار أماكن لها ، ومنها

كانت نقطة البدء في رحلاتها إلى كثير من الآفاق فإن العربية التي وصلت إلينا عاشت في أعماق الصحراء فاكتسبت خصائص هذه البيئة وكان مما تمتاز به هذه اللغة الإيجاز في أبين صوره وأوضح مظاهره وأجلى قسماته ولكنه إيجاز ينمي في أصحابها ملكة التأمل في المعنى واستقصاء جزئياته والاستشراف إلى ما وراء هذه الجزئيات من أصول وقواعد، ويبدو أن القرآن وهو كتاب العربية الأكبر حين نزل على الرسول كان يقدر إحساس العربي بلغته فكان يكتفي باللمحة ويجتزىء بالإشارة كي يثير فيه ملكة التطلع إلى ما وراء هذه الإشارات، ولقد أحس العرب ما بين القرآن وبين هذه اللغة – في اطار هذه الخصائص من صلة – فتداعوا إلى الشعر يدرسونه ويكشفون عن خصائصه رجاء أن يعينهم ذلك على فهم النص فهماً تتكشف لهمْ به معانيه وتتضح لهم منه مقاصده كذلك كان التركيب الديني لهذه الجزيرة فيه كثير من الغرابة فالمسيحية كانت تكتنف شرقيها وغربيها الشماليين، وجزءاً من جنوبها، واليهودية تشيع في بلاد اليمن كما ظهرت في المدينة وفدك وتيماء وخيبر، وكانت الوثنية تضرب في مضطرب واسع بين هاتين الديانتين، ومن هنا كانت هذه الجزيرة تشكل وضعاً دينياً يحتاج إلى تناول خاص تتحدد به مسالك التجربة الدينية الجديدة .

من أجل هذا كله نزل القرآن وكان نزوله يخالف الكتب الدينية السابقة عليه، نزل مفرقاً حسب الأحداث والواقعات وكفاء الظروف والمناسبات في ثلاث وعشرين سنة ونزلت الكتب الدينية السابقة عليه دفعة واحدة كما نزل باللغة – بمعناها الواسع – وهي اللغة التي شاء الله بما هيأ لها من الأسباب والظروف – أن تجتمع لهجاتها في لغة استطاعت أن تتسع لهذه المعاني الإلهية في مستوى رفيع لم يألفوه من قبل أو يعتادوا عليه، وقد تدرج نزوله فأنشأ في مكة يصلح العقيدة ويرسم خطوطها الكبرى ومعالمها الواضحة في كثير من الإجمال اللامح واللفتة الموحية، والحجاج الذي يمس شغاف القلوب ويستثير

الوجدان، وهو في كل ذلك يساير طرائقهم في التعبير وأساليبهم في البيان مقدراً أن للكلمة آثارها القوية في إثارة النفس وتحريك الإحساس وتعميق التأمل ومن هنا امتاز الوحي المكي بخصائص أهمها مخاطبة الوجدان لأنه المعيار الأول عند البدوي الذي لم تمسسه الحضارة ، يحكم به على الأشياء ويقدر من خلاله آثارها ، فيقبل عليها أو يدبر عنها . كما امتاز بالايجاز لأنه السمة المميزة لهذه اللغة في صحرائها ولكنه إيجاز كاشف عن الآثار الإلهية في هذه الدنيا التي يعيشون فيها والتي يسعون في رحابها الواسعة وأن هذه الآثار لا يصح أن تضاف إلى وثن أو صنم ليس فيه من حقائق الوجود شيء ، كما انه ليس فيه من خصائص الحياة التي يمارسونها أثر ما .

وهو في سبيل تأصيل هذه الفكرة واللفت إليها يضرب المثل ويذكر القصة ويدير القول فيها على نحو يدل على معالم الطريق الطويل الذي سارت فيه التجربة الدينية منذ حملها الرسل إلى الناس إلى أن انتهت إلى الرسول العربي الكريم .

فلما أذن الله لرسوله بالهجرة بعد أن هز المجتمع المكي بما أشاع فيه من الآيات البينات التي دعته إلى النظر وأثارت فيه غريزة البحث والتأمل ودفعت به إلى أول الطريق المؤدي إلى الخير والبر كانت الهجرة الفيصل بين الوحيين، وقد نزل الوحي المدني في بيئة لها سابق تجربة دينية وفي أيدي يهودها كتاب قد صدر هو والقرآن من منبع واحد هو السماء .

وفي هذه البيئة المدنية أخذ الوحي يتخذ لنفسه طريقاً آخر يضع فيه التشريعات العملية المنظمة للحياة التي يحياها الناس والتي تحقق الطمأنينة المؤدية الى صفائها بما يضمن لهم وجوداً متكافلاً وحياة مستقرة وادعة ، يعرف فيها كل فرد وظيفته الاجتماعية ومن خلال هذه المعرفة يستطيع أن يحدد ما له وما عليه ، ومن هنا امتاز الوحي المدني بخصائص أهمها التفصيل الدقيق لهذا التشريع

والاقناع الذي يعتمد على العقل كما حرص أنه يوجه الخطاب دائماً بيأيهـــا الذين آمنوا – وقد وصفهم بمطلق الإيمان إشعاراً منه بأن أولئك المؤمنين الذين آمنوا برسالته وصدقوا دعوته لم يكن إيمانهم عن تعصب له واعتزاز بنسبته إليهم وإنما لأنهم أدركوا أن حقيقة الدعوة التي يدعوا إليها تحمل في أطوائها الإيمان بالدين كله بما هو حقيقة واحدة لا تختلف بين دين وآخر ومن حقبة إلى أخرى ، وكل ما يبدو بين أجزائها من خلاف مرده إلى ما أصاب المتدينين بها من اضطراب في التفكير أو فساد في الفهم يستند إلى تعصب أحمق أو عناد في الجدل أو متعة عاجلة أو مشقة موهومة في أنهم لا يستطيعون أن يخالفوا ما كان عليه آباءهم .

ولا جدال في أن الوحي المدني حين نزل – طفق يعـالج المشكلات الإجتماعية فبدأ بالأسرة وهي وحدة الحياة الجديدة بعد أن كانت وحدتها القبيلة وقد حدد قدر ما يسهم به كل فرد منها في دعم كيانها وضمان سلامتها ، والتمكين لها ، كما قدر هذا الوحي أن الفرد – بما هو فرد – عضو في الجماعـة الإنسانية له ما لها وعليه ما عليها فعالج مشكلة المال ووسائل كسبه وخفف من غلواء احتيازه وتنميته بوسائل يتجافى عنها الدين ويأباها الخلق الرفيـع بما يرد عن النفس شر كلفها به وعبادتها له ، مؤكداً أن الحياة بالإضافة إلى مالكه ليست إلا فترة قصيرة تهتبل فيها الفرص لبذل الخير والسعي فيه وعند ذلك تصفو النفوس وتنمو الارادة الخيرة ، ويستقيم الضمير المسيطر على السلوك الإنساني بعامة ومن هنا كان دور القرآن في حياة هذه الحضارة يتحدد في :

١ – اصلاح العقيدة .

٢ – تنظيم حياة المجتمع .

٣ – تصفية النفس ، وإنماء الإرادة الخيرة ، وتربية الضمير الإنساني .

وتلك هي الأصول القوية لبناء حضارة تمتاز بالأصالة والعمق .

فكرة الدولة في الاسلام وأصولها :

أشرنا فيما سبق إلى أثر القرآن في النقلة الجديدة التي أحدثها في حياة المجتمع العربي من تأكيد ذاتية الفرد وتربيته على قواعد جديدة من السلوك الذي يسيطر عليه الضمير المقدر للمسئولية والضابط للأصول الاخلاقية التي ينبغي أن يتبعها الفرد حماية لنفسه وللمجتمع من حوله ، كما أشرت إلى أثره في العقيدة وتقريره لأصولها ودعوته إلى أن الدين كله يصدر عن مورد واحد هو السماء .

ولا جدال في أن الإسلام أقام للعرب دولة ووضع لهم نظاماً ، وأرسى حياتهم على تقاليد لا يستطيعون أن يخرجوا عليها أو يجانبوها ، ونحن هنا لن نتناول تفصيلاً فكرة الدولة وأصولها في الإسلام فإن ذلك يحتاج إلى وقت أوسع ودراسة أعمق لا يتسع لها ما نقول فيه وهو الحضارة العربية في صورة عامة مجملة يتبين فيها الدارس خصائص هذه الحضارة ومميزاتها ، ويحدد على ضوء منها ما أسهمت به فى رقي البشرية وعمرانها ، غير أن هنالك ملحظاً ينبغي اللفت إليه وهو أن القرآن في تقريره لأصول الدولة عني أولاً بالفرد وتربيته وتنمية ملكاته ، وتوفير أسباب الحياة الصحيحة له ، وذلك بهذه التشريعات الكثيرة التي فرق القول فيها في سور متعددة .

والواقع أن التشريع أو القانون هو آصل الأصول التي يقوم عليها بناء الدولة كما انه المرآة الدقيقة التي تنعكس عليها صور النزاع القائم بين الإدارة الإنسانية في صنع الحياة واستغلال خيراتها والاستمتاع بما فيها وبين النصوص التشريعية وما تلزم به من قواعد ، وما تفرضه من أحكام . ونحن نعلم أن التشريع في عامة أمره يقتضي أمرين :

أولهما : استنباط الحكم المدلول عليه بهذه النصوص .

وثانيهما تطبيق هذا الحكم تطبيقاً يكفل المحافظة على قصد المشرع

وإرادته – في نطاق المصلحة التي ينشدها الفرد ويسعى إلى تحقيقها – مع تأمين مصلحة الجماعة .

وفكرة الحكم والتطبين تحتاج إلى تجربة طويلة ، وقد قدر الله تعالى صعوبة هذا التطبيق وما يلقاه العقل البشري من صعوبات فيه قد تدفع به أحياناً إلى الحيرة والتردد وقد تأخذ عليه طريق الإدراك الواعي لطبيعة الحكم وأهدافه ، ومن هنا كان نزول القرآن في ثلاث وعشرين سنة ، ومن هنا تأخر نزول التشريع المدني حتى يجد قوماً لهم بهذا التطبيق سابق تجربة وقد أشار القرآن نفسه إلى هذه الصعوبات إشارة خفيفة في قوله تعالى : وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ، والقراءة في الاستعمال القرآني لا تعني مجرد التلقين بل تضيف إليه شيئاً آخر هو الفهم ابتغاء الوصول إلى أهداف النص ومقاصده والتشرع بما جاء به من الأحكام والتأدب بما دعا إليه من أنواع السلوك. ولا سلامة لأمة ، ولا حياة لدولة حتى تتضح لديها فكرة العدل والحق وحتى تستقيم سبيلهما في حياة الجماعة .

ومن هنا قام التشريع الإسلامي على هذين الأصلين : العدل والحق . وللفقهاء والمشرعين كلام طويل حولها .

وقد كان لهذين الأصلين كبير الأثر في تطور حياة التشريع يقول ماكدونالد في كتابه العقيدة والفقه ما ترجمته لقد تغير الوضع التشريع بعد وفاة الرسول « صلى الله عليه وسلم » ومن هنا نستطيع أن نتحدث عن التشريعي الإسلامي الذي أنشأ يؤدي دوراً خطيراً في حياة الجماعة الإسلامية فقد بدأ الجمع والتنظيم والتطور . ثم ينتقل إلى بيان مراحل هذا التطور جملة فيقول : وحينما كانت تظهر حالة تتطلب حكماً كانت هنالك عدة مصادر يرجع إليها أهمها القرآن وقد جمع من المتفرقات التي كان مكتوباً فيها عصر الرسول وذلك بعد وفاته بعامين ثم جمع بعد عشر سنوات في عهد عثمان وهو كلمة الله نزل بلفظه ومعناه وقد كان وما يزال المصدر الأول للتشريع الإسلامي وللعقيدة الإسلامية فإذا

كان النص يتضمن حكم هذه الحادثة فالحكم لله وحده وانه لم يكن ثمـــة نص قرآني التمس الحكم لها من السنة ان كان الرسول قضى في مثلها بحكم فإذا كان الصحابة لم يستطيعوا أن يعوا في ذاكرتهم هذا الحكم فإن على المشرع أن يبحث عن مصدر آخر وهو عمل أهل المدينة فإن لم يجد لجأ إلى العدل الطبيعي ، وهذا الذي يذكره ماكدونالد من أن العــــدل الطبيعي كان أصلاً من أصول التشريع الإسلامي يؤيده فيه أوليري وغيره ممن اتجهوا إلى دراسة التشريع الإسلامي والكشف عن وجوه الخصوبة والاتساع فيه . غير أن هؤلاء جميعاً يقررون أن **العدل** [1] **الطبيعي** مصطلح اقتبسه الفقهاء المسلمون من الفقه الروماني الذي كانت قد شاعت دراسته في تلك البيئات التي انتقل إليها المسلمون بعد الفتح الإسلامي وأن أول من نادى به زينون وهذا الذي يذهبون إليه دعوى لا دليل عليها لأن القرآن نفسه يأمر بالعدل في كثير من آياته ، ثم أن الرومان فيتفسيرهم لهذا المصطلح يقولون أنه الإحساس الغريزي بما هو الحق وما هو العدل ، ويقرر الفقهاء المسلمون أنه الأساس الذي يتحرى مصالح العباد متفقة وروح الشريعة في حماية الحياة والتمكين لها ، كما أن التشريع الاسلامي قسم للعقل مكاناً فياستنباط الحكم وتطبيقه .

ومن هنا انقسمت المدارس التشريعية الى اتجاهين: اتجاه يدعى أهله بأصحاب الرأي وآخر يسمى فقهاؤه بأهل الحديث ، والاتجاه الأول يمثل حركة التطور في حياة التشريع ، إذ يقدر نمو الحياة وامتداد عمرانها ، واتساع آفاقهـا ، مع ما يصحب ذلك كله من تغير في حياة الانسان وتطورها أما الاتجاه الثاني فإنه يقف دون هذا التطور ويحاول دائماً أن يشده إلى النصوص يبحث في أطوائهـا عن حكم لأمر جديد أو ظاهرة جديدة ويحاول أن يستهلك طاقات النص حتى

---

(١) انظر O'Lary : Arabic thought and its place in History
والعدل الطبيعي بالانجليزية Natural law أو كلمة (Equity) .

لا يكون للهوى في التشريع مجال وللغرض في التطبيق هدف .

وقد أشار القرآن في كثير من آياته الى مكانة ولي الأمر في قومه وما تنبغي له من الطاعة ، كما عرض لشئون الحرب والسلم رفصل الرسول القول في آداب الحرب وما ينبغي أن يلتزمه المحاربون من قواعـد وأصول ، ولكنه لم يعرض للطريقة التي تتبع في اختيار ولي الأمر ، ومن يرعى مصالح الدولة ويدبر شئونها وإنما ترك أمر ذلك إلى الجماعـة الاسلامية تنظمه بما يحقق مصالحها ، ويلائم حاجاتها وظروفها وان كانت النصوص دائماً تحث على الشورى كما في قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » .

وقد عرض ابن خلدون في المقدمة لفكرة الدولة في الاسلام وأصولها في كثير من السعة والتفصيل .

وقد تبين لنا مما عرضنا له أن دور القرآن في التشريع المـدني كان وضع الأسس لبناء دولة راسخة الأصول والقواعد ويتمثل هذا الدور في :

١ — التشريع لحماية الفرد وتنظيم حياته .

٢ — تقرير الأصول العامة لشئون الدولة الداخلية والخارجية وتحديـد علاقاتها بسواها على أساسين هما السلم والحرب وما ينتج عن ذلك من زيادة في دخل الدولة وخرجها وقد نزلت سورة الأنفـال خاصة بهذه المقاصد والأغراض كلها .

الفتوح الاسلامية وأثرها في الحضارة العربية :

تمضي الحياة العربية الاسلامية في طريقها فقد لحق رسول الله بربه بعد أن أدى الرسالة التى اختاره الله لها وولي الأمر من بعده صاحبه أبو بكر رضي الله عنه ثم عمر ثم عثمان وقد اتخذ هؤلاء جميعاً المدينة حاضرة هـذه الدولة الجديدة ومنها كانت ترسل الجيوش العربية الاسلامية الى فتح البلاد المتاخمـة للجزيرة العربية — وهي منطلق الدولة الأول ..

ويختلف الباحثون حول حركة الفتح وتحديد البواعث عليها ، والكشف عن الأسباب والدوافع التي تختفي وراءها فمنهم من يرى انها لم تكن إلا هجرة عربية كغيرها من الهجرات التي خرجت من الجزيرة العربية على طول التاريخ ، ويرى كيتاني أن دوافعها الأولى كانت الإغارة والسلب ، ولكننا نرى أن حركة الفتح إنما قامت على أساس من طبيعة الدين الاسلامي والدعوة إليه ، فالاسلام آخر الأديان السماوية القائمة على الوحي ، وقد بعث به الرسول لابلاغه إلى الناس كافة لا فرق بين عربي وعجمي وقد أكد الرسول هذا المعنى في كثير من الأحاديث الصحاح « إنما بعثت إلى الأبيض والأحمر » .

قد أدرك المسلمون الأولون هذه المعاني كلها كما أدركوا انهم مسئولون عن ابلاغ هذا الدين إلى الناس كافة ومن هنا تدافعوا إلى الحروب – لا بهذه الصورة – التي صورها بها كيتاني – كي يتخذوها وسيلة إلى الثراء وجمع المال كما يقول – وإنما ليؤدوا بها واجب هذا الابلاغ وقد تحملوه بدخولهم في الاسلام والتزامهم به ، والدليل على ذلك ما أوصى به أبو بكر جيوشه حين سارت أول حملة من حملات هذا الفتح : إذ يقول لهم « .. ولا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ... ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً ، ودعوا النساك في صوامعهم يتعبدون » .

وقد وصل هذا الفتح إلى سمرقند شرقاً ثم إلى حدود فرنسا غرباً ففي حدود السنة الرابعة عشرة من الهجرة كانت دمشق خضعت للفتح الاسلامي كما خضع له العراق ، وفي السنة الحادية والعشرين كان المسلمون الفاتحون وصلوا الى هراة ثم الى سمرقند أما في الغرب فكانت مصر قد فتحت سنة عشرين من الهجرة .. ولما كان الطريق الى قرطاجنة طويلا وشاقاً فإنها لم تخضع للفتح الإسلامي إلا سنة ثلاث وتسعين .

وبهذا الفتح المتوسع شرقاً وغرباً تدفق الثراء إلى جزيرة العرب وقد أدى ذلك الى شيء من الترف والترف دائماً يؤدي الى تغيير مظاهر الحياة التي كانت تعتمد على الشظف والبساطة وقــد ترتب على ذلك أن نمت موارد الدولة وتعددت وسائــل انتاجها كما طفقت الصناعات تحدث آثارها في ذلك التغيير فضلاً عن أن مفردات الحضارة الفارسية والرومانية وجدت طريقها إلى حياة أولئك الفاتحين .

هذا التغيير الذي أصاب وجه الحياة الاسلامية كان من آثاره أن المجتمع الاسلامي لم يصبح عربياً خالصاً وإنما دخلت فيه أجناس وشعوب ساطت دماؤها في الدماء العربية ، كما أن فكرة المعرفة لم تعد محدودة في نطاق التشريع وحده وإنما تجاوزته الى آفاق بعيدة وجهات متعددة . ومن هنــا تميز الفتح الاسلامي عن غيره من الفتوح التي شهدها التاريخ في هذه المنــاطق والتي جعلت من أهدافها الاحاطة بكثير من مظاهر الحضارة مهما تكن .

ونلاحظ أن الفتح الاسلامي – كان دائماً – يقترن بين السلطة الدينيــة والمدنية : مما يدل على أن الدافع إليه لم يكن إلا نشر هذا الدين في تلك الربوع التي استبدت بها العصبية الدينية الحمقــاء ، وسيطرت على أهلها طبقات دينية عاشت على أسرار لا يعرفها عامة المتدينين بهذه الأديان .

أما الاسلام فهو الدين المفتوح بنصوصه وعقيدته وتشريعاته ، وأنظمته وقواعده .

ونلاحظ – التقاء الدين [1] بالدنيا ، أو السلطة الدينية بالمدنية – في تخطيط المدن التي شادها العرب في البلاد المفتوحة فكان بيت الإمارة يجاوره المسجد

---

(١) Creswell, K.H. C, : H Short-account ot Early Muslem architecture .

وكان الولاة يأمون الناس في الصلاة ويأخذون مجالسهم بعدها في هذه المساجد يسألهم الناس فيما يعنيهم من الأمور وما يلقاهم من مشكلات ، فلما اتسمت الدولة العربية وتعقدت أسباب الحياة فيها ـ نتيجة هذا التوسع ـ أخذ النظام القضائي يأخذ طريقاً غير طريقه الأولى فكان إلى جانب الولاة قضاة ومشرعون يفصلون بين الناس في الخصومات ويقضون بينهم في المنازعات ويرشدونهم إلى وجه الرأي في المسائل الدينية . كما نلاحظ أن تنظيم موارد الدولة ووجوه الانفاق فيها خضع هو الآخر لمثل هذا التطور ونقرأ في كتب التاريخ والنظم أمثلة لهذا التنظيم والقواعد التي اتبعت في تطبيقه ، نقرأ هذا في سيرة عمر بن الخطاب وهو المنظم الأول لحياة الدولة العربية كما نقرأه في سيرة الخلفاء من بعده ممن صار إليهم أمر هذه الدولة وقد استعان أولئك جميعاً بما وجدوه من النظم في البلاد المفتوحة ذلك لأن الإسلام الذي دانوا به بقدر التجربة الإنسانية ، ويطلب إلى المتدين به الاستفادة بها في دعم حياته ، والتمكين لها كما أنه يقدر العـلم ويدعو إليه ويشجع على التماس أسبابه فقال تعالى : قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، وقد عقد المقارنـة بين العلم والجهل باطلاقهما دون تخصيص للعلم بفرع من فروعه المختلفة أو للجهل بجانب من جوانبه ، وقد ذكر المؤرخون أن الدواوين التي عرفت في عهـد المنصور كانت سبعة وهي ديوان الخاتم والشئون السياسية وديوان الجيش وديوان الجند وديوان الخزانة وديوان النفقـات وديوان الأرزاق والشئون الخاصة بالدولة

والواقع أن هذا التنظيم لمالية الدولة ومواردها إنمـا اقتبسه العرب من الفرس إذ كانت لهم سابق تجربة بهذه الشئون وقد ذكر الأستاذ نريمان في كتابه تأثير الفرس على الحضارة الإسلامية ان من بين المترجمـات التي نقلت إلى العربية كتاب آيين نامه وخداي نامه والأول يعني النظم والثاني سير الملوك وهما من أوائل الكتب التي نقلت إلى العربية .

وغاية القول أن الفتوح الإسلامية أتاحت لهذه الحضارة مصادر جديدة في النظم وأصول السياسة والاجتماع ، ولكن هذه النظم كانت توزن دائماً بميزان التشريع الإسلامي ، وتقدير المصلحة ، ورعاية مظاهر التطور في حياة ذلك المجتمع الجديد .

إنشاء المدن ودوره في تنشيط الحضارة العربية :

يذكر الباحثون في السياسة والاجتماع أن المدينة أولى الخطوات في إنشاء دولة تمارس نشاطها السياسي والعمراني وتسهم بجهدها في ترقية الحضارة البشرية وإمدادها بوسائل النمو والإزدهار — كان ذلك هو الشأن عند اليونان وعند غيرهم من أمم العالم القديم ، وقد سارت العصور الوسطى في نفس السبيل الذي سارت فيه المدنيات القديمة ومن بينها الأمة العربية يوم اتسع سلطانها فشمل أرضاً غير جزيرتها ودخلت في دينها أمم سواها ، ولا حاجة بنا هنا — إلى تفصيل القول في نشأة المدن العربية وكيف بناها أصحابها وطرائق تخطيطهم لها فإن ذلك أمر يمني به الأثريون ، ودارسوا الجغرافية الحضارية كي ينفدوا من خلال درسهم له إلى تقدير الخطى التي سارها التطور في هذا الصدد وليدركوا مدى ما بين أنواع العمارة والبناء عند الأمم من فروق في التخطيط والبناء والزخرفة والنقش وما إليها مما يعني الأثريون ، وقد حاول الأستاذ «كريزول» في كتابه عن العمارة الإسلامية أن يعطينا صورة عن هذه العمارة متتبعاً نشأتها وتدرج على حياتها على مر العصور الإسلامية .

غير أن الذي يهمنا هنا أن العرب حين تم لهم الفتح ودانت لهم تلك الأمم المفتوحة سارعوا إلى انشاء المدن إما في وسط هذه البلاد أو على طرف من أطرافها وكان يحدوهم في اختيار الأماكن الملائمة لهذا الانشاء — أن تكون تلك المدن مقراً للجند فكانت تقسم الى خطط تخصص كل خطة منها بقبيلة

أو مجموعة من القبائل التي اشتركت في الفتح ولكن ما أسرع أن تحولت هذه المدن الى معاقل للفكر ومصادر للثقـــافة حتى كانت مقصد طلاب المعرفة يرحلون إليها من مختلف الأماكن وشتى البقاع ، ونعلم أن البصرة والكوفة أنشئتا في العهد الإسلامي وان كلاً منهما أصبحت حاضرة من حواضر العلم الإسلامي ، وفي الكوفة عني القوم بعلوم العربيـــة وأخصها النحو ، كما عنيت البصرة بهذه العلوم ولكنها فاقت الكوفة بأنها كانت عاملاً من عوامل تطور الفكر العربي بما أسرعت إليه من دراسة الفكر اليوناني كما أنها بموقعها الجغرافي على شط العرب صارت كما يقولون ثغر الهند بما يحمل إليها من ضروب التجارة الوافدة عليها من تلك البلاد البعيدة ، وقد ظهر في هذه المدينة علماء كان لهم أبلغ الأثر في نهضة العلوم العربية وتطورها وأهمهم الخليل بن احمد الأزدي ، ويعد الخليل عند الأوروبيين والعرب على السواء عقبة نادرة تمتاز بالإبداع والاختراع فقد كان لهذا الرجل الفضل الأول في اكتشاف الأصول التي قام عليها العروض بتفاعيله وأوزانه ، وزحافاته وعلله ، كما أنه واضع السبيل الأولى لفكرة المعجم العربي . وقد أشار ابن خلدون في المقدمة الى أن المنهج الذي اتبعه في المعجم والعروض واحد فقد استنبط علم العروض بهذه الدوائر الخمس التي ابتدعها والتي استطاع أن يحصر بها الأوزان المستعملة والمهملة في الشعر كما أنه خلق صوراً جديدة لأوزان اتبعها بعض الشعراء العباسيون كأبي العتاهية فقال فيها شعراً وربما كانت هذه الأوزان المهملة من بين ما نهضت عليه حركة التجديد في الأندلس – بظهور فن الموشحات والواقع أن اتجاه الخليل إلى هذين العلمين يحتاج إلى تعليل – فالطريقة التي اتبعها فيهما طريقة رياضية تقوم على الفرض ثم تطبيق ما يصل إليه ذلك الفرض على المأثور من شواهد اللغة أو من الشعر نفسه . وقد تتلمذ عليه سيبويه ذلك الشاب الفارسي الأصل وتلقى عنه النحو ، ثم ألف فيه كتابه المسمى بالكتاب ، ونجد في كتاب سيبويه بحوثاً مستفيضة عن الصوت ومخارجه ثم علاقة الصوت بالصوت وهي كلهـــا بحوث جديدة على العرب وربما واتهم

من الهند إذ كان الهنود من أوائل الشعوب التي اتجهت إلى دراسة الأصوات لارتباطها عندهم بأسرار مقدسة، كما يقول صاحب كتاب الهند والحضارة الهندية بالانجليزية كما أن الهنود تصدوا للعمل المعجمي، ولا نستطيع أن نجزم برأي في هـذا التأثير، إذ أن الحضارة العربية بعامة قامت على اتجاهات لا تستبين فيها مناحي هذا التأثير في مفردات حضارية محددة أو مقررات بعينها غير أن طبيعة عمل الخليل في اختراعه العروض وسيبويه في ضبطه وتنظيمه لقواعد النحو ودراسته للغة أصواتاً مفردة ومركبة يأذنان بالقول بتأثر العرب بغيرهم من الأمم التي أسهمت في هذا الدرس اللغوي يؤيد ذلك مايذكره [1] «يسبرسون» في كتابه عن اللغة : نشأتها وتطورها بالانجليزية، فقد أشار إلى سبق الهند في هذا اللون من الدراسة وآثارهم الباكرة فيها.

والذي دفع العرب الى العناية بدراسة الأصوات اللغوية – هو الذي دفعهم إلى جمع النحو واستقراء قواعده وهو المحافظة على سلامة النص القرآني من ناحية الضبط الصحيح ثم أدائه في القراءة.

ولقد كانت هـذه الدراسة من العوامل الأصيلة في تطور التأليف في القراءات والتجويد القرآني فيما بعد كما كان للعروض العربي دوره في حياة الدراسة العروضية عند الفرس المتأخرين فقامت بحور الشعر عندهم على أساس من تفعيلات الخليل ودوائره، وقد أشار الى ذلك المرحوم الدكتور عبدالوهاب عزام في بعض بحوثه.

ولم يقف دور المدن العربية التي أقامها المسلمون عند هذا الحد بل تجاوزه كما أشرت سلفاً إلى أنها عملت على تنشيط الفكر العربي بما أمدته به من ألوان الثقافات المترجمة كما يظهر فيما بعد. غير أن المدن العراقية الأولى التي شيدها العرب حددت جهدها في الدراسة اللغوية والتشريعية أول أمرها،

(1) yespers on Longuoge ites origin and development PP 70-76.

وقد تلتقي في هذه المدن مناهج متعددة في كسب المعرفة وتحصيلها برغم ما يبدو بينها من فروق واسعة : نجد ذلك في الكوفة فقد اشتهرت مدرسة اللغة بها – بأنها لا تقيس في اللغة ، ذلك لأن اللغة مبناها على السماع من أصحابها الأوائل دون أن يكون للخالفين أثر ما على هذا السماع ، أو تعديل فيه أو قياس عليه : ولكن هذه المدرسة في التشريع لم نقف عند السماع ، وإنما تجاوزته إلى الرأي بمعنى أن للمشرع أن يفتى أو يقضي بما تقضي به أصول الحق والعدل إذا لم يكن ثمت نص يعتمد عليه في الحكم أو يرجع إليه فيه فها أنت ذا ترى أن المنهجين مختلفان كل الاختلاف متباعدان كل البعد ، ولكنها الحرية العقلية والفكرية التي كفلتها الحضارة العربية لأهلها ، يدرسون ويبحثون ، ويعلنون آراءهم بين الناس في كثير من الصراحة والعلانية دون إشفاق من سلطان ، أو خوف من حاكم ، يقضي على ملكة البحث وحريته ، وكلا المنهجين قد أدى ما عليه – في حماية المعرفة ، وحياطتها .

ونجد مثل هذه الظاهرة في البصرة ، وقد رأيت أن هذه المدينة انصهرت فيها ثقافات وتفاعلت فيها معارف وأخصها الثقافة اليونانية : وهي التي أدت إلى ظهور الحركات المجددة في الفكر الإسلامي وأهمها الاعتزال ، وقد استطاع علماؤه كواصل بن عطاء وأبي الهذيل العلاف ، وأبي إسحاق النظام أن يضعوا الأسس الأولى للاستفادة من الثقافة اليونانية في تعميق الفكر العربي حتى يسهم بجهده في تفسير الوجود وظواهره المختلفة ، كما أن هؤلاء العلماء نادوا بفكرة التطور على نحو ما ، وكان من آثارها تقريرهم أن اللغة ملكة صناعية ، وإن القول بالتوقيف فيها لا يمكن أن يطمئن إليه دارس إذ أن المجتمع هو الذي يصنع هذه اللغة ، ويمدها بأسباب البقاء ، ويطور من دلالاتها المختلفة فيصنع منها مصطلحات يتواضع عليها الدارسون في مختلف فروع المعرفة التي تتخذ أداتها في التعبير ، ويصنع من النظم الحاصل بين الفاظها أساليب يتفاضل بها الأدباء ويتمايز بها

المفتنون في التعبير الأدبي الراقي .

فقد رأينا اذن أن هاتين المدينتين أرستا اصول الدراسة العربية واللغوية ، ووضعتا مناهجها .

وفي مصر أنشئت الفسطاط وبني بها جامع عمرو بن العاص ، وكان يومئذ كبقية المساجد العربية الإسلامية يقوم بالدور الذي تقوم الجامعة اليوم فيدوي في أرجائه أصوات الطلاب وقد علت يسألون ، ويناقشون ، ويثور بينهم الجدل وتشتد الخصومة ، إما طلباً للحقيقة أو مغالبة في الرأي ومكاثرة به .

وفي هذا المسجد تصدى الشافعي بعد رحلته إلى مصر للتدريس به يلقاه فيه تلاميذه ، والمحبون له ، وفيه أملي تلك البحوث القيمة التي تركها سواء في فروع الفقه الإسلامي أم في أصوله ، وقد تغيرت نظرته إلى مذهبه القديم فأنشأ يقيم لنفسه مذهباً جديداً بعد أن زادت خبرته بما عند العلماء والفقهاء في البلاد التي هاجر إليها من الأحكام والأقضية ، والقواعد والأصول وفي هذا المسجد أملى رسالته في الأصول المعروفة برسالة الشافعي وقد نشرت مرات كما أنها ترجمت إلى اللغة الانجليزية مع مقدمة طويلة كتبها المترجم الدكتور مجيد ضروري العراقي « المتأمرك » .

ولنستمع إلى ما يقوله الباحثون الأوروبيون «فشخت» و«جب» يتفقان على أن الشافعي أول من وضع نظرية متكاملة في التشريع أصولها أربعة : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وان رسالته أول عمل علمي منظم يكشف للدارسين عن معالم الطريق في حياة هذا التشريع ...

ومثل ذلك كله نجده في المدن العربية الإسلامية التي أنشأها العرب في البلاد المفتوحة في القيروان ، وغرناطة وما إليها ، وإن كانت الدراسة في هذه المدن تكاد تكون صورة لما كان عليه الأمر في المدن العربية الشرقية ، فقد تحولت هذه المدن جميعها معاقل للفكر ، وحصوناً للثقافة بعد أن

أدت دورها الأول معسكرات للجند ، وأماكن لتدبير أمر الفتح والتمكين له ، وقيادة الشعوب المفتوحة .

ويمكن أن نلخص ما انتهى إليه الأمر في هذه المدن وهو إرساء أصول البحث ، ومناهج النظر في ضروب المعرفة المختلفة في :

١ – المنهج التاريخي في عرض الآراء وتنسيقها .
٢ – المنهج الاستقرائي في جمع الجزئيات في الموضوع الواحد ، والانتهاء من هذا الجمع والتصنيف إلى استنباط القواعد العامة التي تحكم سير الفكر العربي ، وتوجه نشاطه وتبعث فيه الحيوية المتجددة على مر العصور ، وتوالي الأيام .

بغداد ودورها في حركة الترجمة :

مما نقول فيه عن نشأة المدن العربية وأثرها في تنظيم المعرفة ، وبعثها ، وتجديد حيويتها أن نتحدث عن بغداد وبنائها ، وإنما أخرت القول في بغداد ودورها في حياة الحضارة العربية ذلك لأن لهذه المدينة أثراً يكاد يكون فريداً وهو حركة الترجمة التي قام بها الخلفاء العباسيون والتي لونت الفكر العربي بلون جديد ، وأمدته بغذاء يكاد يكون جديداً لم يعرفه من قبل في عصوره الأولى قبل أن ينتقل الأمر إلى هؤلاء العباسيين ، بعد أن استبدت عوامل الضعف بالدولة الأموية حتى أدت بها إلى الفناء ، غير أن هذه الدولة وإن سارت إلى زوال في المشرق ـ فقد بعثت من جديد في بلاد الأندلس فكان لها دور آخر في الحضارة العربية ـ في غير دمشق عاصمتها الأولى .

وقد بنى المنصور الخليفة العباسي بغداد على نهر دجلة في سهل خصيب ـ على طريق التجارة بين الشرق وآسية الصغرى ، ويقال أن المنصور أمر باجتلاب العمال من الشام والموصل وفارس وبابل ، كما أحضر المعمارين والمهندسين

من سائر البلاد فاجتمع في بنائها ما أبدعتـــه الأمم جميعاً في فن العمارة والهندسة والتخطيط كما بنى في وسطها مسجداً أدى نفس الدور الذي أدتـه المساجد التي شيدت في المدن العربية الأخرى من حمـــاية الفكر ودراسته ، وخصوبته : يقول « هل » في كتابه الحضارة الإسلامية : «ومما يفخر به الإسلام أنه لم يهمل أو يقلل من شأن فروع المعرفة الأخرى وإنما سمح لها بأن تدرس في نفس المكان الذي درست فيه علوم الدين واللغة وظل المسجد حتى القرن الخامس الهجري جامعة الإسلام وأدت هذه الحقيقة إلى ظهور أعظم خاصية امتازت بها الحضارة الإسلامية وهي الحرية التامة في التدريس » .

فالتقى في هذه المساجد الفكر الديني القائم أصلاً على مقررات إسلامية خالصة ، والفكر الديني المعتمد على الفلسفة والترجمات من الحضارات المختلفة ، وإلى جانب هـذين كانت تدرس العلوم الإسلامية الخالصة التي اقتضت دراسة النصوص الدينية وجودها من لغـــة ، إلى شعر ، إلى نحو ، وفي بغداد ظهرت حركة الترجمة واسعة من كل علم وفن ، وقد استطاع صاحب الفهرست في أواسط القرن الرابع الهجري أن يصنف المعارف التي كانت شائعة في الدولة الإسلامية وأن يخص المترجمـــات بمقال طويل تحدث فيه عن الكتب التي ترجمت إلى العربية ، كما أشار إلى جملة المترجمين الذين قاموا بهذا العمل ، وكفلت لهم الدولة الإسلامية حياة الاستقرار والطمأنينة وكان أن أنشأ المأمون دار الحكمة وجمع فيها أولئك المترجمين ووفر لهم أسباب الحياة المستقرة الهـــادئة حتى يقوموا بما كلفوا به من ترجمـــات وهم آمنون وادعون .

ولا حاجة بنا هنا أن نتناول تفصيلاً حياة المترجمين وأنواع المترجمات ولكن ينبغي أن نذكر أن الترجمة لم تقتصر على التراث اليوناني الذي كان يدرس في المدارس المنبثة في هذه المنطقة في جند يسابور وحران ونصيبين ، وإنما تجاوزته إلى الترجمة عن الهنود والفرس وهما الأمتان اللتـــان امتازتا بحضارة عريقة ، في الأدب والفلسفة والفن ، وتظهر سماحة الدولة الإسلامية

وتقديرها للعلماء والمفكرين في أنها أحاطت أولئك المترجمين بالعناية البالغة حتى اتخذتهم سفراءها في الأمبراطورية الرومانية الشرقية للبحث عن الكتب النـــادرة ابتغاء نقلها إلى العربية للإنتفاع بما فيها من آراء وبحوث في الفلسفة والعلم .

ولم يكن كثير من أولئك المترجمين يعرفون العربية بحيث يمكنهم النقل من اليونانية إلى العربية ولذلك ترجموا من اللغة الإغريقية إلى السريانية وقام مترجمون آخرون بالنقل من السريانية إلى العربية وقد تعرضت المترجمات في رحلتها هذه إلى كثير من التحريف .

وما كاد العرب يلمون بهذه المترجمات ويدرسونها حتى أضافوا إليها إضافات جديدة خلدت أسمـــاءهم ، وقسمت لهم صفحات مشرقة في تاريخ العلم .

ويمكن أن نستعرض في إيجاز ما حققه العرب في فروع المعرفة المختلفة.

لقد وجه العرب شطراً كبيراً من عنايتهم إلى الرياضيات فـكانت ترجمة رياضيات إقليدس إلى العربية ، كما أنهم أخذوا نظام الكسور العشرية من الهنود وكانت علامة الصفر التي اخترعوها ذات أهمية بالغة في تقدم الرياضيات ، كما أن تقسيمهم للأعداد إلى زوجية وفردية أعانهم على استنباط قواعد الجـــذور التربيعية والتكعيبية ، وقد ألف الخوارزمي الرياضي كتابه لتدريس الجبر ودعمه بالأمثلة كما أن العرب أضافوا جديداً في حساب المثلثات ونظريات الزوايا والتماس ، ولم يقف نشاط العرب عند ذلك الحـــد بل انهم اتجهوا إلى البصريات ودراستهـــا ووصلوا من ذلك إلى أن المرآة ترى بوساطة الأشعة المنعكسة منها على العين الرائية كما عرفوا انكسار الأشعـــة وتأثيره في حركة الرؤية التي تقوم بهـــا العين وقد اشتهرت بحوث ابن الهيثم بين علماء أوروبة المعنيين بهذا اللون من الدراسات العلمية التجريبية ، إلى جانب هذا كله عنى العرب بالفلك فأقاموا المراصد أيام المأمون ، ووصلوا من هذا كله إلى

نتائج قيمة أضافت جديداً إلى الفلك ، وحدد البيروني مقدار محيط الكرة ، وبفضل هذه البحوث استطاع المسلمون أن يحددوا اتجاه القبلة المفروض عليهم في الصلاة .

كذلك وصل العرب الى أن ضوء القمر مستمد من الشمس ، وكان البتاني والفرغاني اللذان تمتعا بشهرة واسعة معلمي أوروبة في الفلك ، وقد ظلت المصطلحات العربية شائعة في اللغات الأوروبية إلى اليوم مثل كلمة « سمت » .

وليس من شك في ان العرب أيضاً اضافوا الجديد الى الكيمياء ذلك لأنهم اعتمدوا على التجربة والتطبيق ولم يكتفوا – كما صنع الإغريق – بالتأمل المجرد والى جانب هذا كله تقدم العرب في الطب وأضافوا إليه إضافات جديدة واكتشفوا المجهول من دورة الدم في الجسم وأقاموا تشخيصهم للأمراض وعلاجها على هدى من هذه الكشوف ، ومن المعروف ان كتاب القانون في الطب لابن سينا ظل يحتل مكانة كبيرة بين مواد الدراسة في جامعات أوروبة حتى القرن السابع عشر ولا شك أن العناية بالطب اقتضت دراسة النبات وخصائصه ابتغاء الاستعانة بالمستخرجات منه في صناعة الادوية ، والعلاج بها ، ويعد جابر بن حيان أقدم من جهز العقاقير واستخلصها من موادها الاولى ، ولقد ساعد العرب على تحضير الدواء براعتهم في الكيمياء وبخاصة ما يتصل منهـا بعمليات الصهر والإذابة والترشيح والتبلور والتقطير والتسامي ، كمـا عرفوا الشبة ونترات البوتاس والقلويات المجهزة من ملح الطرطار ونترات البوتاس وما إليها ..

وإذا كان العرب لم يبرعوا في فن التشريح لأن الدين وقف دونهم حائلاً بين تشريح الاجساد فإنهم برعوا في أمراض العيون وعلاجها والكسور وجبرها ووصلوا في هذا كله الى مستوى خلدت به أسماءهم .

فقد رأينا إذن أن الحضارة العربية في المشرق قامت بعملين هامين :

١) حفظ التراث الانساني في العلم فترجمته إلى العربية ، وحمته من

عوادي الزمن وعبث الأيام .

٢) أنها لم تكتف بمجرد الترجمة بل أضافت إليه الجديد في كل نوع منه ، ولا تزال بحوثهم في هذه النواحي يشار إليها في تاريخ العلم .

وبذلك أدت بغداد دوراً هاماً في تاريخ الحضارة العربية ، وصلت فيه حاضر هذه الحضارة بماضي الانسانية الطويل ، في العلم والفكر والفلسفة والاجتماع .

وهنا ينبغي أن ننظر فيما أثاره بعض الباحثين الذين تصدوا لدرس الحضارة الإسلامية العربية بعامة وهو محاولتهم رد كل شيء وصل إليه العرب إلى أصول سابقة ، ولكنهم في الرد يحاولون جهدهم أن ينتقصوا من أمجاد العرب ، وفضلهم على العلم والفكر وكأن دراساتهم الغاية منها – فيما يزعمون – أن يستروا الحقائق ، أو يشوهوها ، أو ينالوا من أصحابها .

والواقع أن مؤرخ الحضارة – مهما أوتي من سعة العقل ورجاحة الفكر ، وأصالة البحث ووسائله لا يستطيع أن يؤرخ أوليات الأشياء وذلك لما بينه وبينها من أبعاد زمنية واسعة لا تتضح فيها الرؤية ، ولا ينفذ إليها عقله مهما يكن حظه من القوة والعمق والإدراك .

على أنه ينبغي أن نقرر أن الحضارات تقترن دائماً بأزمان وتتحدد بسنين وإن تكن بعض مقرراتها يكتب لها البقاء ، ويكفل لها الخلود لأسباب تعود إلى طبيعة هذه المقررات والحضارة العربية كغيرها من الحضارات لا تستطيع أن تأتي ببدع ليس له سند من الواقع التاريخي للحضارات السابقة عليها ، ذلك لأن كل حضارة تقدر دائماً المحاولات الإنسانية السابقة عليها ، فتضيف إليها أو تعدل فيها ، أو توجه سيرها إلى غاية أرشد وهدف أسمى .

والحضارة العربية ـ تمثل العصور الوسطى تمثيلاً دقيقاً ويكفي أنها احتملت أمانة المحافظة على التراث الإنساني ومكنت له وانها قدرت أن هذا التراث ملك للإنسانية جميعها لا فرق في ذلك بين أمة وأخرى ، وإن يكن بعض المؤرخين للحضارات قد اتهموا العرب بعدائهم للفكر والعلم

مستدلين على ما يذهبون إليه من أن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية أول عهدهم بفتح مصر – وهو استدلال برواية تاريخية لم يقم الدليل على صحتها ويرفضها جملة وتفصيلاً – أن الإسلام الذي حمله أولئك الفاتحون – دين يقدر المعرفة ويدعو إليها ، ويفضل العلماء على غيرهم ممن لم يكن العلم سمة لهم أو حلية يزدانون بها .

ومما لا نزاع فيه أن العرب ـ في ذلك العهد الثاني من تاريخهم وهو العهد العباسي عنو بالعلم التجريبي المؤكد للحياة ، والكافل لها أسباب النمو والإطراد ، والحيوية وبذلك اجتمع لهذه الحضارة في هذه الفترة ـ أمران أولهما : **العناية ببناء الانسان روحياً ونفسيا ، وثانيهما : دعم الحياة الانسانية مادياً وفكرياً عن طريق العلم والفكر .**

وبهذه الحضارة التي اجتمع لها هذان الأصلان : الأصل الديني في سمو تجربته وصفاء عقيدته ، والأصل العلمي والفكري ـ بترجماته[1] عن الأمم الأخرى ، انتقل سير الحضارة ـ الى الاندلس وهو البلد الموصولة أسبابه بأوروبة ، والذي كان أحد الطرق التي انتقلت بها هذه الحضارة الى أوروبا فكانت أهم حركة في بعث الحياة الفكرية والعلمية فيها حتى كان ذلك بداية عصر النهضة الجديد في الحياة الأوروبية .

الحضارة العربية في المشرق الاسلامي :

لم تبق الحضارة العربية في بغداد والمدائن الاخرى وانما كذلك انتقلت مع الفاتحين الى الشرق الاقصى ، وقد كان لها آثارها القوية في حياة تلك الشعوب التي تسكن هذه الاصقاع النائية ، فقد نقلتها جملة من طور الى طور آخر من أطوار التقدم العمراني ، سواء في العقيدة التي دانت بها

---

(١) أنظر فى حركة الترجمة : كيف وصل العلم اليوناني الى العرب تأليف « أوليرى » ، الترجمة العربية ثم الطب العربي «لبراون كامبردج» ١٩٢١ وكتاب :

Aralic thought anb the western world, by Myers Eugene

والفهرست لابن النديم .

أم الشريعة التي اتبعتها في تنظيم حياتها ، أم في الفكر وسائر الفنون التي انتجتها وامتازت بها ، وقد أشرت من قبل الى أن اختراع الخليل للعروض كان ذا أثر بارز في الشعر الفارسي ، كما ألمحت الى أن المعاني العالية التي جاء بها القرآن والحديث كانت من بين المعاني التي اعتمد عليها أدباء الفارسية الجديدة في تلوين فنهم وأدبهم ، برغم المنهج الذي سلكه كل فريق منهم في صياغة هذه المعاني ، وعرضها فنرى مثلاً شاعراً كجلال الدين الرومي يتبع الرمزية في شعره ويحاول أن يستنبط من النصوص الدينية التي ساقها في كتابه : « معاني بعيدة » ومرامي واسعة تستهدف تربية الإنسان واستكشاف ذاته كما يقولون ، وكذلك كا كان لهذه الحضارة أثرها في الشيخ سعدي وحافظ شيرازي في غزلياته ، ثم في نظامي كنجوى وهو من أدباء الفرس الذين امتازوا بطريقة خاصة في التعبير ، والعرض ، وتناول الفكرة .

ومن أولئك الفرس من أقبل على دراسة العربية حتى برع فيها وشارك في كثير من الإنتاج العلمي والأدبي .. هذا الى ما أحدثه الإسلام من تغيير شامل في النظام الاجتماعي السائد قبل الفتح فقد أبطل نظام الطبقات القديم ، كما اتخذ الفرس بعد أن استقلوا عن الدولة العباسية في العهد الساماني ٢٦٢ - ٣٦٨ الحروف العربية لكتابة لغتهم الجديدة التي جمعت طائفة كبيرة من الكلمات العربية مع تغيير في مدلولها أحياناً كما أن هذه اللغة احتفظت بالمصطلحات العربية في العلوم والفنون وهي بذلك تؤدي الدور الذي أدته اللاتينية في أوروبة من حيث اجماع أممها على هذه المصطلحات ، ولا نستطيع أن نقبل أن الأوزان الفارسية التي نظم فيها الشعر الفارسي الحديث أوزان بهلوية كما يدعي « بارتولد » ذلك لأننا لا نعرف قليلاً ولا كثيراً عن هذه الأوزان على أن التفاعيل التي جرى عليها العروض الفارسي هي نفس التفاعيل

العربية مما يؤكد انتقال هذه الأوزان الى الشعر الفـــارسي الحديث ، ولكن هذا الانفصال عن الدولة العباسية وإحياء السامانية ومن جاء بعدهم التراث الفارسي ، لم يلهِهم عن الإسلام والعناية به ، ودراسة الآثار القيمة التي خلفها العلماء المسلمون ، ويذكر المؤرخون ـ أنه بالرغم من أن اللغة الفارسية أصبحت لغة هذه الدول الرسمية فإن أصحابهـــا لم يستغنوا عن الكتاب العرب بل كانوا يوظفونهم في قصورهم ، ويبذلون لهم العطاء ، ويكفلون لهم أسباب الطمأنينة والرفاهيـــة ، وهؤلاء الكتاب في واقع الأمر ـ كانوا يؤدون نفس الدور الذي أدّاه المترجمون في الدولة العباسية من النقل عن اليونان والفرس والهنود غير أن هؤلاء السامانيين لم يكن يعنيهم النقـــل عن هؤلاء الأمم بقدر ما كان يعنيهم الاتصال الدائم بالحركة الفكرية والدينية الإسلامية ، فالسامانيون ـ كانوا حقاً ـ حمـــاة أهل السنة ـ وفي أيامهم ألفت كتب عن العقيدة الإسلامية لحماية عامة الناس من الانحرافات الدينية العقدية التي كان يدعو إليها بعض الدعاة ، وكان يكتبها بالعربية علماء عرب ذلك لأنهم أقدر على فهم أصول العقيدة واستقرائها من النصوص الدينية ، ومن عمل المسلمين الاولين من سواهم ـ ثم تترجم الى الفارسية ليقرأها عامة الناس ، والظاهر أن هؤلاء العرب كانوا قد جمعوا العلم باللغتين حتى يستطيعوا أن ينهضوا بهذه الترجمة في كثير من الدقة والأمانة والفهم ، وفي زمن السامانيين ترجم تفسير الطبري إلى الفارسية ، ولهذا التفسير مكانته في تاريخ الحضارة العربية والإسلامية إذ أنه كما يقول كاتب مادة طبري ـ في دائرة المعارف الإسلامية يمثل الأعمال التفسيرية التي قام بها علمـــاء القرون الثلاثة الاولى للإسلام سواء ما كان منه متصلاً بالرواية أم اللغة ، أم التاريخ أم ما إليها مما يحوج إليه فهم النص القرآني والإفادة منه .

وهكذا ازدهر الأدب الفارسي في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس

المهجريين في القسم الشرقي من إيران ، ولكنه أدب تتمثل فيه الروح الإسلامية وتتضح في جوانبه أصولها ، وتقاليدها .

غير أن هذا الازدهار في حياة اللغة الفارسية في هذه الحقيقة لم يقض على العربية فقد استقر العلماء المتكلمون بها غربي إيران ، وقد نبغ منهم الرئيس ابن سينا ٣٧٠ هـ - ٩٨٠ م في إحدى قرى بخاري وقد طلب العلم منذ صغره ، وطوف في كثير من البـــلاد ابتغاء تحصيله ، وقد أتقن أصول الطب ووصله ذلك ببني بويه فحظى عندهم بمكانة رفيعة ومنزلة عالية ، وكتابه القانون في الطب من خير المصادر التي كان يعتمد عليها في دراسته وهو الذي أكسبه تلك الشهرة الواسعة في الشرق والغرب ، وقد عاصر البيروني - أبو الريحان - ابن سينا ٣٦٣ - ٤٤٠ ولقيه وجادله جدالاً شديداً حول بعض المسائل العلمية وقد ترك هذا الرجل كثيراً من البحوث القيمة التي أشاد بها مؤرخوا الحضارات ، بل ووضعوه بها - بين عباقرة العلماء فقد وصفه بعض المورخين الأوروبين بأنه لا نظير له ، وإن البحوث التي تركها أضافت إلى العلم والفكر جديداً وقد أعانه على هــذه الدراسة الواسعة أن السلطان محمود الغزنوي مكن له من نفسه وأضفى عليه النعمة .

فإذا اتجهنا إلى أقصى المشرق - صادفتنا نهضة علمية واسعة اتخذت لغتها العربية ووصلت إلينا بعض ما كتبه أصحابها وما تزال موضع عناية بعض الدارسين الى اليوم .

وهنا نلحظ ظاهرة جديدة بالنظر ، وهي أن هذه المنطقة عنيت بأمرين أولهما دراسة التشريع الإسلامي ، والعلوم المعينة عليه ، ثم دراسة البلاغة العربية ، فالسكاكي مثلا - أحد اعمدة البلاغة العربية التقليدية ممن نسل من اصل فارسي ، بل وقضى حياته كلها على هذه الأرض وكتابه المفتاح في علوم البلاغة هو اول ما وضع تقسيم علوم البلاغة إلى المعاني والبيان والبديـع

وكانت قبله تدرس موضوعات متلاحمة بل كانوا يسمون البلاغة كلها تارة بالبيان ، وأخرى بالبديع وثالثة : بالنقد ، كما ظهر فيها عبد الحكيم السيالكوني وقد اشتهر بشروحه وتعليقاته على كثير من الرسائل البلاغية وفيها ظهر السعد التفتازاني صاحب الحواشي المعروفة ويعد من أذكياء القوم ومن هذه المنطقة كثير ، كالفخر الرازي ، والنسفي ، والبيضاوي ويذكر كاتب مقال الحضارة العربية في كتاب العصور الوسطى بالانجليزية – أن تفسير البيضاوي يمثل قمة ما انتهى اليه التفكير الديني الإسلامي في التفسير في هذه الحقبة ، وقد به طائفة كبيرة من العلماء ، فوضعوا عليه الحواشي والتقديرات والشروح والزمخشري صاحب التفسير ، والأطواق وغيرها من الكتب فارسي ايضاً والد هلوي له موسوعته المعروفة في تاريخ التشريع المسماة : حجة الله البالغة . وبها أضاف الى تاريخ التشريع جديداً لا يزال موضع عناية الدارسين الى اليوم .

وقد تأثرت الدراسات البلاغية عند الفرس بما وضعه هؤلاء العلماء من أصول الدراسة فيهذا الفرع من تاريخ الحضارة الإسلامية .

وهكذا نرى أن الحضارة العربية الإسلامية كان لها ابلغ الأثر في تلوين الحياة العقلية والدينية في هذه المنطقة من الأرض .

وليس هذا بعجيب فأن الموالي – في صدر الدولة العباسية وهم أسلافهم قد أسهموا بجهد ملحوظ – في تاريخ هذه الحضارة وكان لهم نشاطهم الواسع في مختلف فروع الثقافة الإسلامية ، فلهم طريقتهم الخاصة في تقسيم المدلول الذي تدل عليه الألفاظ وربما كان اتجاههم في هذا التقسيم أدق وأشمل لما لبيئتهم من تجربة سابقة في الدرس اللغوي فترى العرب مثلا يقسمون الدلالة الى منطوق ومفهوم ويقسمها الموالي الى تقسيمات أكمل وأشمل من ذلك عبارة النص ودلالة النص ، وفحوى الخطاب وما اليها مما يذكره المتصدون للدرس اللغوي المقارن بين مناهج هذه الدراسة في البيئات الإسلامية .

Gambridge's Medieval History IV .

الى جانب هذا كله.. عنوا بالحديث النبوي ، ونقده وتوثيق المروي منه ولهم في هذه السبيل محاولات تقترن بأسمائهم .

الاندلس ودورها في نقل الحضارة الى اوروبة

لا أخص هنا بلاد الأندلس وحدها ، وقد أشرنا قبلاً إلي امتداد حدود الدولة العربية الإسلامية غرباً حتى شملت بلاد الاندلس ، كما ذكرت أن الامويين الذين انتهت دولتهم في المشرق هم المؤسسون الاول للدولة العربية في الاندلس وقد طال حكمهم فيها إلى قرابة قرنين من الزمان ويعد أزهى عصور الحضارة العربية فقد تقدمت فيه الصناعة تقدماً ظاهراً وقد ساعدهم على ذلك تحسين وسائل الري ، واستنبات كثير من النباتات المعينة عليها كالارز وقصب السكر والنخيل والرمان وهي جميعها مما نقلوا أصولها من الشرق إلى جانب أنهم شجعوا دراسة الادب، وأكرموا نزل الادباء الذين ارتحلوا إليهم ، وقد كانت بيئة قرطبة من أصلح البيئات الاندلسية لأن تزدهر فيه الثقافة ، وتنمو المعرفة - والواقع ان الدراسات الادبية واللغوية في الاندلس كانت صورة دقيقة لما كان عليه الامر في المشرق - إذا استثنينا آثار البيئة الاندلسية في حياة الادباء فقد أمدتهم بكثير من الاخيلة والصور الفنية التي اكسبت إنتاجهم الفني قوة وحيوية ، كذلك تقدم الفن المعماري تقدماً ملحوظاً في الاندلس فقد التقت في مساجدهم وقصورهم فنون هندسية يكشف عنها المؤرخ الدقيق لسير الفنون المعمارية في البيئات الإسلامية المتعددة ، كل الذي نريد أن نلفت إليه أن الحضارة العربية في الاندلس وصقلية وبقية الجزر التي فتحها العرب واستقروا فيها قد لفتت الشعوب الاوروبية وبهرتها لما حوته من ثقافات وفنون ومعارف ، حتى أن كثيراً من الملوك ، والسادة ، في تلك الشعوب كانوا يرسلون أبناءهم إلي الاندلس ليتعلموا العربية ابتغاء التثقف بما فيها من ألوان المعرفة ، وضروب الفكر ، كما أنه أنشئت كما

يقول Oleeny [١] مدارس للترجمة من العربية الى اللاتينية في طليطلة وغرناطة وذلك لترجمة التراث العربي الى هذه اللغة التي كانت لغة العلم – في هذه الفترة – من تاريخ الحضارة الأوروبية .

ولا نزاع في أن هذه الترجمات لم تقتصر على العلم وحده وإنما تجاوزته الى الأدب وفنونه المختلفة . وقد نقل الاستاذ جب في مقاله القيم في كتاب تراث الإسلام الذي ترجم الى العربية كلمة عن الاستاذ ماكييل Mackail في محاضراته عن الشعر قال فيها « إن أوروبة مدينة للبلاد العربية بنزعتها الرومانسية » ويرجح الباحثون أن جهات انتقال هذه النزعات الأدبية كانت ثلاثاً : أولاها جهة القوافل التجارية التي كانت تغدو وتروح بين آسية وأوروبا الشرقية والشمالية عن طريق بحر الخزر او طريق القسطنطينية وربما كانت هذه هي السبيل التي وصلت منها أطراف من الأخبار الاسلامية الى بلاد السكنداف . والثانية جهة المواطن والأصقاع التي احتلها الصليبيون في اثناء إغاراتهم على حدود الدولة الاسلامية والتي نشبت أزماناً طويلة بين سوريا ومصر وسائر الأقطار الاسلامية . ويؤكد مؤرخو الحضارات أن الاتصال المادي ينتج اتصالاً ثقافياً ومعنوياً . أما الجهة الثالثة فهي الأندلس وصقلية وغيرهما من البلاد التي قامت فيها حضارة عربية ومن بينها تلك الجزر التي فتحها العرب واستقر كثير منهم فيها، وجعلوا ينشرون فيها ما حملوه من ألوان الفكر وضروب المعرفة ،والتي جذبت إليها كثيراً من الأوروبيين فساحوا إليها ينهلون من مواردها الجديدة وثقافتها الوافدة ومن بين هذه الجزر صقلية ، وقد تناول آثار العرب فيها تفصيلاً الاستاذ أماري في كتابه عنها ، ويذكر الاستاذ (أربوثنت) [٢] في كتابه « المؤلفون العرب » أن كتاب ألف ليلة وليلة قد حظي بعناية كثير من مؤرخي الغرب

---

(1) Arabic Tought.

(2) Ardouthnott, Arabic outhers

ومفكريه وأن ما اشتمل عليه من ألوان القصص والليالي كان من بين المواد الأدبية التي غذت الأدب الأوروبي بزاد جديد أكسبه قوة وحيوية ، وربما كانت صلة دانتي بالثقافة العربية أوضح من صلة غيره من الأدباء الذين تأثروا بهذه الثقافة ، ونقلوا عنها ، إن لم يكن في الموضوعات – ففي الروح التي بها تتناول المعاني الأدبية ، وتنتج بها الصور الفنية ذلك لأن هذا الأديب الايطالي أقام في صقلية على عهد الملك فردريك الثاني الذي كان معنياً بدراسة الثقافة الاسلامية في مصادرها العربية . ويذكر التاريخ أنه دارت بينه وبين هذا الملك مساجلات في مذهب ارسطو كان بعضها مستمداً من الأصل العربي . وقد لاحظ كثير من العلماء أن الشبه قريب جداً بين أوصاف الجنة في كتب محي الدين بن عربي وأوصاف دانتي في القصة الإلهية وقد أكد الاستاذ (اسين بلاسيوس) أن دانتي اقتبس كثيراً من رسالة الغفران وتأثر بطريقة الرجل في عرض فكرته عن رحلته إلى العالم الآخر كما تأثرت القصة الأوروبية في نشأتها بما كان عند العرب من فنون القصص في العصور الوسطى وهي المقامات وقصص الفروسية . ويرى جماعة من النقاد الأوروبيين أن رحلات جليفر وروبنسون كروزو مدينة لألف ليلة وليلة ورسالة حي بن يقظان التي كتبها الفيلسوف العربي ابن طفيل .

ولم يقف تأثر أوروبا بالأدب العربي – عند هذا الحد – بل إنا نجد كثيراً من الأدباء الأوروبيين الذين وضعوا أصول الحياة الأدبية – عندهم – يشيرون في كتاباتهم الي شيء من اثار هذا التأثر وقد كتب الاستاذ (رن) [1] في كتابه تاريخ اللغة الانجليزية فصلاً قصيراً عن أثر اللغة العربية ، في اللغة الانجليزية وأرجع بعض الألفاظ إلى أصولها في اللغة العربية .

ولهذه الألفاظ دلالتها الحضارية والعمرانية التي تأثر بها أصحاب هذه اللغة المنقول إليها فلقد نشطت البعثات كما قلت الى بلاد الأندلس من أعماق

---

(1) History of English Language

القارة الأوروبية لدراسة العلوم والفنون والصناعات وليشهد المبعوثون بأعينهم مدى التقدم والازدهار اللذين أحرزتهما الحضارة العربية - في رحلتهـا الطويلة الى هذه البلاد ويذكر المؤرخون ان هـــذه البعثات كانت ثلاثاً أولاها بعثة فرنسية برئاسة الأميرة اليزابث ابنة خال الملك لويس السادس ملك فرنسا ، والثانية انجليزية ، والثالثة اسبانية . ويقدر المؤرخون أن عدد الطلاب في هذه البعثة يصل الى قرابة سبعمائة طالب وطالبة ، كذلك وعى التاريخ كثيراً من الرسائل التي دارت بين بعض الخلفــاء الأمويين في الأندلس وبين بعض من ملوك أوروبا يومئذ فقالوا إن الأميرة دوبانت وكانت على رأس البعثة الثانيــة كانت تحمل رسالة من الملك جورج الثاني ملك انجلترا وذلك نصها :

« من جورج الثاني ملك انجلترا والغال والسويد والنرويج الى الخليفـة ملك المسلمين في مملكة الاندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام . بعـد التعظيم والتوقير فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهـد العلم والصناعات في بلادكم العامرة فأردنا لابنائنــا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداءة حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يحيط بهـا الجهل من أركانها الاربعة وقد وضعنا ابنة شقيقنا الاميرة (دوبانت) على رأس بعثة من أشراف بنات الانجليز ... » وقد بعث معها هدية للخليفة ثم رد عليه هشام برسالة رقيقة ومعها هدية له ...

ونلحظ في رسالة هشام الى الملك جورج روح التسامح والتقدير مع الاعتزاز بالنفس ، كما أن فيها أنه استشار من يعنيهم الامر من الموجهين للحركة العلمية في الاندلس فوافق بعد استشارتهم . وإنمـا أشرت الى هذه البعثات لتقدير مدى اعجاب الاوروبيين ورؤسائهم بحضارة العرب وإقبالهم عليها وتقديرهم لاهلها ، وإجلالهم لسلطانهم .

ويؤكد المؤرخون ان أغاني الحب التي ظهرت في الغرب في هـذه الفترة قد تأثرت بكثير من النزعات التي شاعت في الشعر العربي في الاندلس وفي

المشرق فقصيدة العباس بن الأخنف التي وجهها الى صاحبته فوز تمثل هـذه النزعة وهي بادية الأثر في شعر التروبادور الأوروبي . على أن شعراء البروفانس تبنوا كثيراً من أشكال الدورة المعقدة عند العرب ونظموا فيها بعض أشعارهم على أن المدرسة الحجازية في أوروبة في القرون الوسطى كانت وليدة الحياة الحماسية الحجازية التي سرت إلى الغرب كله من حركة الفتح الاسلامي التي قام بها العرب في حوض البحر المتوسط وفي غيره من الأقاليم والأصقاع التى دانت لحكمهم وانتشرت فيها ثقافتهم ، وتغنى بأمجادها شعراؤهم ، ولهذه النزعة آدابها المقررة ، وتقاليدها المرعية ، وكانت هـذه التقاليد والآداب قد استقرت ، وأجمع عليها الناس وأنشأ شعراء العربية يشيرون الى كثير من أصولها وتقاليدها .

والمعروف أن هذه النزعة يصاحبها في الانتاج الشعري – تلك المقدمات الغزلية التي يتشبب فيها الشاعر بصاحبته والتي يتحدث فيها عن حبه لها ، وغرامه بها وإشفاقه عليها إذا تعرضت بعده لحوادث الزمن وعوادي الايام .

وقد ظهرت هذه النزعة واضحة في كثير من شعراء أوروبة في هـذه الفترة التي نؤرخ لها .

وكان الناس يظنون أن العرب يرهبون البحر ، ويخشون السياحة فيه مستدلين على ذلك بكلمات مأثورة عن بعض العلماء في قول المبرد لمن يريد أن يقرأ كتاب سيبويه : هل ركبت البحر - ولكن الواقع التاريخي ينكر ذلك جملة وتفصيلاً ، فقد عرف العرب السياحة البحرية ، واستغلوها أيام الفتوح التي قاموا بها في البحر المتوسط ، وأقاموا دور بناء السفن وقد ساعدهم عليها معرفتهم بالفلك ، وسير الكواكب ، والأفلاك ، ومن أولئك الرحالة المسعودي ، وابن حوقل ، وياقوت الحموي الرومي والبيروني الذي تحدثنا عنه من قبل ، ويظهر أن المسلمين كانوا قد سبقوا أوروبة في هذا المضمار والدليل على ذلك أن بعض الكلمات العربية الخاصة بهذه الناحية لا تزال موجودة في المعجم الأوروبي

على اختلاف لغاته ولهجاته من ذلك كلمة أدميرال Admural وكلمة ترسانة tarsenal وكلمة Calibre [1] وهي كلمة قالب العربية .

وهكذا نرى أن الحضارة العربية أضحت في هذه الفترة تمثل اتجاهاً إنسانياً يشمل جميع المعارف والثقافات ، ويحاول أن يضيف إليها الجديد ، وأن يعمق آثارها في تربية الانسان نفسه ، وتنمية قدراته ، وملكاته ، بل إن القرآن جعل الرزق مقروناً بالعمل الجاد ، والسعي في سبيله . حتى أن بعض الباحثين يرى أن كلمة Risk الانجليزية هي كلمة الرزق – وأنها دخلت هذه اللغة من الطريق الذي دخلت إليه كلمات الملاحة العربية لارتباطها بها .

النزعة الانسانية في الحضارة العربية

قد رأيت في غير تعصب نحرص عليه أو نجادل عنه أن الحضارة العربية بما أبدعته من علوم وفنون ، وبما شاركت فيه من ترقية لمواريث إنسانية عامة فأضافت إليها ومكنت لها كانت حضارة إنسانية لا تعرف التعصب في الجنس أو اللون أو الثقافة ، أو الدين .

فقد نزل القرآن يؤكد أن ما يدعو إليه من أصول الاعتقاد ليس إلا ما كان يدعو إليه الرسل من قبله الذين اختصهم الله برسالته فقال : شرع لكم من ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه .

كما أشار أيضاً إلى أن الشرائع ينبغي أن تقدر التطور الذي تمر به الإنسانية سواء أكان تطوراً في الفكر أم في الماديات التي تعيش عليها ، ومن

---

(١) تراث الاسلام بالعربية تأليف ألفريد أرنولد وآخرين .

هنا اختلفت الشرائع من حقبة الى اخرى إذ يقول لكل جعلنا منكم **شرعة ومنهاجاً** كما أن هذه الحضارة سوت بين الناس جميعاً فلا فضل لعربي على عجمي . ولا للون على اخر فالنـاس سواسية كأسنان (المشط) كما يقول الرسول وكما يقول القرآن يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم ، كما أن كتابهـا الديني دعا إلى الاستمتاع بالحياة بما فيها من ضروب الترف والرخاء والمتعة . في الحدود التي رسمها ، وفي نطـاق الغايات التي أبانها فقال قل من حرم زينة الله التي أخرج لعبـاده والطيبات من الرزق فالتقشف المؤدي الى سوء الحيـــاة ، وقسوتها ليس من سنن دين هذه الحضارة ولا من أصوله التي دعا إليها وما قد يبدو في بعض العصور من تشدد يجافي هذه الروح وينأى منهـا فليس إلا نزعة فردية قابلة للدراسة والبحث ، وربما كانت أثراً من اثار نزعـــات سابقة وجد فيها المتأثرون بها ما يرضي نزعاتهم ويشبع أهواءهم ولكنها في جملتها لا تمثل اتجاهات هذه الحضارد ولا نزعاتها العامـة ومن خلال هذه الأصول المميزة لهـه الحضاره تعددت نزعاتها الانسانية . فوصلت حاضر هذه الحياة بماضيها في العلم والفن والاجتماع والسياسة . وأدارت محاولاتهـــا حول الانسان إذ أنه الأصل الاول الذي تقوم عليه الحضارة في نزعاته الفردية والجماعية ، والكشف عن طاقاته واستغلالهـــا ، وترقية عقله ومشاعره ، ومن هنا اهتمت هذه الحضارة بكل ما يعني الإنسان ويمكن لحياته ، ويرفه عيشه ، وينير له الطريق إلى حياة أفضل .. تنشد الكمال ، في جميع اتجاهاته، ومختلف ميادينه .

ولقد كان من أهم مظاهر هذه العناية ، وأشدها وضوحاً عنايتها بالعلم وقد رأيت كيف مكن العرب للاحاطة به ، والوقوف على اتجاهاته في حركةالترجمة، والعناية بالمترجمين ، وتوفير أسباب الحياة لهم .

وقد أدى هذا كله الى العناية بالمكتبة ، وتنظيمهـا وتصنيف الكتب

والبحوث بحيث يسهل الانتفاع بها واجتذاب الطلاب إليها ، ومن هنا شيدت هذه الحضارة المكتبات العامة ، وشجعت على ارتيادها ، ودفعت الناس إليها . وتسمع عن مكتبات بغداد وقرطبة ووصف ما كان بها - في الأخبار المنبثة في الموسوعات العربية كما انها عنيت بتصنيف المعرفة نفسها فوضعت الفهرستات المنظمة لها فتقرأ في كتاب إحصاء العلوم للفارابي ، ومفاتيح العلوم للخوارزمي ، وكتب البيروني كثيراً عن محاولات أولئك المفكرين تصنيف هذه المعرفة تصنيفاً يهيىء الانتفاع بها ، ويحدد ما بين فروعها من صلات .

ولم تغفل تلك الحضارة أصول البحث العلمي المحرر التي ينبغي أن يتبعها الباحث حتى يكون عمله قائماً على أرض ثابتة ، (ونحن نعلم أن البحث العلمي يقوم على الملاحظة والتجربة ثم الاستقراء وكان ذلك منهج هذه الحضارة - في كل فرع من فروعها كما أنها عنيت بتوثيق النصوص التي يتخذها المؤرخ أو المشرع سنداً له ، ومن هنا كما يقرر (روزنتال) وضع العرب أول منهج علمي في نقد النصوص وتوثيقها وهو ما اصطلح على تسميته (بمصطلح الحديث) ... فقد استطاع المسلمون أن يضعوا آصل الأسس في الدراسة التاريخية القائمة على النقل والرواية من حيث نقد الراوي للخبر ، وتقييمه - في الحدود التي وضعوها وأكدوا في بحوثهم أن أهم ما يقيم به الراوي : عدالته وجعلوا من بين هذه العدالة (دينه) ... ذلك لأن الدين يعصم من الكذب المؤدي إلى اضطراب الحياة وتهافتها والدين يربي الضمير وينقي النفس ، مما يضطرب في أرجائها من نزعات فردية جافية ، ويحول دون فساد الحكم على الأشخاص وقد ترتب على ذلك أن كان المسلمون أول من وضع منهجاً تاريخياً لدراسة التاريخ ، وتحقيق حوادثه ، وربط أجزائه بعضها ببعض والاستفادة من سير الاجتماع الإنساني - في تحقيق مفرداته ومركباته وكان ابن خلدون أول من جمع أجزاء هذا المنهج ، وأبان عن

أصوله ، وجمع المتفرق من قواعده . في مقدمته المشهورة وإذا كان ابن خلدون قد تأخرت حياته فإن أصول ما جمع من هذه النظرية كان قد سبقه إليه كثير من المؤرخين عليه كما أن من آثاره أيضاً ، اهتمام هذه الحضارة بالرحلات الى الأماكن البعيدة والأقطار النائية لتسجيل ما عند أهلها من مظاهر العمران والتخلف .

ومن هنا اهتمت الحضارة بالتاريخ ولم تقصر نشاطها فيه على العرب وحدهم وإنما تجاوزته الى ما استطاعت أن تصل إليـــه من الفترات التاريخية السابقة عليها ، وقد ظهرت الموسوعات التاريخية مؤكدة هذا الاتجاه ، ومؤصلة له فالطبري المؤرخ ـ في كتابه التاريخ أرّخ للفرس وحضارتهم ، وما زالت آثاره فيه من أوثق المصادر التي يعتمد عليه المؤرخ لسير الحضارة الفارسية ، قبـــل الإسلام ، كما أرّخ المسعودي لكثير ممـــا كان عند الأمم السابقة من مظاهر الحضارة والعمران في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر ، وكذلك صنع البيروني في تاريخ الهند (تحقيق ما للهند من مقولة) وفي الآثار الباقيـة وشبيه بما صنع هذان الرجلان ما قام به مسكويه في تاريخه (تجارب الأمم) .

ولقد كان أهم ما يميز هـــذه الحضارة كما قلت . العناية بالفنون كالموسيقى والغناء ، وما يقتضيانه من نصوص أدبية تلحن وتغني .. وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني يمثل حقبة من تطور الفن الغنائي والموسيقى في هذه الحضارة .. فقد جمع الأصوات التي كانت تغني وترجم لأصحابها ومن غناهـــا وأشار إلى اللحون التي كانت تستعمل في أدائها ، ولم يصـل البحث العلمي الحديث ـ إلى تحديد هذه اللحون ، والكشف عن المغلق من أسرارها وقد أدت العناية بهذه الفنون الى شهرة كثير من المغنيين، والجواري اللائي كن يغنينها، وقد ترجم لهم في افاضة وسعة ، النويري ـ في نهاية الأرب في بعض أجزائه .

ويذكر الأستاذ فارمر في كتابه عن الموسيقى العربيـــة أن العرب سبقوا الأوروبيين الى فرع من الهرمونية يسمونه التركيب ويعنون به توقيع النغمة

الواحدة من عدة طبقات في وقت واحد وهو غير الهرمونية كما تفهم اليوم،ومن الحقائق الثابتة أن أبناء أوروبة الغربية كانوا يتعلمون ضروب الأنغام ، وأفانين اللحون على أساتذة من عرب الأندلس وأنهم نقلوا بعض أسماء الآلات بألفاظها العربية فبقيت في لغاتهم تحمل آثار هذه الأستاذية وتخلدها على مر العصور منها كلمة Lutc وهي كلمة العود العربية وكلمة Rebec وهي الرباب العربية وكلمات أخرى لا نطيل بذكرها .

ومما هو بسبيل هذه النزعة الإنسانية في هذه الحضارة عنايتها بالأرض التي يعيش عليها الانسان ومحاولتها هدايته إلى جوانبها المختلفة كي يستطيع أن يمارس نشاطه فيها - وقد هدي إلى مسالكها وأرشد الى المخاطر التي تهدد حياته فيها .

وقد استطاع الإدريسي الجغرافي العربي أن يضع مصورة لهذه الأرض ، وكتابة نزهة المشتاق في اختراق الآفاق دليل هذه العناية، وبرهانها وقد شاركه كثير من الجغرافيين الذين أسهموا بجهودهم في هذه الناحية كابن خرداذبة واليعقوبي ، وسواهما .

وبعد - فهذه هي الحضارة العربية وذاك دورها- في نزعتها الإنسانية ، واتجاهاتها العالمية ، ودعوتها إلى حماية الإنسان وترقيته ملكاته ، وتعميق ثقافته ...

وبهذه النزعة الانسانية - أقبلت هذه الحضارة في العصر الحديث - على الحضارة الأوروبية تفيد منها في كل فرع من فروع المعرفة وتترجم عن علمائها وتشيد بآثارهم في ترقية الفكر ، وإنماء المعرفة .. ولكنها لم تقف موقف الناقل فحسب بل جهدت أن تضيف وان تعدل ، وعلماؤنا المحدثون يقومون بدور كبير في هذا السبيل ، فالمرحوم الدكتور علي مصطفى مشرفة - قد أضاف الكثير الى نظرية النسبية وقد أشاد بجهوده كثير من علماء أوروبة كما أن المرحوم الدكتور - محمد خليل عبد الخالق - قد أضاف هو الآخر بعض

المكتشفات الطبية بما اخترعه من أدوية وقد رثاه بعض أطباء الغرب يوم مات فقال لقد كان هذا الرجل أحد أعمدة الطب الثلاثة،وغير ذينك كثير لهم مكانهم في تاريخ الحضارة العربية .

(الثقافة العربية ودورها في المجتمع العربي اليوم)

إن الذين يدرسون الأصول الحضارية للشعوب لا يهملون دور الثقافة العميق في بناء هذه الشعوب ، وتحديد مكانتها في سير التاريخ ، وتأثيرهـا القوي في ميزان الحياة العالمية .

والمجتمع العربي يحتل مكانة كبيرة – في تاريخ الانسانية اليوم .. فهو يقع في بيئة وسط بين نزعات مختلفة ، واتجاهات في السياسة العالمية متباينة . وله موارده الطبيعية التي ترفع من شأن هذه المكانة وتفرض وجودها بين هذهالقوى المتصارعة ، كما أن له ثقافته الأصيلة التي شاركت ـ كما رأينا ـ في بناء الحضارة الانسانية ـ وهذه الثقافة تميزها خصائص : أهمها اللغة العربية التي عبرت عن هذه الحضارة ووسعت ثقافات الحضارات التي اتصلت بها ابان نهضتها ثمالتسامح الذي مكـّن لكثير من الناس أن يعيشوا على أرضها وينعموا برفاهـة العيش فيها ، وقد كفلت لهم حرية التفكير ، والإدارة ، والعمل ولا شك أن هذه الثقافـة هي الرباط الوثيق الذي يربط بين شعوب المجتمع العربي الكبير ، من شرقه إلى غربه ، وهي تحمل في أطوائها ـ الآمال المشتركة والأهداف التي يتطلع إليها .

ومن هنا كان دور الثقافة في حماية هذا المجتمع مما يدبر له من ضروب المكايد، وألوان التحدي ، كبيراً ينبغي أن نقدره ونحرص عليه ونمكن له .

ولا سبيل الى ذلك كله إلا بأن نحبب هذه الثقافة إلى أبناء هذا الوطن وأن نيسر سبلها إليهم، مهما كلفنا ذلك من جهد ومن مال ـ ويقتضي ذلك أن نشيع دور الكتب ، وأن نبعث المخطوطات وننشرها نشرات علمية محققـة ، وان يكون ذلك كله على مستوى عربي واسع تقوى به الصلات بين الشعوب العربية،

وتتآخى فيه الجهود ، وتتفاعل الطاقات ... .

وإذا كان المغرضون اليوم من الغربيين ـ وقد رأوا من تماسك الأمة العربية ووحدتها في الفكر والثقافة ، والنضال المشترك ـ يريدون أن يهزوا من كياننا ويقضوا على تماسكنا ووحدتنا ، ـ فإنهم لن يستطيعوا أن يصلوا الى غايتهم ، ولا أن يبلغوا المأمول من فساد طويتهم ، فالشعب العربي ـ في ذاته ـ طاقـــة غلابة وقوة دافعة ، وإيمان مسترشد ، وحيوية نامية لن تنال منها هذه الرغبات المحمومة ولا ذلك السعار الحاقد في قلوب أهله .

إن الثقافة العربية – وقد تبينت لك خصائصها في تربية الانسان وحمايته ، وإنماء ملكاته ، والتخطيط الدقيق لمستقبله – قادرة على أن تجعل تماسك الأمة ووحدتها أمراً يخلد على الزمن مهما اجتمعت من حوله قوى الهدم والبغي ومهما أسرف أولئك الطغاة المستبدون - في إثارة الأحقاد والضغائن ، وبثها على أسس أخرى بعد أن فشلت محاولاتها ، السابقة ، وباءت بما لا يرضون عنـــه ، ولا يطمئنون إليه .

وإذا كانت الشعوب تتخذ الثقافة عنصراً أصيلاً في بناء شعوبهـا ـ من جديد ـ كلما أظلمت فيوجهها الحياة أو استبدت بها عوامل الضعفوالانتكاس فإن ثقافتنا العربية التي علمت الدنيا يوم كانت جاهلة ، وأضاءت المشرقين يوم أطبق عليهما الظلام ـ إذا كان كل أولئك فإن هذه الثقافة ـ قادرة على أن نتابع بها البناء ، ونمكنه لأنفسنا في الأرض بما تدعو إليه من المثل والمبـادىء وما تهدف إليه من نبيل الأغراض والمقاصد ، وما تشيعه من نور يرشد به السائر في متاهات الحياة ..

ولسنا هنا ندعو إلى اقليمية الثقافة ، أو الحد من نشاط المثقفـين في طلب المعرفة والتماسأسبابها ، وإنما نريد الى جانب ذلك أيضاً أن تقوى اتصالاتنـــا بالثقافات الأخرى وأن ننتفع بخير ما فيها ، ونحن سائرون ـ الى هذه الغاية ـ فالبعثات العلمية تذهب الى أوروبا وأمريكا لتجني ثمار ما عندهما من التقدم في

مختلف فروع العلم ، والفكر ، ... والحق أن ثقافتنا العربية الإسلامية أوفى الثقافات بحاجات الانسان الروحية ، وهي التي إذا أشبعت كان لنا دور آخر في نهضة شعوبنا ، فهي الثقافة التي تعلم البذل ، والإيثار ، والتضحية ، كما تضع للناس ـ في الحياة ـ أسس الأخاء والتعاون ، وقد رأيت أن التشريع الاسلامي مكّن لأهل الكتاب أن يعيشوا في ظل الدولة الاسلامية ، وتحت حمايتها ، وان هذه الدولة استفادت بخبراتهم في شتى شئون الحياة ، ولم يصدها عنهم تعصب ،ولم يصرفها عنهم هوى على عكس ما نجده عند بعض الأمم ـ من تعصب أحمق يؤدي الى إضعاف المعاني الانسانية التي ينبغي أن تكون دستور الحياة ـ في تشابك حاجاتها ، وتواصل مطالبها ـ في نطاق من الانسانية الداعية الى البر، والمؤمنة بالسلام ، والحريصة على أن تظل المعاني الانسانية ـ هي القاضية بين الشعوب فيما ينشب بينها من نزاع تؤدي إليه رغبات جائرة ،أو مطامع واهية ، ...

وبعد فلعلك أيها الدارس قد أدركت أن الثقافة التي نعيش في ظلها حصيلة تاريخ طويل وجهود موصولة وأنه يكمن في أطوائها تاريخ الانسانية البعيد ومحاولاتها الشاقة الجاهدة فيما قامت به من كشوف علمية ودراسات عميقة في الفن والاجتماع والسياسة



المراجـــع

الكتب العربية

١ ـ الطبري ـ محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك .

٢ ـ المسعودي : مروج الذهب .

٣ ـ المقدسي : البدء والتاريخ .

٤ ـ ابن الأثير : الكامل في التاريخ .

٥ ـ ابن سعد : الطبقات الكبير .

٦ ـ ابن خلدون : العبر .

٧ ـ ابن النديم : الفهرست .

٨ ـ آربري : تراث فارس : الترجمة العربية .

الكتب الأوروبية

1—Nicholson; R.H : A Litcrotry History of the Arabs .

2—Nariman ; the Iranian influen ce on the Muslem Cultute .

3—Stromberg : A History of western Civilisation .

البَابُ الرّابع

العالم العربي في العصر الحديث

أقام العرب منذ القرن السابع الميلادي وطناً لهم امتد من المحيط الأطلسي غرباً حتى حدود الصين شرقاً . وفي هذه المنطقة الشاسعة نمت الأمة العربية وتطورت ، بما جرى من انتشار الدين الإسلامي، وسيادة اللغة العربية ، والاخذ بالتقاليد والعادات الإسلامية ، واكتمال الحضارة الإسلامية التي تمثلت مظاهرها في النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعقيدة الدينية ، فضلاً عن العلوم والفنون والآداب . وخضع الوطن العربي لحكومات نشأت في نطاق حدوده ، فتوالى على حكمه الخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون . وعلى الرغم من التجزئة الأقليمية للوطن العربي زمن العباسيين ، وانقسامه بين الخلافة العباسية في الشرق ، والخلافة الفاطمية في مصر والشام وشمال افريقية ، والخلافة الأموية في الاندلس فما زال قائماً بين أطراف العالم العربي من أسباب الوحدة ، ما يجعله عالماً مستقلاً بذاته يتسم بحضارة واحدة ، ويخضع لتقاليد وعادات متماثلة ، ويصنع لنفسه تاريخاً مستقلاً ، وتحرص حكومته على التخلص من كل ما قد يتعرض له في الداخل من أسباب الفرقة ، وحمايته من كل اعتداء خارجي .

وسبق الإشارة، إلى ما كان من جهود الأيوبيين والمماليك في المحافظة على

الوحدة العربية ، وفي رد الاعتداءات من قبل الصليبيين والمغول . على أن ما توالى على دولة المماليك في نهاية القرن الخامس عشر ، وأوائل القرن السادس عشر من أخطار من قبل الدولة العثمانية ، والدول الأوربية المسيحية ، فضلاً عما كانت تعانيه الدولة المملوكية من قلة الأموال ، وعجز عن مواجهة مشروع التسلح وبناء الأسطول وعمارة الأسوار والأبراج ، كل ذلك كان يؤذن بدخول منطقة الشرق الأوسط في مرحلة تاريخية جديدة ، تربص فيها الاعداء من كل جانب بالدولة المملوكية . فما تردد في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي من سفارات بين ملوك الحبشة والبابوات وملوك ارجون ، كانت ترمى إلى تحالف الفرنج والحبشة لمهاجمة الدولة المملوكية ، بالإغارة على سواحل البلاد الحجازية ، والتهديد بقطع نهر النيل وتعويقه بحيث لا يصل إلى مصر ، وتعرضت سواحل مصر والشام وثغورهما للغارات التخريبية التي قامت بها مجموعة كبيرة من سفن ارجون ، والتي تعتبر تمهيداً للغزو الشامل للدولة المملوكية ، يضاف إلى ذلك ما حدث من ضغط ملوك البرتغال على رعاياهم المسلمين ، وحملهم على الهجرة إلى الممالك الإسلامية بالأندلس أو شمال أفريقية ، ومن انحيازهم إلى حلف ملوك الفرنج والأحباش لتجهيز حملة صليبية عامة ، ومن محاولات اكتشاف سواحل افريقية الغربية ، كل ذلك كان يهدف إلى تطويق الدولة المملوكية ، ومحاولة القضاء عليها ، وانتزاع تجارة الشرق منها ، بعد الوصول إلى شواطىء الهند ، ومهاجمة السفن التي تحمل البضائع الهندية إلى جدة ، فضلاً عن تحويل متاجر الشرق الأقصى إلى أسواق لشبونة (البرتغال) وانزال الهزيمة الساحقة بالاسطول المصري على الشاطىء الغربي للهند ، سنة ١٥٠٩ م .

وإذ نجح الفرنج في حرمان الدولة المملوكية من مصدر ثرائها وقوتها ، وتجهزوا للقضاء عليها ، تعرضت بلاد الشام ومصر لغزو العثمانيين ، الذي كان لهم من أسباب القوة ما يكفي لوقف مطامع الفرنج الصليبية والتوسعية

العثمانيون والعالم العربي :

ينتمي العثمانيون إلى قبيلة تركية ، فرّت من وجه المغول ، واتجهت نحو آسيا الصغرى ، حيث أقام السلاجقة سلطنة ، تعرضت للغزو المغولي في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، ونجح عثمان في أن يحوز له اقطاعاً في بروسه ، مكافأة له على ما بذله من خدمات للسلطان السلجوقي ، حتى إذا دالت دولة السلاجقة ، وتفرقت القبائل الخاضعة لها ، ازداد نمو الدولة العثمانية في آسيا الصغرى ثم استولت على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ . ولم يكد ينهي القرن الخامس عشر الميلادي ، حتى كان العثمانيون يسيطرون على مساحات شاسعة في شبه جزيرة البلقان فضلاً عن آسيا الصغرى . وفي أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، شرع العثمانيون في غزو الدول الاسلامية بالشرق الأوسط ، فأغاروا سنة ١٥٠٨ على العراق الذي كان تابعاً للدولة الصفوية في فارس ، ثم انتزعوا الشام ومصر ، ١٥١٦ ، ١٥١٧ من أيدي المماليك ، وبذا دخلت هذه البلاد في حوزة الدولة العثمانية .

ولم تلبث البلدان العربية في الشرق والغرب ان خضعت لحكم العثمانيين ، وإذ كانت بلاد الحجاز تابعة لمصر زمن المماليك ، فقد استسلمت للعثمانيين . ثم أخذت الامارات الاسلامية الواقعة على الساحل الشرقي لأفريقية ، تلتمس حماية العثمانيين أو تقبل سيطرتهم ، بعد أن تعرضت لخطر البرتغاليين الذين نفذوا إلى المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، وتحالفوا مع الأحباش لمناهضة المسلمين ، فبادرت هرر وزيلع ومصوع بالدخول تحت الحماية العثمانية ، وخضعت بلاد اليمن للسيطرة العثمانية في القرن السادس عشر .

ولما اشتد النضال بين الامارات الاسلامية المستقلة في المغرب العربي ، والدولة العثمانية من جهة ، وبين القوى الاوربية في البحر المتوسط ، صار طبيعياً أن يتم التقارب بين العثمانيين وأهل المغرب لمواجهة العدو المشترك ، ولم

تلبث الجزائر أن خضعت للعثمانيين سنة ١٥٢٩ ، ثم تلي ذلك سقوط تونس في أيديهم سنة ١٥٣٤ ، بينما ظل المغرب الأقصى (مراكش) بعيداً عن النفوذ العثماني .

وبذا خضع معظم الوطن العربي للسيطرة العثمانية ، وما اتخذه السلطان العثماني من لقب الخلافة ، هيأ له أن يجمع تحت لوائه العالم الإسلامي ، وأن يتيح له الفرصة للصمود في وجه الأخطار الأوروبية .

نظام الحكم العثماني في البلاد العربية

استمد العثمانيون نظم حكمهم من مصادر مختلفة ، منها ما يتصل بالبيئة الأصلية للأتراك قبل قدومهم إلى الأناضول حيث كانوا يمارسون حياة الرعي في أواسط آسيا ؛ ومنها ما يتصل بالحضارتين الفارسية والبيزنطية ، والنظم السلجوقية والمملوكية التي تأثروا بها ، يضاف إلى ذلك ما كان لنظمهم من أسس دينية مستمدة من الشريعة الإسلامية . فما كان من احتفاظهم باللغة التركية ، وميلهم الغريزي للغزو والفتح ، والاستعداد الطبيعي لتقبل ما يصادفونه من أوضاع والأخذ بها ، كل ذلك نقلوه عن بيئتهم الأصلية ، وهيأ لهم أن يحكموا شعوباً وجماعات متباينة الثقافة ، وتفوقهم حضارة ورقياً ، كما أن ما هو معروف عن الجماعات البدائية من التحفظ حملهم على الابقاء على ما صادفوه من نظم وأوضاع في البلاد المفتوحة .

ولذا أقرّ العثمانيون كل بلد على نظمه ، مع إجراء تعديلات في التقسيمات الإدارية اقتضاها النظام العام للدولة ، فضلاً عن تعيين حاكم تركي يرسل من الاستانة إلى الولاية ، ويقتسم حكومة الإقليم (الولاية) الهيئات الآتية :

الوالي او الباشا

وتختلف أهميته حسبما كان للولاية من أهمية خاصة . وكان من الباشوات

من ينتمون إلى عناصر مختلفة ، فكان منهم العربي ، والألباني ، والجركسي ، والمجري ، والإيطالي . على أنه قلّ أن جاء البلاد العربية والٍ من أصل عربي أو تركي . وقد يحدث أن يقرّ السلطان في الولاية رجالاً محليين انتزعوا السلطة قسراً ، ولم يستطع حكومة السلطان تنحيتهم عنها ، ومن أمثلة ذلك ما كان يحدث في الشام ، وبلاد المغرب ، والعراق .

وإذ ارتاب السلاطين في إخلاص الولاة ،حرصوا على أن يتخذوا من الوسائل ما يضعف سلطان الولاة في الأقاليم ، ويمنعهم من الانفصال عن الدولة . ومن هذه الوسائل اتخاذ الجواسيس الذين ينهون إلى السلطان كل ما يجري من تصرف الوالي ، كما أنه لجأ إلى الإكثار من تغييرهم وتبديلهم . يضاف إلى ذلك ما لجأ إليه السلطان من انتقاص سلطة الوالي ، بما أقامه من وظائف يعتبر أربابها في الظاهر مساعدين للوالي ، غير أنهم في الواقع كانوا يسلبونه اختصاصاته ، ومن هؤلاء الدفتردار والكتخدا وقاضي القضاة والحاميات العسكرية ،وحرص السلطان على أن تكون ولاية الباشا لمدة سنة قابلة للتجديد ، ولا تزيد على ثلاث سنوات .

الديوان

يتألف من الدفتردار ، متولي الخزانة ، وهو مسئول عن إرسال الميري المقرر للدولة ، ومن الكتخدا ، وهو وكيل الباشا ، ومن قاضي القضاة ، وقائد الحامية ، فضلاً عن عناصر محلية ، أمثال نقيب الأشراف ، ونقيب التجار ، والعلماء ، والأعيان ، ويشترك الديوان مع الباشا في تصريف أمور البلاد.

التقسيمات الادارية

ويتولى إدارتها في مصر أمراء المماليك . يضاف إلى هذه الفئات ، الحاميات العثمانية التي تألفت من عناصر عديدة ، من الانكشارية والأكراد والمغاربة والأرناؤوط .

وما أصاب الدولة العثمانية من ضعف ، لما كان يجري من تنافس على السلطنة ،

والتدخل الأجنبي في شئون الحكم بما حازته بعض الدول الأوروبية من امتيازات لرعاياها الذين يحلـّون بأملاك الدولة العثمانية ، ولما كان من نساء القصر ، ومعظمهن من الأوروبيات من تأثير في توجيه السياسة العثمانية ، فضلاً عن الجمود الذي لازم العثمانيين لتخوفهم من الخطر الأوروبي ، والإنهيار الذي حل بالجيش العثماني، فلم يأبه السلطان لما حدث من تطور في الأسلحة والخطط الحربية ، كل ذلك انعكس في السياسة العثمانية في العالم العربي ، إذ أدى ضعف السلطة المركزية إلى قيام حركات انفصالية في الولايات ، مثلما حدث في مصر زمن علي بك كبير ، وفي الشام مثل حركة طاهر العمر ، واغتصاب حقوق الحكومة والطوائف والأفراد ، إذا تهيأت الفرصة للمماليك أو المرتزقة أو العشائر والقبائل ، ولا سيما بعد أن كان لهذه الفئات نصيب في إدارة شئون البلاد .

وأقام العثمانيون بذلك في داخل بلاد الشرق العربي أرستقراطيـــة حاكمة منعزلة عن سائر أجزاء المجتمع ، فعاش الشعب العربي شبه مستقل عن حكامه ، وقنع بما فرض عليه من الحياة التي زادها سوءاً ما أصاب العالم العربي من الانهيار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي .

ويقابل ما حدث من الركود والجمود في العالم العربي منذ القرن السادس عشر ، حركة النهضة الأوروبية ، وما صاحبها من تقدم ورقي من النواحي السيـــاسية والاجتماعية والعلمية ، فضلاً عن الكشوف الجغرافية وحركة التوسع الأوروبي وراء البحار والمحيطات ، ولم يتيسر للعالم العربي أن يتصل بأسباب الحضارة الأوروبية نتيجة العزلة التي عاشها قبل القرن التاسع عشر في ظل الحكم العثماني.

الغرب الأوروبي والوطن العربي

استيقظت أوروبا وقتذاك من سبـــات العصور الوسطى لتدخل مرحلة الكشوف الجغرافية، وتمد سيطرتها على أمريكا والهند ، إذ تحول المجتمع الإقطاعي

في غرب أوروبا إلى مجتمع صناعي تجاري ، فتوافرت السلع التجارية ، وكان لا بد من البحث عن أسواق جديدة فيما وراء البحار لتصريف الإنتاج الصناعي ، والحصول على المواد الأولية ، وأدّى هذا النشاط الإقتصادي الضخم إلى توافر رؤوس الأموال فنشأت الشركات القوية التي كان لها أهميتها في الحركات الاستعمارية .

ووجهت الدول الاستعمارية الغربية اهتمامها إلى البلاد العربية في الشرق والغرب لما امتازت به من موقع بالغ الأهمية ، وثروة طائلة . وما أصاب هذه البلاد العربية تحت حكم العثمانيين من التأخر والجمود ، حمل الدول الغربية على أن تنفذ إلى هذه الأقاليم . والمعروف أن الدول الأوروبية المسيحية سبق أن حصلت منذ الحروب الصليبية على امتيازات تجارية وقضائية واجتماعية في الشرق الأدنى ، حتى إذا سيطر العثمانيون على الوطن العربي ؛ انعقدت المعاهدات بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية ، ففي المعاهدة التي أبرمها السلطان سليمان القانوني مع البنادقة سنة ١٥٢١ م ، استعاد البنادقة ما كان لهم من امتيازات في أملاك الامبراطورية البيزنطية ، قبل أن تسقط في أيدي العثمانيين ، وانعقدت أيضاً معاهدة مع الفرنسيين سنة ١٥٣٥ ، ومع الانجليز سنة ١٥٨٠ .

ومن الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا ، في معاهدة سنة ١٥٣٥ ، وما تلاها من معاهدات ، كفلت لها حرية التجارة في البلاد الخاضعة للدولة العثمانية ، وحرية الملاحة ، والإقامة في الثغور والمدن لأغراض تجارية . ويكون للجالية الأجنبية فندقها وكنيستها ومخبزها ، ويخضع أعضاؤها لقضاء قناصلهم . وليس للسلطات العثمانية أن تقتحم فنادقهم ، أو تتدخل في أحوالهم الشخصية . وتطورت هذه الامتيازات فاعتبرت فرنسا أن لها الحق في حماية المسيحيين اللاتين في الأملاك العثمانية ، مما أثار مشكلات للعثمانيين فيما بعد .

وأفاد الأوربيون من هذه المعاهدات ، بما جرى من نزوح الأوروبين إلى

بلاد الوطن العربي ، فهرع إليها التجار والمبشرون والسائحون والمستكشفون ، ونجحت الشركات التجارية التابعة لانجلترا وفرنسا ، وأهمها شركة الهند الشرقية البريطانية ، وشركة الليفانتنت البريطانية ، وغرفة مرسيليا التجارية الفرنسية ، في مد نشاطها إلى الولايات العربية ، واستطاعت سفنها أن تنفذ إلى البحر الأحمر ، حتى بلغت السويس .

وما كان بين انجلترا وفرنسا من تنافس في أوروبا وأميركا والهند في القرن الثامن عشر الميلادي ، امتد إلى البلاد العربية ، وتسابقت كل من الدولتين في عقد معاهدات تجارية مع الأمراء المماليك بمصر ، وكان لهذا التسابق تأثير كبير فيما حدث في أواخر هذا القرن من قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر ، ومحاولة نابليون انتزاع مصر من أيدي العثمانيين حتى يسيطر على الطرق المؤدية إلى الهند ، ويتحقق أمله في طرد الانجليز من الهند وإقامة امبراطورية في الشرق .

وشهد القرن التاسع عشر قمة التغلغل الاستعماري في الوطن العربي ، منذ الحرب الصليبية ، من الحملات الحربية ما يفوق وقتذاك الحملة الفرنسية التي حرصت فرنسا على إعدادها ووضع خططها ، واتخاذ التدابير التي تكفل نجاحها. والواقع أن الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) تعتبر بداية عهد جديد في التنافس بين الدول الاستعمارية وتسابقها إلى اقتسام العالم العربي ، وهذه المرحلة الجديدة امتدت منذ الحملة الفرنسية إلى أن تم الاتفاق بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩٢٠ على تصفية سلطان العثمانيين من الوطن العربي .

وأدركت انجلترا وفرنسا ما للوطن العربي من أهمية سياسية واقتصادية واستراتيجية ، وإذ ظلت انجلترا تخشى عودة الفرنسيين ، بعد جلائهم عن مصر سنة ١٨٠١ ، إلى الشرق العربي وتهديد مصالحهم في الهند ، نشطت في مناوأة نفوذ فرنسا في هذه المنطقة ، واتخذت من التدابير ما يكفل منع امتداد النشاط الفرنسي إلى الهند ، فأسهمت انجلترا في طرد الفرنسيين من مصر ، واستطاعت

أن تستميل بعض زعماء المماليك « محمد بك الألفي » وأن توجه حملة فريزر إلى مصر ، وأن تزيد في علاقاتها التجارية مع مصر سنة ١٨٠٧ .

أما التدابير التي لجأ إليها الانجليز لتجنب تهديد الهند فتشمل ما جرى من احتلالهم جزيرة بريم ببوغاز باب المندب (بين البحر الأحمر وخليج عدن) ، وعقد معاهدة مع سلطان عُمّان الذي امتلك الثغور الواقعة على جانبي مضيق هرمز ، وسيطر على بعض المواقع على الجانب الفارسي من الخليج العربي ، فصار لشركة الهند الشرقية البريطانية مقر دائم في مسقط ، وامتد نشاطها بمساندة انجلترا في أقاليم الخليج العربي ، وانعقدت معاهدات بين انجلترا ومشايخ ساحل عمان ، والبحرين لتنظيم العلاقات الخارجية بهذه البلاد ، ثم ارتفع شأن انجلترا في هذه الجهات بعد سقوط نابليون ، فاشتد ضغطها على شيوخ الخليج العربي ، فأجبرتهم على توقيع معاهدات سنة ١٨٢٠ ، ١٨٣٩ ، ١٨٥٣ ، بعد أن أفادت من المنازعات والحروب بين شيوخ الخليج والبحرين وساحل عمان ، فصار لها نوع من الوصاية على سائر المشيخات على ساحل الخليج العربي ، وزعمت لنفسها الحق في تفتيش السفن التجارية العربية في منطقة الخليج العربي والبحر الهندي ، بدعوى محاربة تجارة الدقيق .

اتخذت انجلترا ثلاثة مراكز لنفوذها في منطقة الخليج العربي ، في مسقط والبحرين والكويت ، ولم تلبث أن بسطت سيادتها في هذه الجهات ، حتى لا يتطرق إليها نفوذ الدول الأخرى ، أمثال فرنسا وروسيا وتركيا وألمانيا .

ولم تكتف انجلترا بالتغلغل من ناحية الخليج العربي ، بل اتجهت أيضاً نحو المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، فاحتل الانجليز سنة ١٨٣٩ ثغر عدن ، وذلك للحد من نفوذ محمد علي في شبه جزيرة العرب ، ومنعه من مد سلطانه إلى بلاد اليمن ، ولم تكن عدن إلا نقطة ارتكاز ، أخذ الانجليز منها يبسطون سلطانهم على امتداد الساحل الجنوبي لبلاد العرب ، فلم يكد ينتهي القرن التاسع عشر ،

حتى فرض الانجليز حمايتهم على سائر السلاطـــين والمشايخ من لحج غرباً حتى حضر موت شرقاً .

الاستعمار والمغرب العربي

لم تقتصر الحروب الصليبية بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى على المشرق ، وإنما كان للمغرب والأندلس أيضاً دور بارز في تلك الحروب. والمعروف أن الأوربيين المسيحيين شنوا هجماتهم على المسلمين في الأندلس وشمال أفريقية، حتى إذا جرى طرد المسلمين من اسبانيا ، أضحى المغاربة هدفاً لأطماع الأوروبيين ، ونشط سكان شمـــال أفريقية وبلاد اغرب في هجماتهم البحرية في غرب البحر المتوسط ، فألحقوا الأضرار والخسائر بالمدن الأوروبية ، واعترضوا طرق الملاحة، ولعل ضغط القوى الاستعمارية على المغرب هو الذي حمل المغاربة على أن يلتمسوا مساعــدة العثمانيين ، وسقطت الجزائر في أيديهم سنة ١٥٢٩ ، ثم تلاها تونس سنـــة ١٥٣٤ ، بينما ظلت مراكش ، أو المغرب الأقصى ، بعيدة عن السيطرة العثمانية .

والواضح أن دخول المغرب تحت نفوذ العثمانيين أمد المغاربة بقوة جديدة ، فضعفت هجمات الاسبانيين بوجه خاص على المغرب ، وأنشأ العثمانيون قوة بحرية انقسمت فئات وطوائف ، خضعت كل منها لقائد يعرف بالريّس . وأفاد المغاربة من الحروب التي نشبت في القرن السادس عشر الميلادي بين اسبانيـــا وفرنسا ، فصاروا يغيرون على سواحل اسبانيا وفرنسا ، ويعودون بسفنهم محملة بالأسرى والغنائم ، وبذا ازداد خطر الجزائر وتونس تحت الحكم العثماني ، وأدرك الأوروبيون أهمية ما يتهددهم من أخطار من قبل المغاربة .

وما أصاب الدولة العثمانية من الضعف ، وتدهور السلطة المركزية بها ، هيأ الفرصة للقوى الاستعمارية في الغرب ، ولا سيما فرنسا بأن تمد نفوذها إلى المغرب العربي ، واستندت في ذلك إلى التجارة والمال . إذ كانت فرنسا تشجع

تونس على الاستقلال عن الدولة العثمانية كما تفيد من ضعف باي (أمير) تونس في انتزاع امتيازات جديدة ، والتحكم في اقتصاديات البلاد ، ولم تلبث فرنسا أن استولت على تونس سنة ١٨٨١ بموافقة كل من المانيا وانجلترا ، وبعد أن تغلغل بها النفوذ الأوروبي ، وساءت أحوالها الاقتصادية ، ولم تستطع الدولة العثمانية مساندتها .

وفكرت فرنسا منذ القرن السادس عشر في انتزاع الجزائر من العثمانيين ، فحرصت على تنمية علاقاتها بها ، إذ حصلت الشركات الفرنسية طوال القرن السابع عشر وشطراً من القرن الثامن عشر على امتيازات تجارية عديدة ، وقدم إلى الجزائر عدد كبير من القساوسة ، أسهموا في تنفيذ سياسة فرنسا . وأخذت فرنسا تغتنم الفرص للاستيلاء على الجزائر ، فعمدت إلى استثارة الجزائريين ،فلم تؤد ما عليها من ديون للجزائر ، وتعرض داي (حاكم) الجزائر للاهانات من قبل بعض القناصل الفرنسيين ، ومع ذلك إرسلت فرنسا سنة ١٨٣٠ حملة احتلت بها الجزائر فوضعت بذلك أسس امبراطوريتها الاستعمارية في أفريقية ، وبدأت في تعويض ما فقدته من أملاك أثناء حروب نابليون . على أن غزو الجزائر يعتبر استمراراً لشعور التعصب الديني في فرنسا ، التي تعتبر حامية للكاثوليك ، بينما كانت الجزائر تتزعم دول المغرب في الصراع بين المسيحيين والمسلمين في البحر المتوسط ، والذي اعتبره سكان شمال أفريقية جهاداً ، فاشتدت مقاومة الجزائر للغزو الفرنسي ، ولم تستطع فرنسا أن تحكم سيطرتها على البلاد إلا سنة ١٨٤٧ . وعلى الرغم من التدابير التي اتخذتها فرنسا للقضاء على الروح القومية في الجزائر ، فأصدرت سنة ١٨٤٨ قانوناً باعتبار الجزائر جزءاً من فرنسا ، ومنح الجزائريين الجنسية الفرنسية ، فضلاً عن تشجيع هجرة الفرنسيين إلى الجزائر ومحاولة فرض الصبغة الفرنسية على البلاد ، فإن الجزائريين ظلوا سنوات عديدة يقاومون أهداف فرنسا ، حتى انبعثت الثورة الجزائرية الكبرى سنة ١٩٥٤ ، التي أدت إلى حمل فرنسا على الاعتراف باستقلال الجزائر سنة ١٩٦٢ .

لا شك أن استيلاء فرنسا على الجزائر وتونس ، حملها على التفكير في مد سلطانها شرقاً وغرباً وجنوباً ، فأخذت تتطلع إلى الاستيلاء على مراكش ، بعد أن انتابها من التدهور ما أصاب سائر بلاد الوطن العربي .

ونظراً لما تملكه مراكش من مركز استراتيجي خطير ، يتمثل في طنجة المواجهة لجبل طارق ، ولما لساحل المغرب على المحيط الأطلنطي من أهمية في طريق المواصلات البريطانية إلى جنوب أفريقية ، أخذت انجلترا ترقب نشاط فرنسا وتحذرها من المضي في السيطرة على بلاد المغرب ، ولكن لم تلبث الاتفاقيات الودية أن انعقدت بين الدول الاستعمارية الغربية كانجلترا وفرنسا وايطاليا بين سنتي ١٩٠٠ - ١٩٠٤ لتسوية مشاكلها الاستعمارية ، ومنها مشكلتا مصر والمغرب ، فاطلقت انجلترا يد فرنسا في المغرب (الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤) مقابل إطلاق يد انجلترا في مصر ، كما عقدت فرنسا اتفاقاتها مع ايطاليا (١٩٠٠ -١٩٠٢) بشأن طرابلس ، ومع اسبانيا سنة ١٩٠٤ .

وبذا أضحت فرنسا حرة في تنفيذ أغراضها بالمغرب ، وأخذت تقتطع أجزاءه رويداً رويداً ، حتى دخلت القوات الفرنسية مدينة فاس سنة ١٩١١ ، ثم فرضت الحماية على المغرب سنة ١٩١٢ .

وإذ اطمأنت إيطاليا لموقف فرنسا وروسيا من أطماعها ، أعلنت الحرب على تركيا سنة ١٩١١ ، وقامت بغزو طرابلس ، ولم تحتج الدول الأوروبية على تصرفها ، وبذا اقتسمت انجلترا وفرنسا وإيطاليا ، المغرب العربي ، وأملاك الدولة العثمانية في شمال أفريقية .

والفترة الممتدة من سنة ١٨٠١ ، التي خرج فيها الحملة الفرنسية من مصر حتى سنة ١٨٨٢ ، التي احتل فيها الانجليز مصر ، تمثل تنافساً حاداً بين النفوذين الانجليزي والفرنسي في مصر ، وحرص كل من انجلترا وفرنسا على التمكين لها

في البلاد ، بالإفـــادة من الامتيازات الاجنبية ، وإنشاء المدارس الأجنبية ، وتشجيع البعثات التبشيرية وإقامة الشركات التجارية ، والإسهام فيما جرى من إصلاحات في التعليم والجيش والبحرية والقضاء ، وتحقيق مشروع ربط البحر الاحمر بالبحر الابيض ، عبر قناة السويس ، وبذل المساعدات المالية عن طيب خاطر لولاة مصر (الخديون) ، فتهيأت بذلك الفرصة للتدخل في شئون مصر الداخلية بحجة حماية أموال الرعايا الأجانب ، والحرص على فرض رقابـــة على مالية مصر ، كل ذلك أدى آخر الأمر إلى عزل الخديو اسماعيل سنة ١٨٧٩ ، وانفراد انجلترا باحتلال مصر سنة ١٨٨٢ ، وبذا تحكمت انجلترا في سياسة مصر الداخلية والخارجية ، على الرغم من أن مصر تعتبر من الناحية الشرعية تابعـــة للدولة العثمانيـــة ، ولم تلبث انجلترا أن أعلنت الحماية على مصر عند بدء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) ، بعد أن انحازت تركيا الى المانيا وحلفائها .

المعروف أن علاقة فرنسا ببلاد الشام ترجع إلى عصر الحروب الصليبية في العصور الوسطى . وما عقدته فرنسا مع الدولة العثمانية سنة ١٥٣٥ من اتفاقية هيأت لفرنسا الفرصة لأن تجعل من نفسها حاميـــة للأقليات الكاثوليكية . ولم يلبث أن ازداد نفوذها بفضل الارساليات الدينية ومنظمات الرهبان الجزويت والفرنسيسكان الذين مدوا نشاطهم إلى بلاد الشام ، وأنشأوا بها المدارس والأديرة والمؤسسات الخيرية .

وحاولت فرنسا أن تستغل سنة ١٨٦٠ النزاع بين الطوائف في لبنان ، ولا سيما بين الدروز والمارونيين حتى تتدخل حربياً في لبنان ، على أنه أفسد مغامرتها مبادرة تركيا الى ضبط الأمور ، وإصرار انجلترا على جلاء القوات الفرنسية عن لبنان ، ومنعها من الانفراد في التدخل في شئون سوريا ولبنان . على أن مكانـة فرنسا في تلك البلاد ، من النواحي الثقافية والدينية والاقتصادية على الأقـل ، ظل معترفاً بها حتى قيام الحرب العالمية الأولى .

حركة الافاقة العثمانية :

١ – أدركت تركيا آخر الأمر ما كانت عليه التأخر والجمود ، وما كان ينعم به الغرب الأوروبي من حضارة ورقي ، فحاولت أن تتدارك ما فاتها ، بأن تفيد من الحضارة الغربية في إصلاح أوضاعها الداخلية كيما تصمد للأخطار التي تهدد كيانها . فحاول السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ – ١٨٠٧) إعادة بناء الدولة على أسس أوربية غربية ، وتشكيل جيش جديد وفقاً للنظم الفرنسية . وعلى الرغم من مقاومة الانكشارية والموظفين لكل محاولة للاصلاح، فقد أفادت محاولات السلاطين في التخلص من الجند القديم ، .والانكشارية ، والقضاء على الامارات الكردية ، وعلى حكم المماليك فى العراق، وفي إدخال اصلاحات تتعلق باحترام الحريات ، وتوزيع الضرائب ، وطريقة التجنيد وفترة الخدمة العسكرية .

٢ – اتجهت حركة الإصلاح نحو المركزية ، بأن يصير للحكم العثماني بالولايات العربية من طابع المركزية ما يكفل للدولة مقاومة النزعة الانفصالية التي ظهرت في ولايات كثيرة ، بأن تحرص الدولة على أن تتوثق الروابط والصلات بين حكومة الولاية ، وحكومة العاصمة (الأستانة) . فخرجت الدولة عن التزاماتها التقليدية التي تتعلق بالأمن والدفاع والعدالة ، وحرصت على التدخل في كافة أنواع النشاط الثقافي والاقتصادي ، وتغيير وضع الديوان القديم وأضحى مجلساً للولاية ، بعد أن انضم إليه عدد من الأعيان الذين يمثلون فئات الشعب . وتألفت في المدن مجالس وبلديات ، وجرى الاهتمام بالمنافع العامة مثل شق الطرق ومد السكك الحديدية ، وتشييد المنائر ودخل العرب في الجيش العثماني . على أن هذه السياسة أثارت في الشام غضب الأقليات غير الاسلامية ، وتعارضت مع نظام العشائر في العراق ، كما أن تطبيق هذه السياسة تطلب شبكة من المواصلات تربط الولايات بالعاصمة ، وهو ما افتقرت إليه وقتذاك الدولة العثمانية .

٣ – لجأت الدولة العثمانية إلى اتخاذ وسيلة أخرى لتوطيد نفوذها في الولايات العربية ، فأفادت من حركة الجامعة الاسلامية ، التي دعا إليها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، جمال الدين الافغاني ، بعد أن رأى بلاده (افغانستان) يتنازعها النفوذ الروسي والانجليزي ، وتهيأ الجو لقبول دعوته في مصر ، التي كانت وقتذاك مسرحاً للتدخل الأجنبي ، والاضطراب الاقتصادي ، فضلاً عن الصراع بين القومية المصرية الناشئة والروح التركية الجركسية . دعا الأفغاني الى يقظة شعوب الشرق وإلى أن تكون أمورهم بأيديهم ، والي التخلص من النفوذ الأوربي .

وصادقت فكرة الجامعة الإسلامية هوى من نفس السلطان العثماني ، إذ رأى أنها تلائم مصالح الدولة العثمانية ، وتتفق مع طموحه ، وتربط بين العرب والترك برباط واحد ، هو الإسلام ، وتجعلهم يخضعون للسلطان خليفة المسلمين ، وبذا يتحد المسلمون لمقاومة النفوذ الأوربي في العالم الإسلامي .

وتزعم هذه الحركة في نهاية القرن التاسع عشر السلطان عبد الحميد ، الذي اشتهر بالاستبداد ، وكراهية النظم الدستورية ، ونظام الشورى ؛ ونسي السلطان عبد الحميد أن الخلافة الإسلامية قامت على أساس الشورى بين المسلمين جميعاً .

٤ – كان للجمعيات العلنية والسرية التي ألفها بعض الأتراك المصلحين أهمية كبيرة في حركات الاصلاح . ومن هذه الجمعيات ، جمعية الاتحاد والشرقي التي وضع بذورها في باريس ، بعض الأتراك الأحرار ، وظلت تنشط في مختلف عواصم الغرب الأوربي ، حتى شقت لنفسها طريقاً داخل الدولة العثمانية ذاتها وتولى زعامة هذه الجمعية ، جماعة من ضباط الجيش التركي ، الذين تأثروا بالثقافة الغربية ، وأحكموا تنظيمهم ، فاستطاعوا آخر الأمر عزل السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ ، وتعيين السلطان محمد الخامس بدله . وإذا كان هؤلاء الأتراك

الجدد سيطروا على الحكومة الفعلية في الدولة العثمانية حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، فإن سياستهم نحو العرب في الدولة لم تختلف كثيراً في روحها عن سياسة الأتراك القدامى ؛ ذلك أن الأتراك الجدد أقاموا حركتهم على أساس تفوق العنصر التركي و والاعتزاز بتراثه ، والاحتفاظ له بالسيطرة على سائر العناصر، ولا سيما العنصر العربي ، في الدولة العثمانية .

٥ ـ صحبت حركة الافاقة عند العثمانيين ، إعادة سيطرتهم على بلاد اليمن وقمع الفتنة بهذه البلاد سنة ١٩١١ ، وامتداد نفوذهم إلى الخليج العربي ، بعد سحق حركة الوهابيين ، على أن الكويت أفلتت من قبضة العثمانيين ، وتوثقت علاقتها بالحكومة البريطانية .

يقظة الأمة العربية :

١ – المعروف أن العالم العربي شهد في القرن التاسع عشر حركات دينية عديدة ، تعتبر رد فعل لما أحسّ به المسلمون وقتذاك من أسى وخوف ، لما انتهى إليه أمرهم من الضعف والتفكك ، والتعرض لخطر الاستعمار الأوربي ، فدعت إلى الرجوع إلى سنّة السلف الصالح ، والاتحاد لمواجهة الأخطار . ومن أمثلة هذه الحركات ، دعوة الوهابيين في بلاد العرب ، والسنوسيين في شمال افريقية ، والحركة المهدية في السودان . على أن هذه الحركات لم تؤد شيئاً بالغ الأهمية للتيار القومي العربي .

٢ – وما أحاط بالشرق العربي في القرن التاسع عشر من أوضاع هيأت لقيام حركات قومية، واستهدفت تحرير العرب من سيطرة العثمانيين والمستعمرين سواء. فالأنظمة الإقطاعية التي سادت البلدان العربية في العصر العثماني الأول ، والتي اعترضت سبيل نمو الأمة العربية واتحادها ، لم تلبث أن تعرضت للانهيار . نتيجة للسياسة المركزية التي أتبعتها الدولة العثمانية أثناء صحوتها .

وبانهيار النظم الإقطاعية في الولايات العربية ، اشتد الترابط بين أركان المجتمع العربي ، وبدأ يتجه أبناء الأمة العربية نحو هدف قومي واحد . إذ أضحى للولايات العربية كيان ، بعد أن تألفت بها حكومات مستقرة، وقوات حربية من أبناء سكانها ، فأخذ سكانها يشعرون بقوميتهم ، ويدركون العلاقات بين الحكام والمحكومين، وبذا وضحت مدلولات الأمة العربية والقومية العربية، وتميز الوطني المستقر عن الغريب ، وأسهم في نمو الوعي القومي أيضاً ما توافر في الأوطان العربية من أسباب الاستقرار ، والاهتمام باستغلال موارد البلاد .

٣ – صحب انهيار النظم الاقطاعية في الولايات العربية ، ظهور الطبقة البورجوازية ، وهي الطبقة المتوسطة الواعية في كل مجتمع ، التي يدفعها اشتغالها بالتجارة والاقتصاد إلى الرغبة التعلم ، والتأثر بالصفة العلمانية ، فضلاً عن النزوع إلى الحرية ، حرية العمل ، وحرية الفكر ، وحرية الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية .

٤ – ولا شك أن هذه الطبقة المتوسطة الواعية التي ظهرت في المجتمع العربي في أواخر القرن التاسع عشر كان لها أثرها في اشتداد التيار القومي في الولايات العربية ، نظراً لأن أفراد هذه الطبقة لم يرضوا عن تزمت الأداة العثمانية في الحكم واتجاهها المركزي من ناحية ، كما أنهم من ناحية أخرى حاربوا النفوذ الاستعماري الغربي الذي استهدف استغلال موارد البلاد العربية ، ومزاحمة البورجوازيين العرب في نشاطهم الاقتصادي .

٥ – الملحوظ أن الحركة القومية العربية التي أخذ تيارها يشتد، منذ أواخر القرن التاسع عشر ، اشترك فيها العرب على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم إذ وقف المسيحيون مع المسلمين جنباً إلى جنب ينشدون التحرر والوحدة .

٦ – الواضح أن يقظة الأمة العربية في الشرق الأدنى مهد لها جماعة من

أعلام المفكرين ، منهم جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبي ، فدعا الأفغاني إلى النهوض بالشرق الإسلامي ، وإلى الصفة العربية ، وإلى حث الأتراك على اتخاذ العربية لغة لدولتهم . وعبّر الأفغاني وتلميذه محمد عبده عن آرائهما في صحيفة العروة الوثقى التي أصدراها في باريس ، وامتد تأثيرها إلى مختلف البلاد العربية . أما عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩-١٩٠٢) فينتسب إلى مدينة حلب ، وقد نشر آراء في كتابيه « طبائع الاستعباد » ، و « أم القرى » ، فانتقد الحكم العثماني ، وأنكر على العرب خضوعهم لاستبداد العثمانيين ، وأشار إلى أن أسباب ضعف المسلمين ، ترجع إلى سوء سياسة الحكام من الأتراك ، وابتزازهم الأموال ، ونفي الأحرار ، والقضاء على قوة الرأي العام .

٧ - على أن الثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين أثناء الحرب العالمية الأولى ، مهّد لها حركة ظهرت في لبنان اتخذت لها من العروبة أساساً وهدفاً ، إذ كانت ترمي إلى التفرقة بين الترك والعرب . ذلك أن الجمعيات التبشيرية الغربية اشتد نشاطها في بلاد الشام في القرن التاسع عشر ، وكان لها أثرها في تذكية الوعي العربي ، وتقوية روح الانفصال عن الدولة العثمانية . وقد بادرت هذه الجمعيات ألى فتح المدارس وتأسيس الجمعيات ، وإنشاء المكتبات ، ونشر الصحف والكتب ، مما ترتب عليه تنوير العرب الخاضعين للحكم العثماني في الشرق الأدنى . ونجحت الحركة التبشيرية في خلق جيل من رجال الدين المسيحيين بالشام ، يؤمنون بالعربية وتراثها . ويبدو أن المسيحيين العرب في الولايات العثمانية صادفوا في الدعوة للعروبة إجراء مضاداً لفكرة الجامعة الاسلامية التي اتخذتها الدولة العثمانية أواخر القرن التاسع عشر لإحكام السيطرة على الولايات العربية ، ولاسيما أن العروبة رباط قوي يسوي بين العرب جميعاً ، بصرف النظر عن أديانهم ومذاهبهم . وكيفما كان الأمر ، ترتب على تلك الحركة نهضة أدبية عربية ، ويقظة سياسية ، اتخذت طابع الكراهية والعداء للدولة العثمانية . ولم يلبث أن

نادى كثير من أبـــناء تلك الحركة بأنه إن لم يجر إصلاح شامل في جميع مرافق الدولة العثمانية ، تحظى معه البلاد العربية بنصيب كبير ، فلا أقل من أن تنفصل الولايات العربية عن جسم الدولة العثمانية ، وتظفر بالاستقلال .

جهود العرب في سبيل التحرر

أخذ العرب في الولايات العثمانية يمهدون للتخلص من السيطرة العثمانيـــة والأجنبية معاً،وأسهمت القومية العربية في حركة التحرر،فما ظهر من الصحف في بلاد الشام ومصر وشمـال أفريقية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أدى إلى نمو الحركة الفكرية، ومن هذه الصحف الأحوال (سنة ١٨٥٥) التي صادرتها الدولة العثمانية بعد سنة من صدورها ، والأخبار في بيروت (سنة ١٨٥٨) ، والرائد التونسي (١٨٦١) . ونجم عن الاضطهاد العثماني لكتّاب العرب في الشام ، أن هاجر كثير منهم إلى مصر ، ولا سيما بعد الاحتلال البريطاني لمصر ، سنة ١٨٨٢ ، فلقوا الحماية من الانجليز لمناهضتهم تركيا . فظهرت في مصر صحف الأهرام (١٨٧٦) ، والزمان (١٨٨٣) ، والمقطم (١٧٨٨). على أن موالاة بعض هـذه الصحف للاستعمار الانجليزي أثارت غضب الوطنيين من العرب ، فأنشأوا جريدة المؤيد . أصبحت الصحف قوة كبيرة في التعبير عن الرأي العام في البلدان العربية ،وصارت المجال الذي التقت فيه أقلام العلماء وآراء المصلحين ، وأفكار السياسيين من العرب ، فصاروا يناقشون الشئون العامـة للأمـــة العربية ، ويدرسون أوضاعها الاجتماعية والسياسية ، ويبصرون الناس بأطماع المستعمرين .

واقترن بهذه الحركة الفكرية ما نشأ من جمعيات وأندية ، لم تلبث أن عالجت القضايا السياسية ، والتنديد بالعثمانيين والمستعمرين ، ومن هذه الجمعيات الجمعية السورية التي تأسست في بيروت سنة ١٨٤٧ ، بمعونة المبشرين الأمريكان لنشر العلوم وترقية الفنون، ثم الجمعية العلمية العربية التي تألفت سنة ١٨٥٧ من

مسلمين ومسيحيين ، فكانت من مظاهر الوعي القومي . وفي مصر تأسست الجمعية الخيرية الإسلامية بالاسكندرية سنة ١٨٧٨ ، واتسع نشاطها في الميادين الاجتماعية والتعليمية .

وفي تلك الأثناء نجح أتباع جمعية الاتحاد التركي بتركيا في إقامة حكومة ثورة سنة ١٩٠٩ . وحاول بعض العرب الوفاق مع الترك ، غير أنهم لم يلقوا منهم إلا البطش ، والطرد من الوظائف ، ومنعهم من المشاركة في الجمعيات السياسية ، فضلا عن مناهضة اللغه العربية وفرض الرقابة على الضباط العرب . ولم يسع العرب إلا أن يلجأوا إلى تأليف الجمعيات السرية في مستهل القرن العشرين ، واتخذت أول الأمر شكلا ظاهره أدبي علمي ، وباطنه سياسي تحرري .

ومن الجمعيات العربية التحررية ، رابطة الوطن العربي التي نشأت فيباريس، بعيداً عن سيطرة العثمانيين ، فاستطاعت أن تعرض وضع العرب ، ومطالبهم العادلة ، وتتصل بأنصار الحرية في أوربا وأمريكا .

يضاف الى ذلك الجمعيات التي نوالي تأليفها في بداية القرن العشرين حتى قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) ، وأهمها :

١ – جمعية المنتدى العربي ، التي أغلقتها الحكومة العثمانية سنة ١٩١٥ .

٢ – الجمعية العثمانية التي تأسست في استانبول سنة ١٩٠٩ ، وكانت تهدف إلى أن تصبح الدولة العثمانية ثنائية ، فيكون للولايات العربية مجلس نيابي خاص ، وإدارة محلية . ولم تلبث أن تعرضت للاضطهاد والتداعي .

٣ – جمعية العربية الفتاة ، وبدأت في باريس ، حيث وضع أساسها الطلاب العرب ، ثم انتقلت الى بيروت، حيث نشط أعضاؤها في مناهضة الحكم العثماني، وتحقيق استقلال العرب ، والتخلص من النفوذ الأجنبي .

٤ – جمعية العهد ، سنة ١٩١٣ ، ألفها عزيز المصري ، وكان أعضاؤها من الضباط العرب ، وصار لها فروع في الموصل وبغداد . لم تسع الى الانفصال عن جسم الدولة العثمانية ، إنما دعت الى الاستقلال للبلدان العربية في ظل الخلافة العثمانية . وتعرضت لاضطهاد الاتحادين الذين ألقوا القبض على مؤسسها ، فأثاروا الرأي العام العربي .

٥ – حزب اللامركزية ، بالقاهرة ، سنة ١٩١٣ ، كان يهدف إلى تحقيق الحكم اللامركزي في الدولة العثمانية ، وبذا يتحقق للعرب قدر من الاستقلال الداخلي .

٦ – الجمعية الاصلاحية ، في بيروت ١٩١٣ ، تدعو الى الاصلاح ، بأن يقوم حكم دستوري نيابي ، وأن تكون العربية اللغة الرسمية في داخل الولايات العربية ، فاشتد سخط الاتحاديين وبادروا الى إغلاق الجمعية .

الواضح أن هذه الآراء تجمعت في المؤتمر العربي الأول الذي انعقد في باريس سنة ١٩١٣ بناء على دعوة جمعية الفتاة العربية ، وتضمنت قرارات المؤتمر حرص العرب على أن يكون لهم حقوق سياسية كالاشتراك في الحكم ، والمطالبة بأن تكون العربية هي اللغة الرسمية في البلاد العربية وتحديد الخدمة العسكرية ، وإنشاء إدارة لامركزية في كل ولاية عربية . ويتبين من كل ذلك أنه لم تجر المطالبة بالاستقلال عن جسم الدولة العثمانية ، وكل ما طالبوا به هو إصلاح أحوال العرب وبلادهم في ظل الإدارة العثمانية .

على أن الاتحاديين من جانبهم دعوا الى تتريك العرب ، ونادوا بالفكرة الطورانية ، أي بث الروح القومية في الترك ، وإرجاعهم الى أصولهم وإحياء مجدهم القديم . فانزعج العرب لهذه الآراء ، التي اعتبروها تحدياً صريحاً لهم ولكيانهم ، مما أنذر بوقوع صدام بين العرب والترك في انحاء الدولة العثمانية . وزاد من تخوف العرب ، ما لجأ إليه أحمد جمال باشا من أعمال القمع والعنف في

الشام ، سنة ١٩١٤ ، فأمر بإلقاء القبض على زعماء العرب، وإعدام كثيرين منهم ، وتوالى قدوم الكتائب التركية الى الشام ، فلم يبق أمام العرب إلا الثورة على الحكومة العثمانية. والمعروف أن هذه الثورة لقيت التأييد والترحيب من المعسكر الأوربي الغربي المناهض لمعسكر ألمانيا وحلفائها في الحرب العالمية الأولى .

الواقع أن منطقة الشرق العربي كانت بالغة الأهمية للمعسكرين المتقاتلين في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) ، لما لموقعها من أهمية استراتيجية ، ولخضوعها للدولة العثمانية التي تطلع الحلفاء الغربيون لاقتسام أراضيها ، ولما كان من نزوع العرب الى الاستقلال عن الدولة العثمانية ، فضلاً عن نشاط اليهود للإفادة من هذا الصراع العالمي .

الثورة العربية

يطلق اسم الثورة العربية على الحركة التي قام بها الشريف حسين بن علي ، شريف مكة على الدولة العثمانية. ومن الطبيعي أن تندلع هذه الثورة في الحجاز لما له من حرمة دينية ، وبعده عن مركز الحكومة العثمانية ، وبهذا ضعفت سيطرة الأتراك عليه ، بعكس الحال في بلاد العراق والشام القريبة من بلاد الأناضول فتعرضت لجميع مساوىء الحكم العثماني ، بينما كانت مصر وتونس والجزائر تعاني وطأة الاحتلال الانجليزي أو الفرنسي ، وكانت بذلك بعيدة عن حلقة الصراع بين الترك والعرب .

وإذ كشف الشريف حسين ما يديره الوالي التركي بالحجاز ، وهيب باشا ، من مؤامرات لإقصائه عن الحكم ، حرص على الاتصال بالجمعية العربية الفتاة ، سنة ١٩١٥ ، حتى تتخذ حركته طابعاً قومياً ، فتهيأ لها بذلك الفرصة للنجاح. على أن الأنجليز افادوا من احتلال مصر في مراقبة ما يقع من أحداث وقتذاك في الشرق العربي ، واغتنموا فرصة نفور العرب من الحكم التركي، فعرضوا خدماتهم على شريف مكه . فلما نشبت الحرب فعلاً وانحاز الترك إلى جانب

المانيا ، نشطت السياسة البريطانيـــة ، واستغلت القوى المعادية للحكم التركي لخدمة قضيتها الأولى : الانتصار على ألمانيا وتركيا ، فأثاروا مشاعر العرب ، وبدأت المراسلات فعلاً بين مكماهون . المعتمد البريطاني في مصر وشريف مكة وهي المعروفة بمراسلات الحسين – مكماهون .

وهذه المراسلات بدأت بمطالب تقدم بها الشريف حسين(تموز-يوليه١٩١٦)، وانتهت بخطاب مكماهون إليه (كانون الثاني - يناير ١٩١٦) .

وتضمن خطاب حسين المطالب الآتية :

١ – اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية التي يحدها شمالاً الخط الممتد من مرسين وأدنه ، إلى أورفه وماردين على حدود فارس . أما الحد الشرقي فيتاخم الحدود الفارسية حتى الخليج العربي ، ثم المحيـــط الهندي جنوباً ، والبحرين الأحمر والمتوسط غرباً .

٢ - إلغاء الامتيازات الأجنبية .

٣ - إعلان الخلافة العربية للمسلمين .

٤ - ويعرض حسين مقابل ذلك قيام تحالف دفاعي بين بريطانيـا والدولة العربية الجديدة .

٥ - ويمنح انجلترا أيضـــاً حق الدولة الأكثر تفضيلاً بالنسبة للمشروعات الاقتصادية في البلاد العربية .

وتعرضت مسألة الحدود للجدل والنقاش ، فحاولت انجلترا استثناء مرسين وأذنه لأن معظم سكانها ليسوا من العرب ، واستبعاد حلب وبيروت والساحل لتغلب الصفة المسيحية ، غير أن الشريف حسين أصر على ما اقترحه من حدود، فاعترفت انجلترا بالحـــدود المقترحة ، بعد استبعاد مرسين وأذنه ، فضلاً عن اعتراف العرب بمصالح الانجليز في البصرة وبغداد . ويوافق الانجليز على مسألة

الخلافة ، ويعتبرون السلطان العثماني مغتصباً لها ، ويجعلون للشريف حسين لقب صاحب الجلالة .

وإذ وصل الشريف حسين إلى هذه النتائج ، التي أقرهـــا أحرار العرب بالشام ، أعلن الثورة المسلحة في يونيه (حزيران) ١٩١٦ ، وقد كان لرجـــل المخابرات البريطاني ، لورنس ، دور هـــام في توجيهها ، وفي الفترة بين ١٩١٦ ، ١٩١٨ استطاعت القوات العربية أن تنتزع من العثمانيين المدن الكبرى بالحجاز ما عدا المدينة المنورة ، ثم زحفت إلى العقبة التي اتخذتها مقراً للعمليات الحربية ، ومنها استولى الجيش العربي على دمشق سنة ١٩١٨ ، وجرى طرد الترك من مدن الشام الكبيرة ، أمثال حلب وحمص وحماه .

والواقع أن كان لهذه الثورة العربية أهمية كبيرة للعمليات الحربية البريطانية في الشرق الأدنى ، فالجيوش العربية هي التي أحبطت هجوم الأتراك على قنـاة السويس ، وهي التي حالت دون نجـــاح الحملة التركية الالمانية على جنوب شبه جزيرة العرب ، كما أنها ساعدت على تأمين ما تقوم به القوات البريطانيـــة والمتحالفة من عمليـات حربية في الشام ، وهيأت الفرصة لنقل بعض القوات البريطانيـــة من الشرق الأدنى إلى ميادين أخرى ، فضلاً عن اشتداد كراهية السكان للترك بتلك الجهات .

على أن هذه الحركة أفسدها ، اقتصار القائمين بها على فئة من الطبقة المتعلمة ، وضباط الجيش ، وأعيان العرب ، فضلاً عن إثارة النزاع بين القائمين عليها ، كما يتضح من جهود لورنس ، وما لجأ إليه من الاساليب المختلفـة لتحقيق أغراض انجلترا . يضاف إلى ذلك الدوافع الشخصية التي أدت إلى التغاضي عمـا يدبره الانجليز وحلفاؤهم من خطط لنقض كل الاتفاقيات ، ولا سيما فيما يتعلق بفلسطين ولم يتوافر الدليل الثوري الذي تلتقي عنده آمال العرب ، فلم يظهر زعيم مسئول يحس بآلام العرب ، ويؤمن بحقوقهم .

اتفاق سايكس – بيكو :

على أنه حدث في الوقت الذي ظن العرب أنهم اتفقوا فيه مع دولة كبيرة ، أن دخلت هذه الدولة (انجلترا) في مفارضات سرية مع فرنسا لاقتسام الغنائم التي سوف تقع بأيديها بعد الانتصار على العثمانيين . إذ أن الحكومة الانجليزية أطلعت الحكومة الفرنسية على مفاوضاتها السرية مع الشريف حسين حتى إذا تمت المباحثات التمهيدية بين فرنسا وانجلترا ، اختارت كل من الدولتين ممثلاً لها ينوب عنها ، فكان المندوب البريطاني ، سايكس ، والمندوب الفرنسي بيكو . ولم يلبث الروس أن اشتركوا في هذه المباحثات لإقامة أساس سليم لتقسيم أملاك الدولة العثمانية بين الحلفاء الثلاثة ، انجلترا وفرنسا وروسيا ، وتحديد مناطق النفوذ في أرجاء الدولة العثمانية . وانعقد هذا الاتفاق سنة ١٩١٦ في بطرسبرج في روسيا ، ولذا يعرف باتفاق بطرسبرج . وتضمن هذا الاتفاق ما يأتي :

١ – كان نصيب روسيا ، القسطنطينية وجزء كبيراً من الأراضي العثمانية شرقي بلاد الأناضول .

٢ – جرى الاتفاق على أن تقتسم انجلترا وفرنسا ما يعرف بالهلال الخصيب :

أ – تختص فرنسا بساحل لبنان ، وأن يمتد نفوذها إلى داخل سوريا .

ب – تكون البصرة وبغداد من نصيب انجلترا .

جـ – تستقل منطقة شرق الأردن ، على أن يكون لانجلترا النفوذ في العراق والأردن فضلاً عن ثغري حيفا وعكا على البحر المتوسط .

د – تقوم بفلسطين إدارة دولية يتفق على صورتها بعد التشاور مع روسيا ، وبعد موافقة سائر الحلفاء وممثلي شريف مكة .

هـ – يصير لانجلترا وفرنسا الأفضلية في بذل ما تطلبه الدولة العربية التي تقوم بعد الحرب ، من مساعدات من قروض ، وتنفيذ المشروعات ، وتقـــديم المستشارين الأجانب والموظفين .

والواضح أن هذا الاتفاق حطم وحدة سوريا ، وحوّلهـا إلى مناطق نفوذ بين الانجليز والفرنسيين ، وجلب مشاكل جديدة إلى هـــذه المنطقة ، ومنها مشكلة فلسطين .

وعد بلفور سنة ١٩١٧ :

على أن انجلترا التي عقدت مع الشريف حسين اتفاقاً ، تعاهدت فيه باحترام استقلال الوطن العربي ، ولم تكتنف بالاشتراك مـع فرنسا وروسيا على اقتسام أملاك الدولة العثمانية ، لم تلبث أن تبادلت وجهات النظر مع القادة الصهيونيين، فأصدر بلفور وزير خارجية انجلترا في ٢ نوفمبر ١٩١٧ التصريح الآتي :

« إن حكومة جلالة الملك توافق على إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وسوف تبذل أكبر الجهد لتسهيل تحقيق هذا الأمر . على أنه ينبغي أن يكون واضحاً أنه لن يعمل شيء يغير الحقوق المدنية والدينية لغير اليهود من سكان فلسطين ، أو حقوق اليهود ووضعهم السياسي في سابر الدول » .

وصدر هذا التصريح أثناء قيام القائد الانجليزي اللنبي بحملته من مصر على الشام سنة ١٩١٧ ، ولم يفطن لأهمية هذا التصريح وخطورته إلا عدد قليل جداً من الناس .

وإذ أحس العرب بما يتعرضون له من نوايا سيئة تألفت لجنة من سبعة أعضاء من أحرار العرب ، تقدموا بمذكرة للحكومة البريطانية يستوضحونها موقفهـا من آمال العرب وحقوقهم ، فردّت على ذلك بأنها إنما شجعت العرب على التخلص

من حكم العثمانيين ليتحقق لهم الاستقلال التام ، غير أنه لم تلبث انجلترا وفرنسا أن أصدرتا في نوفمبر سنة ١٩١٨ تصريحاً مشتركاً جاء فيه « إن السبب الذي من أجله حاربت فرنسا وانجلترا في الشرق إنما هو تحرير الشعوب التي رزحت أجيالاً طويلة تحت مظالم الترك ، وإقامة حكومات تستمد سلطتها من اختيار الأهالي الوطنيين » .

فما قام من دولة عربية مستقلة عاصمتها دمشق ، كان يكتنفها الغموض ، كما صادفت العقبات من قبل فرنسا وانجلترا . ولما توجه فيصل ممثلاً لوالده حسين ملك الحجاز إلى باريس ، نوفمبر سنة ١٩١٨ ليحضر مؤتمر الصلح ، ويبقى حتى فبراير ١٩١٩ ، حينما جرى عرض القضية العربية ، لم يستطع فيصل أن يحقق ما كان مرجواً من آمال ، بسبب المعارضة الشديدة من قبل فرنسا وانجلترا .

وتعدلت اتفاقية سايكس بيكو في سبتمبر ١٩١٩ ، فتتفق انجلترا وفرنسا على جلاء القوات البريطانية عن الشام والساحل ، ليحل مكانها قوات فرنسية (باستثناء المدن الكبرى : دمشق ، حمص ، حماه ، حلب) . ورفض الشعب العربي في الشام ما دار من مفاوضات بين فيصل وفرنسا ، التي كانت تهدف إلى فرض حمايتها على بلاد الشام .

مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠ :

١ — اتخذ العرب قرارات ١٩٢٠ تقضي باستقلال بلاد الشام بما فيها فلسطين ولبنان ، وأن يكون الحكم فيها ملكياً دستورياً ، ونودي بالأمير فيصل ملكاً على سوريا . واجتمع زعماء العراق واختاروا الأمير عبدالله ملكاً عليه .

٢ — تم الاتفاق في مجلس الصلح الأعلى المنعقد في ابريل سنة ١٩٢٠ بتنظيم الانتداب في الشرق الأدنى ، فكانت سوريا ولبنان من نصيب فرنسا ، وصارت

فلسطين وشرق الأردن والعراق من نصيب انجلترا .

٣ – ما حدث في معركة ميسلون (يوليه ١٩٢٠) من صدام بين القوات الفرنسية والجيوش السورية ، أدى إلى دخول الجيش الفرنسي حلب وحمص بدون مقاومة ، وإلى تسريح الجيش السوري ، وبذا بدا الحكم الفرنسي في سوريا ولبنان في ظل الانتداب .

٣ – أقرت عصبة الأمم صك الانتداب وذلك سنة ١٩٢٣ .

العالم العربي بعد الحربين الأولى والثانية :

الواضح أن الدول الأوربية الغربية التي سيطرت على مصائر العالم العربي ، ازداد سلطانها ونفوذها بعد أن أحرزت النصر سنة ١٩١٨ ، فتحكمت في كل ما صدر من قرارات عن تصفية أملاك الدولة العثمانية في العالم العربي. وإذ جرى الاتفاق بين انجلترا وفرنسا باقتسام هذه الأملاك ، وصدقت عصبة الأمم على صك الانتداب ، بادرت الدولتان إلي أن تتخذا من الأساليب والتدابير ما يكفل لهما البقاء في هذه البلاد ، واستغلال مواردها ؛ وعلى الرغم من الاختلاف في التفاصيل في هذه السياسة ، فإنها في مجموعها شملت ما يأتي :

١ – التجزئة : بأن فرضت على الوطن العرب نوعاً من التجزئة الاقليمية ، التي تقضي على وحدة الأقاليم ، ومن الدليل على ذلك ما تضمنته اتفاقية سايكس – بيكو من توزيع الشرق الأدنى بين مناطق نفوذ ، وما انطوى عليه وعد بلفور من خلق مشكلة فلسطين .

٢ – يضاف إلى ذلك ما لجأت إليه الدول الاستعمارية من تعيين حدود وهمية بين أجزاء الوطن العربي ، كالحد الفاصل بين مصر والسودان الذي يتمشى مع خط عرض ٢٢ شمالاً ، واتخاذ خط طول ٢٥ شرقاً ليفصل بين مصر وليبيا ،

ومثل ذلك يقال عن الحدود الصحراوية التي تفصل الأردن عن العراق، أو تلك التي تفصل الأردن عن المملكة السعودية ، أو التي تفصل بين امارات الخليج العربي ، أو التي تفصل بين الجزائر ومراكش .

٣ – حاولت الدول الاستعمارية أيضاً فصل المناطق الساحلية عن المناطق الداخلية ، بالاستيلاء على مناطق استراتيجية رئيسية مثل مدخل الخليج العربي وعدن وفصل عدن وحضرموت ، وما كان يعرف بالمحميات عن جوف الجزيرة العربية ، التي حرموها من الجهة الساحلية الشرقية بالسيطرة على أقاليم الخليج العربي . ومن قبيل ذلك ما حدث من حرمان سوريا من الساحل باستثناء ساحل ضيق ، وذلك بعد انفصال لبنان ، كما انفصل الاردن عن فلسطين واقليم الريف عن بقية جهات المغرب .

٤ – لجأت الدول الاستعمارية إلى إثارة روح الطائفية والأقليات في الأقاليم التي خضعت لها ، ومن ذلك خروج الأكراد على كل حكومة في العراق وثوراتهم منذ سنة ١٩٣٢ ، واستغلال انجلترا للحركة الكردية لمجابهة الحركة الوطنية في العراق . وأفادت انجلترا أيضاً من الأقليات التركية والتركمانية والأشورية في العراق ، في الاحتفاظ بالسيطرة الانجليزية عليه . وحاولت انجلترا إثارة الفتنة بين المسلمين والأقباط في مصر ، على أنها لم تنجح في ذلك .

٥ – لجأت فرنسا أيضاً إلى تجزئة البلاد التي صارت بحوزتها. إذ تقرر تقسيم منطقة الانتداب الفرنسي الى أربع دويلات منفصلة : لبنان الكبير الذي ضم البقاع والمدن الساحلية : بيروت وطرابلس وصيدا وصور حتى الحدود الفلسطينية ، ودولة دمشق وبها جبل الدروز ، ثم حلب ويتبعها لواء الاسكندرونه . ودولة العلويين وتشمل لواء اللاذقية .

٦ – اتخذت فرنسا من الإساليب في معاملة الوطنيين ما يكفل لها البقاء ،

ومنها اشعال نار الفتنة بين أرباب المذاهب الدينية المختلفة ، مثلما جرى من إثارة العداء بين الموارنة والمسلمين ونشر سياسة التفرقـــة في المغرب العربي بين العرب والبربر ، فشجعت فرنسا قبائـــل البربر على تعلم الفرنسية ، وأنشأت لهم محاكم خاصة . يضاف إلى ذلك ما لجأت إليه الدول الاستعمارية من التقليل من أهميـة الحضارة العربية ، والدعوة إلى إحيـاء الحضارات التي كانت سائدة في الوطن العربي من قديم الزمن ، كالفرعونيـة في مصر ، والفينيقية في الشام ، والأشورية في العراق . وحرص المستعمرون على التدخـــل في برامج التعليم في المدارس الحكومية ، وإنشاء مدارس خاصة تحت إشراف بعثـــات علمانية أو دينية ، والسيطرة على أجهزة الثقافة والاعلام كالصحف والمجلات والمطابع والاذاعة ، وقصر التعليم على قلة محدودة لتظل الغالبية ترسف في الجهل والأمية .

٧ – يضاف إلى ذلك ما درج عليه الاستعمار من فرض نظم للحكم، يستطيعون بها أن يوجهوا الأفراد والحكام لتحقيق أغراضهم ، بما فرضه من معـــاهدات انطوت على ما ظفر به من امتيـــازات ، وعلى ما فرصه من قيود على الشعوب العربية. وكان للاستعمار أساليبه في فرص التبعية الاقتصادية، وتشكيل الاقتصاد الوطني على النحو الذي يخدم أهدافه الاستعمارية .

حركات التحرر في الوطن العربي :

الواضح أن الأجزاء المحتلة من العالم العربي ظلت بعد الحرب العالمية الأولى على ما هي عليـــه ، إذ بقيت انجلترا في مصر والسودان ، وظلت فرنسا في تونس والجزائر والمغرب ، واستمرت ايطاليا في ليبيا ، وما تبقى من العـالم العربي ، اقتسم معظمه انجلترا وفرنسا والمطـــامع الصهيونية . على أن حركات التحرر العربي من السيطرة الاستعمارية أخذت تقوى وتشتد في أعقـاب الحرب العالمية الأولى .

وما نشب من ثورات في أنحاء العالم العربي في مصر والعراق وسورية وفلسطين والمغرب العربي ، كانت تهدف إلى التخلص من الحكم الاستعماري الأجنبي . غير أن هذه الثورات لم تؤد إلى استقلال حقيقي للشعوب العربية ، لأن النضال العربي كان نضالاً محلياً ، يعوزه التنظيم والتخطيط الثوري على الصعيد العربي كله ، ولأن الاستعمار كان يلجأ دائماً إلى تخدير الشعوب العربية بأن كان ينص على استقلالها فيما عقده معها من معاهدات غير متكافئة ، حتى يسكت الحركات الوطنية . يضاف الى ذلك أن الدول الاستعمارية أفادت من الموقف الدولي وقتذاك ، فكانت تلوح بالأخطار التي تتعرض لها الشعوب العربية ، عند وقوع حروب لا بد أن تمس الوطن العربي .

كل ذلك أدى الى تعطل حركات التحرر العربي، والى تأخر الوحدة العربية. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) ، تدهور مركز الدول الاستعمارية ولا سيما فرنسا وانجلترا ، كما ظهر الاتحاد السوفيتي في المجال الدولي ، على أنه قوة لها أثرها الكبير ، في تغيير ميزان القوى العالمي ، فخلق موقفاً جديداً ، أفادت منه حركات التحرر العربي ، هذا فضلاً عن قيام جامعة الدول العربية ، وهيئة الأمم المتحدة ، وحركة التضامن الافرو اسيوي، وظهور الكتلة الثالثة في العالم تنادي بعدم الانحياز ، واستقلال دول كثيرة صار لها رأي في المنظمة الدولية .

كل هذه العوامل هيأت لبعض الشعوب العربية الفرصة للظفر بحقوقها في الحرية والاستقلال ، مثل سوريا ولبنان سنة ١٩٤٥ ، وليبيا سنة ١٩٥١ ،ومصر ١٩٥٢ ، والسودان سنة ١٩٥٦ ، والمغرب وتونس سنة ١٩٦٢ ، والعراق سنة ١٩٥٨ ، والجزائر واليمن سنة ١٩٦٢ .

وفيما يلي استعراض لحركات التحرر في الوطن العربي :

أولاً : وادي النيل (مصر والسودان) :

المعروف أن تركيا دخلت الحرب الى جانب المانيا وحلفائها ، ضد انجلترا وفرنسا وحلفائها ، وذلك في اكتوبر سنة ١٩١٤ . وكانت مصر من الناحية الرسمية تابعة لتركيا ، غير أنها فعلاً كانت خاضعة للاحتلال الانجليزي منذ سنة ١٨٨٢ . فأعلنت انجلترا الحماية على مصر ، وقطعت ما كان يربط مصر بالدولة العثمانية ، ومع ذلك ظلت تركيا متمسكة بمركزها الأسمى في مصر حتى سنة ١٩٢٣ ، حين قررت معاهدة لوزان اعلان تخلي تركيا عن سيادتها على مصر .

والمعروف أن المصريين تعرضوا للضغط والشدة من قبل سلطات الاحتلال ، كيما يقدموا كل ما يحتاجه المجهود الحربي من خدمات . فأضحت مصر قاعدة للقوات البريطانية وقامت بمدها بالمؤن والمساعدات المختلفة ، وأفاد الانجليز من الأحكام العرفية التي فرضوها على البلاد في تسخير كل مواردها . وبعد أن انتهت الحرب بانتصار الحلفاء ، وأعلن الرئيس الأميركي ولسون مبادءه المشهورة التي تتضمن حق الشعوب في الحرية وتقرير المصير . ولما انعقد مؤتمر الصلح في باريس سنة ١٩١٩ ، رفض الانجليز السماح لممثلي الشعب بالسفر الى الخارج لعرض مطالب البلاد التي تدور حول إلغاء الحماية واستقلال البلاد . غير أن المؤتمر أقر الحماية البريطانية .

وتفجرت ثورة سنة ١٩١٩ ، التي اشترك فيها جميع طوائف الشعب المصري وقواه العاملة ، وحارب الشعب بكل سلاح في متناول يده ، فقطعت خطوط السكك الحديدية ، وأسلاك الهاتف ، وتعرضت مراكز الحكومة للهجوم ، وتحولت الحركة القومية من حركة سلمية الى حركة عنيفة ، واستشهد عدد كبير من المصريين .

وقد حاولت السلطات البريطانية إخماد الثورة ، فألقت القبض على سعد زغلول ورفاقه ، ونفتهم الى جزيرة مالطة ، ثم الى جزيرة سيشل (في المحيط الهندي) . ولكن الثورة امتدت الى الأقاليم ، ولم تنجح أساليب الاستعمار في الحد منها . ولما تأكدت الحكومة البريطانية أنها لن تستطيع إخماد هذه الثورة

الوطنية ، لجأت إلى المفاوضات ، واثارة الفرقة في صفوف القادة ، وأصدرت في ٢٢ فبراير ١٩٢٢ ، التصريح المشهور ، الذي أعلنت فيه انهاء الحماية على مصر ، واعلان استقلال البلاد بتحفظات أربعة تتعلق بمواصلات الأمبراطورية في مصر ، والدفاع عنها ، وحماية المصالح لاجنبية والأقليات ، والسودان .

وبذا تولى حكم مصر ملك (أحمد فؤاد) ، وزالت السيادة العثمانية عن مصر ، فضلاً عن تنظيم العلاقات بين مصر وانجلترا ، بمقتضى تصريح فبراير ١٩٢٢ .

والواقع أن ثورة سنة ١٩١٩ ، لم تحقق الأماني الحقيقية للأمة ، نظراً لما وقع من نزاع بين القادة المصريين ، وعدم ادراكهم لما لجأت إليه انجلترا من تغيير في أساليب سياستها بأن تخلت غن استخدام القوة في قمع الشعور الوطني، وبذلت تنازلات شكلية ، لا تغير شيئاًمن وضعها الفعلي بالبلاد . يضاف إلى ذلك أن القادة المصريين أغفلوا ما يقتضيه التغيير الاجتماعي من مطالب ، فلم يفطنوا إلى أهمية الدعوة إلى إعادة توزيع الثروة الوطنيه ، وإلى معالجة المشكلة الاقتصادية والاجتماعية .

ولم يحرص قادة الثورة ، من جهة أخرى ، على تنسيق الكفاح في مصر والبلاد العربية ضد الاستعمار ، فنظروا لقضاياهم نظرة مصرية بحتة ، وبذا تبددت جهود العاملين في حقل النضال العربي ، وأدرك الاستعمار ما تعرضت له الأمة العربية من أسباب التمزق والفرقه .

ولم يرض الشعب في مصر عن هذا الاستقلال الزائف في ظل الاحتلال البريطاني ، فتكررت المفاوضات مع بريطانيا لتسوية مشكلة العلاقات المصرية البريطانية وكان ذلك هو الهدف الثاني للأحزاب المصرية العديدة ، التي جعلت هدفها الأول الوصول إلى الحكم .

وبعد حركات كفاح وتضحيات من قبل الشعب ، انعقدت معاهدة التحالف

والصداقة ، سنة ١٩٣٦ ، حصلت انجلترا بمقتضاها على مـــا كانت تسعى إليه منذ احتلالها مصر ، وقامت بتسوية علاقاتها معها على أساس قانوني سليم ، يجعل احتلالها لمصر أمراً مشروعاً . إذ أن هذه المعاهدة لم تكفـل لانجلترا مصالحها في مصر فحسب ، بل إنها ضمنت انضمام مصر إلى جانبها في هذه الفترة التي تكهرب فيها الجو الدولي ، ولم تحصل مصر مقابل ذلك إلاّ على مساعدة انجلترا لها في إلغاء الامتيازات الأجنبية .

شهدت الفترة الممتدة من ١٩٣٦ حتى سنة ١٩٥٢ ، نشوب الحرب العالميـة الثانية ، وقيام هيئة الأمم المتحدة ، ودخول مشكلة فلسطين في مرحلة جديدة، والتمهيد لثورة يوليه ١٩٥٢

والمعروف أن مصر اسهمت بخدماتها ومساعداتهـا الفعالة لانجلترا وحلفائها في اثناء الحرب العالمية الثانيـــة (١٩٣٩ – ١٩٤٥) ، وتحملت مسئوليات جسيمة في سبيل نصرة قضية الحلفاء ضد المانيا وحلفائها . وما حدث في أعقاب الحرب الأولى ، جرى في أعقاب الحرب الثانيـة ، إذ أن مطالب مصر بجلاء قوات الاحتلال عن وادي النيل ، وانهاء النظام الإداري في السودان لم تلـق القبول في مجلس الأمن ، الذي أوصى باستمرار المفاوضات بـــين الطرفين لفض النزاع بينهما . على أن هذه المفاوضات لم تسفر عن نتيجة إيجابية، إذ أصرت مصر على مطالبها ، وتمسكت انجلترا ببقاء قواتها للمحافظة على سلامة الوطن العربي ، ودرء الخطر الشيوعي ، فلم يسع الحكومة المصرية في اكتوبر ١٩٥٠ إلا إعلان الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وبطلان اتفاقيتي السودان (١٨٩٩) ورفض مـا عرضتـه الدول الغربية من الانضمام إلى منظمة للدفاع عن الشرق الأوسط .

وكيفما كان الأمر ، استمر الشعب في الكفاح ، وتهيأت الفرصة لقيام ثورة يوليه سنة ١٩٥٢ ، للتخلص من الاستعمار البريطاني في وادي النيـــل ، ومن الملكية ، فتقرر اعلان الجمهورية في يونيه ١٩٥٣ . وتتلخص أهداف الثورة في

القضاء على الاحتكار ، وإقامة عدالة اجتماعية ، وتأليف جيش وطني ، وإقامة حياة ديمقراطية سليمة .

ووقع في أوائل عهد الثورة حدثان هامـــان ، أحدهما تحرير السودان ، والآخر تخليص مصر من كل أثر للاستعمار. فمن ناحية مصر، أسفرت المفاوضات بين الانجليز والمصريين عن التوصل آخر الأمر ، في اكتوبر سنـــة ١٩٥٤ إلى اتفاق نص فيه على جلاء القوات البريطانية في مدة عشرين شهر من توقيع الاتفاق ، أي في ١٨ يونيه ١٩٥٦ ، وبذا تحقق أمل مصر بجلاء القوات البريطانية عن أراضيها ، ولم ترتبط مصر بأجهزة الدفـاع البريطاني عن الشرق الأوسط .

السودان .

المعروف أن علاقات مصر بالسودان في العصر الحديث ، ترجـع إلى زمن محمد علي ، فامتدت حدود السودان حتى خط الاستواء ، على أن احتلال انجلترا لمصر سنة ١٨٨٢ ، أدى إلى تدخل انجلترا في أمـــور السودان ، فلما قامت الثورة المهدية في السودان ، وحرصت انجلترا على أن يزيـد نفوذها وسلطانها بمصر والسودان ، أشركت قوات انجليزية قليلة العدد مـــع القوات المصرية في استعادة السودان سنة ١٨٩٦ ، وتـلى ذلك عقد اتفاقيتي سنة ١٨٩٩ التي جعلت الحكم بالسودان ثنائياً ، بين مصر وانجلترا . على أن انجلترا أخذت تلتمس من الأسباب ما يدعوها إلى زيادة سلطانها في السودان واضعاف نفوذ مصر ، ولا سيما أن وادي النيل خضـع بأسره لسلطان الانجليز . ولذا أصرت انجلترا في أن تجعل السودان ، فيتصريح فبراير سنة ١٩٢٢ ، من الموضوعـات المعلقة التي تتطلب المفاوضات بين انجلترا ومصر. وما حدث من مفاوضات حتى سنة ١٩٣٦ ، كان السودان يعتبر الموضوعـات التي عرضت المفاوضـات في معظم الأحوال للفشـــل .

على أن الوضع تغير بعد ثورة سنة ١٩٥٢، إذ حرص المصريون على أن يفوتوا على الانجليز أغراضهم الاستعمارية ودعواهم بأن مصر نادت بوحدة وادي النيل على أن يكون خاضعاً لمصر . والواقع أن العالم كان مقبلاً على فـــترة قوي فيها صوت الشعوب ، فاتفقت وجهة نظر مصر مع مبادىء الأمم المتحدة ، وحق الشعوب في تقرير مصيرها . وعلى هذا الأساس استأنـــف الجانبان المصري والانجليزي المباحثات حول السودان ،وتوصل الطرفان إلى اتفاق بشأن الحكم الذاتي وتقرير المصير للسودان في فبراير ١٩٥٣ ، وهذا هو أول عمل إيجابي في السياسة الخارجية تقوم به الثورة بجرأة ونجاح ، وبذا شهد العالم قيـــام دولة عربية جديدة في افريقية ، تكافح إلى جانب الدول العربية في سبيل العروبة وتحرير افريقية . وفي ديسمبر سنة١٩٥٥ قرر البرلمان السوداني اعلانالاستقلال، فاعترفت مصر وبريطانيا باستقلاله على الفور . ولم يلبث أن صار السودان عضواً بجامعة الدول العربية ، وذلك في يناير ١٩٥٦ .

ثانياً ـ شمال افريقية

١ – ليبيا .

كانت ليبيا تابعة للدولة العثمانية ، حتى غزتها ايطاليا ، وانتزعتها من تركيا سنة ١٩١١ ، ثم جلا عنها العثمانيون سنة ١٩١٢ ، وتركوا سكان البلاد يقاومون وحدهم الاحتلال الإيطالي . على أن الأتراك بذلوا المؤن والذخائر للسكان أثناء مقاومتهم للايطاليين في الحرب العالمية الأولى . وازداد مركز الايطاليين قـوة بعد انتصار الحلفاء ، ووصول موسوليني للحكم سنة ١٩٢٢ ، فشرعـــوا في اخضاع ليبيا لسيطرتهم ، بما لجأوا اليه من أعمال البطش بالسكان وتشجيع الهجرة على نطاق واسع إلى ليبيا ، ومع ذلك ظلّ الليبيون يقاومون الاستعمار الايطالي ، فقاد عمر المختار الحركة الوطنية ، ولم تخمد حركة المقاومـة إلا بعد

أن وقع عمر المختار أسيراً ، فأمروا باعدامه سنة ١٩٣١ بعد محاكمة صورية .

وكانت ليبيا من أهم ميادين الحرب العالمية الثانية ، فلما انهزم الايطاليون والألمان ، وارتدت قواتهم العسكرية عن الأرضي الليبية سنة ١٩٤٣ ، انتهى بذلك الاحتلال الإيطالي لهذا الاقليم بشمال أفريقية .

وبانتصار الحلفاء ، خضعت برقه وطرابلس للانجليز ، بينما خضعت فزان للفرنسيين . وبهذا تجزأت البلاد في ظل هذه الإدارات العسكرية الاستعمارية . ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً ، فبفضل جهود الليبيين ، ومساندة مصر ، وجامعة الدول العربية ، فضلاً عن المنازعات بين الدول الكبرى على مصير ليبيا ، تقرر أن تحال القضية الليبية إلى هيئة الأمم المتحدة . فقررت الجمعية العامة للامم المتحدة في نوفمبر سنة ١٩٤٩ استقلال ليبيا باقاليمها الثلاثة ابتداء من مطلع عام ١٩٥٢ ، وصار محمد ادريس المهدي السنوسي أمير برقة ، ملكاً باسم ادريس الأول .

٢ — تونس .

لم يذعن التونسيون للاستعمار الفرنسي ، ونهضوا لمقاومة الحماية التي فرضها عليهم الفرنسيون بمقتضى معاهدة باردو (مايو ١٨٨١) واتفاقية المرسى (يونيو ١٨٨٣) ، التي أحكمت سيادة فرنسا على البلاد ،على أن الحركة الوطنية في تونس اتخذت صورة منظمة في أوائل القرن العشرين ، إذ تأسست جريدة التونسي سنة ١٩٠٤ ، لتكون لسان حال الوطنية التونسية ؛ وقاوم الشعب التونسي الاحتلال الفرنسي ، فاندلعت الثورات في انحاء البلاد ، وتقرر تعطيل الجريدة ، واعلان الأحكام العرفية . على أن اعلان الرئيس ولسن مبادرة المشهورة ولا سيما ما يتعلق منها بتقرير المصير ، حمل الوطنيين التونسيين على متابعة نشاطهم في المحافل الدولية ، وتألفت الأحزاب ، وتولى الحزب الحر الدستوري قيادة حركة المقاومة ، وطالب باعلان الدستور ، واعادة السلطة

إلى السكان الأصليين . ولم تجد نفعاً المحاولات التي جرت لتحقيق التفاهم بين الوطنيين والفرنسيين ، فعادت الاضطهادات ، وتكرر نفي الزعماء واعتقالهم ، وتعطلت الصحف .

ولما قامت الحرب العالمية الثانية ، وتقررت الهدنة بين فرنسا ودول المحور ، طالب الشعب التونسي بالاستقلال ، فتقرر اطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين سنة ١٩٤٢ . غير أنه لما انتصر الحلفاء ، واحتلت جيوشهم تونس سنة ١٩٤٣ ، اشتد الفرنسيون في معاملة الوطنيين .

وفي هذه الظروف اتجهت أنظار قادة تونس إلى الشرق العربي ، وفرّ الحبيب بورقيبه إلى القاهرة (١٩٤٥) ، وبعد الحرب العالمية الثانية اتفق القادة التونسيون على ضرورة توحيد صفوفهم لمواصلة الكفاح الوطني ، فعقدوا في أغسطس ١٩٤٦ مؤتمراً تقرر فيه بطلان الحماية الفرنسية ، والمطالبة بالاستقلال التام ، والانضمام إلى جامعة الدول العربية .

وما قام في تونس من ثورات منذ سنة ١٩٥٠ ، ونشوب ثورة الجزائر (١٩٥٤) ، وتدخل الجمعية العامة للامم المتحدة ، واصرار تونس على الاستقلال ، كل ذلك أدى آخر الأمر ، إلى المفاوضات بين الجانبين ، والتي انتهت في مارس ١٩٥٦ ، باعتراف فرنسا باستقلال تونس التي انضمت إلى هيئة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية في اكتوبر سنة ١٩٥٨ .

٣ ـ الجزائر

احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ ، على أن الجزائريين قاوموا الاحتلال ، وشهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر ثورات عديدة ضد فرنسا التي وضعت من القوانين والتشريعات ما ترمي بها إلى إلحاق الجزائر بفرنسا . ففي يوليه سنة ١٨٣٤ أصدرت فرنسا قراراً باعتبار الجزائر من ممتلكاتها ، وتعيين حاكم عسكري لها .

ثم أصدرت سنة ١٨٤٨ قانوناً يعتبر الجزائر أرضاً فرنسية وتسري عليها القوانين الفرنسية ، أي أنها اتبعت سياسة الادماج ، فشجعت أهل الجزائر على اتخاذ الجنسية الفرنسية . وفي سنة ١٨٦٥ تقرر اعتبار الجزائريين فرنسيين بشرط أن يخضعوا لأحكام القانون الفرنسي . غير أن المسلمين رفضوا هذا القرار ، وأعلنوا تمسكهم بأحكام الشريعة الإسلامية ، ورفض الجزائريون حقوق المواطنة الفرنسية التي عرضتها عليهم حكومة باريس سنة ١٩١٩ .

وإذ فشلت سياسة الادماج ، اتبعت فرنسا سياسة أخرى أطلق عليها المشاركة Association قصد بها المحافظة على الوضع الاسلامي للجزائريين ، مع تمتعهم بحقوق الجنسية الفرنسية . ولكن الجزائريين المسلمين رفضوا أيضاً سياسة المشاركة .

وحاول زعماء الجزائر الإفادة من نزول الحلفاء الى شمال افريقيا في الحرب العالمية الثانية ، كيما يظفروا بالاستقلال وإنشاء جمهورية جزائرية ، غير أنهم لم يلقوا أذناً صاغية عند الحلفاء ، بل ان فرنسا دبرت مذبحة قسطنطينة التي راح ضحيتها نحو أربعين ألف نسمة . فأعلنت الأحكام العرفية ، وألقي القبض على آلاف الجزائريين ، وحكم على عدد كبير بالاعدام . وبذا ضاعت سدى كل محاولة للحل السياسي، ولا سيما بعد أن رفض الجزائريون القانون الأساسي الذي أصدره الفرنسيون سنة ١٩٤٧ ، والذي يقضي بأن تكون الجزائر جزءاً من الأراضي الفرنسية ، وأن يمارس الحاكم العام الفرنسي السلطة التنفيذية ، وأن يتألف مجلس حكومي يعين الحاكم العام نصف أعضائه لممارسة السلطة التشريعية ، كما يضم مجلس النواب ١٢٠ عضواً ، نصفهم من الجزائريين ، والنصف الآخر من المستوطنين . والواقع أن كل هذه الاجراءات لم تغير شيئاً من وضع فرنسا في الجزائر ، فلم يسع الجزائريون إلا إعلان الثورة سنة ١٩٥٤ ، منادين بتحرير البلاد واستقلالها .

وقامت جبهة التحرير الوطني الجزائرية بدور كبير في هذه الثورة، فأقامت

إدارة محلية للاشراف على الأعمال الحربية . وفي فبراير ١٩٥٦ أعلن الوفد الجزائري لجبهة التحرير الشروط التي يمكن أن توافق الجبهة بموجبها على تسوية المشكلة الجزائرية وهي :

١ - اعتراف الحكومة الفرنسية باستقلال الجزائر .

٢ - إقامة حكومة جزائرية تتولى وضع أسس العلاقات بين الجزائر وفرنسا .

٣ - إطلاق سراح جميع المعتقلين والمسجونين السياسيين ، وعودة المبعدين إلى الجزائر .

غير أن الحكومة الفرنسية رفضت الموافقة على هذه الشروط ، وأمعنت في قتال الجزائريين . على أن الدول العربية أعلنت تأييد الجزائر في كفاحها ، إذ أذاعت جامعة الدول العربية في نوفمبر سنة ١٩٥٤ بياناً أيدت فيه الجزائر . وفي اجتماع اللجنة السياسية للمؤتمر الآسيوي الافريقي في باندونج سنة ١٩٥٥ ، أعلن جمال عبد الناصر ، التأييد المطلق للجزائريين . ووجه عبد الناصر ونهرو وتيتو ، عقب انتهاء محادثات بريوني في يوليه ١٩٥٦ نداء إلى فرنسا ، لكي توجد حلا عادلاً سلمياً لمشكلة الجزائر . ووافقت الجمعية العامة لهيئة الأمم في فبراير ١٩٥٧ على مشروع قرار يدعو إلى حل سلمي ديمقراطي لمشكلة الجزائر . وفي سبتمبر ١٩٥٩ تألفت بالقاهرة حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية ، تكون مسؤولة أمام المجلس الوطني للثورة الجزائرية ، وأخذت الدول تعترف بها . ولم تلبث أن دارت المفاوضات بين فرنسا والحكومة المؤقتة سنة ١٩٦٠ ، انتهت بعقد اتفاقية ايفيان التي اعترفت باستقلال الجزائر في يوليه سنة ١٩٦٢ .

٤ - المغرب :

فقدت بلاد المغرب استقلالها في أواخر سنة ١٩١١ عندما غزتها القوات الفرنسية والاسبانية ، واستقرت الجيوش الاسبانية على الساحل ، بينما زحفت

القوات الفرنسية الى الداخل واحتلت العاصمة فاس . وبذا انقسمت مراكش الى ثلاث مناطق : فرنسية واسبانية ، ثم منطقة طنجة الدولية . ومع أن فرنسا أرغمت السلطان على توقيع معاهدة الحماية في مارس ١٩١٢ ، فإنهـا لم تستطع إخضاع البلاد لسيادتها إلا في سنة ١٩٣٥ . إذ قام الشعب بثورات عديدة ، كان من أهمها ثورة الريف في شمال المغرب التي ناضلت التكتل الاستعماري الفرنسي الاسباني ، وهي الحرب التي قادها الأمير محمد عبد الكريم الخطابي ضد اسبانيا وفرنسا ، فيما بين سنة ١٩٢٣ ـ ١٩٢٧ . وبرغم انتصارات عبد الكريم ، انتهت الثورة بإذعان ثوار الريف ، وتقرر نفي عبد الكريم وأعوانه ، حتى تمكن من النزول في بور سعيد والالتجاء الى مصر سنة ١٩٤٧ .

ومع أن فرنسا أبقت الحكومة الوطنية أو حكومة المخزن التي يرأسـها السلطان ، فإنها جعلت كل السلطات في يد المقيم العام الفرنسي، إذ يتولى التصديق على المرسومات الملكية ، ويعتبر حلقة اتصال بين الملك والدول الأجنبية ، فضلاً عن كونه القائد الأعلى للقوات المسلحة .

ولجأت فرنسا إلى إنشاء حكومة مركزية في منطقـة نفوذها ، وجعلت على رأسها ممثلاً للملك وحرصت على أن تجعله يقطع كل صلة بملك المغرب .

واتخذ الاستعمار الفرنسي في المغرب سياسة التفرقة بين العرب والبربر ، وكانت فرنسا تأمل في فرنسة المغرب ، فشجعت البربر على تعلم اللغة الفرنسية ، وأنشأت لهم محاكم خاصة ، استمدت أحكامها من التقاليد البربرية بدلاً من الشريعة الإسلامية .

ولقيت الحركة الوطنية التأييد من السلطان محمد الخامس ، فقررت فرنسا نفيه إلى جزيرة مدغشقر وأقامت مكانه سلطاناً آخر ، وألقت القبض على كل مؤيد للقضية الوطنية . فاشتدت الثورة ، واتحدت جميع الأحزاب في مناهضتها لتدابير فرنسا ، التي لم يسعها إلا إعادة السلطان محمد الخامس الى العرش سنة

١٩٥٥، ثم اضطرت آخر الأمر الى الاعتراف باستقلال المملكة المغربية ووحدتها، في مارس ١٩٥٦ ، وتبعتها اسبانيا بإصدار تصريح في أبريل ١٩٥٦ اعترفت فيه للمغرب بالسيادة والاستقلال ووحـــدة أراضيه . ولم تلبث الدول العربية أن أعلنت اعترافها . وفي اكتوبر سنة ١٩٥٨ ، انضمت المملكة المغربية إلى جامعة الدول العربية .

ثالثاً : المشرق العربي

١ - فلسطين والمؤامرة الصهيونية الاستعمارية

يرجع تاريخ الدعوة الصهيونية إلى سنة ١٨٩٧ ، حين انعقـــد أول مؤتمر صهيوني في مدينة بازل في سويسرا ، ووافق المؤتمر على نظرية هرتزل « بإنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين » ، وورد في البند الثـاني من قرارات هذا المؤتمر « أن تكون مساحة البلاد كافية لحاجات خمسة عشر مليونـــاً من اليهود » . ثم أعلن الزعيم الصهيوني ، إسرائيل زانكويل ، بعـد فترة قصيرة من انعقاد المؤتمر « أن فلسطين وطن بلا شعب ، فيجب أن تعطى لشعب بـلا وطن ، وأن من واجب اليهود في المستقبل أن يضيقوا الخناق على السكان العرب بفلسطين ، حتى يضطروا إلى الخروج منها » .

ولما احتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ ، بعد أن تدهور الاقتصاد المصري ، أعلن زعماء الحركة الصهيونية في هذه السنة عن قيـام هذه الحركة ؛ وأشاروا إلى « أن فلسطين يجب أن تكون وطناً لليهود ، وأنه يصح نقل العرب بفلسطين إلى الأقطار العربية المجاورة ، لأنها بلاد شاسعة المساحة ، وقليلة السكان » . والمعروف أن هرتزل النمساوي أصدر كتابه « الدولة اليهودية ، سنة ١٨٩٥ ، وأشار فيه إلى أن الصهيونية حركة تهـدف إلى إقامة دولة اليهود في فلسطين ، وتمتد من النيل إلى الفرات .

أخذت الحركة الصهيونية تنشط لتحقيق أغراضها ، فاستخدمت كل ما لها من نفوذ في دوائر المال والبنوك في الدول الأوروبية الكبرى ، كيما تساعدها على استعمار فلسطين ، بتشجيع الهجرة المنظمة إلى فلسطين، وانتزاع ما بأيدي العرب من أراضي ، وفرض السيطرة المالية على فلسطين ، ولا سيما بعد أن أصدر السلطان عبد الحميد مرسوماً سنة ١٨٩٢ يمنع الهجرة اليهودية لتخوفه من أن يستخدم الاستعمار فلسطين جسراً ينفذ منه الى قلب الامبراطورية العثمانية ، وبذا ارتبط الاستعمار والصهيونية في الشرق والبلاد العربية .

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى كتب الدكتور حاييم وايزمان ، الذي تزعم الحركة الصهيونية بعد هرتزل ، ما يلي في ١٢ نوفمبر سنة ١٩١٥ : « إذا دخلت فلسطين في دائرة النفوذ البريطاني ، ووافقت الحكومة البريطانية على تشجيع إسكان اليهود بها ، فإنه يصير لنا في فلسطين خلال عشرين أو ثلاثين سنة ، نحو مليون يهودي أو أكثر من ذلك ، يشكلون حراسة عملية لقناة السويس » .

وأشار وايزمان في رسالته التي وجهها إلى وزارة الحرب البريطانية في ١٤ اكتوبر سنة ١٩١٧ ، إلى أنه يجعل في يد بريطانيا مصير الوطن اليهودي والصهيوني ، لتنظر فيه في ضوء مصالح الامبراطورية . فأعلن ساسة انجلترا أن من مصلحة الامبراطورية أن يكون لليهود وطن في فلسطين ، وتحقق ذلك بإعلان تصريح بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧ .

ولقي تصريح بلفور الموافقة من الدول الاستعمارية الأخرى، أمثال الولايات المتحدة الاميركية ، وفرنسا ، وايطاليا . وكانت بريطانيا تهدف من وراء إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، إلى خدمة مصالحها الاستعمارية في الشرق العربي ، بإقامة قاعدة عسكرية أخرى في فلسطين ، تحمي بها قناة السويس ، إذا جلت عن مصر . وما ورد في تصريح بلفور من تحفظ عن مصالح سكان فلسطين الأصليين من غير اليهود ، لم يكن المقصود منه إلا تهدئة خواطر العرب .

ولما احتلت القوات البريطانية الأراضي الفلسطينية في ٨ ديسمبر ١٩١٧ ، وأنشأت إدارة عسكرية ، بادرت إلى تحقيق وعد بلفور ، بفتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية ، وأجازت للمهاجرين امتلاك الأراضي العربية ، والاحتفاظ بأسلحتهم ، وتنظيم جمعيات سياسية ومنظمات يهودية ارهابية مارست نشاطها العسكري تحت ستار جمعيات ثقافية ورياضية ، وبذا حرصت بريطانيا على تهويد فلسطين ، قبل إقرار الانتداب البريطاني عليها وفق مقررات مؤتمر سان ريمو في ٢٥ أبريل ١٩٢٠ .

وافقت عصبة الأمم في ٢٤ يوليه ١٩٢٢ على صك الانتداب البريطاني على فلسطين ، وقد انطوى على وعد بلفور . والواضح أن المنظمة الصهيونية أخذت منذ سنة ١٩١٩ بالاشتراك مع انجلترا تعد صيغة صك الانتداب ، وهذا هو السر فيما كان من وفاق بين حكومة الانتداب وأهداف الحركة الصهيونية وأطماعها في فلسطين . إذ تقرر الاعتراف بوكالة يهودية تتعاون مع السلطات البريطانية على تهجير اليهود الى فلسطين وتوطينهم بها ، وتيسير حصولهم على الجنسية الفلسطينية واعتبار العبرية لغة رسمية إلى جانب الانجليزية والعربية .

وإذ قامت الادارة المدنية ، بعد إقرار الانتداب البريطاني،تولاها أحد كبار الانجليز اليهود ، وهو هربرت صمويل ، فعين رؤساء الادارات الحكومية من اليهود الانجليز ، وجعل مساحات كبيرة من الأراضي هبة للوكالة اليهوية ، وأجلى أعداداً كبيرة من العرب من مواطنهم ، وفتح باب الهجرة لليهود على مصراعيه ، بعد أن كان عددهم لا يتجاوز خمسة وخمسين ألف يهودي .

وكانت هذه الاجراءات كفيلة بأثارة العرب ، واشتعلت الثورة الكبرى سنة ١٩٣٦ بعد دخول ستين ألف مهاجر يهودي قدموا من ألمانيا فراراً من حكم النازي سنة ١٩٣٥ ، واستمرت الثورة حتى سنة ١٩٣٩ .

والملحوظ أن ثورات العرب حتى سنة ١٩٣٣ كانت موجهة الى اليهود ، ثم تحولت إلى حكومة الآنتداب البريطاني،فطالب العرب بحق الشعب الفلسطيني

في تقرير مصيره وإقامة دولة عربية مستقلة بفلسطين . وظلت بريطانيا منذ سنة ١٩٢٢ حتى سنة ١٩٣٩ ، تلجأ إلى سياسة إرسال اللجان الى فلسطين لدراسة الأوضاع بها ، وعرض مقترحات لحل المشكلة ، ولم تسفر جهود هذه اللجان عن نتائج ايجابية .

على أن انجلترا بدأت منذ سنة ١٩٣٩ تخفف من سياستها القائمة على الالتزام بوعد بلفور وصك الانتداب ، نظراً لما كان يلوح من نذر الحرب العالمية الثانية ، وحرصت انجلترا على تهدئة الموقف في الشرق العربي عامة . فاشترك في مؤتمر الدائرة المستديرة بلندن سنة ١٩٣٩ ممثلون عن عرب فلسطين ، وعن الدول العربية ، وعن الصهاينة . على أن إصرار العرب على مطالبهم باستقلال فلسطين وإنشاء دولة عربية ، وحرص الصهاينة على تنفيذ وعد بلفور ، أدى إلى فشل المؤتمر ، ولم يقبل العرب واليهود ما جاء في الكتاب الأبيض الذي أصدرته انجلترا في مايو ١٩٣٩ ، وأشارت فيه إلى تمسكها بسياستها ، وإلى سعيها إلى إقامة دولة فلسطينية تربطها بانجلترا معاهدة خاصة .

وإذ اتخذت القيادات الوطنية العربية خطة مساندة الثورات ضد انجلترا ، مثلما حدث في ثورة العراق ١٩٤١ ، وفي ممالأة النازية، وانحاز الصهاينة الى جانب انجلترا وحلفائها ، فتألف فيلق يهودي اشترك في الحملة الايطالية سنة ١٩٤٤ . ولما انتهت الحرب عاد هذا الفيلق الى فلسطين بكامل أسلحته . فلما انتصر الحلفاء على النازية ، قوي مركز اليهود ، فتهيأت لهم الفرصة للتسليح ، وتدفقت أعداد منهم من الأراضي التي احتلها النازي الى فلسطين .

ونجم عن الحرب العالمية الثانية ، أن صارت مسألة اليهود تعتبر مشكلة دولية ، بعد أن زعم اليهود أنهم أضحوا مشردين ، بعد قيام نظم شيوعية في شرق ووسط أوروبا، فضلاً عن أولئك الذين خرجوا من معسكرات الاعتقال، ويهود بولندا ، وأولئك الذين رفضوا البقاء في البلاد الشيوعية ، التي لا تقبل استغلالهم لموارد البلاد. وأصرت الحركة الصهيونية أنه لا سبيل الى حل مشكلتهم

إلا بتوطينهم في فلسطين ، ولقيت قضيتهم العطف الشديد من الولايات المتحدة الاميركية بعد أن دخلت الحرب إلى جانب الحلفاء . وما يدعو للالتفات أنه منذ عام(١٩٤٢)أخذ الزعماء الصهيونيون يستندون الى الولايات المتحدة ، بعد أن تبنوا برنامج بلتيمور الذي قدمه دافيد بن جوريون ، الذي تضمن : انشاء دولة يهودية في فلسطين ، وعدم تقييد الهجرة اليهودية ، وإشراف الوكالة اليهودية وحدها على عملية التهجير ، ورفض الكتاب الابيض ، وانشاء جيش يهودي ، وبذا أغفلت الحركة الصهيونية وعد بلفور والانتداب البريطاني ، لانهما ليسا كافيين لتحقيق أطماع اليهود في فلسطين . فاضحى بن جوريون يمثل التحالف الصهيوني الامريكي ، بينما كان وايزمان يمثل التحالف الصهيوني البريطاني .

وتم الاتفاق بين انجلترا الولايات المتحدة ، سنة ١٩٤٥ ، على إنشاء لجنة مشتركة ، تقدمت بتقرير في سنة ١٩٤٦ ، يوصي بالسماح لمائة ألف يهودي بالهجرة إلى فلسطين سنة ١٩٤٦ ، وإلغاء القيود على انتقال أراضي العرب الى اليهود ، وبقاء الانتداب البريطاني حتى يتم وضع وصاية هيئة الأمم المتحدة على فلسطين.

وإذ أحست انجلترا بضغط الولايات المتحدة والصهيونية العالمية ، وأدركت أنها لا تستطيع مساعدة العرب ، قررت إحالة المشكلة الفلسطينية إلى هيئة الأمم المتحدة ، فقررت الجمعية العامة في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ انهاء الانتداب البريطاني على فلسطين ، ووافقت على مشروع التقسيم ، الذي يقضي بقيام دولتين عربية ويهودية ، على أن يجري بينهما اتحاد اقتصادي ، وأن تخضع القدس لوصاية دولية مع دخولها في الاتحاد الاقتصادي المشترك .

وما حدث من حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، وما تعرضت له الجيوش العربية من الهزائم ، ترجع أسبابها إلى ما تلقاه اليهود من مساندة فعلية من الدول الاوربية ، وما شاع في العالم العربي وقتذاك من تواكل واستهتار ، فافتقرت

الجيوش إلى السلاح ، وإلى الاصدقاء للصمود في الميدان الدولي . وخرجت الشعوب العربية من الحرب بالمرارة والخيبة ، وبات واضحاً أن الذي حدث في فلسطين من اغتصاب الحقوق وتشريد السكان يصح أن يحدث في أي بلد عربي إذا استسلم للعوامل والقوى التي أسهمت في خلـــق مشكلة فلسطين ، فقامت الثورات التحررية في العالم العربي للتخلص من أسباب الفساد والجمود .

وفي الوقت الذي انعقدت فية اتفاقيات الهدنة بين الدول العربية واسرائيل في رودس سنة ١٩٤٩ ، كانت اسرائيل تتألف من الأراضي التي سقطت في يديها بالفعل، بينما خضعت الضفة الغربية للاردن بعد أن احتلها الجيش الأردني أواخر سنة ١٩٤٨ ، وتولت مصر ادارة قطاع غزة .

ونجم عن كارثة فلسطين ، أن طردت القوات اليهودية ما يزيـــد على ٩٥٠ ألف عربي من ديارهم ، فأضحوا يؤلفون مشكلة اللاجئين ، الذين ازداد عددهم بعـــد حرب ١٩٦٧ . وأصدرت الجمعية العامة في ديسمبر ١٩٤٩ قراراً بإنشاء وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين العرب ، من غـــير انتقاص لحقهم في العودة الى بلادهم . ويعتبر العرب مشكلة اللاجئين جزءاً لا يتجزأ من قضيـــة فلسطين ، والتي لا حل لها إلا برجوعهم الى وطنهم الأصلي ، فلسطين .

وأحس العرب بمسئولية الدول الغربية ، ولا سيما انجلترا وأميركا عن نكبة فلسطين ، ولا سيما بعد أن أصدرت انجلترا والولايات المتحدة وفرنسا التصريح الثلاثي في ٢٥ مايو ١٩٥٠ ، الذي تعهدت فيه بالوضع الراهن في الشرق العربي ؛ على أن ذلك لم يمنع ما حدث من تجدد القتال بـــين اسرائيل والعرب ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ومساندة الدول الغربية لاسرائيل .

وكان لزاماً على الدول العربية أن تدرك ما يتهددهـــا من خطر استعماري صهيوني ، وتنبذ ما بينها من شقاق ، وتنهض لاستعادة الحقوق العربيـــة ، ومنع التوسع الصهيوني في المنطقة العربية .

٢ ـــ سوريا ولبنان والأردن

كانت بلاد الشام زمن العثمانيين تؤلف وحـدة سياسية جغرافية متكاملة ، غير أن هذه الوحدة تفتت بعد الحرب العالمية الأولى ، بفعل مؤامرات انجلترا وفرنسا ، واتفاقية سايكس – بيكو .

ولما تقرر نظـام الانتداب سنة ١٩٢٠ بعد مؤتمر سان ريمو ، انقسمت بلاد الشام إلى : سورية ، ولبنان ، وشرق الأردن ، وفلسطين . واستطاعت فرنسا أن تنفذ صك الانتداب بالقوة ، فجرت معركة ميسلون في يوليه ١٩٢٠ ، ودخلت القوات الفرنسية دمشق ، بينما تولى فيصل عرش العراق .

وأخذت فرنسا في تجزئة منطقة الانتداب الفرنسي إلى أربع دويلات منفصلة ، فاشتد حنق السوريين واللبنانيين على الحكم الفرنسي ، فقامت ثورة الدروز سنة ١٩٢٠ ، التي امتدت الى دمشق . وظلت الثورة متأججة حتى نهاية سنة ١٩٢٦ ثم انعقدت سنة ١٩٣٦ معاهدة بين فرنسا وسوريا ، قضت بقيام تحالف عسكري بينهما ، واحتفاظ فرنسا بما لها في سورية من نفوذ سياسي وعسكري واقتصادي وثقافي ، وإعلان موافقتها على انضمام سوريا إلى عصبـة الأمم بعد ثلاث سنوات من هذا الاتفـــاق ، وعندئذ تعترف فرنسا باستقلال سورية . وعقدت فرنسا معاهدة مماثلة مع لبنان في نوفمبر سنة ١٩٣٦ ، غير أن البرلمان الفرنسي لم يوافق على هاتين المعاهدتين ، بل ان فرنسا اقتطعت لواء الاسكندرونة من سوريا سنة ١٩٣٩ ، وأضافته الى تركيا .

وإذ تعرضت سوريا ولبنان لغزو الفرنسيين الأحرار بالاشتراك مع القوات الانجليزية سنة ١٩٤١ ، تقرر إنهاء الانتداب الفرنسي واستقلال سوريا ولبنان.

على أن ما لجأت إليه فرنسا من الوسائل البقاء في هذه الاقليمين ، حمل السوريين واللبنانيين على عرض قضيتهما على هيئة الأمم ، والمطالبة بجلاء القوات الأجنبية ، فتقرر في سنة ١٩٤٦ جلاء القوات الانجليزية والفرنسية عن سورية ولبنان . وما توالى على سوريا من انقلابات عسكرية إثر نكبة فلسطين حملها على الاتحاد مع مصر في فبراير ١٩٥٨ (الجمهورية العربية المتحدة) ، ولم تلبث أن جرى الانفصال بينهما سنة ١٩٦١ بسبب التدخل الأجنبي ، والقلق الداخلي .

وفيما يتعلق بشرق الأردن ، فإنها كانت إمارة صغيرة في العهد العثماني ، ثم خضعت للانتداب الانجليزي ، بعد زوال حكم فيصل من سوريا ، وعقد المندوب السامي البريطاني اجتماعاً لشيوخ الضفة الشرقية وأعيانها في الصلت سنة ١٩٢٠ ، وأعلن رغبة بريطانيا في منحهم الحكم الذاتي ، فنشأت إدارة محلية في عمان وعجلون والكرك . ولم يلبث أن نصّب الأمير عبد الله على الأردن في ظل الانتداب البريطاني ، ثم تقرر سنة ١٩٢٣ استقلال الاردن ، مع قبول التزامات بريطانيا إزاء الانتداب .

وفي سنة ١٩٤٦ حصلت الأردن على الاستقلال وصار أميرها ملكاً ، وبعد نكبة فلسطين اتسعت أملاك الاردن ، فأضيف إليها ما احتلته القوات الاردنية أثناء حرب فلسطين من الضفة الغربية للأردن ، ولا زال الشعب الأردني يؤمن بقضية الأمة العربية ، ويتضامن مع الشعوب العربية من أجل قضية فلسطين .

٣ ــ العراق

المعروف أن ولايات الدولة العثمانية كانت خلال القرن التاسع عشر هدفاً لأطماع الدول الاستعمارية . واهتمت انجلترا بصفة خاصة بالعراق لموقعه

الاستراتيجي على طريق المواصلات البرية الى الهند . ولذا اغتنمت انجلترا فرصة قيام الحرب العالمية الأولى ، وأخذت تعد الخطـــة للاستيلاء على العراق ، ومن الدليل على ذلك ما جاء في اتفاقية سايكس – بيكو ، من التراضي بين انجلترا وفرنسا على اقتسام أملاك الدولة العثمانية ، ومنها العراق .

ولم يمض وقت طويل بعد إعلان الحرب على تركيا ، حتى أنزلت بريطانيـــا قواتها العسكرية في شط العرب ، واحتلت مدينة البصرة ، لأهميتهـــا في تأمين المواصلات مع الهند . ثم اشتركت القوات البريطانية الهندية في احتلال بغداد سنة ١٩١٧ ، دون أن تصادف مقاومة بعد جلاء القوات العثمانية . وزعم الانجليز أنهم جاءوا لتخليص السكان من الاتراك وظلمهم .

فلما انعقدت الهدنة بين الحلفاء وتركيا في نوفمبر سنة ١٩١٨ ، اتفقت انجلترا مع فرنسا على أن تستولي فرنسا على دمشق وحمص وحماه ، وحلب ، مقابل موافقة فرنسا على ضم ولاية الموصل إلى المناطق التي احتلتها انجلترا في العراق .

وفي مايو سنة ١٩٢٠ أعلنت بريطانيا انتدابها على العراق ، فاندلعت الثورة التي طالبت بالحرية والحقوق السياسية وتخليص العراق من الحكم البريطاني، وتجلـَّت وحدة الشعور الوطني والتضامن بين العراقيين،أثناء الثورة التي استمرت نحو أربعة شهور . وقاتل رجال العشائر قوات الاحتلال البريطاني ، وأنزلوا بها خسائر فادحة ، ونجم عن هذه الثورة أن اضطرت انجلترا إلى أن تمنح العراق قسطاً من الاستقلال الذاتي .

وعلى الرغم من تتويج فيصل ملكاً على العراق في أغسطس سنة ١٩٢١، فإن الشعب كره الانتداب البريطاني ، فاستبدلت انجلترا بالانتداب معاهدة تحالف انعقدت في اكتوبر ١٩٢٣ . ولم تختلف هذه المعاهدة عن غيرهـا من المعاهدات

غير المتكافئة ، إذ أنها انطوت على كل ما يحقق مطالب الاستعمار البريطاني دون الإشارة إلى لفظة الانتداب .

ومع أن العراقيين لم يكفوا عن المطالبة بالاستقلال ، وحاولت انجلترا استرضاءهم بما عقدته من ثلاث معاهدات ١٩٢٦، ١٩٢٧، ١٩٣٠ ، فإنه لم يتحقق للعراقيين ما يصبون إليه من آمال ، إذ لم تشتمل هذه المعاهدات إلا على تأييد انجلترا لترشيح العراق لدخول عصبة الأمم ، وإنهاء القيود التي فرضتها انجلترا ، والاعتراف باستقلال العراق، ولم يلبث الشعب العراقي أن أعلن سخطه، وأدرك أن هذه المعاهدة (١٩٣٠) زادت في احتلال العراق ، وعزلته عن الأقطار العربية الأخرى ، بما لجأت إليه من إشراك العراق سنة ١٩٣٧ في حلف سعد أباد مع تركيا وإيران وأفغانستان الذي يدعو إلى الصداقة بين المشتركين فيه ، وتأمين السلام في المنطقة .

وإذا ساءت العلاقات بين انجلترا والعراق في بداية الحرب العالمية الثانية ، نجح الألمان في بث دعايتهم في العراق ، فقام الجيش العراقي بانقلاب في سنة ١٩٤١ أطاح بالحكومة العراقية ، وفرّ فيصل الثاني والأمير عبد الإله إلى سوريا وشرق الاردن . وألّف رشيد الكيلاني حكومة الدفاع الوطني، ولكنها لم تجد تأييداً من انجلترا ، التي قمعت الثورة في العراق ، وأسقطت حكومة رشيد الكيلاني ، وعاد الوصي على العرش إلى بغداد وتألفت حكومة جديدة .

ودارت مفاوضات بين العراق وانجلترا ، انتهت بمعاهدة بورتسموث سنة ١٩٤٨ غير أن العراقيين رفضوها . فانعقدت معاهدة سنة ١٩٥٥ ، بعد إبرام ميثاق الدفاع المشترك عن الشرق الأوسط (حلف بغداد) بين تركيا والعراق ، وبريطانيا وإيران وباكستان . فارتبطت العراق بجهاز الدفاع البريطاني عن الشرق الاوسط .

لم تلق المعاهدة والحلف قبولاً عند أهل العراق ، فاستطاع الجيش العراقي

في يوليو ١٩٥٨ أن يطيح بالملكية وأن يعلن الجمهورية والتخلص من حلف بغداد. غير أن هذه الحركة انتكست بسبب حكم عبد الكريم قاسم، ولم تلبث أن قامت ثورة ١٤ رمضان (٨ فبراير ١٩٦٣) التي أعـــادت العراق إلى السير في ركب القومية العربية ، والتقائه بالدول العربية المتحررة ، والعمل من أجل الوحدة .

٤ ـــ شبه الجزيرة العربية

اليمن

احتل العثمانيون بلاد اليمن في القرن السادس عشر الميلادي ، ولكن لم تلبث هذه البلاد أن استقلت ، فعاود العثمانيون غزوها سنة ١٨٧٢ ، على أن اليمنيين قاوموا الحكم العثماني ، وتمكن الإمام يحيى بن حميد الدين ، من الشيعة الزيدية ، أن ينتصر على العثمانيين ، ثم عقد معهم معاهدة سنة ١٩١١ تقرر فيهـا استقلال اليمن ، مع الاعتراف بالتبعية الإسمية للدولة العثمانية .

وحرص الامام يحيى على أن يجعل بلاده في عزلة تامة عن العـالمين الأوربي والعربي ، على الرغم من المعاهدات التي عقدهـــا مع ايطاليا (١٩٢٦) وروسيا (١٩٢٨)، وهولندا (١٩٣٢) ، وانجلترا (١٩٣٤) ، وبلجيكا وفرنسا (١٩٣٦). واعترفت كل هذه الدول باستقلال اليمن ، وسعت انجلترا إلى احلال السلام بين اليمن والمحميات البريطانية في الجنوب العربي .

والملحوظ أن العلاقات بين اليمن والدول الأوربية سبقت في الزمن ما كان من علاقات بين اليمن والدول العربية ، فانعقدت معاهدة مع السعودية (١٩٣٤) لرعاية السلام بين الدولتين، وتوطيد الأخوة بين البيتين الحاكمين ، وتعيين الحدود بين الدولتين . ومـا انعقد بين اليمن ومصر والعراق من معاهدات (١٩٤٥ —

١٩٤٦) شملت توثيق العلاقات التجارية والسياسية بين هذه الأطراف .

على أن بلاد اليمن لم تخرج عن عزلتها إلا بعد وفاة الإمام يحيى في يناير سنة ١٩٤٨ ، فسمح الإمام أحمد للخبراء الأجانب بالقدوم ألى اليمن ، وزاد التعاون بين اليمن ومصر والسعودية ، حتى انعقدت في جدة اتفاقية للدفاع المشترك في سنة ١٩٥٦ ، لم تلبث أن انتقضت سنة ١٩٦١ بعد الحركة الانفصالية في سوريا ، ومناهضة الإمام أحمد للسياسة المصرية .

ثم حدث في سبتمبر ١٩٦٢ أن أعلن الجيش في اليمن الثورة ، بعد وفاة الإمام أحمد ، وتقرر إعلان الجمهورية باليمن . ونهضت مصر لتأييد ثورة اليمن حتى سنة ١٩٦٥ ، فيما تتهيأ الفرصة لليمنيين أن يبدأوا عملية بناء وطنهم ، والمشاركة في حل المشاكل العربية .

الجنوب العربي

سبق الإشارة إلى احتلال انجلترا لجزيرة ميون في سنة ١٧٩٩ ، واتخاذها مركزاً لتموين قواتها . ثم انطلقت منها إلى عدن وسائر الجنوب العربي ، فأضحت عدن تابعة لحكومة بومباي البريطانية في عام ١٨٣٩ ، ثم خضعت لاشراف حكومة الهند سنة ١٩٣٢ ، ثم تقرر جعلها مستعمرة خاضعة مباشرة للتاج البريطاني سنة ١٩٣٧ .

ويتمثل الاستعمار في الجنوب العربي في عدن والمحميات الشرقية والغربية ، التي ارتبطت بانجلترا بمعاهدات غير متكافئة . وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية ، والنص في ميثاق الأمم المتحدة على تحرير المناطق التي لم تتمتع بالحكم الذاتي ، لجأت انجلترا إلى تغيير سياستها ، ونقلت الى عدن القيادة العسكرية في الشرق الأوسط بعد أن فقدت مراكزها في مصر والسودان والعراق والأردن ،

للمحافظة على هيبتها ، وعلى المركز الاستراتيجي لقاعدة عدن ، فضلاً عن مجابهة الثورة اليمنية .

ولم تلبث الثورة الوطنية أن نشبت في عدن سنة ١٩٥٥ ، لمناهضة السيطرة البريطانية . وعلى الرغم من الوسائل التي اتخذتها بريطانيا لإخضاع هذا الاقليم ، بأن عمدت الى تجزئته الى سلطنات ومشيخات ، والى ربط هذه المعاهدة بسلسلة من المعاهدات غير المتكافئة ، والى تهجير عناصر غير عربية الى هذه الجهات ، أصر أبناء الجنوب على الكفاح في سبيل الاستقلال ، وقفل باب الهجرة ، وتوحيد الممتلكات بهذه المنطقة ، والمطالبة بتقرير مصيرهم وإلغاء المعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع السلاطين والشيوخ .

وإذ اشتد نضال الوطنيين ، برغم ما تعرضوا له من العدوان الانجليزي . وجرى في القاهرة (١٩٦٥) أن وقع ممثلو عدن واتحاد الجنوب العربي وثيقة تتضمن تأكيد وحدة الوطنيين في مناهضة الاستعمار ، والاصرار على التمتع بالحرية والسيادة ، والتمسك بوحدة المنطقة ، وتصفية قاعدة عدن ، واشتراك الشعب في تقرير مصيره ؛ وإطلاق سراح المعتقلين وجلاء بريطانيا عن المنطقة وإقامة حكومة مركزية لتقرير المصير . على أن ما جرى من مفاوضات بين انجلترا والجبهة القومية سنة ١٩٦٧ أسفرت عن الاتفاق على منح الاستقلال للجنوب العربي ، فقامت جمهورية جنوب اليمن الشعبية في نوفمبر سنة ١٩٦٧ .

المملكة السعودية

كانت شبه الجزيرة العربية في أعقاب الحرب العالمية الأولى تتألف من خمس إمارات ، هي :

١ – بلاد الحجاز ويحكمها الحسين بن علي في مكة ، بعد طرد الوالي العثماني منها .

٢ – إمارة نجد وملحقاتها ، ويحكمها عبد العزيز آل سعود في الرياض .

٣ – بلاد اليمن ويحكمها الإمام يحيى بن حميد الدين في صنعاء .

٤ – إمارة شمر ، ويحكمها الأمير طلال بن الرشيد في حايل .

٥ – إمارة العسير ويحكمها السيد محمد الادريسي .

وكانت هذه الإمارات تخضع من الناحية الاسمية لسيادة الدولة العثمانية ، ولكنها في الواقع كانت تتمتع لدرجة كبيرة بالاستقلال في شئونها الداخلية ، نظراً لضعف الدولة العثمانية . وكانت هذه الإمارات في حالة نزاع دائم وخلاف مستمر ، ولا سيما إمارتا الحجاز الهاشمية ونجد السعودية وهما أقوى الإمارات .

ولم تلبث العلاقات أن توترت بين البيتين الهاشمي والسعودي ، نتيجة لقيام مملكتين مستقلتين في الحجاز ونجد ، واعتراف انجلترا بهما ، وقام النزاع بينهما حول الحدود .

على أن الهاشميين تعرضوا للهزيمة في مايو ١٩١٩ ، على مقربة من واحة تربة ، على بعد تسعين ميلاً من الطائف ثم تدخلت بريطانيا لمنع السعوديين في الزحف على الحجاز . على أن إمارة شمر سقطت في أيدي السعوديين سنة ١٩٢١ .

وعلى الرغم من جهود بريطانيا في منع الصدام بين السعوديين والهاشميين ، استولى عبد العزيز آل سعود على الطائف سنة ١٩٢٤ ، ومضى في زحفه إلى مكة ، واكتمل للسعوديين الاستيلاء على مكة وجدة ، واعترف أهل الحجاز (١٩٢٦) بعبد العزيز آل سعود ملكاً عليهم ، فأصبح يلقب « ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها » ولم تلبث عسير أن انضمت الى المملكة السعودية سنة ١٩٣٠ ، ثم صدر مرسوم في سنة ١٩٣٢ بتوحيد نجد وملحقاتها والحجاز وعسير في مملكة واحدة ، هي المملكة العربية السعودية . واعترفت بريطانيا بابن سعود

حاكماً مستقلاً منذ استيلائه على الحجـاز ، فأبرمت معه معاهدة جدة في مايو ١٩٢٧ .

وحرصت المملكة السعودية على تحسين سياستها مـــع جيرانها ، فعقدت معاهدات من أجل تسوية الحدود ، مع العراق ، والكويت ، والاردن، واليمن، ومصر . وأخذ الملك عبد العزيز يعمل على تقوية مركز بلاده في المحيط الدولي ، بما عقده من اتفاقيات مع بعض الدول الأوربية وتركيا وإيران ، ومع البـــلاد العربية . وأسهمت السعودية في قيام جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٥ .

ولمـــا توفي الملك عبد العزيز في نوفمبر سنة ١٩٥٣ ، خلفه في الحكم ابنه سعود ، ثم الملك فيصـــل . وازداد شأن السعودية ، فأسهمت في السياسة العربية والدولية .

الخليج العربي

استطاعت انجلترا أن نفرض سيطرتها في أواخر القرن التاسع عشر على منطقة الخليج العربي ، مسقط ، وعمان ، والبحرين ، والكويت ، بحجة محاربة القرصنة وتجارة الدقيق .

واستمر الوضع في منطقة الخليج العربي حتى بعد الحرب العالمية الثانية ، من حيث بقائه منطقة نفوذ بريطاني على أن حركة القومية العربية وجهود جامعـة الدول العربية امتدت الى هذه المنطقة .

ففي سنة ١٩٥٦ قامت في البحرين حركة وطنية عنيفـــة لمناهضة السياسة البريطانية ، وأدت آخر الأمر إلى تنازل السلطة البريطانية عن بعض مطالبها . والمعروف أن المقيم البريطاني في منطقة الخليج العربي هو المسئول عن تنفيـــذ سياسة انجلترا فيما يتعلق بالاتفاقيات المعقودة، وفي العلاقات بين بريطانيا وسائر

مشيخات الخليج العربي .

وعقدت انجلترا مع شيخ الكويت سنة ١٩١٤ معاهدة ، وعدت فيها بالاعتراف بالكويت مقاطعة مستقلة تحت الحماية البريطانية ، إذا تعاون معها في الاستيلاء على البصرة وانتزاعها من أيدي العثمانيين . وعاشت الكويت في ظل الحماية البريطانية ، وتولت انجلترا أمر علاقتها مع الخارج . ولكن الكويت مرّت بأدوار سياسية انتهت الى الاعتراف بها دولة مستقلة ، وصارت عضواً بالجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة .

عُمان

وهي إمارة ظلت مستقلة حتى تسرب إليها الاستعمار البريطاني ، ليتحكم في مدخل الخليج العربي . ثم قام الانجليز بتقسيم الإقليم إلى إمارتين هما عُمان ومسقط ، وأثاروا التفرقة بينهما ، مما أدى إلى منازعات بين الحكام والشيوخ ، فاستولى سلطان مسقط على عُمان (١٩٥٥) بقوات أعدتها ودربتها بريطانيا وقادها ضباط انجليز . ولم يكن القصد من ذلك سوى توطيد مركز الاستعمار بالمنطقة واستغلال البترول .

وفطنت الجامعة العربية إلى ما تقوم به انجلترا في هذه المنطقة من سياسة الإيقاع بين الإمارات ، واستغلال مواردها ، فأعدت خطة التنمية الفنية في منطقة الخليج العربي ، بعد موافقة رؤساء الحكومات العربية ، وإنشاء صندوق لهذه التنمية .

والخلاصة أن حركات التحرر العربي منذ بداية القرن العشرين ، سارت في طريق واحد نابع من وحدة هذه الأمة . فأنكرت الشعوب المعاهدات غير المتكافئة التي فرضتها انجلترا على البلاد العربية . كما أن مأساة فلسطين أيقظت الأمة العربية ، ودفعها إلى طريق الحرية والوحدة ، وزادت أواصر الصلات الثقافية والاقتصادية بين الدول العربية ، فانعقدت مؤتمرات القمة ، وساد

التشاور بين الدول العربية في كل ما تتعرض له البلاد من أخطار خارجية ، وفي القضايا العربية الكبرى .

الوحدة العربية

سبق التعرف إلى قيام الأمة العربية ، والى الوحدة العربية التي ظلت قائمة في الوطن العربي ، حتى خضع لسلطان العثمانيين ، والنفوذ الاستعماري ، على انه ما زال قائماً من العوامل ما يدفع الأمة العربية إلى اعادة وحدتها . فاللغة العربية تعتبر من أهم ركائز القومية العربية ، كما أن المصالح المادية تجمع الأمة العربية وتؤكد الشعور بالقومية ، وتزيد الأمل في الوحدة . يضاف الى ذلك أن العرب ما زالوا يحتلون الوطن الذي أقاموه منذ القرن السابع الميلادي ، والذي لم تمزقه فواصل طبيعية . وما تعرض له هذا الوطن من غزو خارجي في فترات التاريخ لم يغير في كيانه ومثله وآماله ، كما أن التاريخ المشترك والاتفاق في العادات والتقاليد والتكوين النفسي ، كل ذلك أسهم في وحدة العالم العربي ، وفيما قام به من حضارة ، وفي النضال المشترك لمقاومة الغزو الأجنبي .

على أن الاحساس بهذه المقومات والاعتزاز بها هو الذي يثير القومية العربية . ولا شك أن هذه القومية التي عطلها فترة طويلة ، خضوع الوطن العرب للقوى الخارجية فترة طويلة من الزمن ، لم تلبث أن نشطت بعد الحرب العالمية الثانية ، فاعتبرت الوطن العربي كلا لا يتجزأ ، وأضحى النضال القومي لتحريره وحدة لا تتجزأ . فالقومية العربية بالغة الأهمية لتحقيق هدف الشعوب في بلوغ الحرية .

وتعتبر الوحدة العربية مسألة اجتماعية بقدر ما هي قضية سياسية ، إذ أنها تستند الى قوة نفسية وحقيقة سياسية ، وأنها مرتبطة بفكرتين أساسيتين : محاربة الاستعمار ، والتحرر من الاستغلال الداخلي ، فضلاً عن أنها درع الأمة العربية ازاء الخطر الصهيوني .

وفكرة الوحدة بدأت بصورة عملية عقب انشاء بغداد، سنة ١٩٥٥ ، بعقد الميثاق العسكري بين سوريا ومصر ، واعتبـار الاعتداء على أحدهمـا موجهاً ضدهما معاً . وتجلت أهمية الوحدة سنة ١٩٥٧ أثناء الأزمة بين تركيا وسوريا ، إذ وقفت مصر الى جانب سوريا وبذلت لها المساعدات على اختلاف أنواعهـا . وترتب على الوحدة بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٨ ، أن تقدمت بلاد اليمن تطلب الانضمام الى الوحدة الجديدة . وعلى الرغم من نكسة هذه التجربة ، فلا زالت الوحدة أمل كل عربي ولا سيا بعد أن شهدت الأمة العربية، ما أفاده الاستعمار والصهيونية من تفرق الكلمة .

وتعتبر الجامعة العربية أول تعبير رسمي عن الوحدة العربية ، فهي منظمة اقليمية تستند الى روابط اقليمية وقومية ، تربط بين شعوب العالم العربي. وكان انشاء الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ محاولة لتوطيد العلاقات بين الدول العربية ، وتنسيق التعاون بينها في الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية والقانونية، بعد أن توافر الوعي القومي .

ومرّ المجتمع العربي بأحداث خطيرة منذ إنشاء الجامعة ، أهمهـا صراع الشعوب العربيـة للتخلص من الاستعمار من والسيطرة الأجنبية ، ودرء الخطر الصهيوني ، وظهور قوى سياسية واجتماعية في العالم العربي تطالب باستعادة مجد الأمة العربية ، والافادة من القومية العربية في قيام وحدة عربية ، لمواجهـة العدو الخارجي ، وتحرير سائر الشعوب العربية، ومدّ العالم العربي بالقوى المادية والمعنوية التي يحتاجها في طريق التطور والتحرر السياسي والاجتماعي .

ومن أهداف الجامعة العربية ، المحافظة على استقلال الدول العربية، والتعاون العربي في المسائل السياسية والاقتصادية والثقافية ، والنظر في مصالـح المجتمع العربي . ومن اختصاصها ، حل المنازعات بين الدول العربية بالطرق السلميـة كالوساطة والتحكيم ، وقمع العدوان الذي يقـع على أية دولة عربيـة ، وتحقيق التعاون مع المنظمات الدولية .

واتخذت لتحقيق ذلك الوسائل الآتية :

١ – عقد معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي .

٢ – اتفاقيات الدفاع المشترك .

٣ – اتفاقيات متعلقة بالتعاون الاقتصادي العربي .

٤ – مشروع الوحدة الاقتصادية العربية .

٥ – الاتفاقيات الثقافية .

والواقع أن الأمة العربية في ظل الوحدة السياسية تستطيع بما لها من موقع استراتيجي هام ، وتلتقي المواصلات العالمية،فضلاً عما تملكه من بترول وثروات معدنية وحاصلات زراعية تستطيع أن تلعب دوراً خطيراً في حل مشاكل التخلف والتبعية الاقتصادية في العالم العربي ، وتعمل على تنمية التعايش السلمي والتعاون الدولي على أسس متكافئة عادلة .

ومن شأن قيام الوحدة السياسية تحقيق الحرية الاجتماعية وكفالة التقدم لشعوب الأمة العربية ، وبناء الحياة الحرة الكريمة للأمة العربية .



المراجـــع

١ – أحمد طربين : الوحدة العربيـــة بين ١٩١٦ – ١٩٤٥ القاهرة ١٩٥٩

٢ – أحمد طربين : محاضرات في تاريخ قضية فلسطين . القـاهرة ، ١٥٩

٣ – الحكم دروزه : الشيوعية المحلية ومعركة العرب القومية ، بيروت ١٩٥٩

٤ – أميل الغوري : صراع القومية العربية ضد الاستعمار . القاهرة ، ١٩٥٨

٥ – أحمد الشيباني : الأسس الثورية للقومية العربيـــة . دمشق ، ١٩٥٨

٦ – أحمد عزت عبد الكريم – زكي المحاسني : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة ، القاهرة .

٧ – جامعة الدول العربية (الإدارة الثقافية) : العالم العربي – مقالات وبحوث – جزءان – القاهرة ١٩٤٩ ، ١٩٥٣ .

٨ – جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة . القاهرة ، ١٩٥٤ .

٩ – حازم زكي نسيبة : القومية العربية . فكرتها – نشأتهـا – تطورها . بيروت ، ١٩٥٩ .

١٠ – ساطع الحصري : آراء وأحاديث في الوطنية القومية . القاهرة ١٩٤٤

١١ – ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكرة القومية . القاهرة ١٩٥٢

١٢- ساطع الحصري : العروبة بين دعاتها ومعارضيهـا . بيروت ، ١٩٥٤
١٣- ساطع الحصرى : العروبة أولاً . بيروت ، ١٩٥٥
١٤- ساطع الحصري : دفاع عن العروبة . بيروت ، ١٩٥٦
١٥- ساطع الحصري :ما هي القومية . بيروت ، ١٩٥٩
١٦- د. سليمان محمد الطماوي:التطور السياسي للمجتمع العربي القاهرة١٩٦١
١٧- عبد الله الريماوي : المنطق الثوري للحركة القومية العربية الحديثة . القاهرة ١٩٦١
١٨- عبد الرحمن البزاز : من وحي العروبة ١٩٦٠
١٩ - عبد العزيز الدوري : الجذور التاريخية للقوميةالعربية.بيروت١٩٦٠
٢٠- عباس محمود العقاد : لا شيوعية ولا استعمار . القاهرة. كتاب الهلال٨٠
٢١- عبد الرحمن البزاز : بحوث في القومية العربية . القاهرة ١٩٦٢
٢٢- عبد المنعم محمد خلاف : مع القومية العربية في ربع قرن . القاهرة ١٩٥٨
٢٣- محمد عزة دوزه : مشاكل العـالم العربي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . دمشق ١٩٥٢
٢٤- محمد فوزي وعمر رشدي : الصهيونية وربيبتها اسرائيل . القاهرة ١٩٦٣
٢٥ - الميثاق وتقرير الميثاق . مطابع الشعب ، القاهرة ١٩٦٢
٢٦- محمد شفيق غربال : العوامل التـاريخية في بناء الأمة العربيـة . القاهرة ١٩٦١
٢٧- محمد صفوت : اسرائيل العدو المشترك . القاهرة ، ١٩٥٦

٢٨ – مصطفى الشهابي : القومية العربية ـ تاريخها ـ قوامها ـ مراميها . القاهرة ١٩٥٩

٢٩ – منيف الرزاز : معالم الحياة العربية الجديدة . بيروت ١٩٥٩

٣٠ – منيف الرزاز : تطور معنى القومية . بيروت ١٩٦٠

٣١ – محمد فوزي ومحمود حافظ : القومية العربية ـ حقيقة وهدف . القاهرة .

٣٢ – محمد فوزي ومحمود حافظ : دراسات في القومية العربية . القاهرة .

٣٣ – محمد عبدالله العربي : ديمقراطية القومية العربية . القاهرة ١٩٥٩

٣٤ – مصطفى الشهابي : محاضرات في الاستعمار . جزءان . القاهرة ١٩٥٧/٥٦ .

٣٥ – مجموعة من أساتذة كلية الآداب والعلوم السياسية بجامعة القاهرة . دراسات في المجتمع العربي .

٣٦ – نجلاء عز الدين : العالم العربي (الترجمة) . القاهرة .

٣٧ – أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى . القاهرة ١٩٣٥

٣٨ – أمين سعيد : الدولة العربية المتحدة . القاهرة ١٩٣٨

٣٩ – أنور السادات : أسرار الثورة المصرية . كتاب الهلال (٧٦)

٤٠ – أنور السادات : صفحات مجهولة .القاهرة . كتب للجميع (٨٤)

٤١ – إحسان حقي : الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد . بيروت١٩٦١

٤٢ – احسان حقي : تونس العربية . بيروت (د.ت)

٤٣ – أحمد توفيق المدني : هذه هي الجزائر . القاهرة ١٩٥٦

٤٤ – أحمد الخطيب : الثورة الجزائرية ـ دراسة وتاريخ . بيروت١٩٥٨

٤٥ – أحمد رمزي : الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا . القاهرة ١٩٤٨

٤٦ – أمين سعيد : الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا . القاهرة ١٩٤٨

٤٧ – أحمد الشرباصي : أيام الكويت . القاهرة ١٩٥٣

٤٨ – أحمد طرابين : الوحدة العربية ١٩١٦ – ١٩٤٥ القاهرة ١٩٥٩

٤٩ – أكرم زعيتر : القضية الفلسطينية القاهرة ١٩٥٥

٥٠ – أحمد طرابين : محاضرات في تاريخ قضيـة فلسطين . القاهرة ١٩٥٩

٥١ – أحمد سويلم العمري : الشرق الأوسط ومشكلة فلسطين . القاهرة ١٩٥٤

٥٢ – أحمد عزت عبد الكريم وزكي المحاسني : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة .

٥٣ – أحمد عبد القادر الجمـال : من مشكلات الشرق الأوسط . القاهرة ١٩٥٥

٥٤ – جامعة الدول العربية : العالم العربي (مقالات وبحوث) القاهرة ١٩٤٩

٥٥ – جامعة الدول العربية : المسألة الليبية القاهرة ١٩٥٠

٥٦ – الحسيني محمد الديب : تأميم القناة ج ١ . القاهرة ١٩٥٧

٥٧ – حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس . تونس ١٣٧٣ هـ

٥٨ – الحبيب تامر : هذه تونس القاهرة ١٩٤٨

٥٩ – حمدي حافظ ومحمود الشرقاوي : المشكلات العالمية المعاصرة . القاهرة ١٩٤٨

٦٠ – سيد نوفل : الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة . القاهرة ١٩٦٠

٦١ – السيد عبد الرزاق الحسني : تاريخ العراق السياسي الحديث .
صيدا ١٩٤٨

٦٢ – السيد عبد الرزاق الحسني : العراق في ظل المعاهدات . صيدا ١٩٥٨

٦٣ – ساطع الحصري : يوم ميسلون . بيروت ١٩٤٦

٦٤ – ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية . القاهرة ١٩٥٧

٦٥ – صلاح العقاد : المغرب العربي . جزءان . القاهرة ١٩٥٧

٦٦ – صلاح العقاد : الاستعمار في الخليج الفارسي . القاهرة ١٩٥٦

٦٧ – عبد الرحمن الرافعي : مقدمات ثورة ٢٣ يوليو١٩٥٢ .القاهرة ١٩٥٧

٦٨ – عبد الحميد البطريق : الأمة العربية . القاهرة (اخترنا لك ١٩)

٦٩ – عبد العاطي جلال : فرنسا في الجزائر . القاهرة ١٩٥٦

٧٠ – علال الفاسي :الحركات الاستقلالية في المغرب العربي. القاهرة ١٩٤٨

٧١ – علال الفاسي: محاضرات في المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى
القاهرة ١٩٥٥

٧٢ – علي البهلوان : تونس الثائرة . القاهرة ١٩٥٤

٧٣ – عبد العزيز حسين : محاضرات عن المجتمع العربي بالكويت .
القاهرة ١٩٦٠

٧٤ – علي الدجاني : محاضرات في اقتصاديات الأردن . القاهرة ١٩٥٤

٧٥ – عيسى السفري : فلسطين بين الانتداب والصهيونية . يافا ١٩٣٧

٧٦ – عبد الرحمن البزاز : محاضرات عن العراق من الاحتلال حتى
الاستقلال . القاهرة ١٩٥٤

٧٧ ـ فيصل علي فيصل : القضية العمانية (د.ت)

٧٨ ـ فاضل حسين : محاضرات عن مؤتمر لوزان وآثاره في البلاد العربية .
القاهرة ١٩٥٨

٧٩ ـ قال الرئيس : مجموعة خطب وأحاديث الرئيس جمال عبد الناصر .
القاهرة دار الهلال

٨٠ ـ مصلحة الاستعلامات : مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر القسم الأول ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ـ ١٩٥٨

٨١ ـ مصطفى الحناوي : قضية قناة السويس . القاهرة ١٩٥٦

٨٢ ـ محمد عزة دروزة : مشاكل العالم العربي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . دمشق ١٩٥٢

٨٣ ـ محمد كمال عبد الحميد : الشرق الأوسط في الميزان الاستراتيجي .

٨٤ ـ محمد فريد أبو حديد : أمتنا العربية . القاهرة ١٩٦١

٨٥ ـ محمد فؤاد شكري : مصر والسودان . القاهرة ١٩٥٨

٨٦ ـ محمد فؤاد شكري : ليبيا الحديثة ـ وثائق تحريرها واستقلالها .
القاهرة ١٩٥٧

٨٧ ـ محمد فؤاد شكري : السنوسية دين ودولة . القاهرة ١٩٤٨

٨٨ ـ مجموعة من أساتذة كلية الآداب بجامعة القاهرة . المجتمع العربي .

٨٩ ـ محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية جـ ١
القاهرة ١٩٥٢

٩٠ ـ محمود الشنيطي : قضية ليبيا . القاهرة ١٩٥١

٩١ ـ محمد علي الجفري : حقائق عن جنوب الجزيرة العربية .
القاهرة (د.ت)

٩٢ ـ محمد كال عبد الحميد : الاستعمار البريطاني في جنوب الجزيرة العربية
القاهرة (د.ت)

٩٣ ـ محمد فوزي وعمر رشدي : الصهيونية وربيبتها إسرائيل .
القاهرة ١٩٦٣

٩٤ ـ محمد عبد المولى الزغبي : لبنان بين التحرر والاستعمار . بيروت
(د . ت)

٩٥ ـ محمد صفوت : إسرائيل العدو المشترك . القاهرة ١٩٥٦

٩٦ ـ محمد عزة دروزة : الوحدة العربية . بيروت ١٩٥٨

٩٧ ـ محمود كامل : الدولة العربية الكبرى . القاهرة ١٩٥٨

٩٨ ـ مصطفى الشهابي : محاضرات عن القومية العربية ـ تاريخها ـ قوامها
مراميها . القاهرة ١٩٥٩

٩٩ ـ محمد عزة دروزه : حول الحركة العربية الحديثة ٦ أجزاء .
صيدا ١٩٥٠

١٠٠ ـ نجلاء عز الدين : العالم العربي (الترجمة) . القاهرة (د.ت)

١٠١ ـ نقولا زيادة : محاضرات في تاريخ ليبيا من الاستعمار الإيطالي إلى
الاستقلال . القاهرة ١٩٥٨

١٠٢ ـ نجيب الأرمنازي : محاضرات عن سوريا من الاحتلال حتى الجلاء
القاهرة ١٩٥٤

١٠٣ ـ أحمد الشيباني : الأسس الثورية للقومية العربية . دمشق ١٩٥٨

١٠٤ ـ أحمد طرابين : الوحدة العربية بين ١٩١٦ ـ ١٩٤٥ . القاهرة١٩٥٩

١٠٥ ـ اتفاق الوحدة الثقافية : القاهرة ١٩٥٧

١٠٦ ـ إسماعيل القباني : محاضرات في الوحدة الثقافية العربية . القاهرة ١٩٥٨

١٠٧ ـ أنور السادات : قصة الوحدة العربية . كتاب الهلال

١٠٨ ـ أحمد عبد القادر الجمال: من مشكلات الشرق الأوسط.القاهرة١٩٥٥

١٠٩ ـ برهان غزال وعادل الزعيم: وسائل التنمية الاقتصادية في الدول العربية دمشق ١٩٦١

١١٠ ـ جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة . القاهرة ١٩٥٤

١١١ ـ حسين فوزي النجار : مع الأحداث في الشرق الأوسط . القاهرة ١٩٥٧

١١٢ ـ عبد العزيز دسوقي : الأمة العربية وجيشها الموحد. القاهرة ١٩٥٧

١١٣ ـ عبدالله الريماوي : المنطق الثوري للحركة القومية العربية . القاهرة ١٩٦١

١١٤ ـ عبد الرحمن البزاز : من وحي العروبة . القاهرة ١٩٦٠

١١٥ ـ كمال متولي التيارات السياسية والعالم العربي . القاهرة ١٩٥٨

١١٦ ـ محمد عزة دروزه : الوحدة العربية . بيروت ١٩٥٧

١١٧ ـ محمد حافظ غانم : محاضرات عن جامعة الدول العربية . القاهرة ١٩٦٠

١١٨ ـ مجموعة من أساتذة كلية الآداب والعلوم السياسية بجامعة القاهرة . دراسات في المجتمع العربي .

١١٩ ـ الميثاق الوطني وتقرير الميثاق . القاهرة · مطابع الشعب ١٩٦٢

١٢٠ ـ محمد لبيب شقير : العلاقات الاقتصادية بين البلاد العربية . القاهرة ١٩٥٨

١٢١ ـ محمد عزة دروزه : مشاكل العالم العربي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . دمشق ١٩٥٢

١٢٢ ـ نجلاء عز الدين : العالم العربي (الترجمة) · القاهرة (د.ت)

١٢٣ ـ يونس صالح الحريثي : طريق الوحدة الاقتصادية والبلاد العربية . بيروت ١٩٥٦

* * *

البَابُ الخامِس

الفصل الأول : القومية العربية ، مقوماتها وأهدافها

الفصل الثاني : القومية العربية : التحديات التي تواجهها

الفصل الأول

القومية العربيـــة

١ – معناها

القومية كلمة مشتقة من القوم ، والقوم مأخوذ من القيام ، ولذلك فالقوم كما يقول اللغويون هم الجماعة الذين يقومون قومة واحدة للقتال . وهذا التعريف يكشف عن وجود نوع من المشاركة أو الشعور المتجانس لدى أفراد تلك الجماعة حتى أنهم إذا قاموا للقتال قاموا معاً . وقد انتقل هـــذا المعنى إلى المدلول الاصطلاحي للقومية إذ صارت القومية تعبيراً عن الانتماء إلى جماعة تربطها عدة عناصر من التشابه والتجانس على خلاف بين العلماء في تعداد تلك العناصر وفي ترتيبها من حيث الأهمية .[١]

فإذا ذكرنا القومية العربية ، فإنما نعني بها الرابطة التي تربط مجموعة الشعوب العربية التي تسكن المنطقة الفسيحة الممتدة من الخليج العربي إلى المحيـــط الأطلسي . وهذه الرابطة تجعل المواطـن العربي ينفعل بانفعالات أبناء أمته العربية ، ويرتبط بحاضرها ومستقبلها ويتشرب بلغتها وثقافتهـا ويطمح إلى

---

(١) الدكتور أحمد كمال أبو المجد : دراسات في المجتمع العربي والوحدة العربية ، ص ٢٥ ، القاهرة ٦١ / ١٩٦٢

تحقيق الكيان القومي والأهداف القومية والمحافظة عليها وتطويرها .

وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول : إن القومية العربية هي شعور أبناء الأمة العربية بأن هناك رابطة قوية تجمعهم وتؤلف بينهم ليكونوا أمة واحدة تتميز عن الأمم الأخرى من النواحي السياسية والاقتصادية والحضارية . وما ذلك إلا لأن جميع أبناء الأمة يرتبطون بروابط طبيعية متشابهة ، ولهم تاريخ واحد مشترك ، ويتكلمون لغة واحدة ، ويعيشون في أرض واحدة ، ويحيون حياة اقتصادية متكاملة وتحدوهم آمال واحدة ، وتوجههم أهداف واحدة .

والقومية العربية بالمعنى السياسي هي الفكرة التي ترمي إلى توعية العرب وجمع شملهم وتعبئة إمكانياتهم لإجلاء الاستعمار الأجنبي عن بلادهم وتأسيس الدولة القومية العربية الواحدة . وإن تبني هذه الفكرة القومية ونشرها بين الجماهير العربية وتحقيقها فعلا هو ما يطلق عليه اسم « الحركة القومية العربية » . وهذه الفكرة كما نرى تهدف أولاً وأخيراً إلى تأسيس الدولة القومية العربية التي ينضوي العرب تحت لوائها ، وتجعل منهم مواطنين لها . إما أن تكون هذه الدولة العربية المزمع إنشاؤها بشكل وحدة سياسية أو بشكل اتحاد فهذا يرجع إلى إرادة العرب أنفسهم ، وإلى مدى تطورهم وتقبلهم لفكرة الاتحاد أو الوحدة [١] .

٢ ـ منشؤها

إذا كان القرن التاسع عشر هو عصر القوميات بالنسبة لأغلب الشعوب الأوربية ، فإن القرن العشرين هو عصر القوميات بالنسبة للشعوب العربية

---

(١) الدكتور نور الدين حاطوم : المراحل التاريخية للقومية العربية، ص٥، القاهرة ١٩٦٣

والشعوب الأفرو أسيوية بل لجميع الشعوب في العالم . وما ذلك إلا لأن الفكرة القومية قد أضحت منذ منتصف القرن العشرين حركة عالمية راسخة تنمو على الأيام ، وتزداد ظهوراً ووضوحاً في القارتين الأسيوية والافريقية .

والواقع أن فكرة القومية العربية قد ظهرت بأجلى معانيها مع قيام الثورة الكبرى في مصر في ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ . ثم كان الاعتداء الغاشم في ٢٩ اكتوبر عام ١٩٥٦ أكبر امتحان لهذه القومية [١] ، إذ برهنت هذه المحنة على وحدة الشعوب العربية وتضامنها لمواجهة قوى البغى والعدوان . وهكذا قدر لهذه المحنة أن تجمع بين العرب ، وأن تشكك المترددين منهم في نوايا الاستعمار . كما قدر لها أن تكون خاتمة للتاريخ الاستعماري البغيض الذي عاشته انجلترا وفرنسا حقبة طويلة من الزمن في غفلة من حكام هذه المنطقة . وإذن فهذا الغزو كان بمثابة حافز كبير لانطلاق فكرة القومية ، فآمن بها أبناء الأمة العربية ولاذوا بها ولجأوا إليها لأنهم وجدوها كفيلة برد كل عدوان عن أية بقعة من بقاع الوطن العربي ، كما أنها الكفيلة بالقضاء على المؤامرات التي يدبرها الاستعمار .

ولكن مع هذا يخطىء من يظن أن القومية العربية مسألة جديدة طارئة على العرب ، إذا أن الأمر الذي لا شك فيه أن هذه القومية قد نشأت منذ أن انطلق الإسلام بالعرب خارج جزيرتهم العربية لينتشروا فوق الرقعة الفسيحة الممتدة من الخليج إلى المحيط يبشرون بمبادىء من التسامح والمساواة ، ويضمون تحت لوائهم شعوباً وأمماً مختلفة سرعان ما ارتبطت بعضها ببعض برباط من الأخوة والمحبة، وتكونت أمةعربية واحدة، وأصبح لها تاريخ واحد وخصائص واحدة ومصير واحد . وكانت اللغة العربية هي مظهر هذه الوحدة والمعبر عن

---

(١) أحمد خاكي : فلسفة القومية سلسلة اخترنالك (٥٥) ، ص ١٩٥

وجودها وأكبر برهان على حياتها المشتركة .

وهكذا تحت ظلال الإسلام تمكنت الأمة العربية من أن تقيم وحدة إنسانية سمحة متماسكة ذات لغة واحدة وثقافة مشتركة وعادات وتقاليد متجانسة .

ولكن ما كان لهذا الحدث الكبير أن يقع ، لو لم يرزق العرب استعداداً كاملاً لتقبله وحمل رسالته ، ولو لم يكن بذور هذه الوحـــدة وجذورها موجودة بالفعل في الفترة السابقة على الإسلام .

ويحدثنا التاريخ أن العرب في العصور قبل الإسلامية ، وفي شق المناسبات كانوا يشعرون بقوميتهم إزاء الفرس والأحباش والرومـان . وإذن فقوميتنا العربية قديمة حديثة تليدة طريفـــة معاً ، وليست وليدة العصور الحديثة كالقوميات الأوربية والأمريكية [١] .

هذا الوطن العربي الكبير كان يقع في نفس المنطقة التي لا تزال تشغلها أمة العرب اليوم ، وسوف تظل تشغلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، يتأجج بين أفرادها الشعور بالقومية العربية التي تحث الخطى نحو وحدة شاملة تعلي شأن العرب وتعيد إليهم عزهم ومجدهم .

وعلى هذا نرى أن قوميتنا ليست قائمة في الهواء بل لها جذور راسخة في في الماضي ، وأن نشأتها يمكن أن تتمثل في تلك النهضة التي بدأها الرسول صلى الله عليه وسلم بتوحيد العرب سياسياً ، وجمعهم على الإسلام ، وتكوين الأمة العربية الإسلامية . وكان ذلك حين كتب الرسول لأهل المدينة صحيفة يمكن

(١) انظر كتاب المجتمع العربي ، تأليف مجموعة من أساتذة كلية الآداب بجامعـة بيروت العربية ، ص ٦١٣ ، بيروت ١٩٦٨

أن تعتبر نواة دستور إذ نصت هذه الصحيفة على أن المسلمين ومن لحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس . وهذه الجماعــــة الإسلامية هي بعينها التي انتشرت في المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط وامتزجت دماؤها بدماء شعوب هذه المنطقة ، وانصهرت في بوتقتها ونتج من كل هــذه العناصر سكان الوطن العربي الكبير الذين سيظلون يرفعون رايته ، ويعلون شأنه بين الأمم ويحافظون عليه ويحمونه من اعتداء كل غادر غاشم .

كذلك تتمثل نشأة هذه القومية في تلك النهضة اللغوية التي أنتجت أول الأمر المعلقات وغيرها من روائع الشعر الجاهلي ثم سما بهـا القرآن ورفعها إلى مصاف اللغات العالمية ، إذ صيرها لغة خصبة حية لجميع سكان الوطن العربي وسرعان ما تكونت بينها وحدة فكرية لها وشائـــج متينة على تعاقب الأزمنة ومر العصور .

٣ ـــ مركزها بين القوميات الأخرى

إن قوميتنا العربية مستمدة من تاريخنا وتقاليدنا وحضارتنا ، ومن واقع حياتنا الروحية والمادية . وهذه الروح الجديدة بين المذاهب العالمية تلائم مجتمعنا العربي ، وتعبر عن كياننا المستقل ، وتبرز دورنا في تاريـخ الحضارة الإنسانية وإذن فحقيقة القومية العربية أنها تهدف إلى النهوض بالكيان القومي العربي وتحقيق الإصلاح السياسي والنهوض الاقتصادي وتحقيق العدالة الاجتماعية .

وقوميتنا العربية حركة إنسانية لا تعرف العصبية ولا الطائفية ، وهي كذلك حركة تقدمية غير رجعية ، متسامحة غير متعصبة ، عادلة غير جائرة ترى الخير لنفسها وللإنسانية جمعاء . وهكذا ستظل تقوم بدورها في توجيه بني الانسان نحو المثل العليا والمبادىء القومية والحياة الفاضلة .

وقد تميزت القومية العربية عن القومية اليونانية وعن القومية الرومانية . كما أنها تتميز في العصر الحاضر عن غيرها من القوميات لأنها تتجه إلى رسالة عالمية. أما بالنسبة للماضي فإن اليونان والرومان استطاعوا جمع شعوب كثيرة في حكومة واحدة أو حكومات متشابهة ، ولكنهم ظلوا مع هذا غرباء عن البلاد التي حكموها لأنهم ترفعوا عن شعوب هذه البلاد ، وحكموها بأبشع مظاهر الغطرسة والكبرياء والعنف والاستبداد ، إذ لجأوا في سبيل تحقيق مآربهم الشخصية إلى وسائل الضغط والإكراه وإراقة الدماء . وعلى عكس هذا تماماً سارت القومية العربية .

كذلك تجردت القومية العربية عن كل تعصب ديني أو عقيدي لأنها تؤمن بأن في التعصب أنانية وكراهية للغير . وكان هذا سلوكها حتى مع من أساءوا إليها وأرادوا الكيد لها . يحدثنا التاريخ اليهودي أن العرب في العهد الإسلامي أحسنوا معاملة اليهود ، وحتى أولئك الذين اضطر النبي والخلفاء الراشدون إلى إجلائهم عن قلب الجزيرة العربية تأميناً لرسالة الإسلام وأتباعه أقطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والإمام علي كرم الله وجهه الأراضي الواسعة بالقرب من الكوفة وعلى ضفاف الفرات مما دفع المؤرخ اليهودي الشهير « جريتز » إلى الإشادة بعدالة العرب وإنسانيتهم في كتابه « تاريخ اليهود » فقال : « إن تاريخ اليهود في بلاد العرب في القرن السابق للنبوة المحمدية وإبان حياة الرسول صفحة ناصعة في التاريخ اليهودي » [1]

ولقد تجلت هذه الحقيقة بأجلى معانيها في موقف العرب من اليهود عندما طردتهم الملكة إيزابلا من إسبانيا بقانونها في سنة ١٤٩٢م ذلك القانون الذي أجبر جميع اليهود على مغادرة إسبانيا. يقول «جيمس هوسمار » (James Hosmer)

---

(١) انظر كتاب فضل العرب على أوربا تأليف الدكتورة سيجريد هونكه وترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي ؛ ص ل من مقدمة المترجم ، القاهرة ١٩٦٤ .

في كتابه « اليهود » (The Jews) : « إن اليهود اضطروا إلى مغادرة أسبانيا إلى مواني العالم حيث لم يستقبلهم بشيء من الرحمة سوى البلاد العربية. أما العالم المسيحي فقد أقفل أبوابه أمامهم فيما عدا الولايات الإيطالية». ويقول أيضاً المؤلف نفسه : « إن اليهود كانوا قد وجدوا مواطناً صالحاً في أسبانيا حيث ازداد عددهم بمرور السنين . وظل الحظ موالياً لهم حتى انتهاء الحكم العربي فيها وبداية الحكم المسيحي فبذل المسيحيون جهداً جباراً لتحويلهم إلى الديانة المسيحية . وقد نجحوا في ذلك فتحول بعضهم عن إخلاص ، وتحولت الأغلبية ظاهرياً للتخلص من القتل الذي ينتظر كل من رفض التحول » .

وإن التاريخ ليسجل للعرب في صفحاته هذا الموقف النبيل بكل إعزاز وفخار لأنهم فتحوا لليهود صدورهم ، وآووهم في وقت محنتهم . على حين أن هذا التاريخ نفسه يسجل على اليهود تنكرهم للجميل وجحودهم للمعروف وتجردهم من كل عاطفة إنسانية وذلك عندما أخرجوا عرب فلسطين من ديارهم زوراً وعدواناً ليلقوا البؤس والجوع والعري .

كذلك لم تقم القومية العربية على التعصب للجنس كما كان الحال عند النازيين الذين قامت فلسفتهم على اضطهاد الاجناس الآرية ، فقد زعم فلاسفتهم أن الدم الآري أو الدم النوردي يجب أن يجري في عروق أجداده وأجداد أجداده وإلا فهو ليس بالألماني الأصيل . وعلى هذا الأساس ابتدعت وسائل لاضطهاد غير الألمان. وهكذا سيطرت نظرية الجنس على ألمانيا النازية ، وحاول هتلر أن يسيطر على جميع الألمان في تشيكوسلوفاكيا وبولندا والسويد والنرويج لأنه يدعى أنهم من جنس نوردي واحد ، ولكنه فشل في سياسته لأنه كان يطلب المحال .

كاني هذا أيضاً هو حال القومية الايطالية في العهد الفاشستي ، إذ

تعصبت لأصلها الروماني ، وكشفت عن نياتها ، وأبانت عن رغبتها في القضاء على القوميات الأخرى .

ثم إن القومية العربية تؤمن بالسلام العالمي القائم على العدل وتنادي به وتدعو إليه ، إذ أنها لا تؤمن بالظلم والعدوان ، ولأن ما وجد في القوميات الغربية إنما كان نتيجة لمحاولات تحقيق الاستعمار [1] .

٤ ــ مقوماتها وخصائصها وأهدافها

١ - مقوماتها :

لكي تبرز القومية العربية بشكل واضح كامل لا بد وأن تتوفر لها المقومات الرئيسية التالية :

أولاً : التأليف التاريخي للأمة ويرتبط بذلك التاريخ المشترك .

ثانياً : وحدة اللغة .

ثالثاً : وحدة الأرض .

رابعاً : الحياة الاقتصادية المشتركة .

خامساً : التكوين النفسي المشترك .

وقبل أن نناقش المقومات التي تقوم عليها القومية العربية علينا أن نناقش بعض الآراء الخاطئة التي أقحمت على مقومات القومية بصفة عامة .

---

(١) انظر كتاب دراسات في المجتمع العربي ، تأليف مجموعة من أساتذة كليتي الآداب والاقتصاد والعلوم السياسية ، ص ٢٩٨ الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦١ - ١٩٦٢

فبعض الكتاب يقتصرون على اللغة باعتبارها المقوم الوحيد الذي تقوم عليه قومية من القوميات . ولكن رغم أن اللغة عامل أساسي من عوامل تكوين القومية ، إلا أنه لا يكفي وحده لتكوينها فمن المعروف مثلاً أن سكان الولايات المتحدة يتكلمون الانجليزية مع أنهم يكونون أمة متميزة عن الأمة البريطانية . هذا من جهة ومن جهة أخرى فنحن نرى السكان في كل من سويسرا والهند والصين يتكلمون لغات مختلفة . ولكن على الرغم من هذا فإن كلا منها يكون أمة واحدة .

كذلك يركز البعض في تعريف الأمة على التكوين النفسي المشترك ، ويرون أن الأمة مثلاً تتكون من كل من يشعر بعروبته ، والحقيقة أن الشعور وحده لا يكفي لخلق الأمة ، فليست المسألة إذن متوقفة على إحساس الفرد أو إرادته لأن مقومات الأمة تتألف تاريخيا ولا دخل للفرد في تكوينها . فاليهود في إسرائيل لا يمثلون أمة واحدة رغم شعورهم بيهوديتهم لانهم جماعات منتزعة انتزاعاً من أماكن مختلفة من العالم من الغرب والشرق مع ما يتبع ذلك من اختلافهم في اللغة والثقافة والتاريخ المشترك .

ويلاحظ كذلك أننا استبعدنا في تحديد المقومات الأساسية للأمة عنصراً كثيراً ما يتردد في كتابات بعض المفكرين ، وهو الجنس ذلك أن الاجناس بتعددها تدخل في تركيب الأمة الواحدة بحيث يستحيل القول أن هناك جنساً خالصاً . وقد أثبتت الأبحاث أن كل أمة من الأمم تتألف من أفراد منحدرين من أصول مختلفة . والأمر الذي لا شك فيه أنه كلما زاد التجانس العنصري كان ذلك أدعى للاختلاط والامتزاج والتآلف . ولحسن الحظ أنه ليست هناك فوارق في الأجناس التي تسكن الوطن العربي بحيث يجعل الاختلاط أو التزاوج أمراً متعذراً أو مستحيلاً .

وعلى هذا فإن وحدة الأصل لا يجوز أن تعتبر عنصراً أساسياً في تكوين

القومية . ومما يلفت النظر أن هذه الحقيقة تنبه إليها كتاب العرب ومفكريهم منذ القدم، ولم تغب عن فطنتهم، فمن المعلوم أنهم قسموا العرب إلى بائدة وعاربة ومستعربة . وغني عن البيان أن تعبير العرب « المستعربة » يدل على أنهم كانوا يشعرون بأن العروبة لا تتوقف على وحدة الأصل [1] .

إن الجاحظ بين ذلك بصراحة تامة لأنه — في مواضع عديدة من كتاباته المختلفة – ذكر أو نقل عبارات وأقوالا كثيرة تنم عن نظرات دقيقة في هذه القضية .

وقد كتب في البيان والتبيين : « قالوا : إن المشاكلة من جهة الاتفاق في الطبيعة والعادة ربما كانت أبلغ وأوغل من المشاكلة من جهة الرحم » . وقال في إحدى رسائله: « إن الاستواء في التربة واللغة والشمائل والهمة والأنف والحمية وفي الأخلاق والسجية يقوم مقام الولادة والأرحام الماسة » .

أما فيما يتعلق بالدين فيلاحظ أن التكوين للأمم لم يتقيد بالأديان والمذاهب الدينية، بل جرى هذا التكوين مستقلاً عنها، فالوحدة القومية في ألمانيا جمعت بين كاثوليك بافاريا وبروتستانت بروسيا، والوحدة الإيطالية قامت على أساس تجريد البابوية من سلطاتها الزمنية وممتلكاتها الواسعة . والقومية العربية كانت دائماً الشعار الذي يظل جميع عناصر الأمة على اختلاف مذاهبهم . وكانت تنادي دائماً بأعلى صوت : « إن الدين لله والوطن للجميع » . بل إن الحركة القومية العربية في الشام والعراق في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانت تستهدف الانفصال عن الدولة العثمانية، وهي أكبر دولة إسلامية في ذلك الوقت، وكانت الخلافة ممثلة فيها . يقول الدكتور نور الدين

---

(١) ساطع الحصري : أبحاث مختارة في القومية العربية، ص ٢٤٤، القاهرة ١٩٦٤

حاطوم[1] نقلا عن كتاب « يقظة الأمة العربية » الذي كتبه باللغة الفرنسية « نجيب عازوري » : « هنالك أمة عربية ، أمة واحـــدة تضم المسيحيين والمسلمين على حد سواء . وليست المشاكل الدينية التي تنشأ بين مختلف أبناء الطوائف ، سوى مشاكل سياسية تثيرها الدول الأجنبيـــة في سبيل منافعها الخاصة » .

ومع أن الدين ليس مقوماً من مقومات القومية إلا أن الإسلام في حالة المجتمعات العربية بالذات ساعد على تكوين مقومين هامين من مقومات القومية : أولهما – التاريخ المشترك ، إذ أن الإسلام هو القوة الروحية التي حملها العرب معهم في البلاد المفتوحة التي أصبحت عربية واعتنقت هذا الدين . وقد ظل الإسلام المحور الذي تجتمع حوله هذه البلاد في وحدة سياسية وحضارية واحدة فالعربي حين ينتقل إلى قطر عربي آخر ، يجد كثيراً مما يألفه بصره وسمعه وتفكيره فطراز العمارة الإسلامية في المساجد وغيرها وطقوس الصلاة والصيام والعادات والتقاليد المتبعة في المواسم والأعياد الدينية كل ذلك مألوف عنـده وامتداد لحياة القطر الذي ولد فيه ؛ فالدين الإسلامي إذن باعث قوي ومساعد فعال على تيسير فكرة الوحدة لا سيما وأن هذا الدين نفسه يدعو إلى الاتحاد ونبذ الخلاف والشقاق فالله تعالى يقول : « يأيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » . وقـــال . « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » وقـال : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

لقد كان ظهور الإسلام أعظم حادث في تاريخ العرب ، وكان الدافع الأساسي لوحدتهم في شبه الجزيرة العربية ، وتدعيم قوميتهم لأول مرة في تاريخهم . ومن

(١) المراحل التاريخية للقومية العربية ، ص ١٧

«آثر الحركة الإسلامية أن العرب لم يصبحوا أمة واحـــدة ، ويتوصلوا إلى تأسيس دولة إلا بعد أن قضى الإسلام على العصبية القبليــة التي كانت تفرقهم وبذلك تكون الحركة القومية العربية في مرتكزها التاريخي مدينة بوجودها ذاته للإسلام . إن الإسلام بالنسبة للعرب جميعاً على اختلاف أديانهم ومذاهبهم حضارة وتاريخ ومجد وتقدم . والإسلام لا ينكر ولا يعارض ديناً من الأديان السماوية ولا ينافيه، بل يحترم هذه الأديان جميعاً ، ويعترف بها ، ولكنه يمقت العصبية الهدامة التي تجعل الرابطة الطائفية أقوى من الرابطة القومية .

ثانيهما : اللغة العربية إذ أن الإسلام كان هو القوة الدافعة للفتوحات العربية التي نشرت اللغة العربية ، والإسلام هو الذي حمّل شعوب الوطن العربي رسالته الحضارية ، والقرآن كتاب الإسلام الأعظم هو الذي حافظ على بقـــاء اللغة العربية الفصحى سليمة بعيدة عن الانحلال والانقسام إلى لهجات عربية متباينة وبذلك ساعد على وحدة الثقافة والتعبير في العالم العربي .

ونحن إذا قبلنا المقومات الخمسة السابقة باعتبارها العناصر الاساسية في تكوين الأمة ، فهل تتوافر هذه المقومات كلها في الشعوب التي تسكن الوطن العربي الممتد من الخليج العربي إلى المحيط الاطلسي ؟ .

الواقع أنها تتوافر في شعوب هذه المنطقة كما سنبين الآن :

أولاً – وحدة التاريخ أو التاريخ المشترك :

المقصود بالتاريخ المشترك هو الحياة المشتركة للأجيال المتعاقبة في ظروف سياسية واقتصادية وحضارية واحدة ، الحياة التي تؤدي إلى الخضوع لنظم وعادات ومعتقدات وأساليب فنية مميزة . ومن المظاهر الهامة لوحدة التاريخ الاعتزاز بأمجاد السلف وإحياء الاحداث التاريخية القومية الهامة كالاستقلال والانتصارات وتمجيد أبطال الامة .

ولا شك أنه كان للعرب تاريخ يعتزون به ويحرصون على تذكره ويأخذون منه العظات والعبر .

بدأ هذا التاريخ منذ أربعة عشر قرناً حين خرج العرب من شبه الجزيرة وانساحوا في الآفاق شرقاً وغرباً يبشرون بمبادىء من التسامح والمساواة لم تكن للشعوب المغلوبة على أمرها آنذاك عهد بها . هنالك طويت صفحة من تاريخ تلك الشعوب ، وبدأت صفحة جديدة من حياتها هي تاريخ الأمة العربية ؛ فإن العرب قد اندمجوا في هذه الشعوب ، وأثروا فيها وتأثروا بهـــا . ومن هؤلاء قامت أمة واحدة بتاريخها ولغتها وحضارتها وإن تفاوتت في الأعرق والأصول العنصرية . يقول الرئيس جمال عبد الناصر في الباب الثالث من الميثاق الوطني : « منذ زمان بعيد في الماضي ، لم تكن هناك سدود بين بلاد المنطقة التي تعيش فيها الأمة العربية الآن . وكانت تيارات التاريخ التي تهب عليها واحـدة ، كما كانت مساهمتها الإيجابية في التأثير على هذا التاريخ مشتركة ، ومصر بالذات لم تعش حياتها في عزلة عن المنطقة المحيطة بها ، بل كانت دائماً بالوعي وباللاوعي في بعض الأحيان تؤثر فيها وتتأثر بها ، كما يتفاعل الجزء مع الكل ، وتلك حقيقة ثابتة تظهرها دراسة التاريخ » .

وبهذا شمل تاريخ الأمة العربية أقواماً شتى ومللا عديدة ، وأصبح لزاماً على كل عربي أن يقرأ هذا التاريخ ليتخذ منه العظة والعبرة والدافع القوي للسير قدماً إلى الأمام لتحقيق الهدف المنشود .

ولكن إذا كان التاريخ يلعب دوراً خطيراً في حيـاة الأمم باعتباره منبعاً فياضاً للمستقبل ، فإن له أيضاً مضاره التي يجب التحذير منها ؛ فإن التاريـخ يكون مفيداً عندما يفرغ على شكل قوة دافعة تحركنا إلى الأمام غير أنه يصبح مضراً حين يأخذ شكل « قوة جاذبة » تدعونا إلى العودة إلى الوراء . فلا يجوز لنا أن نعتبر الماضي هدفاً نتوجه إليه ، ونسعى للعودة إليه ، بل يجب علينا أن

نجعل منه نقطة استناد نستند إليها في اندفاعنا إلى الأمام ، يجب علينا أن نكون منه قوة فعالة دافعة حافزة تدفعنا نحو المستقبل الجديد ، وبتعبير أقصر ، شعارنا في هذا الباب أن يكون « تذكر الماضي » ، مع التطلع إلى المستقبل على الدوام [1] . وكما يقول الرئيس عبد الناصر « إن وحدة التاريخ ليست مجرد نظرة إلى الماضي فقط ، بل إنها تمتد إلى المستقبل حتى تشمل وحدة الهدف ووحدة المصير » .

ثانيا – وحدة اللغة :

لا شك أن اللغة العربية هي أساس هام من أسس القومية ومعيارها الصحيح وهي وسيلة للتعبير وطريقة للتفكير . ولا شك أن تفاهم الأفراد بلغة واحدة يوجد فيهم شعوراً من الارتباط والتآخي قلما يتوفر مثله إذا اختلفت اللغة [2].

واللغة العربية هي سجل التراث الثقافي للأمة العربية . ولحسن الحظ أن هذه اللغة ، لغة الأغلبية من سكان الوطن العربي إذ يتكلم بها نحو ٩٠٪ من مجموع أبناء هذه الأمة .

حقاً إن هناك اختلافاً في اللهجات بين قطر وقطر لكنه اختلاف بسيط لا يمنع التفاهم بأية حال من الأحوال . وهذا الاختلاف أمر طبيعي داخل القطر الواحد ففي مصر هناك اختلاف بين اللهجة الصعيدية ولهجة الوجه البحري .

واللغة الفصحى هي لغة الثقافة والأدب لجميع الأقطار العربية . ثم إن وسائل الإعلام من إذاعة وصحف وتليفزيون ونشر التعليم كل ذلك من شأنه أن يعمل

---

(١) ساطع الحصري : أبحاث مختارة في القومية العربية ، ص ١١٩

(٢) انظر مقال الدكتور يوسف أبو الحجاج بعنوان « وحدة المجتمع العربي » ، (كتاب دراسات في المجتمع العربي) ، وفقاً لمنهج جامعة عين شمس القاهرة ، ١٩٦٠ ص ٥٨

على التقارب بين العامية والفصحى حتى تصير لغة حديث وكتابة معاً

وإن العرب جميعاً ليعتزون ويفخرون بتراثهم العربي المدون بالعربية لأنه الرابطة القومية التي تجمع بين كل الناطقين بهذه اللغة . وسيظل شعراء العربية وعلماؤها وفلاسفتها قوميين عرباً لا يستأثر بهم إقليم دون آخر ، بل يكونون موضع فخر العرب ومحط اعتزازهم في كل أجزاء الوطن العربي من الخليج إلى المحيط .

ونحن إذا نظرنا إلى الشعوب التي سيطر عليها العرب ، نجد العلماء والأدبا من مختلف العقائد يعملون معاً، ويبنون الحضارة العربية والثقافة العربية والعلوم العربية متساندين متعاونين . ومن هنا وجدنا الموضوعات العلمية والعبقريةالشعرية والملكة النثرية لم تكن قاصرة علىالعرب وحدهم بل ساهم في سبيل ذلك العناصر الأخرى التي دخلت في البوتقة الإسلامية . وكان في مقدمة هذه العناصر العلماء الذين انحدروا من أصل فارسي ، فهؤلاء قد ساهموا بحق في إثراء اللغة العربية بالكثير منالمصنفات الأدبية والعلمية الرفيعة. ونحن أمامهذه الحقيقة لا نستطيع أن نقول إن الثقافة الفارسية هي التي جاءت إلى العالم بأمثال ابنالمقفعوالطبري وأبي نواس وبشار بن برد ، أو بأمثال محمد بن زكريا الرازي الطبيب والغزالى الطوسي وأبي الريحان البيروني وابن سيناء وغيرهم كثيرين ممن نبغوا في شتى أنواع المعارف الإسلامية ، لكنها الثقافة العربية المجيدة هي التي أرضعت هؤلاء من لبانها ، وهي التي نشأتهمالنشأة العلمية والأدبية بالرغم من أنهم من عنصر غير عربي . ولا عجب في ذلك فهؤلاء الأعلام قد انحدروا من أسر عاشت أجيالاً متعاقبة في المجتمع العربي وتثقفوا ثقافة عربية إسلامية .

نخلص من هذا إلى أنالثقافة العربية لا يقلل من شأنها أنها أفادت منالثقافات الفارسية أو اليونانية أو الهندية أو غيرها من الثقافات لأن تطور الحضارةالبشرية متصل الحلقات ، ويقوم على أساس استفادة الخلف من جهود السلف . فإذا قال

قائل : إن أمة قد أخذت عن أمة فتلك سنة الحياة ، وإذا كان ثمة فخر للامة المعطية فلا عار على الأمة الآخذة ، وإنما لها فخر الفهم والهضم والاستيعاب والإضافة . والإنسانية وحدة متفاعلة ، وثقافتها كل لا يتجزأ ، وإنما يضيف اللاحق إلى ما تركه السابق من كل الأمم والعصور [1] .

وليس هناك شك في أن حياة الأمة تقوم بلغتها بوجه عام. أما الموت بالنسبة إلى الأمة فليس في حقيقة الأمر إلا في الحرمان من اللغة الخاصة بها . إن الأمة التي تدخل تحت حكم دولة أجنبية تفقد استقلالها وحريتها ، وتصبح مستعبدة لها، ولكنها لا تفقد حياتها ما دامت محافظة على لغتها. فقد قال أحد المفكرين : « إن الأمة المحكومة التي تحافظ على لغتها تشبه السجين الذي يمسك بيده مفتاح باب سجنه ... » إنها تبقى حية ما بقيت محافظة على لغتها ، إنها تبقى مستمدة للحرية والاستقلال ، ما دامت متمسكة بلغتها . وأما اذا فقدت هذه اللغة فتكون قد فقدت الحياة ، تكون قد اندمجت في الأمة المستولية عليها ، وفقدت كل مالها من عناصر الكيان . إنها تكون قد زالت من عالم الوجود ، وبتعبير أقصر ماتت بكل معنى الكلمة . إن اللغة تكون روح الأمة وحياتها ، وتمثل أهم عناصر القومية وأثمن مقوماتها . أليست ميراث الأجيال الماضية ، وهدية الحوادث التاريخية بوجه عام ؟ أفلا يحق لنا أن نقول إنها تربط الماضي بالمستقبل على الدوام [2] .

وقد ثبتت اللغة العربية لكل المحاولات الاستعمارية، وظلت تؤدي وظيفتها القومية على أحسن وجه ، وتنقل إلى جماعات الوطن الواحد حديث إخوانهم في الأجزاء الأخرى من معارك يخوضونها في سبيل التحرر وانتصارات يحرزونها في ميادين الجهاد وأبحاث يقومون بها في مجالات العلوم والآداب . وإننا لا يمكن أن ننسى مثلاً تلك المحاولات الجبارة التي ظلت تبذلها فرنسا في سبيل محاربة

(١) ديلاسي أوليري : الفكر العربي ومكانه في التاريخ ، ترجمة دكتور تمام حسان ص ٨ من المقدمة

(٢) ساطع الحصري : أبحاث مختارة في القومية العربية ، ص ١١٦ – ١١٧

القومية العربية في الجزائر ممثلة في لغتها العربية ، وإحلال اللغة الفرنسية محلها .
ومع هذا باءت محاولاتها بالفشل الذريع ، وظل عرب الجزائر حريصين على لغتهم . يخوضون معركة الشرف والكرامة إلى أن حصلوا على استقلالهم وحرياتهم .

والآن نتساءل : ما هو سبب انتشار اللغة العربية إلى هذا الحد الكبير وكيف ظلت للآن محافظة على كيانها وقوتها ؟ .

الواقع أن السبب الأكبر في انتشار اللغة العربية يرجع إلى أنها لغة القرآن فاكتسبت بذلك قداسة خاصة عند المسلمين . فاستجابت لها نفوسهم وسهل بذلك اتخاذها لغتهم الأساسية وترك لغاتهم الأصلية .

وإلى القرآن يرجع الفضل في تخليد اللغة العربية والمحافظة عليها من حيث مفرداتها وقواعدها وأساليبها بحيث أنه لم يلحقها الضعف أو يدخلها تحريف خلال هذه القرون المتطاولة .

أما إذا كانت هناك أقليات لغوية في وطننا العربي فإنها أقليات بسيطة . وكان الاستعمار هو الذي يشجع هذه الأقليات على الاحتفاظ بلغتها ، والحيلولة دون انتشار العربية بينها . وإذا كان الاستعمار في طريقه إلى الانقراض فإن الامر الذي لا شك فيه أن هذه الأقليات سوف تتعلم العربية فيتحقق التجانس اللغوي والثقافي تحققاً كاملاً بين أفراد الأمة العربية . ولكن هذا لا ينبغي أن يكون حائلاً دون الوقوف على الحقيقة الآن ؛ وهي أن هذه الأقليات تكون فقط نحو ١٢ ٪ من مجموع أبناء الوطن العربي وبمعنى آخر لا يزيد عدد هؤلاء عن عشرة ملايين نسمة : الأكراد مليون والبربر ٦ مليون وأهالي جنوب السودان ٣ مليون وذلك بالنسبة إلى عدد سكان الوطن العربي الذين يقدرون بنحو ٩٥ مليون نسمة .

ثالثاً – وحدة الأرض :

الوطن العربي الكبير الممتد من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي وحـدة جغرافية متكاملة متصلة الأجزاء ، ولكل أمة عربية أرض تشغلها وتحرص على سيادتها وتعمل على المحافظة عليها وتخليصها من أيـــدي الأجانب المحتلين إن وجدوا . وهناك شعور عام بين أبناء الوطن العربي على ضرورة إجلاء المستعمر الغاصب عن كل وطن عربي فالمعركة في نظر الجميع واحدة والآلام واحدة والابتهاج بالانتصار ليس وقفاً على وطن دون غيره .

والوطنية السليمة لا تتعارض مع القومية بل تكملها : وفي الأمم التي لم تتحد بعد في دولة واحدة يكون هناك وطن واقعي هو عبارة عن الأرض المعترف بها دولياً ، ووطن مثالي تنشده كل مجموعة من الأمم المتشابهة وذلك عـلى الرغم من قسمتها السياسية على أسس مصطنعة ، وذلك هو الوطـن الكبير . وفي الأمة التي حققت استقلالها ووحدتها في دولة ذات سيادة تصبح القومية والوطنية شيئاً واحداً .

ولكن إذا كان هناك تطرف في التعصب للأرض التي تشغلها كل أمة من الأمم المتشابهة التي لم تحقق بعد وحدتها فهذه هي « الإقليمية » المعادية للقومية .

ومن الأسف أن وطننا العربي الكبير لم يخل من نزعات إقليمية تتنكر لقوميتها ولأصحاب هذه النظرية أنصار يروجون لها ويبثون دعاياتهم المسمومة ضد القومية العربية ويزعمون أن قيام دول عديدة في مختلف الأقطار العربية بعد الحرب العالمية الأولى كان ضرورة تاريخية لا مفر منها وذلك أولاً للاختلاف الموجود بين طبائع الشعوب المقيمة بهذه الدول . وثانياً هو أن الدول المذكورة ليست إلا امتداداً لكيانات قائمة منذ عصور سحيقة .

وهذه الادعاءات منقوضة من أساسها فبعد أن درسنا جغرافية الوطن العربي وأبرزنا خصائصه الطبيعية والبشرية ، تبين لنا بما لم يدع مجالاً للشك أن هناك تشابهاً

جوهرياً بين أجزاء هذا الوطن العربي، وأن سكانه يؤلفون أمة واحدة متحدة في المشارب والطباع ، وأنه إذا كانت هناك فروق فهي طفيفة مصطنعة تنحصر فيما خلقه الاستعمار في هذه الأمم في أعقاب الحرب الأولى من أجهزة سياسية وإدارية واقتصادية وثقافية، وهذه كلهـــا لم تعد قادرة الآن على الصمود أمام الحقيقة التاريخية الواقعة التي تنادي باندماج العرب في وحدة أو اتحاد .

أما القول بأن الدول العربية العديدة تعتبر استمراراً لكيانات قديمـــة فيمكننا أن نرد عليه بأن هذه الكيانات قد انتهى أمرها ، وانقطعت صلتهـا بحاضر الأمة العربية منذ عشرات القرون .

ومن العجيب حقاً أن يدعي أنصار الإقليمية أن تقسيم الوطن العربي عقب الحرب العالمية الأولى إلى دول عديده كان ضرورة تاريخية إذ أن العكس هو الصحيح. وهذا التقسيم هو الذي قام به المستعمرون لحماية مصالحهم فقط ضاربين برغبات الشعوب عرض الحائط، ودون مراعاة لظروفها الجغرافية والاقتصادية. ولسنا في حاجة إلى إعادة ما قلنـــاه عن التمزيق والتشتيت الذي تم على يد المستعمرين في الوطن العربي . وكفى ما بلانا به الاستعمار من وجود إسرائيـــل بيننا كقنطرة يعبر علينا لإذلالنا وكجرثومة تتهددنا في النهاية بالفناء .

رابعاً - الحياة الاقتصادية المشتركة :

كانت الروابط الاقتصادية من أقوى المواثيق التي ربطت العرب برباط واحد. وكانت طرق القوافل والأسواق المحلية محط الرحال والمنتدى الذي يجتمع فيه المواطنون العرب من مختلف البلاد . وكان التبادل التجاري على أوسع نطاق بين أسواق بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط ومكة والمدينة والقيروان . وكانت هذه المراكز التجارية عواصم قومية للعرب جميعاً ومراكز للحماس وتبـــادل المشاعر والأهداف القومية [1] .

(١) الدكتور مصطفى الخشاب .دروس في مقومات المجتمع العربي ونظمه ، ص ٤٣ ، القاهرة ١٩٦٢ .

والواقع أن الوطن العربي قد توافرت فيه إمكانيات كثيرة لم تتوافر في غيره من المناطق، وانعكست آثار البيئة الجغرافية على النواحي الاقتصادية؛ فتنوعت فيه الثروة الزراعية بحكم تنوع المناخ. ومما لا شك فيه أن هنالك مصالح اقتصادية مشتركة بين البلاد العربيـــة ، وأن ذلك يخلق الترابط بين سكان هـذه البلاد ويقوي فيهم الشعور القومي ، ويدفعهم إلى التآزر والاتحاد .

ومن هنا يتضح أن القومية العربية ليست تضامناً عاطفياً فحسب ، بل هي أيضاً تضامن اقتصادي لا بد منه . وما دامت المصالح الاقتصادية المشتركة التي التي تعتبر خصائص القومية موجودة بالفعل في الوطن العربي ، فإنهـــا تشكل واحداً من أسس القومية العربية .

وفي عصرنا الحاضر لكي نستطيع نحن العرب أن نحيى حياة حرة كريمة في هذا المعترك العالمي الذي تتصارع فيه القوى على الحياة والمادة، علينا أن نعمل على إعادة هذه الوحدة الاقتصادية ، وذلك بتخليص بلادنا من النفوذ الاستعماري والرجعي بمختلف أشكاله ثم بالقضاء على ما اصطنعه الاستعمار من حدود وسدود والتفكير جدياً في إقامة سوق عربية مشتركة تأكيداً لمبدأ الوحدة الاقتصادية وحماية للاقتصاد العربي [١] .

خامساً – التكوين النفسي المشترك :

يتمثل هذا الأساس في وحدة الأهداف التي تجمع عليها الأمة العربية وتعمل على تحقيقها ، وترى فيها المثل الأعلى لما ينبغي أن يكون عليه مستقبلهـا . ولا شك أن التجانس النفسي والروحي بين أفراد المجتمع، وهو ما يعبر عنه بالطابع القومي ليعد أساساً آخر من أسس دعم القومية والعمل على بقائها .

---

(١) المجتمع العربي تأليف مجموعة من أساتذة كليتي الآداب والاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ، ص ١٣٣ – ٣٣٤ ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٦٤ .

ولقد كان من شأن التآلف التاريخي والاشتراك في اللغة واتحاد المصالح أن طبع المجتمع العربي بطابع نفسي موحد . والعرب في كل أنحـــاء العالم العربي يثبتون بسلوكهم حقيقة الوحدة النفسية المشتركة . وأهم صفة يمكن ملاحظتها الآن في الطابع القومي العربي هي الشعور الوطني الجارف في الجماهير الشعبية العربية ، والعداوة الصريحة للاستعمار والصهيونية والرجعية [١] .

وهذا التكوين النفسي المشترك يمكن أن تستخلصه الأمة من تجاربها التي مرت بها في تاريخها القريب ، ومن نظرتها إلى الأحداث المحيطة بهـا ، ومن المحن التي نكبت بها على يد الاستعمار . ولا شك أن أبناء الأمة العربيـــة متقاربون في التقاليد والعادات والأخلاق والأمزجة . وقد زادت هـــذه القرابة النفسية والمعنوية ، وعملت وسائل الإعلام الحديثة على تقويتها ، وعبأت الشعور العربي في كل بقعة من بقاع الوطن العربي .

والحق أنه ما دام هناك استعمار يخضعنا لمشيئته ، ويجعلنا ندور في فلكه ويجرنا إلى حروبه ومشاكله التي لا أول لها ولا آخر ، ويسخر اقتصادياتنا وفق مصلحته ، ويدخلنا رغم إرادتنا في سلسلة من الأحلاف العدوانية ليدأب على التحكم فينا إلى آخر هذه الألاعيب التي يلجأ إليهـا الاستعمار . وما دام ذلك كذلك فلا بد أن يكون هناك شعور موحد ، وإجماع على مقاومة هذا الاستعمار بكل ما في طاقاتنا ، والسعي قدماً في سبيل التخلص من النفوذ الأجنبي بجميع صوره وأشكاله . وإن هذا الإجماع الرائع على ضرورة مكافحة الاستعمار ما هو إلا نتيجة للتكوين النفسي المشترك بين أبناء الأمة العربية جمعاء . على أن القضايا العربية الهامة التي تشغل بال الشعوب العربية اليوم هي قضايا الحرية والاشتراكية والوحدة كما سنبين بعد قليل في حديثنا عن أهداف القومية العربية .

---

(١) انظر كتاب « مجتمعنا العربي » ، تأليف مجموعة من أساتذة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ص ١٨٨ .

ب - خصائصها :

القومية العربية بحكم نشأتها قومية ذات رسالة حضارية عالمية ، لأنها من جهة قومية بعثتها رسالة دينية عالمية ، ولأنها من جهة أخرى قومية ظهرت في عصر كانت الحضارة فيه قاصرة على العالمين الروماني والفارسي ، فتلقت القومية العربية تراثهما وحملت لواء الحضارة وقيادة العالم، فكان دورها نشر نور الحضارة إلى أصقاع كثيرة كانت بعيدة عن مركز الحضارة القديم [١] .

والقومية العربية بحكم نشأتها قومية مفتوحة مبنية على المودة والإخاء . وقد نتج عن ذلك أنها كانت قومية قادرة على التوسع بحسب الظروف التاريخية .

وقوميتنا العربية غير عدوانية لأنها لا تؤمن بالاستعمار ، ولكنها تدعو إلى السلام وتجنيب العالم ويلات الحروب وذلك باتباع سياسة عدم الانحياز والحياد الإيجابي متعاونة في ذلك مع الدول المتحررة والمحبة للسلام في آسيا وأفريقيا وأوروبا ، وهنا يجب ألا ننسى أنه إلى جانب القومية العربية تقوم قومية بين شعوب آسيا وأخرى بين شعوب إفريقيا . وهذه وتلك تعمل مع القومية العربية متعاونة متحدة ضد الاستعمار ، بحيث أنه أصبح لها أهداف واحدة تعيش من أجلها وتجود بالنفس في سبيل الذود عنها . ولا شك أن التكتل بين هذه القوميات إنما كان رد فعل للدول الرأسمالية والشيوعية التي تهدف إلى استغلال البلاد العربية والإفريقية أسوأ استغلال . وإذن فنحن أمام قوتين : قوة الاستعمار الذي لا زالت تمثله انجلترا وفرنسا وهولندا وأمريكا ، وقوة القومية العربية متضامنة مع القوميات الآسيوية والقوميات الأفريقية ، تلك القوميات التي تحاول أن تنشر الحرية، وتهدف إلى أن تكون المثل الأعلى لجميع القوميات.

---

(١) انظر مقال الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة تحت عنوان « القومية العربية : مقوماتها التاريخية » (كتاب دراسات في المجتمع العربي) ص ٢ .

يعتقد الأمريكيون أن العالم منقسم إلى قسمين : قسم شيوعي وقسم غير شيوعي ، ويطلقون على هذا القسم الثاني اسم العالم الديمقراطي . ولكن المسألة عند العرب والشرقيين ليست كذلك،فالعالم عندهم ينقسم قسمين: قسم مستعمِر يريد أن يستعبد الناس سياسياً واقتصادياً ، وقسم آخر متحرر يريد أن يكافح الاستعمار في كافة صوره [1] . وهـذا القسم يتمثل في الشعوب التي تربط بين القومية العربية متعاونة مع الشعوب المتحررة الأخرى في آسيا وإفريقيا .

وها نحن الآن نجد القومية العربية الحديثة تسعى بكل إمكانياتها لتحرير المواطن العربي من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وإتاحة الفرص لكافة المواطنين ليبرزوا نشاطهم وكفاءتهم في سبيل تحقيق الصالح العام . هذا على حين أن القوميات الغربية المعاصرة قد تنكرت لمبادئها بأن سيطرت على دولها الرأسمالية فأعمتها عن المبادىء والقيم الإنسانية ، وجعلتها تحتل نفوذاً أقوى مما كان يتمتع به القياصرة والأباطرة، وطغت هذه الرسمالية وتحكمت في كل أجهزة الدولة السياسية والاجتماعية والاقتصادية . كذلك تبدو هذه الظاهرة نفسها في قوميات الكتلة الشرقية عند الدول الشيوعية حيث يتمتع بهذا النفوذ الجبار قلة ضئيلة جداً على حساب الكثرة الهائلة من أبناء الشعب .

جـ - أهدافها :

والآن نتساءل ما هي الأهداف التي تجاهد القومية العربية في سبيل تحقيقها ؟

لقد لخص السيد الرئيس جمال عبد الناصر الإجابة على هذا السؤال في الباب الثاني من الميثاق فقال : « إن عهوداً طويلة من العذاب والأمل بلورت في نهاية المطاف أهداف النضال العربي ظاهرة واضحة صادقة في تعبيرها عن الضمير الوطني للأمة وهي : الحرية والاشتراكية والوحدة » .

---

(١) أحمد خاكي : فلسفة القومية . سلسلة كتب اخترنا لك رقم ٥٥ ، ص ١٨٨ .

ومعنى هذا أن القومية العربية تهدف إلى تحقيق الثورة السياسية والاجتماعية وإرساء قواعد المجتمع العربي المتحرر من النفوذ الأجنبي بكافة صوره وأشكاله ومصادره والعمل على تخليص هذا المجتمع من الطغيان الداخلي وذلك بالقضاء على الإقطاع والرجعية والانتهازية وسيطرة رأس المال على الحكم أو بعبارة أخرى إعادة بناء الوطن العربي في الداخل على نحو يعوض عليه ما فاته ، ويجعل الأمة العربية تلحق بركب الحضارة والمدنية في هذا القرن العشرين ، وبطريقة تكفل الطمأنينة والرخاء لأبنـــاء هذه الأمة . وبذلك تتحقق أيضاً الثورة الاجتماعية إلى جانب الثورة السياسية .

كذلك تعمل هذه القومية جاهدة على تحطيم الحواجز المصطنعة التي خلقها الاستعمار بين أجزاء الأمة العربية وإعادة وحدة الوطن العربي الكبير الممتد من الخليج الى المحيط ذلك لأن الكيان القومي يحتاج إلى أيد وقوة ، وليس من شيء يعزز هذا الكيان ويوطد أركانه ويعلي بنيانه كالوحدة تجمع بين شعوب كانوا في مطلع حياتهم أمة واحدة فمزقتهم المطامع الخارجية الاستعمارية والمنافع الشخصية الداخلية . وإذا كان العرب ينادون اليوم بالوحدة فما ذلك إلا لأنها الحقيقة التاريخية والأمل المنشود ، قضى في سبيلها من قضى وصلب من صلب واستشهد من استشهد ، وعيناه شاخصتان إليها مطمئن قلبه إلى أنهـــا آتية لا ريب فيها .

ونحن نستطيع بعد هذا الإجمال أن نفصل الكلام على الأهداف التي ترمي القومية العربية إلى تحقيقها وذلك فيما يلي :

١ ــ الحرية :

الحرية هي أثمن شيء في الوجود بالنسبة للأفراد والأمم ، فلا غرو أن يحرص عليها الناس حرصهم على الحياة . ولقد عرفت الأمة العربية قيمة الحرية حينما كانت مغلوبة على أمرها يسيطر عليها المستعمرون ويسومونها سوم الأنعام

فلقد دافعت عن حريتها بالمهج والأرواح .

ولما كنا نحن العرب قد ابتلينا بالاستعمار من شتى الأجناس ، وحلت بنـا شروره وآثامه على مر العصور ، انطبع في أذهاننا دائمـاً هذان الطرفان المتقابلان .

الطرف الأول: يتمثل في الاستعمار باعتباره أحط أنواع الجرائم التي ترتكب في حق الإنسان .

والطرف الثاني : يتمثل في الحرية باعتبارهـا أقدس الحقوق التي تسمو بالإنسان من هوة العبودية إلى قمة السيادة ، ومن ذل الأسر إلى نعمة الانطلاق .

ولقد ظل الذود عن هذه الحرية أمانة مقدسة في أعناق الوطنيين الأحرار من العرب يتبادلونها جيلاً بعد جيل إلى أن قامت في مصر ثورة يوليه عام ١٩٥٢ فكانت تتويجاً للحركة الوطنية بأسرها طوال المائة عام الماضية ، وبقيام هذه الثورة وجدت الحركة الوطنية العربية قيـادة واعية رفعت شعار الحرية وخاضت معركة التحرير حتى تمكنت من تحرير أجزاء كثيرة من الوطن العربي وتخليصها تخليصاً كاملاً من براثن الاستعمار .

وفي الحقيقة لم تستسلم الأمة العربية أبداً للاستعمار ، وإنما دافعت عن حريتها وكرامتها بكل ما في طاقاتها . وجدير بنا هنا أن نتذكر أبطالنا العرب الذين ظلوا يكافحون الاستعمار وهو في أوج بطشه غير هيابين ولا وجلين فتعرضوا لأقسى أنواع التعـذيب والتشريد وصبت على رؤوسهم البلايا والمحن ومع ذلك لم يتخلوا عن هدفهم إلى أن قضوا نحبهم ، وسقطوا صرعى على مر الأجيال .

وسنظل كذلك نذكر بكل إعزاز وفخار وتكريم جهاد شباب الجامعـة أولئك الذين سمت نفوسهم ، وعرفوا أن الموت مع العزة والكرامـة خير من الحياة مع الذل والعبودية . وما ذلك إلا لأنهم آمنوا بأن الخلود ليس في ستين عاماً أو سبعين يقضيها الأحياء مصفدين في أغلال المهانة والذل ، وإنمـا الخلود

في تقديس الكرامة البشرية والسمو بها إلى الاستقلال والحرية فإن عجزوا عن إحرازها في الأرض ففي جنة الشهداء المستبسلين متسع المجاهدين . ولا شك أن هؤلاء كانوا الرواد الأول لمعركة التحرير الكبرى التي تمت على يـــد رجال ثورتنا الأبطال .

ومهما يكن من أمر فإن معركة التحرير كانت ولا تزال معركة القوميـــة العربية الأولى إذ أنه لا حياة للشعوب العربية إذا لم تظفر بحريتها . ولقد صدق الرئيس جمال عبد الناصر حين قال : « إن القومية العربية هي أن يتحرر الوطن العربي » . ولقد عانت الأمة العربية من الاستعمار والاستغلال والحكم الأجنبي الشيء الكثير . ولكنها لم تكف يوماً عن النهوض والقيام بالثورات في سبيـل استرداد حريتها ونيل استقلالها . وإذا كانت هناك شعوب عربية قـد توجت جهادها بنيل حريتها فإن بعضها الآخر ما زال يكافح في سبيل تحقيق هـــذه الغاية النبيلة .

وهنا يجب أن نعترف في صراحة بأن قيادة ثورة يوليه عام ١٩٥٢ تختلف اختلافاً جذرياً عن كافة قيادات الثورات الأخرى طوال تاريخ الحركة الوطنية العربية ، إذ أنها لم ترفع الشعارات الوطنية لتحقيق الاستقلال والتحرر ثم تساوم عليها لقاء عرض زائل هو التشبث بكرسي الحكم ، وإنما ناضلت بصلابة من أجل الاستقلال وتحقيق العدالة الاجتماعية

والثورة تدرك أنها لا تقيم هذا المجتمع لصالح أبناء وطنها فحسب بـــل للعرب من أجل العرب جميعاً . وبدافع هذا الهدف النبيـــل ، وبوحي من هذه النية الطيبة وقفت مصر ببسالة وصلابـــة تؤازر حركة الاستقلال العربية في كل مكان .

وإن تاريخ الكفاح العربي لأصدق شاهد على هذه الحقيقة ، فبعد أن تحررت مصر من الاستعمار البريطاني ، وحصلت على استقلال حقيقي ، شرعت على الفور تساهم في تحرير بقية أجزاء العالم العربي ، فقامت بالفعل بدور رئيسي في تخليص

السودان من الاستعمار واعترفت باستقلاله في يناير سنة ١٩٥٦ .

وكذلك وقفت مصر بالمرصاد للأحلاف العسكرية التي خلقتها القوى الأجنبية في المنطقة فشنت حرباً شعواء على حلف بغداد ، ولم تدخر وسعاً في سبيل القضاء عليه إلى أن كللت جهودها بالنجاح بقيام ثورة العراق في يوليو عام ١٩٥٨ .

كما آمنت بحق الشعب الجزائري المكافح في سبيل الحرية وتقرير المصير ولهذا وقفت مع الثورة الجزائرية تؤيدها قلباً وقالباً ، وتساندها معنوياً ومادياً [١] حتى أجبرت فرنسا على التسليم باستقلال الجزائر وظفرها بحريتها ولكننا في الوقت نفسه يجب أن نعترف بجهاد الشعب الجزائري الذي ضحى في سبيل كسب معركة الحرية بنحو مليون شهيد من خيرة أبنائه . وإذن فهو جهاد جدير بالإكبار والاحترام .

وعندما هب الشعب اليمني بثورته مطالباً بحريته ، سارعت مصر إلى شد أزره وتعاونت معه على دك حصون الرجعية المتعاونة مع الاستعمار . وبذلك حمت هذه الثورة إلى أن حققت أغراضها . ولا ننسى أيضاً أن مصر قد عملت بكل ما فى وسعها على تحرير إمارات الخليج والجنوب العربي وتخليصها من قيود الاستعمار .

ولم تقف سياسة القومية العربية عند مساندة الدول العربية فحسب ، بل تعدت إلى دائرة أوسع فآمنت بحق الشعوب كافة في الحرية والاستقلال ، فكما أنها تشجع الحركات الاستقلالية داخل العالم العربي صارت تشجع هذه الحركات في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية . وبهذه النظرة البعيدة الصائبة أخذت بمبدأ التضامن الافريقي الآسيوي ، وحضرت الدول العربية مؤتمر باندونج في إبريل عام ١٩٥٥ ذلك المؤتمر الذي يعتبر بحق نقطة تحول هام في تاريخ هاتين

---

(١) دراسات في المجتمع العربي ، تأليف مجموعة من أساتذة كليتي الآداب والاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ، ص ٢٩٣ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٢ .

القارتين . إذ كان الذروة التي وصلت إليها القومية الجديدة . فقـــد اعترف بالآسيويين والأفريقيين بعد ذلك ككتلة ثالثة بين الشرق والغرب . ودعي إلى هذا المؤتمر ثلاثون دولة بينها الدول الخمس الداعية وهي بورما وسيلان والهند وإندونيسيا وباكستان . وأيـــد المؤتمر حقوق الإنسان وحق تقرير المصير واستنكر السياسات والمعاملات الخاصة بالتفرقـة والتمييز العنصري ، وناقش مشاكل الشعوب التي خضعت للاستعباد والسيطرة والاستغلال الأجنبي ، وأيد موقف العرب في شمال إفريقيا وفلسطين ، وموقف إندونيسيا في إيريان الغربية ودعا إلى السلام والتعاون الدولي. كما قرر أسساً للتعاون الاقتصادي والثقافي[١]. ومنذ ذلك الوقت صار التضامن الأفريقي الآسيوي يمثل ركناً أساسياً من سياسة القومية العربية في البلاد العربية المتحررة .

وهكذا آتت جذور الحرية ثمارها في مؤتمر باندونج عندما اجتمعت شعوب عديدة من آسيا الصفراء وإفريقيا المغلوبة ، وانضمت الأيدي وتساندت السواعد فلم تعد آسيا صفراء ، ولم تعد إفريقيا مغلوبة ، وإنما أصبحت شعوباً تردد نداء واحداً ينبعث من إيمان واحد ، يهز كيان المستعمرين ، ويقلق مضاجع الطامعين. وبهذا أصبح مؤتمر باندونج نقطة تحول خطيرة في تاريخ البشرية ، لأنه كان نقطة التقاء بين شعوب ليس منها المستعمر ولا الغاصب ، وإنمـــا كلهـا تدعو للحرية للمساواة ، لاحترام الحقوق ، لتقديس إرادة الشعوب . وأصبحت هذه الشعوب قوة تقف على قدم المساواة أمام القوى التي كانت تنفرد وحدها بتوجيه مصائر البشرية .

كما أصبحت هذه القوة هي الحائل بين المستعمرين وأطماعهم ، وبين الغاصبين وإرادتهم[٢] .

---

(١) أحمد خاكي : فلسفة القومية ، سلسلة اخترنا لك رقم ٥٥ ، ص ٢٠١ .

(٢) انظر ر. ك . كرانجيا : الفجر الجديد ، تعريب عمر أبو النصر ، الطبعة الثالثة . ص ١٢ - ١٣ من مقدمة الرئيس جمال عبد الناصر لهذا الكتاب .

ونحن لا نعدو الحقيقة إذا قلنا ان كل عربي في كل مكان لا يترك فرصة إلا أعرب فيها عن شعور الأخوة والعطف على إخوانه العرب المجاهدين في الأقطار العربية المختلفة . إنها قضية واحدة ، قضية القومية العربية في كفاحها ضد الاستعمار . ولقد صدق الرئيس عبد الناصر في خطابه الذي ألقاه عندما تعرض القطر الشقيق تونس للعدوان الفرنسي إذ يقول : « تحقيق الأماني القومية يدعونا جميعاً أن نتكاتف مع تونس التي تجابه العدوان الفرنسي . أي قطرة دم تراق في تونس هي قطرة من دمائنا . إننا نؤيد تونس تأييداً كاملاً في معركتها مع أجل الحرية ، لأن معركة العرب معركة واحدة في كل بلد عربي » .

وصفوة القول أن الأمم العربية بمثابة الأعضاء في جسم الوطن العربي الكبير إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . وما دام هناك استعمار في أي جزء من أجزاء هذا الوطن فلن يهدأ للعرب بال ، ولن يكونوا مطمئنين على أنفسهم إلا إذا حرروا تلك الأجزاء . ولا شك أن هذا أسمى مظهر من مظاهر القومية التي أثبتت الحقيقة وجودها في أكثر من مناسبة فعندما تعرضت مصر للعدوان الثلاثي الغادر عام ١٩٥٦ هبت الأمم العربية في جميع أنحاء العالم تقدم لها العون المادي والأدبي . وإذن لم يكن الاعتداء على بور سعيد فقط . ولكن كان كل فرد عربي في كل مكان يشعر بأن العدوان يوجه إلى نفسه ويوجه إلى بلده ، ويوجه إلى روحه ، ويوجه إلى قلبه ، ولهذا قامت الأمة العربية كلها لتدافع عن بور سعيد .

أما عن حرية المواطن فهي لا تقل أهمية عن حرية الوطن ، بل أن المواطن إذا لم يشعر بأنه حر في بلده لا يستطيع مطلقاً أن يدافع عن الحرية ضد أعداء بلده .

ولقد أحسن الميثاق حينما فصل الحرية عن حرية المواطن في المجالات

المختلفة وانتهى إلى هذه النتيجة الجديرة بالملاحظة والانتباه وهي التي تتلخص في هذه العبارة « إن للحرية جناحين لا تستطيع بدونهما أن تحلق إلى الآفاق العالية التي تتطلع إليها جماهير الشعب وهما الاشتراكية والديمقراطية . إذ لا يمكن أن تتحقق الحرية للمواطن إلا إذا خلص من كل قيود الظلم والاستغلال عن طريق الأخذ بمبدأ الاشتراكية وخلص في المجال السياسي من كل دواعي التضييق والتضليل » .

١ - الاشتراكية [١]

تهدف القومية العربية إلى إعادة البناء الداخلي للأمة العربية ، ومحو كل أثر من آثار الاستعمار . كما أنها تهدف إلى بناء اقتصاد البلاد بناء سليما يتحقق فيه إنتاج زراعي وصناعي متوازن سليم ؛ ويستهدف مصلحة الشعب بجميع طبقاته ، والقضاء على الاستغلال أياً كان مصدره أو بعبارة أخرى بناء مجتمع سليم جديد متحرر من طغيان الإقطاع ودكتاتورية رأس المال . ولا شك أن خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف هو الأخذ بمبدأ النظام الاشتراكي .

غير أنه كان من المتعذر تماماً محاولة تطبيق الاشتراكية في بلادنا في الفترة السابقة على ثورة يوليو ١٩٥٢ عندما كنا نعيش في ظل أوضاع ملكية إقطاعية مستبدة وطبقات احتكارية وإقطاعية مستغلة ، وفي ظل جيوش احتلال أعتى إمبراطورية يهمها أن تسرع إلى مساندة كل هذه الأوضاع الفاسدة والعمل من حمايتها .

كان لا بد إذن من ثورة ذات منهج متقدم ، وذات خطة سياسية واجتماعية

---

(١) انظر كتاب الاشتراكية العربية ، تأليف الدكتور أمين عبدالله والدكتور صلاح الدين نامق والدكتور عبد الحميد لطفي ، القاهرة ١٩٦٥ ،

فكانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التي أخذت على عاتقها إزالة كافة العقبات الواحدة تلو الأخرى ، وتمهيد السبل لإقامة الاشتراكية ، وذلك في سبيل تكوين مجتمع تسوده العدالة الاجتماعية ، وترفرف عليه الرفاهية .

والواقع أن أسلوب العمل الثوري الذي تبناه الميثاق كان يتجه إلى الطريق الاشتراكي باعتباره ضرورة تاريخية في عالمنا المعاصر . يقول الميثاق في الباب السادس : « إن الحل الاشتراكي لمشكلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي في مصر وصولاً ثورياً إلى التقدم، لم يكن افتراضاً قائماً على الاكتفاء الاختياري وإنما كان الحل الاشتراكي حتمية تاريخية فرضها الواقع وفرضتها الآمال العريضة للجماهير كما فرضتها الطبيعة المتغيرة للعالم في النصف الثاني من القرن العشرين » .

والاشتراكية بدعامتيها من الكفاية والعدل هي طريق الحرية الاجتماعية . والحرية الاجتماعية هي القاعدة التي تقوم عليها الديمقراطية أو الحرية السياسية . والحرية الاجتماعية لا يمكن أن تتحقق إلا بفرص متكافئة أمام كل مواطن في نصيب عادل من الثوره القومية ، ولا يقتصر ذلك على إعادة توزيع الثروة توزيعاً عادلاً ، بل يجب أن يمتد إلى توسيع قاعدة الثروة القومية بحيث يتحقق مبدأ الكفاية للجماهير فإن عدالة التوزيع يجب أن تقوم على قاعدة الرخاء العام .

ولما قامت الثورة في مصر عام ١٩٥٢ وجدت أن الحضاره الغربية تتصارع في مذهبين : مذهب رأسمالي لا يعيش إلا في كنف الاستغلال والاستعمار ، ولا يقوى إلا على حسابهما ، ومذهب شيوعي يقاوم كيان الفرد ويعتبر الدين مثبتاً لهمته وحائلاً بينه وبين الذوبان في الدولة ومخدراً لعقله .

وكذلك وجدت الثورة أن الرأسمالية المحلية أصبحت عاجزة تماماً العجز

عن أن تقيم عن طريق نموها مجتمعاً متقدماً ونامياً من الناحية الاقتصادية هـذا فضلاً عن محاولتها السيطرة على الحكم عن طريق إفساد الضمائر وتخريب الذمم . وهذه الحقيقة أكدها الميثاق فقال : « إن صنع التقدم بالطريق الرأسمالي حتى إذا تصورنا إمكان حدوثه في مثل الظروف العالمية الآن ، لا يمكن من الناحية السياسية إلا أن يؤكد الحكم للطبقة المالكة للمصالح والمحتكرة لها ».

ومن هنا كانت الاشتراكية ضرورة إنسانية لأنها هي التي تهيىء الفرص للجميع وتحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية ، إذ أنها تعمل على تجميع المدخرات الوطنية واستخدام خبرات العلم الحديثة في سبيل استثمارها ووضع تخطيط شامل لكل نواحي الإنتاج وفضلاً عن هذا فالإشتراكية ضرورية فنية للوصول ببلادنا إلى مجتمع صناعي متقدم أو كما يقول الميثاق : « حتمية تاريخية فرضها الواقع فلم يعد رأس المال في تطويره الطبيعي في البلاد التي أرغمت على التخلف قادراً على أن يقود الانطلاق الاقتصادي في زمن تمت فيه الاحتكارات الرأسمالية الكبرى في البلدان المتقدمة اعتماداً على استغلال موارد الثروة في المستعمرات ولم يعد للرأسمالية المحلية أمل في النمو إلا أن تربط نفسها بحركة الاحتكارات العالمية وتقتفي أثرها وتتحول إلى ذيل لها » .

ولم تكن المسألة مسألة إنزال عقاب بنفر منحرف من الرأسماليين عندما انطلقت قوانين يوليو عام ١٩٦١ والقوانين المكملة لها في ١٢ أغسطس عام ١٩٦٣ تؤمم ٨٠ ٪ من الصناعات وتجارة المال وإنما هي مسألة إعادة تنظيم تقدمية لقضية الإنتاج ووسائلها واستخدامها من خلال القطاع العام المملوك ملكية اجتماعية عامة عن طريق الدولة لتغطية احتياجات الشعب النامية لا لتوفير الربح الجنوني للرأسمالية المحلية . يقول الميثاق : « إن قوانين يوليو سنة ١٩٦١ بالعمل الاشتراكي العظيم الذي حققته تعد بمثابة أكبر انتصار توصلت إليه قوة الدفع الثوري في المجال الاقتصادي » . والواقع أن قوانين يوليو المجيدة كانت

ترمي إلى أن يمتلك الشعب صراحة وبشكل مباشر أدوات الإنتاج أو بعبارة أخرى يسيطر على كل الأدوات والموارد التي تساعد على إنتاج كل ما يحتاجه الإنسان في المجتمع من أرض ومصانع وبنوك ومؤسسات تأمينية وتجارية ، وأن يديرها بالتبعية بالأسلوب الذي يحقق مصالحه . والهدف من وراء هذا أن تجني الفئات الشعبية ثمار كفاحها السياسي والاقتصادي الطويل بأن تقيم مجتمعاً اشتراكياً يحقق لها الاستقرار والأمن والرخاء .

وإذا كان التأميم كما يقول الميثاق « هو انتقال أداة من أدوات الإنتاج من مجال الملكية الخاصة إلى مجال الملكية العامة » وأنه ليس كما تنادي بعض العناصر الانتهازية عقوبة تحل برأس المال الخاص حين ينحرف . فعلى هذا تكون قوانين التأميم التي صدرت في أغسطس عام ١٩٦٣ مثل ما سبقها وسيلة وأداة لغايات اجتماعية تقدمية يجملها الميثاق بقوله : « إن الاشتراكية العلمية هي الصيغة الملائمة لإيجاد المنهج الصحيح للتقدم ، وأن أي منهاج آخر لا يستطيع بالقطع أن يحقق التقدم المنشود » .

واشتراكيتنا العربية ليست مستوردة من الخارج ، ولكنها أصيلة متلائمة مع بيئتنا وظروفنا مستمدة من حاجتنا وروحنا وتاريخنا الإنساني . وهي تثبت أن هناك سبيلا آخر غير الرأسمالية وغير الشيوعية ، وأنه إذا كانت الرأسمالية لا تصلح لمجتمعنا فإن الشيوعية ليست البديل الأوحد لها ، لأننا إذا كنا نرفض التبعية السياسية ونحاربها في شتى صورها ، فإننا نرفض التبعية المذهبية لأنها في نظرنا أدهى وأمرّ .

وإذن فاشتراكيتنا تعمل على تغيير المجتمع لتجعله قائماً على المساواة الحقيقية والعدالة الاجتماعية بالقضاء على الظلم الاجتماعي الذي هو ضد الأديان كلها وضد الإنسانية ، وهي تنبه أذهان الناس إلى حقوقهم وتقضي على الفوارق بين الطبقات .

ومن هنا كانت الاشتراكية العربية تختلف عن الرأسمالية التي تستند إلى الفردية المطلقة وتحافظ على الملكية الفردية ، ولا تستهدف إلغاءها . وإذا كانت تحاول تحسين حال العمال وغيرهم من الطبقات الفقيرة عن طريق بعض الإصلاحات فإن هذه الإصلاحات تكون في برامج الأحزاب الغربية مرتبطة ببقاء الاستعمار واستغلال الشعوب الأخرى والاستيلاء على ثرواتها . هذا على حين أن الوضع في اشتراكيتنا إنما يهدف إلى تحسين حال العمال والطبقات الفقيرة اعتماداً على مواردنا القومية دون استغلال ولا سيطرة . ومن هنا التقت اشتراكيتنا مع سياستنا التحررية في مقاومة الاستعمار

كذلك تختلف اشتراكيتنا عن الشيوعية ، إذ أنها تعمل على تذويب الفوارق بين الطبقات بالوسائل السلمية ، وبدون الالتجاء إلى العنف والتخريب بعيداً عن التشفي والانتقام وغير ذلك من الوسائل التي تتعارض مع ما لنا من خصائص دينية وأخلاقية وتاريخية ، ذلك لأن رائدنا في حل الصراع الطبقي هو السلام . كما أن السلام هو غايتنا في سياستنا الخارجية . والاقناع العلمي عندنا خير وأبقى ، والفرد له كيانه وشخصيته وحقوقه وواجباته وحرياته ومواهبه ، ولا تتدخل الدولة في هذا كله إلا عند اللحظة التي يبدأ فيها استغلال حرياته وحقوقه استغلالاً ضاراً بالمجموع . ولا كذلك الحال في الشيوعية التي تقضي قضاءاً مبرماً على الكيان الخاص بالفرد وتحويل الملاك إلى أجراء يعملون لدى الدولة . وهي في سبيل تطبيق هذا المبدأ تتخذ أشد وسائل العنف والمصادرة .

والخلاصة أننا بتأميمات يوليو ١٩٦١ وأغسطس ١٩٦٣ قد أقمنا القطاع العام كأداة وكقوة إنتاجية عامة تحت سيطرة القوى الشعبية موجهة للنشاط الاقتصادي في المجتمع كله . وهذا من شأنه أن يطور العلاقات الاجتماعية

الاستغلالية والاستبدادية في أبشع صورها إلى علاقات اجتماعية جديدة بعيدة عن الاستغلال والاستبداد وأن يحول مجتمعنا الذي كان يقوم على فئة قليلة من السادة وكثرة هائلة من العبيد إلى مجتمع كله من الأحرار العاملين المنتجين المتمتعين بالعزة والكرامة والطمأنينة والرخاء . ولا شك أن هذا الهدف من أسمى الأهداف التي ترمي القومية العربية إلى تحقيقها لا في مصر وحدها في جميع أنحاء الوطن العربي .

٣ - الوحدة :

تمثل الوحده العربية أملا من أعز الآمال ، وهدفاً من أسمى الأهداف التي طالما تلهف العرب إليها وعملوا على تحقيقها . وقد أصبحت الوحدة العربية في هذه الأيام ضرورة ملحة حتى ان كل عربي يدرك اليوم تمام الإدراك أنه لن يكون هناك للعرب كيان قوي إلا بقيام الوحدة الحقيقية لا الوحدة الصورية . وسيظل العرب يعانون مما يعانون الآن من فرقة وتعرض للأخطار الممثلة في الاستعمار وعميلته إسرائيل ما لم تتم الوحدة العربية الشاملة ليصبح للعرب دولة واحدة متميزة لها سيادتها وكرامتها .

وإن قيام الوحدة بين الدول العربية ليس أمراً طبيعياً فحسب بعد أن توفرت كل مقومات الوحدة وأركانها ، بل هو ضرورة أيضاً من الوجهة السياسية والعسكرية والاقتصادية ، لأن العصر الذي نعيش فيه يجب أن يقوم على التعاون والتقرب والتفاهم والاتحاد . ومن الغريب حقاً أن نرى اتحادات تقوم في أوربا الشرقية والغربية وغيرها بين دول متنافرة في لغاتها وتاريخها وتقاليدها بينما لا تتحد الدول العربية في دولة واحدة . هذا على حين أن الروابط المادية والروحية التي تربط بين أجزاء الوطن العربي لهي أقوى وأمتن من الروابط التي تجمع بين تكتلات وتشكيلات أخرى كتلك التي تجمع بين دول أمريكا الشمالية

والجنوبية ، أو بين دول حلف الأطلنطي أو حلف جنوب شرق آسيا أو دول الكومنولث وما إلى ذلك .

وقد تنبه القدماء إلى هذا التشابه والترابط بين أجزاء الوطن العربي، فها هو الجاحظ أديب العربية الكبير يقول : « فأما الخواص فإنهم قالوا : العرب كلهم شيء واحد لأن الدار والجزيرة واحدة ، والأخلاق والشيم واحدة ، وبينهم التصاهر والتشابك والاتفاق في الأخلاق والأعراق ، وبينهم الخئولة المرددة والعمومة المشتبكة ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة ، وطابع الهواء والماء فهم في ذلك شيء واحد في الطبيعة واللغة والهمة والشمائل ، وفي الرأي والراية والصناعة والشهوة » .

« فإذا بعث الله نبياً للعرب – نقول: أو زعيماً – فقد بعثه إلى جميع العرب كلهم قومه ، وهم جميعاً يد على العجم ، وعلى كل من حاربهم من الأمم » .
فبعد هذا القول الصريح أي عربي صدقت وطنيته وصح تفكيره يرضى لنفسه أن ينكمش في وكره متخلياً عما في الأقطار الأخرى من كرائم ومقومات خارجاً عن حقه في ملك هو ملكه، وعن إرث هو إرثه ، خلفه له آباؤه الأولون في كل قطر من أقطارهم ؟

إن البلاد العربية كلها كانت وطناً واحداً لرجالات العربية في العلم والأدب والكفاح الوطني، حتى بعد ما أصيبت أوطانهم بما أصيبت به من تجزئة وانفصال قضت بها المنافع والمآرب الشخصية – كانوا ينتقلون من جانب إلى جانب ومن دولة إلى دولة ، وهم يرون في كل وطن نزلوه من المشرق أو المغرب وطنهم يتقلدون مناصبه ، ويتمتعون بخيراته .

فنحن إذن لا نعدو الصواب إذا قلنا ان القومية العربية تهدف أول ما تهدف إلى تحقيق الوحدة العربية الشاملة التي تجمع أبناء الأمة الواحدة في الوطن العربي من الخليج إلى المحيط ، يقول الميثاق : « وأصبح طريق الوحدة هو الدعوة

الجماهيرية لعودة الأمر الطبيعي لأمة واحدة ، مزقها أعداؤها ضد إرادتها وضد مصالحها والعمل السلمي من أجل تقريب يوم هذه الوحدة، ثم الإجماع على قبولها تتويجاً للدعوة والعمل معاً » .

ولكن الوحدة التي نعنيها ليست مجرد رابطة عادية ، ولا مجرد شكل سياسي أو دستوري ، وإنما هي سبيل إلى حياة كاملة تلتقي فيها الجوانب السياسية بالجوانب العسكرية والثقافية والاقتصادية .

والوحدة العربية لا تعني مجرد انضمام بعض الدول العربية بعضها إلى بعض دون تمهيد أو إعداد ، لأن هذا الشكل قد يكون مجرد خدعة من خدع الاستعمار والرجعية لتضليل الرأي العام في الوطن العربي ، فسابقاً دعا نوري السعيد إلى نوع من الوحدة العربية في مشروع يسمى الهلال الخصيب يضم كلا من العراق وسوريا والأردن . وقد كانت بريطانيا تؤازره في هذه الدعوة لأن معنى هذا هو انفصال هذا الجزء من الوطن العربي عن بقية الأجزاء ، ويصبح الهلال الخصيب قاعدة الاستعمار والرجعية في الوطن العربي أو مثل الاتحاد الهاشمي الذي قام بين المملكة العراقية والمملكة الهاشمية الاردنية كرد فعل لقيام الجمهورية العربية المتحدة بوحدة مصر وسوريا عام ١٩٥٨ وهناك فرق كبير بين اتحاد يخدم الاستعمار ويسعى إلى السير في فلكه وبين وحدة ظلت قاعدة للتحرر والبناء و كرامة الوطن .

وهكذا كان من ثمرة هذا الاتجاه السليم تحقيق الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ولكنها مع الأسف جاءت ثمرة فجة ، ذلك لأن هناك حقيقة ينبغي أن نعلمها وهي أن نجاح الوحدة الشاملة بين أجزاء الوطن العربي إنما يتوقف على ضرورة القضاء أولاً على أعداء هذه الوحدة بين العناصر الرجعية وأعوان الاستعمار . ونحن نعلم كيف كانت هذه العناصر سبباً في تعريض سوريا لنكسة الانفصال عن مصر في ١٨ سبتمبر ١٩٦١ .

نستخلص من هذا أن طريق الوحدة يحتاج إلى تمهيد طويـــل وتطوير في الأوضاع الداخلية السياسية والاقتصادية والاجتماعية بكل بلد عربي ، وأن الوحدة إرادة شعبية يجب أن تتم بطريق الاختيار الحر لكل شعب من شعوب الأمة العربية وعلى شرط أن يكون هذا الشعب قد استكمل مقومـات وحدته الوطنية داخـــل حدوده القائمة قبل أن يدخل في ارتباط أوسع مدى من هذه الحدود يعني أن يكون قد تخلص تخلصـاً تاماً من الاستعمار وأعوان الاستعمار .

ولكن الأمر الذي لا شك فيه أننا نحن العرب سوف نتحد، ولن تقوى قوة استعمارية ولا قوة رجعية أن تقف في سبيلنا ، وتحول دون وحدتنا . وها هي بوادر النصر قد ظهرت، فالاستعمار قد تلقى ويتلقى منا اللطمات تلو اللطمات. وهو الآن في طريقه إلى الانقراض ، والرجعية نحن لها بالمرصاد ، ولن يهدأ بال الشعوب إلا إذا طهّرت صفوفها من هذه الأدران .

إن الوحدة العربية هي حقنا ومطلبنا وغاية أمرنا في هذه الحياة ، ولا بقاء في عصرنا هذا لمن يتحدى هذه الرغبة لأنها رغبة الشعوب وأمل الشعوب .

إلى جانب هذه الأهداف الرئيسية هنـــاك أهداف أخرى ترمي القومية العربية إلى تحقيقها ، وهذه الأهداف استمدتها القومية العربية من طبيعة العصر الذي نعيش فيه ، ومن الأوضاع الدوليـة الحاضرة ، ومن تجاربنا المريرة مع الاستعمار .

من هذه الأهداف :

السلام القائم على العدل :

إذا كانت القومية العربية تنادي بالحرية والاستقلال لجميـع الشعوب ، فإنها ترمي من وراء ذلك إلى إقرار السلام الحقيقي الدائم في ظل من التعـايش السلمي

بين الشعوب التي تريد أن تنعم بالراحة والاستقرار تتبادل المنافع فيما بينها وتعمل على رفع مستوى شعوبها وتحقيق الخير العام لبنيها .

والقومية العربية بحكم طبيعتها قومية غير عدوانية ، تدعو إلى السلام، وتعمل على مناهضة الحروب وتجنيب العالم ويلاتها . وقد برزت هذه السياسة على الخصوص بعد الحرب العالمية الثانية وانقسام الحلفاء إلى كتلتين متضادتين تتسابقان في صنع الأسلحة النووية والصواريخ الموجهة ، وكلا الكتلتين تهدد الأخرى باستعمال هذه الأسلحة وإنزال الخراب والدمار بها. ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أخذت الكتلتان تتنافسان في نطاق الأمم المتحدة ، وتضاربت وجهات النظر حول كل مشكلة ، وصارت كل من الكتلتين تعمل على جذب بقية الدول إلى صفها نحو طريق الأحلاف والتكتلات العسكرية مما أدى إلى توتر الجو العالمي فازدادت بذلك النار اشتعالاً .

ومن هنا نشأت فكرة الحياد الايجابي وعدم الانحياز [١]، وهو ليس حياداً سلبياً يعزلنا عن العالم فنقف منه موقف المتفرج ، لأن عدم الانحياز ليس معناه السلبية ، بل هو نظرة إيجابية إلى المشاكل العالمية دون التزام بموقف كتلة من الكتل المتصارعة على السيادة والنفوذ ، والعمل على خدمة السلام والحيلولة دون كارثة الحرب . وهكذا تبلورت آمالنا في الشعارات التي نادى بها زعماؤنا وهي التعايش السلمي والحياد الإيجابي وعدم الانحياز ، تلك المبادىء التي ارتبط بها العرب وغيرهم من شعوب آسيا وأفريقيا وأوربا في مؤتمرات باندونج وبريوني والقاهرة .

ولكن إذا كانت القومية العربية تدين بمبدأ السلام والاستقرار فليس معنى

---

(١) انظر محمد منير العصره : سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز ، سلسلة كتب قومية الكتاب ١٢٨ ، القاهرة ١٩٦١ والسيد حجاج : عدم الانحياز ، سلسلة كتب قومية الكتاب ١٩٠ .

هذا أن تستسلم وتقف مكتوفة اليدين إزاء ظلم أو طغيان حل بشعب عربي . والقومية العربية ترى أن الاستعمار هو الذي أقام إسرائيل في المنطقة العربية وأخرج عرب فلسطين من ديارهم بغير وجه حق. ثم اتخذ الاستعمار من إسرائيل مطية له ، وجعلها بمثابة نقطة ارتكاز في قلب الوطن العربي ليحول دون تحرره ويعوق تقدمه وانطلاقه . وما حادث الاعتداء الثلاثي ودور الاستعمار في تسخير اليهود إلا دليلا واقعياً يبين حقيقة اسرائيل والصهيونيين .

فلا غرو إذن أن تؤمن القومية العربية إيماناً تاماً بضرورة تصحيح هذا الوضع واسترداد أراضي فلسطين وتسليمها لأصحابها والقضاء على أطماع الصهيونية المتحالفة مع الاستعمار .



الفصل الثاني

القومية العربية

التحديات التي تواجهها

والآن وبعد أن درسنا القومية العربية : مفهومها ، منشؤها ، مركزها بين القوميات الأخرى ، المقومات التي تقوم عليها ،أهدافها – نستطيع أن نستخلص نتيجة هامة هي أن التمسك بهذه القومية والعمل على تحقيق أهدافها كفيل بأن يحقق للعرب النصر في جميع الميادين ، وبأن يظهرهم في المحيط الدولي كقوة لها شأنها ومكانتها .

ولكن ليس ثمة شك في أن قوى شريرة تتربص بالقومية العربية ، وتحول دون انطلاقها الكامل لأنها ترى في هذه القومية خطراً عليها يكشف زيفها ويظهر باطلها .

هذه القوى الشريرة تتلخص فيما يلي :

(أ) الصهيونية .

(ب) الاستعمار .

(جـ) الرجعية .

ونحن نبدأ بالحديث عن الصهيونية لأنها أخطر وأسوأ ما ابتليت به الأمة العربية على يد الاستعمار في العصر الحديث .

(أ) الصهيونية

يعتبر القرن التاسع عشر الذي شاهد ظهور الصهيونية مرحلة خطيرة في تاريخ القومية العربية ، ذلك أن معظم البلاد العربية كان خاضعاً في ذلك الوقت للأتراك العثمانيين الذين عاملوا العرب أسوأ معاملة ، وكانوا ينظرون إليهم نظرة السادة للعبيد وحكموا البلاد العربية حكماً استبدادياً قاسياً فاستغل الاستعماريون الأوربيون فرصة تذمر العرب من الأتراك ، وظهروا للعرب في ثوب الأصدقاء الذين يمكن الاعتماد عليهم ، هذا على حين أنهم يمهدون الطريق لأنفسهم للاستيلاء على تلك البلاد والقضاء في الوقت نفسه على الدولة العثمانية قضاء مبرماً [١] .

بدأت انجلترا بتنفيذ نواياها الغادرة باحتلالها لمصر عام ١٨٨٢ مستغلة ضعف مصر وخيانة الخديوي توفيق للمصريين .

ثم قامت الحرب العالمية الأولى ، فدخلت الجيوش العربية إلى جانب انجلترا في هذه الحرب ضد ألمانيا وتركيا ، بعد أن وعدت انجلترا العرب بالاعتراف باستقلال البلاد العربية وخلاصها من الحكم التركي .

وبينما انجلترا تتقدم نحو النصر في هذه الحرب وبفضل مؤازرة العرب لها وقعت أحداث التسلل الصهيوني إلى الشرق العربي تحت ستار الاستعمار الأوربي

---

(١) الدكتور ابراهيم أحمد العدوى: حركات التسلل ضد القومية العربية ، ص ٩٥ ، سلسلة كتب المكتبة الثقافية رقم ٥٠ ، القاهرة ١٩٦١ .

بصفة عامة والاستعمار الانجليزي بصفة خاصة، وسرعان ما تحالف الصهيونيون والانجليز على الغدر بالقومية العربية وطعنها من الخلف وقد اتخذ هذا الغدر عدة مراحل طابعها كلها الخسة والدناءة .

ولقد اتفقت أغراض الصهيونية مع أغراض الاستعمار، فرحبت بهذا التحالف لأن كلا منهما أشبه بعصابة من اللصوص لا هدف لها سوى اقتسام الأسلاب دون البحث عن المبادىء أو القيم التي لا وجود لها عند أصحاب النفوس الخبيثة الشريرة . هذا التحالف المشئوم أدى مع الأسف الشديد إلى انتزاع فلسطين من جسم الأمة العربية ، وتشريد سكانها العرب ولكن رب ضارة نافعة ، فلقد هزّ هـــذا الحادث العرب هزاً عنيفاً ، وأيقظهم من سباتهم وتأثرت القومية العربية تأثراً شديداً ، وبلغت ذروتها بسبب ظهور دولة إسرائيـل المزعومـة وضاعف ذلك من عنف العـــداء الوطني لحـو المستعمرين وأذناب المستعمرين فتحررت مصر بفضل ثورتها المباركة في يولية عام ١٩٥٢ وبقيام هذه الثورة صار قلب العروبة ينبض مرة أخرى ، ويجدد الدم والحياة في عروق الأمة العربيـة جمعاء من الخليج إلى المحيط .

وإذن فلمسألة فلسطين [١] أهمية كبرى في هذه الوثبة الجبـارة ، لذلك كان من حقها علينا أن نخصها بكلمة توضح كيفية التسلسل الصهيوني إلى هذه البقعة تحت ستار الاستعمار الأوروبي لنصب اللعنات على المستعمرين والصهيونيين ونقطع العهود والمواثيق ونصمم تصميماً قاطعاً على الخلاص من هؤلاء وهؤلاء .

والواقع أنني لم أجد في وصف اليهود خيراً من الكلمة التي صدر بها الزميل الأستاذ الدكتور محمد القصاص مقالته القيّمة بعنوان « الاسرائيليون وروح

---

(١) انظر : علي محمد علي : فلسطين بين عصبة الأمم والأمم المتحدة ، سلسلة كتب قومية العدد ١٤٩ وفلسطين في ماضيها العربي وحاضرها الصهيوني، تأليف علي محمد علي وابراهيم الحصاني سلسلة كتب قومية العدد ٦٦٦ .

العدوان »[1] إذ يقول « لم يرَ التاريخ مسألة جنسية أو دينية أعجب ولا أشنع من المسألة اليهودية. فمنذ أكثر من ألفي عام وهم قابعون بين أمم الأرض ينخرون في عظام كل أمة تكرم مثواهم وتحسن معاملتهم، ويشوهون كل ما تصل إليه أيديهم من قيم إنسانية ونظم دينية واجتماعية. وتستغرق مظاهر هذا الصراع اليهودي ضد البشرية جمعاء بعض حقب التاريخ القديم، وكل العصور الوسطى والحديثة. فاليهود هم الذين عملوا على تشويه الأوضاع الاقتصادية بين الأمم فخلقوا نظاماً مالياً يسمح لهم باحتكار الثروة وإشاعة الخراب والدمار في المؤسسات العامة والخاصة. وهم الذين أثاروا الاضطهادات المسيحية في كل البلدان التي اضطهد فيها هذا الدين ليشفوا على نفوسهم الأبدي ضد المسيح وأتباعه واليهود هم الذين حاولوا جهدهم أن يقضوا على الدعوة الإسلامية في مهدها بالدس والغدر والخديعة. ولما خيب الله آمالهم ومكن لدينه في الأرض حاولوا أن يشوهوا تعاليمه ويملأوها بالاساطير والخرافات المسماة « بالإسرائليات » ليصرفوه عن وجهته وليسيئوا إلي سمعته ويشككوا أتباعه في قيمته. واليهود هم العامل الفعال في كل المناورات التي رآها العالم لإشاعة الفساد والانحلال الأخلاقي في ميادين الفنون والآداب، وهم الذين قاموا بالتجسس ضد جميع الحكومات والدول التي أحسنت استقبالهم وآوتهم بين أبنائها ».

إن هؤلاء اليهود لا يمكن أن يعيشوا في وفاق مع الجماع البشرية لسبب بسيط هو أنهم قوم طبعوا على دناءة النفس ولؤم الطباع، والغرور الذي لا يقف عند حد فهم تبعاً لكتاباتهم المقدسة، كانوا يعتقدون أنهم الشعب الذي اصطفاه الله من بين جميع الشعوب وجعل فيه النبوة، وفضله على غيره من الأمم، وأن إلهه هو الإله الحق القادر الذي يستطيع التنكيل بأعداء بني إسرائيل وبآلهة هؤلاء الأعداء دون أن يستطيعوا المقاومة. ولما تأثر اليهود بدين البابليين الذي يضع الإنسان

---

(١) العدوان الثلاثي على مصر: سلسلة اخترنا لك – ٣١، ص ٨٠ وما بعدها.

في أعلى مكان بين مخلوقات الله ، طبقوه تطبيقاً خاطئاً ، وراحوا يعتقدون أنهم من طينة أخرى غير طينة البشر ، وأنه إذا كانت الحيوانات الأخرى تتطور عن طريق التناسخ إلى كائنات بشرية فإن بني الإنسان تطوروا إلى بني إسرائيل وعلى هـــذا أصبح الإسرائيليون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم هم البشر الحقيقيون وغيرهم من الأمم لا يعتبرون من البشر إلا على سبيل التجوز .

وقد تمسك اليهود بهذه الأفكار المشوهة التي كانت سبباً في قيامهم بحركات عدائية غير كريمة نحو الأمم التي تجاورهم ، وكان لذلك رد فعل في هذه الأمم إذ كانت تنكل بهم بدورها تنكيلاً شنيعاً نتيجة حماقاتهم وغدرهم .

وإن تاريخ اليهود الحديث لأسوأ وأشد مقتاً ، فقد شاء الاستعمار أن يمكن لهذه العصابات الغادرة في أرض فلسطين ، فأصبحت في جسم الأمـــة العربية كالسرطان الذي يتهدد هذا الجسم بأفدح الأضرار . ولن تكون هنـاك حرية حقيقية للعرب إلا إذا استأصلوا هذا السرطان ، وحرروا فلسطين ، وطهروا أرضها من الصهيونيين . أجل ستظل فلسطين كما قال الزميل الاستاذ عبد السلام القفاش « هدفاً يجمع قلوب العرب كافة وثأراً حياً لكل عربي لا ينام عنه حتى يسترد الجزء المفقود ، وتستأصل شأفة الفئة الباغية من الصهيونيين »[١] .

والواقع أن أطماع اليهود في فلسطين لا تبدأ فقط بصدور وعد بلفور المشئوم خلال الحرب العالمية الأولى ، بل تسبق ذلك بكثير . ولكنها كانت مجرد أفكار لم تخرج بعد إلى حيز التنفيذ . ثم أخذت هذه الأفكار منذ القرن التاسع عشر شيئاً فشيئاً ، تتخذ الخطوات العملية لتحقيقها . ومعنى هذا أننا إذا أردنا أن نتحدث عن هذه المشكلة ، فإن علينا أن نتتبع تطوراتها منذ القرن التاسع عشر

---

(١) انظر كتاب دراسات في المجتمع العربي ، وفقاً لمنهج جامعة عين شمس تحت عنوان « القومية العربية ومقوماتها » ص ٢١ .

إلى أن شاء القدر الساخر أن يتيح لهذه العصابات الفرصة بمساعـــدة الاستعمار لاحتلال أرض فلسطين وإشاعة القلق والاضطراب في منطقة الشرق العربي كله.

وكان صاحب فكرة إنشاء وطن يهودي مستقل استقلالاً حقيقياً هواليهودي النمسوي « تيودور هرتزل » [1] الذي نشر كتاباً عن مستقبل الدولة اليهودية قال فيه « اليهود أمة وليسوا مجموعة دينية فيجب عليهم أن ينظموا أنفسهم في شكل دولة يهودية ، ويجب عليهم أن يحصلوا على الأرض اللازمة لذلك . ومن الأفضل أن تكون فلسطين هي هذه الأرض » . ولكنه لم يصر على فلسطين بالذات بل قال إنه من الممكن إنشاء هذه الدولة في الأرجنتين مثلاً أو في أي مكان آخر مناسب في إفريقيا أو غيرها ولأشد ما كانت دهشة « هرتزل » حين رأى يهود شرق أوربا والرؤساء الدينيين في غرب أوربا أيضاً يرتضون مشروعه وأن سانده عدد آخر من اليهود .

ولما اجتمع المؤتمر الصهيوني الأول في بازل في سويسرا عام ١٨٩٧ قدمت بعض الاعتراضات على المشروع . وأخير اتفق المؤتمر على ما يلي :

١ – تشجيع استعمار فلسطين وإسكان اليهود فيها عن طريق هذا المؤتمر .

٢ – تنظيم اليهود في شكل قوة سياسية .

٣ – العمل على تقوية الروح القومية بين اليهود .

٤ – الحصول على مساعدة الحكومات ولا سيا حكومة تركيا التي كانت تسيطر على فلسطين في ذلك الوقت لإخراج المشروع إلى حـــيز الفعل بأسرع وقت ممكن .

---

(١) انظر الدكتور حسن صبحي : التآمر الصهيوني ضد الأمة العربية ، ص ٢٢ وما بعدهـــا .

وبعد المؤتمر حاول « هرتزل » أن يجس نبض تركيا ، وفاوض السلطان عبد الحميد في التنازل عن فلسطين ، ولكنه رفض فتوجه هرتزل في سنة ١٩٠٢ إلى الحكومة الانجليزية وطلب إليها أن تخول للصهيونيين حق إنشاء وطن لهم في قبرص . ولكن وزير المستعمرات الانجليزي في ذلك الوقت مستر تشمبرلين اقترح على هرتزل إنشاء هذا الوطن في منطقة العريش غير أن لورد كرومر المندوب السامي رفض أن يمد المنطقة بماء النيل اللازم لإحياء صحراء سيناء . في هذا الوقت كان تشمبرلين قد قام بزيارة للدومنيوم والمستعمرات الانجليزية ورجع منها وعرض على هرتزل السماح لليهود بإنشاء دولة لهم في أوغندا وكينيا التي كانت أكبر من فلسطين مساحة كما أنها أثرى منها بلا جدال . وأخبره أن الحكومة الانجليزية تسمح لليهود بإنشاء هذه الدولة على أن تكون من أملاك الدومنيوم التابعة لبريطانيا . كاد هرتزل يطير فرحاً بهذا الاقتراح ، وذهب يعرضه على المؤتمر الصهيوني الثاني الذي عقد في بازل أيضاً ، وأخذ يزكيه ويبين مزاياه ، ويوضح للمؤتمرين أن في أوغندا متسعاً لاستقبال أعداد كبيرة من اليهود ، وأنه لم يعدل عن فلسطين طائعاً ، وأن الظروف تحتم قبول هذا العرض وإنشاء لجنة لدراسة ظروف المعيشة في أوغندا التي يجب اعتبارها ولو ملجأ مؤقتا لليهود .

ولكن هرتزل لاقى معارضة تامة من أغلب اليهود الروس بالذات ، ولم يوافق على اقتراحه إلا أقلية ضئيلة ، وكان زعيم حركة معارضة المشروع الدكتور حاييم ويزمان (١٨٧٤-١٩٥٢) فكان هذا الفشل قوي الأثر على صحة هرتزل المعتلة فتوفي في ٤ يوليو سنة ١٩٠٤ وفي المؤتمر الصهيوني السابع رفض مشروع أوغندا نهائياً وأصبحت الحركة الصهيونية في ذلك الوقت تنقسم الى جناحين :

١ - الجناح الأوغندي أو الجناح السياسي .

٢ - الجناح الصهيوني التقليدي أو الجناح العملي .

ولقد كان الكثيرون من أنصار الجناح الأول من بين اليهود الغربيين . أما الثاني فكانت غالبية أعضائه من بين يهود أوربا الشرقية وعلى رأسهم حاييم ويزمان زعيم الصهيونية في لندن وينحصر رأي هذا الجناح الأخـــير في الحصول على الأرض الفلسطينية بأي طريق وإسكان اليهود فيها حتى إذا أصبحوا أغلبية استطاعوا إنشاء دولتهم المرتجاة . وقد أنشئت بالفعل إدارة جديدة للإسكان كما أنشىء الصندوق الوطني اليهودي في فلسطين نفسها كذلك أنشئت جامعة عبرية في القدس ، وأقبل اليهود أفراداً وجماعات على شراء الأرض من العرب بأي ثمن

وفي سنة ١٩١٤ حين قامت الحرب العالمية الأولى ضاعف اليهود من نشاطهم وأنشأوا من بينهم كتيبة لمساعدة الحلفاء ، وقاموا بحملة دعاية واسعة النطاق وصاروا يجمعون المساعدات لتحقيق الأغراض الصهيونية .

وفي انجلترا كان الدكتور ويزمان قد عُين مدرساً للكيمياء في جامعة مانشستر وكان في نفس الوقت عضواً بارزاً في المجلس الصهيوني العام ، فاستطاع أن يتصل برئيس تحرير صحيفة المانشستر جارديان « مسترسكوت » ، وأن يقنعه بالقيام بحملة دعاية واسعة في مصلحة المسألة الصهيونية وضرورة اتخاذ فلسطين وطناً قومياً لليهود ، وبين له أن ذلك سوف يعود بأجل الفوائد على انجلترا نفسها ذلك لأن إقامة اليهود في فلسطين بين مستعمرات انجليزية يعتبر حراسة قوية لمنطقة قناة السويس التي يهم الانجليز أمرها إلى أقصى حد وعلى هذا قام سكوت بتمهيد المقابلة الأولى بين ويزمان ورئيس الوزارة البريطانية « لورد جورج » وقدم مذكرة باسم الحكومة الانجليزية ومعها خطة بنقل ثلاثة ملايين أو أربعـة من يهود أوربا إلى فلسطين . ولكن الحكومة البريطانية رفضت هذا الاقتراح فعمل ويزمان على مقابلة مستر بلفور وزير الخارجية الانجليزية في ذلك الوقت ، فأظهر عطفه التام على الصهيونية والمسألة اليهودية بوجه عام . وكان على وشك اتخـاذ خطوة عملية في هذا الصدد لولا أن الشعبة الأخرى من الصهيونيين كانت لا تزال

قوية فعطلت اتخاذ هذه الخطوة .

وفي سنة ١٩١٦ نجح ويزمان في الوصـول إلى اكتشاف عنصر كيميائي له تأثير فعال في الحروب مما أعلى شأنه وجعله على اتصال دائم بوزارة الحربية البريطانية ، فاستغل ويزمان هذه الصلة في الدعوة إلى تحقيق أغراض الصهيونية وفي الوقت نفسه نشر كتيبا اسمه « الصهيونية والمستقبل اليهودي » يدعو فيـه الانجليز إلي فكرة إنشاء دولة يهودية على أن تكون تابعة لبريطانيا .

وقد نجح ويزمان بالفعل في حمل الحكومة الإنجليزية على إصدار وعـد بلفور [١] في ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩١٧ وهذا هـو مضمونه : تنظر حكومة جلالة الملك بعين الرضا والارتياح إلى إنشاء وطن قومى للشعب اليهودي في فلسطين وتعلن أنها ستبذل جهودها لإخراج هذا المشروع إلى حيز الوجود مع مراعاة أن ذلك لا يصح أن يضر بالحقوق المدنية أو الدينية للطوائف غـير اليهودية الموجودة في فلسطين بالفعل ، ولا الالتجاء إلى إجراءات سياسية تضر بالاقليات اليهودية الموجودة في الدول الأخرى ولا شك أن انجلترا كانت تستهدف من وراء هذا الوعد خدمة مصالحها الاستعماريـة في الشرق العربي بالحصول على قاعدة في فلسطين تحمي قاعدتها الرئيسية في قناة السويس ، وأن هذا التحفظ لم يقصد به سوى تهدئة خواطر العرب الذين كانوا يقفون أيضاً إلى جانب انجلترا وحلفائها في هذه الحرب .

وحين دخلت القوات البريطانية فلسطين عـــام ١٩١٧ سارعت إلى إنشاء إدارة عسكرية بها ، وبادرت على الفور في تنفيذ وعد بلفور ففتحت أبواب فلسطين للهجرة ، وسمحت لليهود المهاجرين بامتلاك الأرضي ، كما سمحت لهم بالاحتفاظ بأسلحتهم وتأليف جمعية سياسية تحت اسم (المحاربـــين القدماء)

---

(١) انظر وعد بلفور : حقيقة المؤامرة الصهيونية البريطانية على فلسطين ، نشر مصلحة الاستعلامات .

ورخصت لعدد من المنظمات اليهودية بممارسة نشاطها العسكري تحت ستار الأسماء الثقافية والرياضية . وهكذا بدأت انجلترا خطوات عملية نحو تهويد فلسطين قبل أن يتقرر الانتداب البريطاني على هذا الإقليم .

بعد ذلك أصدر الرئيس الامريكي « ولسون » تصريحاً شفوياً يقول فيه بوجوب إنشاء نوع من الكومنولث اليهودي في فلسطين أي إنشاء ما يشبه أن يكون دولة يهودية في هذا البلد . وبالرغم من أن مثل هذه التصريحات كان يشوبها شيء من الغموض ، وأنها لا تعد تصريحات دولية بمعنى الكلمة . فإن هذا كله يعتبر نصراً سياسياً لليهود من الناحية النظرية .

وفي مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ تقرر انتداب بريطانيا على فلسطين وصدقت على هذا القرار عصبة الأمم في عام ١٩٢٢ فتضمن صك الانتداب وعد بلفور بالكامل وبذلك جاءت نصوص وثيقة الانتداب متمشية مع أهداف الصهيونية وأطماعها في فلسطين. وعندما انسحبت الإدارة العسكرية البريطانية في فلسطين خلفتها إدارة مدنية كا على رأسها « سير هربرت صموئيل » أول مندوب سام في فلسطين ، وهو من أسرة يهودية بريطانية فكان أول ما فعله أن فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية دون قيد أو شرط لتصير أغلبية السكان من اليهود . كما أنه منح الوكالة اليهودية مساحة كبيرة من الأرض .

وفي سنة ١٩٢٩ قامت ثورة في القدس بسبب « حائط المبكى » الذي يدعى اليهود ملكيته باعتباره من أماكنهم المقدسة ، فأنكر عليهم العرب هذا الحق وقد راحت أرواح كثيرة ضحية لتلك الثورة . وأدى هذا إلى وضع مسألة الوطن اليهودي موضع البحث من جديد ، فأرسلت الحكومة الإنجليزية لجنة تحقيق إلى فلسطين ، فقررت هذه اللجنة أن عدد اليهود في فلسطين في تزايد مقلق ، وأن العرب أصبحوا يخشون بحق سوء المصير ، وأن اليهود يبذلون جهوداً جبارة في شراء أراضي العرب مما جعل الكثير منهم لا يملكون شيئاً

ونصحت اللجنة بالحد من هجرة اليهود ووقف شراء الأرض بواسطة هؤلاء اليهود .

تظاهرت الحكومة البريطانية بالموافقة على هذا الرأي ، ولكن سرعان ما أثيرت هذه المسألة في عصبة الأمم بجنيف فقررت انتداب لجنة أخرى للتحقيق فذهبت إلى فلسطين وقررت رفض اللجنة الأولى فاضطرت الحكومة البريطانية إلى سحب قرارها السابق بكل بساطة ، وأرسل « رمزي ماكدونالد » رئيس الوزارة البريطانية في ذلك الوقت رسالة إلى الوكالة اليهودية يبلغها فيه هذا السحب .

وهكذا ظلت الحركة العربية في فلسطين حتى عام ١٩٣٣ تتجه إلى محاربة اليهود وحصر المعركة بينها وبين هذه الطائفة . ولكن عندما تبين للعرب أن الانجليز مسئولون مسئولية كاملة عن كل المحاولات التي تهدف إلى تثبيت مركز اليهود وتدعيمه في فلسطين أصبحوا يركزون هجومهم على الانتداب البريطاني باعتباره ليس فقط الحائل دون عروبة فلسطين ، بل كذلك دون استقلالها وهو المتسبب في كل ما حدث في فلسطين ، وكان العرب على حق فيما ارتأوه .

وهذا يفسر أسباب ثورة العرب ضد البريطانيين سنة ١٩٣٦ تلك الثوره التي ذهب ضحيتها مئات الأشخاص من الطرفين . وجريا على عادة بريطانيا في سياسة التسويف وتخدير الأعصاب أرسلت لجنة أخرى أشارت في تقريرها إلى تقسيم فلسطين إلى منطقة عربية وأخرى يهودية . ولكن العرب واليهود رفضوا هذا الاقتراح .

وفي سنة ١٩٣٩ أصدرت الحكومة الانجليزية كتاباً أبيض أعلنت فيه أن قيام موطن يهودي في فلسطين وهو الذي ورد ذكره في وعد بلفور قد تم الآن . وأنه ينبغي ألا يسمح خلال السنوات الخمس التالية بالهجرة إلى فلسطين لأكثر من ٧٥ ألف يهودي . وبعد ذلك لا تكون الهجرة إلا برضاء العرب .

وألا يسمح لليهود بشراء الأرض على النحو الذي كان سائداً حتى صدور هذا الكتاب كما أشار الكتاب إلى أن الحكومة الانجليزية تهدف إلى تكوين حكومة مستقلة لفلسطين بعد عشر سنوات على أن ترتبط بإنجلترا بمعاهدة خاصة .

وفي هذه المرة أيضاً رفض العرب واليهود الكتاب الأبيض وكان اليهود أكثر سخطاً على هذا الكتاب من العرب وصار كل من الفريقين يتربص بالآخر غير أن ظروف الحرب العالمية الثانية أوجدت فترة هدوء في فلسطين ولكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة .

ولما تأكد اليهود أن الحرب قد تحولت نهائياً في صالح الحلفاء أخذوا يلجأون إلى استخدام الأساليب الإرهابية للضغط على بريطانيا لنسف سياسة الكتاب الأبيض ، وفي الواقع كانت الحرب العالمية الثانية سبباً في تقوية موقف اليهود في داخل فلسطين نفسها وكذلك من الناحية الدولية . ففي داخل فلسطين أتاحت الحرب لليهود فرصة ثمينة للتسلح والتدريب وحيازة الكثير من الأسلحة .

أما من الناحية الدولية فقد تطور الموقف أيضاً في صالح اليهود والعطف عليهم وذلك بسبب الاضطهاد الذي لاقوه على يد النازيين في المانيا وتأييد الولايات المتحدة الأمريكية لمطالب اليهود .

وعندما أحست الحكومة الانجليزية بتحرج الموقف في فلسطين أرادت أن تتخلص من الورطة بكل بساطة ، وأصرت على إنهاء الانتداب في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ القضية الفلسطينية ، ملقية عبء المسؤولية على أمريكا والأمم المتحدة. ولقد فطن العرب تماماً إلى أن هذه النية الخبيثة ما هي إلا تتمة للمؤامرة التي ابتدأت بوعد بلفور .

وفي يوم ٢١ يونيه عام ١٩٤٧ ذلك اليوم المشؤوم في تاريخ العرب وافقت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة على قرار بريطانيا بإنهاء الانتداب الانجليزي في فلسطين كما وافقت على مشروع التقسيم . وإن أمريكا بنفوذها في الجمعية العامة

لتتحمل تبعة صدور هذا القرار المجحف بحق العرب. وبذلك سجلت هي الأخرى على نفسها سياسة الغدر والتحلل من المواثيق التي قطعتها على نفسها على لسان رؤسائها كالعهد الذي تعهد به روزفلت لدى اجتماعه بالملك عبد العزيز آل سعود في فبراير سنة ١٩٤٥ ، والعهد الذي أخذه من بعده ترومان في ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٥ في خطاب له إلى الملك عبد العزيز آل سعود بأن أي حل للمسألة الفلسطينية لن يتم إلا بموافقة العرب واليهود معاً .

وهكذا قررت الحكومة الانجليزية التخلي عن انتدابها على فلسطين والانسحاب بقواتها العسكرية وجهازها الإداري ، وحددت لذلك يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٨. وما كادت تحل الساعة التي تمت فيها عملية الانسحاب حتى أقبلت الجيوش العربية للمحافظة على حقوق عرب فلسطين واستخلاصها من القوات الصهيونية . وقد تمكن الجيش المصري أول الأمر من التوغل داخل الأراضي الفلسطينية متجهاً شمالاً نحو تل أبيب وشرقاً نحو القدس . وأصبح على مسيرة ساعات من كلتا المدينتين كما حارب الجيش السوري ببسالة في الجهة الشمالية . أما بقية الجيوش العربية فكان نشاطها محدوداً .

ولما لمس المشايعون لليهود من الدول الغربية – رجحان كفة الجيش المصري والسوري ، تدخلوا لإنقاذ دولة إسرائيل ، ولجأوا إلى مجلس الأمن مطمئنين إلى تفوق النفوذ الغربي داخل هذه المنظمة العالمية . وهكذا فرضت الهدنة الأولى فاحترمها العرب واستغلها اليهود لصالحهم إذ حشدوا الآلاف من المتطوعين المدربين من مختلف بقاع العالم ، وأمدتهم الدول الغربية بكل ما يلزمهم من معدات القتال الحديثة رغم ما في هذا كله من خرق صريح للهدنة .

فلما استؤنف القتال تفوقت قوات إسرائيل ، وهزم العرب بسبب تحيز الغرب لليهود ، ولتخاذل الدول العربية التي كان يخضع معظمها لنفوذ الانجليز ولعجز جامعة الدول العربية كمنظمة إقليمية . وبهذا أتيحت الفرصة لإسرائيل لكي تستولي على مناطق جديدة . فلما عقدت اتفاقيات الهدنة الثانية خلال

عام ١٩٤٩ كانت دولة إسرائيل تتكون من الأراضي التي سقطت في قبضة اليهود بالفعل . ومن ناحية أخرى وضعت مملكة شرق الأردن يدها على الضفة الغربية لنهر الأردن التي كانت قد احتلتها في أواخر عام ١٩٤٨ ، وأعلنت إدماج هذه الأراضي الفلسطينية مع الأراضي التي كانت تتألف منها مملكة شرق الأردن ، وأصدرت في يونيه عام ١٩٤٩ بلاغاً باطلاق اسم « المملكة الأردنية الهاشمية » عليها . أما مصر فقد أخذت على عاتقها مسؤولية إدارة قطاع غزة وهو شريط ساحلي يمتد من قرية رفح على الحدود المصرية الفلسطينية إلى نقطة تبعد ثمانية أميال إلى الشمال من غزة .

ولقد تبع إنشاء دولة إسرائيلية ظهور مشكلة اللاجئين الفلسطينيين (١) الذين يقدرون بحوالي ٩٤٠ ألف لاجىء طردتهم القوات اليهودية من بلادهم وديارهم .

وبعد أن تطورت هذه المأساة على النحو الذي رأيناه يذكي لهيب الأسى في النفس ويثير الشجون يمكننا أن نقول أن تبعة هذه المأساة تقع أول ما تقع على كاهل الانجليز الذين احتضنوا جماعة الصهيونيين منذ البداية ، وعملوا على تثبيت أقدامهم في فلسطين بشتى الطرق ، واتخذوا من سياسة التسويف والخداع عن طريق اللجان العديدة التي كانوا يرسلونها إلى فلسطين وسيلة لذر الرماد في العيون مما كان سبباً في تعقيد الأمور أكثر من ذي قبل , إعطاء اليهود امتيازات أكثر وفرصاً أوسع لشراء الأراضي وإحراز الأسلحة والمواظبة على التدريب والتمرين لكي يحكموا سيطرتهم على الموقف .

وإذا كان صك الانتداب في حد ذاته يعد جريمة كبرى ارتكبتها انجلترا في حق عرب فلسطين ، فإن هناك ما هو أدهى وأمر من ذلك ؛ فلقد

---

(١) انظر عادل حسن غنيم : قضية اللاجئين ، سلسلة كتب قومية ، العدد ١٥٧ والدكتور إدوارد سيدهم : مشكلة اللاجئين العرب ، سلسلة كتب قومية ، العدد ٢٦٥ .

أصدرت انجلترا في شهر أغسطس (آب) ١٩٢٢ مـــا أسمته بدستور فلسطين فحوى من العجائب والغرائب ما يفضح السياسة الانجليزية الأفعوانية التي كانت تتلاعب بمصائر الشعوب .

ففي إحدى مواد هذا الدستور نقرأ هذا النص المعدل : « بما أن أحكام الشرع الإسلامي كانت قد خولت السلطان صلاحية تحويل الأراضي الميري إلى أراضي ملك ، وبما أنه من المناسب تخويل المندوب السامي هذه الصلاحية بشأن كافة الأراضي الميري بفلسطين ، لذلك تعدل المادة ١٦ من مرسوم الدستور إلى : « يجوز للمندوب السامي أن تحول بمرسوم يصدره ، أية أرض بفلسطين يسميهـا في المرسوم من صنف الميري إلى صنف ملك » .

ومضمون هذا النص بعبـارة أوضح هو أنه ما دام الشرع الإسلامي يبيح لسلطان تركيا حق التصرف في الأرض ، وما دام المندوب السامي البريطاني حل محل السلطان ، فإن من حقه أن يتصرف كيف شاء في أرض فلسطين .

وتنص مادة أخرى على أنه : « يشترط ألا يطبق التشريع العام ومبادىء العدل والإنصاف المشار إليها في هذا الدستور في فلسطين الا بقدر ما تسمح به ظروف فلسطين وأحوالها ، ومدى اختصاص جلالة الملك فيهـا ، وأن تراعى عند تطبيقها التعديلات التي تستدعيها الأحوال العامة » .

ويعرف العقل والمنطق والعاطفة وكل الناس أن الظروف لا يمكن أن تسمح بحال ، لأن أهل فلسطين يواصلون جهـــادهم ضد صك الانتداب وضد وعد بلفور ، وبذلك يكون المندوب السامي غير مكلف بتطبيق العدالة والمساواة في فلسطين .

وأما المادة ٨٥ من هذا الدستور البغيض فتدعو اليهود إلى مداومة الشكوى التي يقابلها مداومة الاستجابة لمطالبهم لكي يحصلوا على امتيازات جديدة .

تقول هذه المادة : « إذا كانت أية طائفة دينية أو فريق كبير من سكان فلسطين يشكو من عدم قيام حكومة فلسطين بتنفيذ صك الانتداب ، فيحق للطائفة أو للفريق المذكور أن يرفع مذكرة بذلك إلى المندوب السامي بواسطة عضو من أعضاء المجلس التشريعي »[1] .

وهكذا في ظل هذا الدستور المشؤوم أراد الظالم أن يطلق اليد الحمراء الرسمية لكي تفعل ما يتراءى لها في سبيل التهويد .

ثم إنه ليس أدل على المسؤولية الكبرى التي يتحملها الانجليز فيما وصلت إليه الحالة المحزنة في فلسطين من ذلك الموقف الذي وقفوه عندما بدأ القتال بين العرب واليهود في فلسطين في أواخر عام ١٩٤٧ وكان الانتداب البريطاني لا يزال قائماً .

ألم يتحيز الانجليز لليهود في المعارك التي نشبت بين الفريقين وقاتلوا المجاهدين الفلسطينيين لحماية اليهود وذلك بحجة المحافظة على الأرواح في البلاد كما حدث في القدس القديمة ؟

ألم يقف الانجليز مكتوفي الأيدي عندما استهدف العرب للعدوان من جانب اليهود كما حدث في طبرية ؟

ألم تكن انجلترا مرتبطة بمعاهدتي تحالف مع مصر والعراق ، وكان الموقف يقتضيها طبقاً لنصوص هاتين المعاهدتين أن تسارع لمد القوات العراقية والمصرية بالاسلحة بدلاً من أن تستجيب لقرار مجلس الامن بحظر تصدير الاسلحة إلى الجانبين في الوقت الذي تهرب فيه سراً كميات كبيرة من الأسلحة إلى اليهود ؟

ألم يصدر جلوب القائد البريطاني في الفيلق العربي أوامره بانسحاب قوات الجيش الاردني من اللد والرملة مما ترتب عليه تعريض قوات الجيش المصري

---

(١) انظر صالح مسعود أبو يصير، جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، ص ١٢٠-١٢١

لأفدح الأخطار بل تهديدها بخطر الإبادة والفناء ؟

ألم يتحالف الانجليز مع إسرائيـل في الاعتداء على الشعب العربي في مصر عام ١٩٥٦ لا لسبب سوى أنه قام بتأميم قناه السويس لصالح مصر وللقضاء على النفوذ الأجنبي فيها ؟

ولكننا في الوقت نفسه لا يمكننـــا أن نخلي أمريكا من تبعة ما حدث في فلسطين فطالما كانت هذه الدولة تتشدق بالدفاع عن الحرية وحق الشعوب في تقرير مصيرها إلى أن ظهرت على حقيقتها السافرة في الوقوف إلى جانب اليهود المعتدين وتأييد مطالبهم على حساب عرب فلسطين فثبت بذلك أنها الدولة التي لا تدافع عن الحريات بل الدولة التي تحمي اللصوص وقطاع الطرق . ألا يكفي أمريكا خزياً وعاراً أن يكون دفاعها غير الإنساني ، وتحمسها الأعمى في تأييد استيطان اللاجئين اليهود هو الذي أدى إلى تشريد ونفي حوالى مليون عربي ؟!.

وهكذا وصل التآمر الاستعماري – كما قال الرئيس عبد الناصر في الميثاق – إلى حد انتزاع قطعـــة من الأرض العربية في فلسطين قلب الوطن العربي واغتصابها دون ما سند من حق أو قانون لصالح إقامة فاشستية عسكرية لا تعيش إلا بالتهديد العسكري الذي يستمد أخطاره الحقيقية من كون إسرائيل أداة الاستعمار .

ولكن علينا أيضاً أن نشرك في تحمل هذه التبعة العرب أنفسهم وما كانت عليه الحكومات العربية من التخلف والفوضى . كانت الروح المعنوية منحطة بين صفوف القوات ، وكان عتادهم هزيلاً بل فاسداً في حالات كثيرة ، إذ كانت القنابل تنفجر في وجوه الجنود الذين يحاربون بها بسبب ألاعيب فاروق وسوء نيته. ثم إننا لا ننسى موقف بعض الحكام العرب [١] عندما تآمروا مع الاستعمار ضد

---

(١) انظر كتاب الجامعة العربية بين القوى الرجعية والقوى الشعبية ، تأليف الدكتور أحمد فريد علي ص ٧٣ وما بعدها .

الجيش المصري الذي كان يخوض المعركة ببسالة رغم كل هذه المعوقات . وكذلك موقف الجامعة العربية [1] إذ هزتها مشكلة فلسطين هزة عنيفة وأظهرت مدى القصور في ميثاقها وكيانها كله ، وجلبت عليها من النقد أعنفه ومن السخط أشده [2] .

وبعد فلقد كان من الضروري أن تترك كل هذه الأحداث أثرها البالغ في نفوس العرب ، وتعمل على إيقاظهم من غفلتهم . وهذا ما حدث بالفعل إذ أنه وسط هذا الظلام الدامس سطعت في سماء الأمة العربية أنوار مشرقة بقيام الثورة المباركة في مصر عام ١٩٥٢ .

ولكن على الرغم من هذه اليقظة الشاملة التي عمت العالم العربي بقيام ثورة يوليه عام ١٩٥٢ لم يسلم الاستعمار بهزائمه . بل راح يعمل في الجهر والخفاء ويبذر بذور الفتنة والشقاق بين الحكام العرب ، ويحرك العناصر الرجعية إلى حد أن حدثت أحداث جسام كان من أبرزها انفصال سوريا عن مصر والمؤامرة ضد الثورة في اليمن وغير ذلك من الأحداث التي هددت الصف العربي وجعلت العدو يفرح ويطرب لهذه الفرقة ، وراحت إسرائيل تصرح في تبجح وعدم مبالاة بأنها مستمرة في تجفيف مياه نهر الأردن رغم أنف العرب لتنفيذ أغراضها العدوانية .

ولكن مصر الحريصة على وحدة الصف العربي والمتنبهة إلى الخطر الذي تشكله إسرائيل على أراضي المنطقة العربية تناست كل هذه الخلافات والخصومات ودعت الحكام العرب إلى ضرورة عقد مؤتمر على مستوى القمة لدرء تلك الأخطار التي تتهدد الوطن العربي .

---

(١) انظر نفس المصدر ، ص ٥١ — ٥٢ .

(٢) انظر مقال الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم بعنوان « الحركات الحديثة لتوحيد العالم العربي » « كتاب دراسات في المجتمع العربي » وفقاً لمنهج جامعة عين شمس ص ٢٥ — ٢٦

والحق أن دعوة مصر قد لقيت أذناً مصغية واستجابة كاملة من جميع الحكام على اختلاف مشاربهم مما يدل على نضج وعيهم وصدق وطنيتهم . وهكذا عقد مؤتمر القمة العربي الأول في القاهرة في يناير عام ١٩٦٤ . وفيه أمكن تنقية الجو العربي وتسوية الخلافات ، ونبذ الخصام ، وعودة التفاهم والوئام . ولهذا نجح المؤتمر بالفعل وأسفر عن قرارات هامة كان أبرزها ما يلي :

١ – تنفيذ مشروعات عربية تكفل استغلال روافد الأردن لصالح الأرض العربية وبالتالي حجزها عن الأرض المحتلة .

٢ – إنشاء قيادة عربية واحدة تنظم وتقود القوة التي تحمي المشروعات العربية ثم تقدر على مواجهة أية مضاعفات متسعة بعد ذلك .

٣ – إقامة كيان فلسطيني يكون طليعة العودة باعتبار قضية العودة هي الأصل والأساس وهي صميم المعركة المحتدة .

٤ – القيام بجهود سياسية مشتركة لشرح القضية الفلسطينية أمام الرأي العام العالمي .

وبنفس الروح القوية الوثابة ، وبنفس العقلية الواعية الناضجة عقد مؤتمر القمة العربي الثاني في مدينة الإسكندرية في سبتمبر من العام نفسه .

وفي هذا المؤتمر وصل المسؤولون العرب إلى حدود العمل التنفيذي، وصدور الأمر بالتقدم. وهكذا خلقت المسؤولية العمل، وخلق العمل بدوره مسؤوليات جديدة .

وفي ٩ يناير عام ١٩٦٥ عقد مجلس رؤساء الحكومات العربية أول اجتماع له داخل نطاق مؤتمر القمة بالمقر الرسمي للجامعة العربية بالقاهرة ونظر في التقارير المتعلقة بالقيادة العامة الموحدة لجيوش الدول العربية ،

وإنشاء جيش فلسطين وتدريبه . وقد أسفرت هذه الاجتماعات عن اتفـاق وجهات النظر حول هذه الموضوعات .

أما مؤتمر القمة الثالث الذي عقـد في الدار البيضاء في سبتمبر عام ١٩٦٥ فقد نجح نجاحاً مؤكداً إذ أجمع الملوك والرؤساء العرب على تعزيز القوات العربية لتستطيع تنفيذ خططها الدفاعية الشاملة ، وتحقيق أغراضها ضد العدوان الصهيوني ، وأيـدوا نضال الشعب العربي في الجنوب المحتل من أجل تحرير أراضيه .

وما دام العرب قد عرفوا طريقهم جيداً في ظل الاتحاد والتآلف،وما داموا قد عرفوا كيف يضعون مصلحة وطنهم العربي الكبير فوق أي اعتبـار آخر فإنهم واصلون إلى تحقيق هدفهم الأساسي ألا وهو القضاء على إسرائيل وتطهير أرض فلسطين من الصهيونية .

ب ــ الاستعمار

هو أسوأ كارثة تحل بالأمم والشعوب ، ذلك لأنه يسلب هذه الأمم حريتها ويجعل أبناءها يعيشون في ذلة ومهانة لا رأي لهم ولا كرامة يقضي على معنويات الأفراد ، ويشيع فيهم الانحلال والفساد، ويعمل على بذر بذور التفرقة والخلاف ليظل هو السائد المسود وأفراد الشعب هم العبيد المستعبدون ، ويعمل على إيجاد طبقة من العملاء الرجعيين ، ويمكن لهم في الأرض ليخدموا الأهداف الاستعمارية ويكونوا جواسيس على زملائهم الوطنيين المخلصين .

وقد تطور الاستعمار في هـذا العصر الحديث من مجرد فتح الأقاليم وفرض سيادة مترتبة على هذا الفتح ، ومن مجرد احتلال المستعمرات واستنزاف مواردها إلى مرحلة الاحتكارات المالية لاستثمار رؤوس الأموال المنهوبة من المستعمرات .

فالاستعمار اليوم إذن هو نتيجة للنظام الاقتصادي القائم على الصناعة الرأسمالية. ومن الطبيعي أن يؤدي هذا إلى استيلاء الدول الصناعية على البلاد التي تملك ثروات من المواد الأولية لاستخدامها في الصناعة من جهة ، ولتصدير هذه الصناعات إلى البلاد المستعمرة التي تكون بمثابة أسواق لترويج صناعات المستعمرين من جهة أخرى .

ولا شك أن الاستعمار يشكل خطراً كبيراً على القومية العربية. ومن الطبيعي أن يحارب فكرة هذه القومية ، والاتجاه إلى قيام وحدة عربية شاملة ، لأن في ذلك قضاء تاماً على ما بقي له من مصالح حيوية ، ولأنه لا يعيش إلا على أكتاف الدول التي لا تزال تمده وتغذيه وتشكل سوقاً لترويج منتجاته . ومن هنا لم يدخر الاستعمار وسعاً في الكيد للقومية العربية ، والعمل على إضعافها وتطويقها .

ومن المهم أن نشير إلى أبرز المحاولات التي يتحدى بها الاستعمار هذه القومية.

١ - مرحلة تجزئة العالم العربي وتفتيته :

فقد توالت وعود الانجليز للعرب حتى إذا تم انتصارهم في الحرب العالمية الأولى وخرج الأتراك من البلاد العربية ، نكث الانجليز بعهودهم. والواقع أن الغدر بدأ من الانجليز وحلفائهم والحرب لا تزال دائرة ، فصاروا يأتمرون بمصير العرب ويرسمون الخطط لاقتسام البلاد العربية حتى إذا انتهت الحرب نفذوا مؤامراتهم فقسم الشرق العربي لأول مرة إلى وحدات سياسية صغيرة : فلسطين - ولبنان وسورية - وشرق الاردن - والعراق . وفرض الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان والانتداب البريطاني على العراق والأردن وفلسطين . وأدهى وأمر من كل هذا تعهد الانجليز بإنشاء وطن قومي لليهود بفلسطين وكان هذا أخطر أسلوب لجأ إليه الاستعمار لتثبيت عملية التفتيت في المنطقة .

وعلى أثر ذلك أقيمت الحواجز الجمركية بين هذه الوحدات السياسية وخضعت

لنظم مالية وقضائية متباينة ، وعمل الاستعمار على خلق النزعات الإقليمية لتصارع فكرة الوحدة العربية ، فكانت النزعة الفرعونية في مصر والفينيقية في لبنان والقومية السورية في سوريا . كما أن الاستعمار أخذ ينشر الدعايات المغرضة ضد وحدة الجنس والدين ، ويشجع الاتجاه نحو استقلال اللهجات المحلية عن العروبة الفصحى ليقضي على وحدة اللغة والتراث الثقافي ، ويجني على هذا التراث الذي أسهم الوطن العربي في بنائه منذ أجيال بعيدة . وكذلك صار الاستعمار يشجع الفوارق والانقسامات في الوطن العربي .

وكان معنى هذا أن تدخل الحركة العربية في طور الكفاح ضد الاستعمار الأوربي . وبفضل مساعي العرب ، وببذل الكثير من التضحية والعرق والدم أمكنهم أن يتحرروا ويطردوا الاستعمار من أغلب أقطارهم خصوصاً بعد قيام الثورة في مصر عام ١٩٥٢ التي كانت سبباً في ظهور القومية بأجلى معانيها .

ولكن الاستعمار لم يسلم بهذه الهزائم ، بل حاول أن يغير من أساليبه ويدخل من باب آخر للتدخل في شؤون هذه البلاد وبقاء سيطرته عليها .

يقول الرئيس جمال عبد الناصر في الباب الثاني من الميثاق : « وفي نفس الوقت اضطر الاستعمار تحت هذه الظروف إلى الاتجاه نحو وسائل العمل غير المباشر عن طريق غزو الشعوب والسيطرة عليها من الداخل ، وعن طريق البلبلات الاقتصادية الاحتكارية ، وعن طريق الحرب الباردة التى تدخل في نطاقها محاولة تشكيك الأمم الصغيرة في قدرتها على تطوير نفسها وعلى الإسهام الإيجابي المتكافىء في خدمة المجتمع الإنساني » .

٢ – الأحلاف العسكرية :

ظهرت بدعة الأحلاف العسكرية التي ظاهرها الوقوف في وجه الشيوعية وباطنها القضاء على القومية العربية وعزل الجمهورية العربية المتحدة وحصارها . من هذه الأحلاف حلف بغداد البائد الذي كان أول من ابتكر فكرته نوري السعيد ، وسرعان

ما ضم الدول الرجعية : العراق ، تركيا ، الباكستان ، إيران ، وباركته انجلترا وانضمت إليه ، لأنه في الحقيقة خلق بوحيها ، ونشأ بتوجيهها . ولقد بذلت انجلترا أقصى جهودها لنصرته وتأييده . والواقع أن حلف بغداد كان عملاً استعمارياً مفضوحاً . وإن كل مواطن عربي ليدرك تمام الإدراك أن هذا الحلف لايرمي إلا لإقامة النفوذ البريطاني في منطقة الشرق الأوسط . وليس أدل على ذلك من أن الصحف البريطانية كانت لا تنكر هذه الحقيقة ، وكثيراً ما كانت تتشدق بأن الشرق الأوسط منطقة نفوذ بريطانية ، وأنه إذا كان هذا النفوذ قد خرج من الباب فلا بد له أن يعود من النافذة ، نافذة حلف بغداد . ولقد أراد الانجليز أن يكرهوا حكومة الأردن وسورية ولبنان على الانضمام إلى ذلك المشروع الاستعماري ، ثم أدهشهم أن هذه الأقطار : حكوماتها وشعوبها من الإدراك والفهم ما مكنها من رفض ذلك المشروع ورد دعاته على أعقابهم خائبين. وكانت مصر المتحررة أكثر الدول العربية إدراكاً لخطر هذا الحلف على القومية العربية فقاومته بكل إمكانياتها إلى أن انهار على رؤوس الذين بنوه بقيام ثورة العراق عام ١٩٥٨ .

حقاً كان حلف بغداد محاولة قام بها الاستعمار – بالتعاون مع الرجعية – للعودة بالتاريخ إلى الوراء ، وليضرب الثورات الوطنية ، تحت ستار الدفاع عن المنطقة ، لكي تظل مصالح الغرب في سلام وأمان . ولكن بسقوط هذا الحلف فشلت المناورات الغربية لخداع الرأي العام العربي فشلاً ذريعاً .

٣ – احتكار السلاح :

من هذه المحاولات الاستعمارية أيضاً احتكار السلاح ومنعه عن العرب وتصديره إلى إسرائيل . ونظراً لاعتداءات اليهود المتكررة على الدول العربية حاولت مصر الحصول على الأسلحة من بريطانيا والولايات المتحدة دون قيود سياسية فرفضت الدولتان ذلك فما كان من مصر إلا أن صممت على تسليح جيشها

فكسرت هذا الاحتكار ، وحصلت على كميات كبيرة من الأسلحة من دول الكتلة الشرقية في عام ١٩٥٥ مما أشاع القلق في المعسكر الغربي متعللا بحجة واهية بالية هي أن إبرام هذه الصفقة يخل بالتوازن بين العرب وإسرائيل ، ويوجد النفوذ الشيوعي في المنطقة . ولكن الرئيس عبد الناصر أكد بأن هذه الصفقة لن تؤثر بحال من الأحوال على حيـــاد مصر ، وأن القومية العربية لن تعتنق المذهب الشيوعي ، وأنه لم يقبل هذه الأسلحة من الكتلة الشرقية إلا بعد أن مد يده للغرب دون جدوى .

٤ ـ الضغط الاقتصادي :

لعل أبرز مثل لهذا الضغط هو رفض أمريكا وانجلترا لمشروع تمويل « السد العالي » بعد أن وعدت الدولتان في ديسمبر سنة ١٩٥٥ بتقديم قرضين كبيرين لهذا الغرض . وقد استندت الدولتان لتبرير هذا الرفض إلى حجة منهارة من أساسها هي أن أحوال مصر الاقتصادية قد تدهورت ، فكان رد مصر على هذه الإهانة أن أممت قناة السويس ، وصممت في الوقت نفسه على أن تبني « السد » ، فنجحت في هاتين المهمتين .

ومن هذا الضغط الاقتصادي تجميد أرصدة مصر في كل من انجلترا وفرنسا وأمريكا . ولكن مصر خرجت أيضاً من هذه التجربة بسلام معتمدة على مواردها من جهة وعلى استيراد ما ينقصها من الكتلة الشرقية من جهة أخرى .

٥ ـ العدوان الثلاثي على مصر :

لم يُرضِ المستعمرون إقدام مصر على تأميم قناة السويس ، فقامت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بالاعتداء المسلح على هذا البلد الآمن عام ١٩٥٦ فكان هذا العدوان حادثاً غريباً في تاريخ الاستعمار كله ، بل إنه ليوشك ألا يكون له نظير في كل

حقب التاريخ، ذلك لأنه حدث في وقت كان يظن فية أن عهد الاستعمار مشرف على الزوال ، فكيف تسنى لهذا الأفعوان أن يرفع رأسه بعد أن خيل للناس أن أجله قد دنا ؟ ! .. من الجائز أن ذلك العدوان يمثل انتعاشة المحتضر فمن المألوف أن يدب النشاط ساعة في المريض قبل أن تدركه منيته .

ولا مراء في أن الدوافع التي دفعت بريطانيا وفرنسا إلى ارتكاب هذا الإثم إنما ترجع أولاً وقبل كل شيء إلى شهوات التملك وحب السيطرة يزكيهما مركب النقص الناتج من الهزائم المتكررة وتقلص النفوذ القديم ، والعجز عن مسايرة الزمن ومجاراة التطور العالمي .

لقد تواطأت انجلترا وفرنسا مع اسرائيل على رسم خطة حربية مزرية لطعن مصر من الخلف ، ودبر « ايدن » وعصابته تلك الحركة الطائشة وهم يعلمون أن عدوانهم لن يكون على مصر وحدها ، بل سيحسه العالم العربي كله ، ودول آسيا وأفريقيا والدول الشرقية ، بل والولايات المتحدة الأمريكية نفسها . ومع هذا ظنوا أن في وسعهم أن يتجاهلوا هذه القوى جميعها، وأن يتحدوا الرأي العام العالمي ، وأن يعيدوا عهداً بائداً كان يقوم في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

ولكن خيبت الأيام ظن المستعمرين الآثمين ، إذ وقف العالم الحر إلى جانب مصر وأعلن غضبته بل ونقمته على هؤلاء المعتدين . ولذا أثبتت الوقائع أن العدوان على مصر لم يكن ليرضى عنه منصف ولو كان من حلفاء بريطانيا وكثير من دول الكومنولث .

وصفوة القول أن هؤلاء المستعمرين كانوا يرمون إلى إذلال مصر واستعبادها بحيث تخضع لهم خضوعاً تاماً ، وبخضوعها يتقلص ظل الحرية والاستقلال عن جميع بلاد العالم مشرقه ومغربه ، ويعود العهد الاستعماري إلى الازدهار، ولكن منيت هذه الأماني بالفشل الذريع ، وارتد العدوان عن أهدافه ملطخاً بالعار

مصحوباً بخيبة الأمل .

وكان من أهم نتائج هذا الغزو الفاشل أنه أتاح لمصر أن تعرف نفسها وأصبح قادة الأمة يعلمون علم اليقين مبلغ ما في الشعب من القوة والاستعداد ولمسوا تضامنه في الإخلاص لمن يتفانون في خدمته .

٦ – مبدأ ايزنهاور :

من مظاهر تحدي الاستعمار أيضاً للقومية العربية مبدأ ايزنهاور الذي أعلن للشعب العربي في يناير سنة ١٩٥٧ بحجة ملء الفراغ خشية أن تملأه روسيا. فإذا كانت حكومة الولايات المتحدة قد أدركت بحق أن ما اقترفته انجلترا وفرنسا من المنكر ، باعتدائها على مصر قد انهار معه كل ما كان لهما من سمعة أو مكانة في العالم العربي ، فإنه ليس من الإدراك السليم أن تتوهم أمريكا أن سقوط تلك المكانة قد ترك فراغاً في مصر أو في البلاد العربية فإن اعتناق نظرية « الفراغ » هذه يجعلنا مع الأسف نعتقد أن في ساسة أمريكا نقطة ضعف نحو حلفائهم وميلاً إلى الاقتناع بترهاتهم ، فنظرية الفراغ تقوم على رأي استعماري قديم وطالما اتخذ المستعمرون من هذه النظرية حجة لبسط طغيانهم ولسلب الأمم حريتها واستقلالها . وكان جديراً بأمريكا أن تفطن إلى هذه الخدعة ، ولا تصغي إلى تلك الحجج الواهية .

ولا شك أن الوطنيين العرب عدّوا هذا جرحاً لشعورهم وتدخلاً سافراً في شئونهم ، فهم الذين يستمدون آمالهم من إيمانهم بأن في مقدورهم بل من واجبهم أن يحلوا محل أي نفوذ أي أجنبي . وكان هذا المبدأ بمثابة تذكرة الدواء ضد الشيوعية ، وتكفلت أمريكا بصرف الدواء الذي هو عبارة عن تقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية للدول التي ترضى بهذا المبدأ ، ولكن الهدف الحقيقي المكمل لهذا المبدأ هو خلق قوة في المنطقة تقف في وجه مصر وتعزلها .

يقول الصحفي الشهير ر. ك. كارانجيا [1] : « بعد أن فشل العدوان الثلاثي تحركت الحكومة الأمريكية التي كانت تترقب تطورات الموقف ، وأعلنت مشروعاً شيطانياً كان يرمي إلى السيطرة على المنطقة ، وهو الذي دعي بعد ذلك بمشروع ايزنهاور » .

وكانت الغاية من هذا المشروع أن الفراغ الذي ينحسر بعد انهزام دولة استعمارية في الشرق ، يجب أن تملأه دولة أخرى ، لا أن يملأه أصحاب البلاد أنفسهم. وأما غرضه فالمحافظة على المصالح الأمريكية في الشرق ومنابع البترول فيه ، بالقضاء على كل حركة تحريرية ، وبمساندة الملوك والتعاون معهم ، ومحاربة الشعوب التي تعارض المشروع ، وإبقاء الدول العربية ممزقة مختلفة ، والقضاء على فكرة الحياد في المنطقة ، وأخيراً الحلول محل المصالح الانجليزية والفرنسية التي أصبحت في دور التصفية ، واستتباب الأمر والسلطان للسياسة الأمريكية وامتداد السيطرة الأمريكية على البلاد العربية وبعض البلاد المجاورة من المغرب إلى الهند [2] .

ومهما يكن من أمر فقد ولد هذا المبدأ ميتاً إذ سرعان ما فطن العرب إلى أن هذه وسيلة أخرى من وسائل الاستعمار ينبغي الحذر منها والعمل على إبطال مفعولها .

٧ – أمريكا الاستعمارية تجهر بعدائها للعرب وتتآمر مع إسرائيل :

حرب يونيه (حزيران) ١٩٦٧

هكذا فشلت سياسة أمريكا في منطقة الشرق العربي ، وانكشفت ألاعيبها

---

(١) الفجر العربي ، ص ٢٣ .

(٢) انظر نفس المصدر ، ص ٢٤ .

على حين أن القومية العربية كانت تحرز نجاحاً بعد آخر سواء فى الداخـــل أو الخارج فمصر رائدة القومية العربية خرجت من محنة العدوان الثلاثي وقد تدعم مركزها أكثر من ذي قبل ، وقطعت آخر خيط كان يربطها بالاستعمار، ومصر قاومت بشدة مبدأ ايزنهاور الذي كان يرى ضرورة « سد الفراغ » في الشرق العربي بعد فشلِ الانجليز والفرنسيين في حملتهم على السويس عام ١٩٥٦، ومصر أصبحت عاملاً مؤثراً قوياً في توجيه سياسة القارة الأفريقية ، وتنبيه دولها إلى أخطـــار التسلل الأوربي والأمريكي والإسرائيلي عن طريق الاحتكارات الاقتصادية ، وتحذير الحـكام الأفريقيين دائماً من ألاعيب الاستعمار ، ودسائسه ومؤامراته .

وهنا مرة أخرى تتلاقى مصالح الاستعمار وإسرائيل في ضرورة الوقوف في وجه مصر ، والحيلولة دون انطلاق القومية العربية . وكل ما في الأمر أن الولايات المتحدة الأمريكية في هذه المرة هي التي أخذت على عاتقها أن تلعب الدور القذر الذي سبق أن لعبته انجلترا وفرنسا في تحريك إسرائيل ، ومدهـا بالعون والعتاد لخدمة أغراضهـا التوسعية الاستعمارية ، وفرض صلح دائم مع العرب ، وإجبارهم على الاعتراف بإسرائيل كدولة قائمة في المنطقة .

ثم تتوالى الأحداث،وتتكرر الاعتداءات الاسرائيلية علىسوريا فيكونذلك عاملاً فعالاً في التضامن العربي بين سوريا ومصر ، ويُعقد اتفاق للدفاع المشترك بين البلدين ، يهدف إلى درء الخطر الصهيوني عن هذا القطر الشقيق .

واعتماداً على أمريكا ظلت إسرائيل سادرة في غوايتها ، فلم تُقِم وزناً للقيم الإنسانية ، ولم تعبأ بالهيئات الدولية ، فاعتدت اعتداء شنيعاً على السكان العرب الآمنين في سوريا والأردن ، وقصفتهم بطائراتهـا في وحشية تفوق في بشاعتها أفعـال البرابرة المتوحشين . وأخيراً هددت باحتلال دمشق بحجة ملاحقة الفدائيين .

وهكذا أخذ تهديد إسرائيل لسوريا يأخذ مظهراً خطيراً ، وقلقت الشعوب العربية ودولها خصوصاً بعد أن تواردت الأخبار على لسان المسئولين في الاتحاد السوفييتي والتي كانت تنبىء بأن إسرائيل تعد لهجوم كبير على سوريا ، وأن هذا الهجوم على وشك الوقوع . وإزاء هـــذه التهديدات الخطيرة نهضت مصر بواجبها التاريخي ، وأعلنت تصميمها على الوقوف إلى جانب سوريا لمقاومة قوى البغي والعدوان . ثم تحركت الجيوش المصرية ورابطت في سيناء ، وتبع ذلك إغلاق مضايق تيران ، وكان ذلك يعني خنق تجارة إسرائيل واقتصادها .

واستمرت الاحداث تتطور بسرعة ففي آخر مايو (أيار) هبط الملك حسين في القاهرة ، وأذيع فجأة أن اتفاقية للدفاع المشترك قد عقدت بـــين الأردن والجمهورية العربية المتحدة ، وأسرعت العراق أيضـاً فانضمت لتلك المعاهـدة فتنسق بذلك العمل بين هذه الدول .

أمريكا تتدخل تدخلاً معيباً لصالح إسرائيل :

أسرعت أمريكا حامية إسرائيل حتى لا يفاجئها العرب بالهجوم فقدمت مشروعاً لمجلس الأمن يدعو جميع الأطراف إلى التهدئة ، لكي يتاح لهذا المجلس وللدبلوماسية الدولية بأن تلاحق الخطوات الأخرى اللازمـة لتهدئة الحـــال والاتجاه إلى السلام . وحين آوى النـــاس إلى مخادعهم في مساء الرابع من يونيه (حزيران) كان آخر ما وصل إلى أسماعهم ذلك النبأ الذي أذيع من واشنطن ويفيد: « إن الرئيس جونسون أكد أن الولايات المتحدة تكرر تعهدها بالمحافظة على الحدود الإقليمية لكل دول المنطقة بالشرق الأوسط ، وأنها لن تكون إلى جانب الدولة المعتدية » . وكان تصريح الرئيس الأمريكي هذا يمثـــل القمة في استعمال ألفاظ الخداع الدولي على مستوى العالم كله ، والدخول في مؤامرات وضيعة لتحطيم شعوب وبلدان وإذلالها لصالح عصابات مغتصبة ، وجماعـات

فرضها باطل هزيل . يقول الاستاذ صالح مسعود أبو يصير : « لعـــل التاريخ لا يعرف مثل هذا الأسلوب من الخداع الخطير الذي استعملته أمريكا ضد الأمة العربية طوال أيام الأزمة وإلى صباح الخامس من يونيو (حزيران) حيث اتضح كل شيء . لقد دبرت إسرائيل أمرها ، وخططت لحرب مفاجئة بعد أن بذلت هي وأمريكا كل ما في وسع الفكر من أساليب الخديعة طوال أسبوعين كاملين»[1].
ففي الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم المشئوم كانت الطائرات الإسرائيليـــة تهاجم جميع المطارات المدنية والعسكرية في الجمهورية العربية المتحدة ، واستطاعت أن تغير عليها جميعاً في وقت واحد وبأسراب متلاحقة ، وبذلك قضت على كل مقاومة ممكنة من الجيوش العربية ، وحلّت الكارثة ، وكانت شديدة الوقع على جميع أبناء الأمة العربية والشعوب الإسلامية في كل أنحاء العالم .

الأمة العربية تقرر في ٩ يونيه مواصلة الكفاح :

في هذا اليوم استجاب الرئيس عبد الناصر لنداء الشعوب العربية وهي في غمرة الحزن وعميق الأسى ، فعدل عن استقالته ليظل رمزاً حياً لصمود العرب وتصميمهم على الثأر وغسل العار وتحرير الديار .

ولقد جاء مؤتمر القمة الذي انعقـــد في الخرطوم في التاسع والعشرين من أغسطس (آب) مؤكداً هذه الحقيقة إذ أعلن تضامن الأمة العربيـــة جمعـاء ورفض الصلح مـــع إسرائيل ومواصلة الجهاد ضد العدو حتى يتم النصر بإذن الله .

وإذا كان إطلاق النار قد توقف بين إسرائيل والدول العربية ، فإن شعب

---

(١) جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، ٥٣٦ .

فلسطين كان هو صاحب الأرض المغتصبة ، وهو الذي شاء له القدر أن يكون خط الدفاع الاول عن أمة العرب والإسلام . هذا الشعب لا يعترف بإيقاف إطلاق النار ، وليس لأحد أن يمنعه أن يقف في وجهه ، فإن المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الأجنبي عمل شرعي أقرته الشرائع،واعترفت به الأمم المتحضرة. وشعب فلسطين الذي بدأ نضاله المسلح منذ أن بدأت بريطانيا سياسة التهويد في بلاده لا يقدم الآن على عمل جديد ، ولكنه يمتشق سلاحه على عادته ليواصل ثورته التاريخية ، وليوصل جهود اليوم بجهاد الأمس [1] .

وها نحن الآن قد طهرنا صفوفنا ، واستمدنا ثقتنا بأنفسنا ، وأعدنا بناء قواتنا العربية بناء جديداً وعنصراً جديداً . ومهما حاولت أمريكا تسليح إسرائيل بطائرات الفانتوم وغير الفانتوم فلن تخيفنا لأننا قد عاهدنا الله ووطنا العزم على استخلاص حقوقنا بأيدينا ، وإعادة فلسطين عربية لأصحابها العرب الأبطال ، ولن تستطيع أية قوة على ظهر الأرض أن تحرمنا هذا الحق. « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » .

وبعد ... فإن هناك نتيجة هامة نريد أن نصل إليها قبل أن نختم هذه الكلمة ، وهي أن شهوة الاستعمار لا تزال تحرك النفوس ، وتتسلط على العقول وأن هذا الاستعمار بعد أن كالت له الحركات التحررية والقومية اللطمة إثر اللطمة ، أخذ يتستر وراء العملاء الذين يخشون خطر الوحدة القومية ، ويرون أن هذه الوحدة تقضي على كيانهم ، وتنهي وجودهم . وبعبارة أوضح تحالف الاستعمار مع الرجعية كما سنبين الآن .

---

(١) انظر كتاب جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، ص ٥٥٧ - ٥٥٨ .

ج ــ الرجعية

الاستعمار والرجعية صنوان متلازمان ، فمنذ أن دنس المستعمرون بأقدامهم أرض الوطن العربي ، وهم يسعون إلى اصطناع فريق من الرجعيين ، قد فقدوا الوطنية وتحجرت ضمائرهم ، وطبعت نفوسهم على الشره والطمع ، ومالوا إلى تحقيق الجاه والوصول إلى السيطرة من أيسر السبل ، وبأحط الوسائل وأدنأ الطرق ، فوضعوا أيديهم في أيدي المستعمرين ، ورضوا على أنفسهم الخيانة والغدر ، وإلحاق الضرر بأوطانهم بغية عرض زائل ومنفعة مادية عاجلة .

وهكذا كان هؤلاء الرجعيون أذناب الاستعمار ، العون الدائم الذي يتغلب به الاستعمار على الشعوب العربية ، لأنه هو الذي خلقهم ، وهو الذي قسم هذه المنطقة بينهم بعد أن كانت قطعة واحدة وأرضاً واحدة ، فوضع بينها حدوداً مصطنعة ، وولى عليها من أذنابه من يكفلون له مقاماً بينهم ، ظناً منه أنه يستطيع بذلك أن يدفن القومية العربية ، ويفتت كيانها [١] .

ولا شك أن أفراد هذا الفريق هم أشد أنواع الرجعية شراً وأكثرها ضرراً ذلك لأن الاستعمار يتخذهم أداة لتنفيذ أغراضه الاستعمارية ، وقنطرة يعبر عليها للتسلل إلى صفوف القيادة والحكم ، وفرض سيطرته السياسية والعسكرية والاقتصادية على الوطن العربي .

---

(١) انظر مقدمة الرئيس جمال عبد الناصر لكتاب الفجر الجديد ، تأليف الصحفي الشهير ر . ك كارانجيا ص ٩ .

وهؤلاء الرجعيون لا يعملون علناً ، بل يتخذون الشعارات الزائفة قناعاً يتسترون وراءه ، ويغتنمون الفرص لكي يظهروا على حقيقتهم، فيكونوا حرباً عواناً على إخوانهم الوطنيين ، ومن ثَمّ يلجأون إلى العنف واستخدام السلاح والالتجاء إلى أساليب الدس والتآمر .

كذلك كانت هناك رجعية أخرى تتمثل في أبشع صورها قبل قيام الثورة في مصر عام ١٩٥٢ ، ونعني بها رجعية كبار الرأسماليين والإقطاعيين ، وهؤلاء يقفون دائماً في الصف المعادي لمصالح الشعب ، ويصلون إلى مراكز النفوذ والحكم ليواصلوا جشعهم، ويحافظوا على مصالحهم وإقطاعهم، وكانت هذه هي الديمقراطية المشوهة المزيفة التي يُحرم في ظلها أبناء الشعب، وهم الكثرة الغالبة من أن يجدوا بين هؤلاء الرجعيين من يدافع عن مصالحهم أو يفكر في العمل لتحسين أحوالهم. يقول الميثاق : « وكان الإقطاع يملك حقوله ، ويملك لنفسه خيراتها ، ولا يترك لملايين الفلاحين العاملين عليها غير الهشيم الجاف المتخلف بعد الحصاد ... وكان رأس المال يمارس ألواناً من الاستغلال للثروة المصرية بعدما استطاع السيطرة على الحكم وترويضه لخدمته » .

فلما قامت الثورة في مصر ، حاولت أن تخفف من حدة هذه الفئة الرجعية والحد من جشعها ، فأصدرت أول الأمر عدة تشريعات من أجل تضييق الفروق الشاسعة بين الطبقات وتحقيق نسبة معقولة من العدالة الاجتماعية . فماذا كانت النتيجة ؟ تحايل الرجعيون ، وكانت الجماهير بمطالبها الملحة تعود إلى التقـــدم فتتظاهر الرجعية بالاستسلام على حين أنها كانت تتحفز لنكسة جديدة تعيدها إلى مكان أفضل حيث تواصل استغلالها الشره واحتكارها الذي لا يشبع على حساب مجموع الملايين . يقول الميثاق : « إن ضراوة الصراع الطبقي ودمويته والأخطار الهائلة التي يمكن أن تحدث نتيجة لذلك ، هي في الواقع من صنع الرجعية التي لا تريد التنازل عن احتكاراتها وعن مراكزها الممتازة التي تواصل منها

استغلال الجماهير » .

« إن الرجعية تملك وسائل المقاومة ، تملك سلطة الدولة، فإذا انتزعت منها لجأت إلى سلطة المال ، فإذا انتزعت منها لجأت إلى حليفها الطبيعي وهو الاستعمار . إن الرجعية تتصادم في مصالحها مع مصالح مجموع الشعب بحكم احتكارها لثروته ، ولهذا فإن سلمية الصراع الطبقي لا يمكن أن نتحقق إلا بتجريد الرجعية أولاً وقبل كل شيء من جميع أسلحتها ... إن تحالف الرجعية ورأس المال المستغل يجب أن يسقط،ولا بد أن ينفسح المجال بعد ذلك ديمقراطياً للتفاعل الديمقراطي بين قوى الشعب العاملة وهي الفلاحون والعمال والجنود والمثقفون والرأسمالية الوطنية » .

وهكذا كانت الإجراءات الحاسمة في يوليو سنة ١٩٦١ بصدور مجموعة القوانين الاشتراكية التي وضعت الأمور في نصابها ، وأعادت إلى الشعب حقوقه المغتصبة ، وأطلقت القوى الاجتماعية الهائلة حرة طليقة تحيى حياة الشرف والكرامة ، وتجهر بأعلى صوت : « لا ظلم ولا استعباد ولا سخرة بعد اليوم » .

لقد سقطت قبضة النصف في المائة عن المجتمع المصري ، ومن المؤكد أنها سقطت إلى الأبد ، ولا يمكن أن تقوم سلطة في هذا الوطن تعيد الأرض إلى الإقطاع أو تعيد النفوذ إلى الرأسمالية المتجبرة ، أو تفرض على الفلاح أو العامل أن يرتد إلى العبودية ، فيضع يده مرة أخرى في السلاسل والأغلال .

وإنه ليحز في النفس عندما يتذكر العربي الحر موقف الرجعية المخزي في سوريا ؛ فقد استطاعت أن تتكتل وتنفث سمومها وتدبر الدسائس والمؤامرات حتى أصابت الوحدة بنكسة الانفصال . فعادت الأوضاع مرة أخرى في سوريا

إلى الفوضى والاضطراب . ومنذ اليوم الأول بل منذ الساعات الأولى لهذه الحركة المشئومة ، وقفت فلول الرجعية خارج سوريا إلى جانب الحكومة السورية الرجعية تعترف بها وتبارك خطوتها . ولا شك أن الدول الغربية كانت وراء هذه المؤامرة إذا أخذت تعمل على إقامة قلاع من الخونة في داخل البلاد العربية ، لتمزق العرب ، ولتفيد من الناقمين الحاقدين حتى لا تتوحد الصفوف ضدها .

ثم كانت مؤامرة الحكومة السورية الرجعية في اجتماع مجلس جامعة الدول العربية في شتورا ، وشكواها ضد الجمهورية العربية المتحدة تلك الشكاوى التي لم يكن هدفها سوى تزييف النضال العربي،وتشويه المكاسب والانتصارات التي حققتها الجماهير العربية في ظل الوحدة الاشتراكية .

هناك أيضاً جماعة من النهازين للفرص ، يروجون الإشاعات الكاذبة لغرض سيء في نفوسهم ، ويثبطون الهمم ، ويدعون إلى التخريب ، ويقاومون تيار التقدم متذرعين ببعض الحجج البالية والشعارات المزيفة فهؤلاء رجعيون خطرون يجب علينا أن نحذرهم،ونضرب على أيديهم دون هوادة لنخلص المجتمع من شرورهم وأكاذيبهم .

كذلك نلحق بهؤلاء الرجعيين تلك الفئة التي تتخذ الدين ستاراً للكيد للقومية العربية ، وإقرار الظلم والاستغلال ، وبذر بذور الخلاف والشقاق بين أبناء الوطن الواحد . يقول الميثاق : « إن الرجعية العربية تحاول أن تستغل الدين – ضد طبيعته وروحه – لعرقلة التقدم وذلك بافتعال تفسيرات لهتتصادم مع حكمته الإلهية السامية. لقد كانت جميع الأديان ذات رسالة تقدمية،ولكن الرجعية التي أرادت احتكار خيرات الأرض لصالحها وحدها،أقدمت على جريمة ستر مطامعها بالدين ، وراحت تلتمس فيه ما يتعارض مع روحه ذاتها لكي توقف تيار التقدم... ولا يرضى الدين بطبقية تورث عقاب الفقر والجهل والمرض

لغالبية الناس ، وتحتكر ثواب الخير لقلة منهم » .

فعلينا أن نقف بالمرصاد لكل هذه المحاولات الرجعية للقضاء عليها . وإذا كنا قد تخلصنا من رؤوس الأفاعي المستعمرين ، فسوف ننجح لا محالة في القضاء على أذنابهم الرجعيين . « إن اليقظة الثورية كفيلة تحت كل الظروف بسحق كل تسلل رجعي مهما كانت أساليبه ، ومهما كانت القوة المساعدة له » . (الميثاق : الباب السادس) .

وهكذا يتحتم علينا أن نظل في يقظة دائمة ، وأن نضاعف من قوتنا واستعدادنا لأن غفلة الشعوب أكبر محرض على العدوان .

● ● ●

مصادر الباب الخامس

١ – ابراهيم أحمد العدوي (دكتور) : حركات التسلل ضد القومية العربية، المكتبة الثقافية ٥٠ (القاهرة ١٩٦٠) .

٢ – أحمد خاكي: فلسفة القومية العربية ، سلسلة اخترنا لك، الكتاب ٥٥ .

٣ – أحمد فريد علي (دكتور) : الجامعة العربية بين القوى الرجعية والقوى الشعبية ، سلسلة كتب قومية العدد ١٨٢ .

٤ – أحمد كمال أبو المجد (دكتور) دراسات في المجتمع العربي والوحدة العربية (القاهرة ١٩٦١/١٩٦٢) .

٥ – ادوارد سيدهم (دكتور) : مشكلة اللاجئين العرب ، سلسلة كتب قومية ، العدد ٢٦٥ .

٦ – أمين مصطفى عبد اللا (دكتور) وصلاح الدين نامق (دكتور) وعبد الحميد لطفي (دكتور) : الاشتراكية العربية (القاهرة ١٩٦٥) .

٧ – جمال عبد الناصر (الرئيس) : الميثاق الوطني .

٨ – حسن صبحي (دكتور) : التآمر الصهيوني ضد الأمة العربية (١٨٨٢ – ١٩٦٧) ، بيروت ١٩٦٨ .

٩ - ديلامي اوليري : الفكر العربي ومكانه في التاريخ : ترجمة الدكتور تمام حسان (القاهرة ١٩٦١) .

١٠ - ساطع الحصري : أبحاث مختارة في القومية العربية، القاهرة ١٩٦٤ .

١١ - سيجريد هونكه (دكتوره) : شمس الله على الغرب ترجمة الدكتور «فؤاد حسنين علي» تحت عنوان فضل العرب على أوربا (القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م) .

١٢ - السيد حجاج (النقيب) : عدم الانحياز ، سلسلة كتب قومية ، العدد ١٩٠ .

١٣ - صالح مسعود أبو يصير : جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، بيروت ١٣٦٨هـ - ١٩٦٨ م .

١٤ - عادل حسن غنيم : قصة اللاجئين، سلسلة كتب قومية، العدد ١٥٧ .

١٥ - علي محمد علي : فلسطين بين عصبة الأمم والأمم المتحدة، سلسلة كتب قومية ، العدد ١٩٤ .

١٦ - على محمد على وإبراهيم الحصاني : فلسطين في ماضيها وحاضرها الصهيوني سلسلة كتب قومية العدد ٢٦٦ .

١٧ - كارانجيا (ر.ك.) : الفجر الجديد ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٦١ .

١٨ - لفيف من أساتذة كلية الآداب بجامعة عين شمس : دراسات في المجتمع العربي (القاهرة ١٩٦٠) .

١٩ - مجموعة من أساتذة كليتي الآداب والاقتصاد والعلوم السياسية : دراسات في المجتمع العربي (القاهرة ١٩٦١-١٩٦٢-١٩٦٤) .

٢٠ - محمد منير العصره : سياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز، سلسلة

كتب قومية ، الكتاب ١٢٨ (القاهرة ١٩٦١) .

٢١ - مصطفى الخشاب (دكتور) : دروس في مقومـات المجتمع العربي ونظمه (القاهرة ١٩٦٢) .

٢٢ - نور الدين حاطوم (دكتور) . المراحل التاريخية للقومية العربيـة معهد الدراسات العربية (القاهرة ١٩٦٣).

٢٣ - وعد بلفور ، حقيقة المؤامرة الصهيونية البريطانية على فلسطين، نشر مصلحة الاستعلامات .

★ ★ ★

البَابُ السَّادس

المجتمع العربي

تحليل لمقوّماته الحضارية

المجتمع العربي
تحليل لمقوماته الحضارية

محتويات البحث

مُقـدّمَة

نحن نعيش عصر العلم ... عصر الاذاعــة والتلفزيون ... عصر الذرة والالكترون ... عصر الصواريخ والأقمار وسفن الفضاء . وهو عصر أشبع غرور الأنسان ، فملأه زهواً بما تمخضت عنه عبقريته ، واعتزازاً بما هو وليـد عزمه وثمرة همته .

وقد أبرز التقدم العلمي الفذ مشكلة الحياة الأنسانية على أوسع نطاق،وحرك من جديد رغبة الانسان الجياشة في النقاش والجدل حول مصيره : آماله وآلامه وأحلامه ، حقوقه وواجباته ، الحرية التي ينبغي أن ينعم بها مفهومها وحدودها، المساواة التي يطمح الجميع اليها ، كنهها ومراميها .

هذة المعاني وأشباهها هي ما يطلق عليه المخلصون من أعلام الفكر الأنساني « القيم الانسانية » . ويلوح أن الانسان في هذا العصر الذري أخذ يتشبث بهذه القيم فضاعف البحث في استكناه أصولها واستطلاع ضرورتها . وتجلى ذلك فيما تعاقب على هذا العصر من أزمات سياسية حادة هزت الضمير العالمي ، وكشفت عن نوايا الاستعمار الخبيثة وفضحت وسائله الخسيسة . وقـد تيقظت الشعوب الصغيرة – ما ظفر باستقلاله ، وما لا يزال منها يجاهد من أجل الاستقلال – فروعها أن يقترن التقدم العلمي الجبار بتخلف انساني مؤسف عنـد مجتمعات عديدة أبى المستعمر الا أن يدعوها بالمجتمعات المتخلفة .

وقد نجحت « القيم الانسانية » في أن تجذب إليها ملايين البشر في جميع أنحاء العالم ، فأصبحنا نسمع الصيحات تتردد في المحافل الدولية تنادي باعلاء شأن الانسان وصون كرامته ، وتحقيق الرفاهية الاقتصادية للشعوب التي ظلت فترة طويلة ترزح تحت نير الاستعمار .

هذه اليقظة الاجتماعية التي لاحت بشائرها في الأفق أن هي الا دليل حي على صدق شعار الحكيم سقراط « أعرف نفسك بنفسك » . فإن معرفة الانسان لنفسه تبرز له قيمته ، وتحفظ له عزته ، وتصون له كرامته ، فتجعله يسمى حثيثاً إلى أن يرضي ضميره بعمل الخير لنفسه ولجماعته وللجماعة الانسانية كلها .

لذلك ينبغي لنا نحن أبناء المجتمع العربي في افريقيا وآسيا أن نتشبث بالقيم الانسانية الروحية التي نبعث أصلاً من الشرق مهد الديانات السماوية ومنبع الحكم الكنفوشيوسية . وعلينا من ثمة أن ننادي بأن تكون نهضتنا لا نهضة علمية مادية فحسب ، بل ونهضة روحية انسانية أيضاً ، تعززها تربيتنا القومية .

ألا فليعلم شبابنا الجامعي أن الحضارة مادة وفكر ، مبنى ومعنى ، علم وخلق . ونحن قوم ناهضون ولا يمكن أن نجني ثمار نهضتنا بحيث نؤدي واجبنا نحو الأجيال المقبلة إلا إذا ربطنا برباط وثيق بين جانبي حضارتنا العربية : العلم والروح .

* * *

ومجتمعنا العربي الذي يتاح لطلابنا دراسته من زوايا وجغرافية واقتصادية وتاريخية وسياسية أحوج ما يكون إلى تلك النظرة الفلسفية الواعية التي تنفذ إلى لب هذه الدراسات لتستخلص منها العناصر الأصيلة التي تحقق لمجتمعنا تكاملاً في بيئته ورخاء في حياته وسعادة لأفراده .

وليس في وسعنا بالطبع أن نطيل عليكم في دراستنا للمجتمع العربي على أساس حضاري تكاملي ، وانما حسبنا أن نزودكم باطار منهجي عـــام تعرض عليكم في كنفه بعض جوانب من الدراسات الاجتماعية في هذا المضمار راجين أن أن تكون لكم بمثابة مرشد مخلص في استكمال ثقافتكم تباعاً على أساس من النظرة العلمية النزيهة والوعي القومي اليقظ .

وعلى هذا سنتناول معكم في هذه المحاضرات .

١ ـ **فلسفة الوحدة العربية** من حيث أن هذه الفلسفة تحفز هممنـــا للبحث في مقومات مجتمعنا ، وتدفعنا إلى أن نخطط لمستقبلنا على أساس متين ودعامـــة وطيدة .

٢ ـ ونبسط على حضراتكم طبيعة **المنهج العلمي** الذي يحتم على الباحث التزام أصوله في ميدان الدراسات الاجتماعية العربية .

٣ ـ ونتناول بعد ذلك تحليل **المفهوم الحضاري** الذي ينير لنا السبيل لاستطلاع أهم جانب من جوانب حياتنا الحضارية إلا وهو :

٤ ـ **مستوى المعيشة** من زواياه العديدة : سكاناً وغذاء وصحة وثقافة .

٥ ـ ثم ننتقل بكم إلى **التخطيط في المجتمع العربي** فنتحدث عن ضرورته وأدواته وأهدافه من أجل تحقيق حياة أفضل للملايين من شعوب هذا المجتمع .

٦ ـ وأخيراً ننظر معاً في **القيم الاخلاقية** الأصيلة التي تنبثق من نفحات الشرق الروحية ، لنتبين معاً أهمية الاعتزاز بهذه القيم وتنميتها وصقلها تحقيقاً للرخاء الأجتماعي .

والله نسأل أن يوفقنا لاثارة شغف حضراتكم لطلب المزيد من المعرفة في هذا الميدان الخصب الذي يستأثر باهتمام كل عربي .

١ ـــ فلسفة الوحدة العربية

تتمثل الوحدة العربية في ذلك الروح العربي العام الذي يسري في جوانح أبناء الشعوب العربية من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي ، فالوحدة من ثم حقيقة تاريخية حضارية لا نزاع بصددها .

بيد أن لهذه الوحدة معالماً ، وقد انطمست هذه المعالم في غضون التـاريخ عند شعب وآخر من تلك الشعوب ، فكانت جذوة الوحدة متقدة ، ولكنها أشبه بجمرة تحت رماد كثيف هاله الاستعمار ، وما اقترن به من تدهور الثقافة وانتشار الجهل وتفكك عرى الوعي .

وقد أفضى استقلال معظم الشعوب العربية بعد جهاد وانتشار التعليم رويداً رويداً وارتقاء المستوى الثقافي شيئاً فشيئاً ، أفضى هذا إلى يقظة الوعي العربي، فاتقدت جذوة الروح العربي من جديد حيث تلاقت الآمال ،وتعانقت الأحلام، وأخذ كل شعب من الشعوب العربية الناهضة يبحث عن الأصول الثقافية العربية المشتركة ، ويعيد النظر في البرامج التعليمية التي وضعت في كنف الاستعمار ، فيؤسسها على دعامات عربية أصيلة .

من هنا نرى ان ارتفاع مستوى الثقافة بعد التحرر من ربقة الاستعمار نبه أذهان العرب الى تراثهم الثقافي الخالد ،فبرئوا أو كادوا يبرأون من عقدةالنقص التي لازمتهم فترة من الزمن ، وغدا الانتهال من مناهل العلم المتقدمعندالغرب مقروناً بثقة ثابتة في أن مقومات الحضارة العربية كفيلة بأن تصهر هذه المناهل في بوتقتها فتتبلور بعد ذلك عربية خالصة .

أننا لنؤمن بأن انتشار الوعي الثقافي المتجانس بين الشعوب العربية المتلاقية المتعاطفة هو بمثابة العروة الوثقى التي تعزز وعي هـــذه الشعوب فيتأكد فيها الروح العربي حيث تنعكس اشعاعاته في الوحدة العربية .

ان الثقافة العربية مجال حيوي يشمل العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه ، ولئن كان العلم لا وطن له من حيث تمثل العلم في الطبيعة والكيمياء والطب والهندسة . الخ ، العلوم المادية والرياضية فإن الثقافة الإنسانية لا بد أن يكون لها وطن وهي مرتبطة بتراث حضاري معين . وقد تتدفق في تيار هذه الثقافة – ولا بد أن تتدفق – موجات فكرية متمايزة ، ولكنها مع ذلك تجري في تيار واحد منسق . فليس معنى أن يكون هناك ثقافة عربية واحدة إلا تتعدد ألوان الثقافات التي تحتويها وتشملها . فمن البداهة أن تكون هنالك تيارات فكرية ذات خصوصيات في العراق ومصر وسوريا ولبنان وفلسطين والسودان والأردن والسعودية وتونس وليبيا والجزائر واليمن وسائر البلاد العربية ... ولكنها بمثابة ألوان وظلال تلتقي عند لوحة فنية عبقرية تزيد حسناً وبهاء كلما تعددت ألوانها واختلفت ظلالها ، تعدداً واختلافاً لا يخل بما يتمثل في اللوحة ككل متناسق من تناغم بين الألوان وانسجام بين الظلال .

ان الوحدة العربية ترتكز من ثمة على التراث العربي الثقافي . ومن هنا وجب تحرير الثقافة العربية من المغالطات التي نفذت سمومها في غفلة من الوعي العربي . ان معنى ثقافة عربية واحدة ، وجدان واحد ، آمال وأماني ، آلام وأحلام ، تتدفق من الماضي السحيق عبر الحاضر فتستحث الهمم للتطلع إلى مستقبل أفضل .

وتعزز الدراسات الانثروبوجية والأدبية والاجتماعية هذه الحقيقة . إذ أن العناصر الثقافية العربية منبثة في الأوطان العربية متصلة باهتمامات شعوبها من المحيط الأطلسي حتى حدود ايران ، بل وقد سرى أيضاً إلى بعض مناطق شرق أفريقيا وسواحل الهند وجنوب شرق آسيا واندونيسيا وسنغافورة . وتعد هذه المناطق الاخيرة نقط ارتكاز ومطارح امتداد للثقافة العربية .

ومن الملاحظ أن الثقافة العربية قد انتشرت عبر البحر أكثر مما انتقلت بطريق البر . ويدحض هذا الفرية الشائعة بأن أمة العرب أمة إبل وقوافل وليست

أمة ملاحين . هذه حقيقة تاريخية مستخلصة من أيام الحضارة اليمنية منذ كان الخليج الفارسي عربياً ، وان لشعوب تلك المناطق فضلاً عظيما في نشر الثقافة العربية .

والمفهوم من هذا أن للثقافة العربية مجالاً حيوياً كانت وحدته حقيقة مشعة حين كان الوعي العربي يقظاً مستنيراً . فكانت الأفكار والآراء والمذاهب تسري سراعاً بين مختلف الأقطار العربية . فلما تهافتت الحياة السياسية والفكرية في كثير من البلاد العربية ضعفت النفوس وتخاذلت الهمم واتجه الناس الى ثقافة الغرب لا معتزين بعربيتهم مؤمنين بوحدتهم ، بل شاعرين بنقصهم في ذلة واستكانة . ويلاحظ أن الفترات التي وهنت فيها الثقافة العربية اقترنت بتفكك في الحياة السياسية وتحلل في الحياة الفكرية .

وتعاقب على هذا الضعف الذي دب في أوصال الشعوب العربية ، اختلاف وشقاق وتنابذ زاد في حدتها الاستعمار التركي ، وكان أسوأ ألوان الاستعمار أثراً على الحياة الثقافية . فقد نخر في كيان الثقافة العربية وحمل معه عناصر التفكك والتحلل والانهيار ، ففقد العرب ثقتهم بأنفسهم إذ غدا الأتراك سادة والعرب أتباعاً . وجاء الاستعمار الغربي فكان حريصاً من البداية على تفتيت بقايا الروح العربي فطعن الشعوب العربية في الصميم بتضييق الخناق على الثقافة العربية ووأد جوانبها الروحية . وبذل الاستعمار الغربي من أجل ذلك محاولات عديدة مقصودة نكتفي فيها بالإشارة إلى محاولات فرنسا في شمال أفريقيا وفي سوريا ولبنان ، ومحاولات انجلترا في مصر والسودان والعراق والبحرين وسائر المحميات .

بيد أن الثقافة العربية أصيلة مرنة ، تحتمل المد والجزر ، فهي ما ما كادت تنكمش حتى انبسطت من جديد . وما من شك في ان لوحدة اللغة الفضل في صون هذه الثقافة . وتعد هذه الوحدة دعامة وطيدة للحضارة العربية . ألسنا

نستطيع إلى يومنا هذا أن نقرأ معاً الشعر الجاهلي الذي عبر عن الوجدان العربي منذ أكثر من خمسة عشر قرناً ، فنتذوقه ونستشف منه خصال البطولة والشجاعة والصبر والمروءة والكرم . وليس كذلك أمر الانجليزي أو الفرنسي أو الألماني. ان في اللغة العربية من عناصر الانطلاق والتحرر والنمو والتطور ما لا يكاد يتمثل في لغة أخرى من اللغات الحية . واللغة العربية هي أقدم اللغات الحية باستثناء اللغة الصينية ، **ولكن للعربية تراثاً عظيماً لا نجده في الصينية .**

إن في وسع الثقافة العربية أن تختلط وتمتزج بغيرها من الثقافات ، ولكنها ثقافة متكاملة تستفيد وتفيد دون أن تفتقد روحها وقسماتها .

والثقافة العربية ثقافة روحية ، بمعنى أنها ثقافة قيم ومعان ومبادىء أخلاقية ، وقد كان الغرب حريصاً على أن ينتزع من نفوسنا الإيمان بروحياتنا ، فصور لنا العلم تصويراً مادياً فحسب ، وزين لنا أن الانطلاق الحضاري إنما يكون بالتقدم المادي وحده . **ونحن اليوم في مستهل نهضتنا العلمية لا يسعنا إلا أن نحفز الهمم للتقدم العلمي المادي ، حريصين في الآن نفسه على الاعتزاز بتراثنا الروحي ، ففيه اصالتنا ، ومنه تنجم وحدتنا .**

على أساس الإيمان بهذه الفلسفة ، فلسفة الوحدة ، يمكن لرجال الفكر من أبناء الشعوب العربية والعاملين في الميادين العلمية والثقافية أن يسلطوا الأضواء على مشكلات المجتمع العربي ، لإنعاش اقتصادياته والارتقاء بمستوى معيشته . ومن أجل هذا تتكتل الجهود **للبحث العلمي في الميادين الاجتماعية** . ونحن نلحظ اليوم بعين التفاؤل عناية طيبة تبذلها الدول العربية في هذا الصدد . وإذا كان عصر المجتمعات لا يقاس بالسنين بقدر ما يقاس بالأجيال ، فإننا لو نظرنا إلى مجتمعنا العربي منذ عشرين سنة ، ولو نظرنا إليه اليوم لتبينا مدى ما قطع هذا المجتمع من تقدم عظيم في خلال هذه السنوات القليلة . فلننظر إذاً في طبيعة هذا المجتمع على ضوء الدراسات الاجتماعية المعاصرة .

٢ ــ المنهج العلمي في البحث الاجتماعي

من الملاحظ أن كثيراً من الدراسات الاجتماعية في البلاد العربية قد باءت بالفشل لأنها نهضت على غير أساس علمي ، وعلى غير قاعدة من الأصول المنهجية السليمة . لذلك كان لا بد من بث الوعي العلمي في الدراسات الاجتماعية حتى تأتي هذه الدراسات معبرة تعبيراً صادقاً عن الواقع الاجتماعي . وتكون بذلك حافزة للهمم من أجل التخطيط والإصلاح .

لقد قطعت العلوم الطبيعية شوطاً بعيد المدى في تقدمها ، بفضل ضبط تجاربها واستخلاص القوانين بالاستعانة بالملاحظة الدقيقة والاستقراء السليم . وأخذت العلوم الاجتماعية منذ استهلال هذا القرن تسترشد بالمنهج الوصفي الذي نجح في ميدان العلوم الطبيعية مستهدفة بهذا أن تصل إلى نتائج في مثل ما وصلت إليه تلك العلوم من دقة وضبط . فشاعت في الدراسات مصطلحات علمية دالة على مفهومات دقيقة من قبيل : التفاعل ، التركيب ، الدينامية والمتغيرات . وغدت الأساليب الاحصائية قاعدة للبحث الاجتماعي .

بيد أن المجال في البحث الاجتماعي مختلف عنه في البحث الطبيعي . فخامة البحث الطبيعي خامة مادية من الميسور التحكم فيها وإخضاعها لقواعد المنهج العلمي من ملاحظة وتجريب . أما موضوع البحث الاجتماعي فهو المجتمع البشري وهو خامة فكرية عاطفية تتميز بالمرونة والتشكل والتغير ، ولذلك استلزم البحث الاجتماعي الاستعانة بالفروض الفلسفية والجدل العقلي ، ومن هنا كانت الدراسة في الميدان الاجتماعي أشق وأصعب .

ولو أننا نظرنا في المنهج التجريبي العلمي لرأينا أنه ينهض على تحليل ظاهرة بعزلها وضبطها والتحكم فيها . ولنأخذ على ذلك مثلاً دراسة العلاقة بين حجم الغاز وضغطه ، فإن هذه الدراسة تستلزم عزل الظاهرة والتحكم فيها وتحليلها

وبذلك يمكن الوصول إلى نتائج في الوسع تكرارها في عين الملابسات والظروف ويؤدي مثل هذا البحث التجريبي إلى استنباط قوانين عامة صادقة في الحالات المماثلة على أساس أن عوامل الزمان والمكان ثابتة لا تتغير .

ولو أننا طبقنا هذا المنهج التجريبي في المجال الاجتماعي بنفس الطريقة بحيث تعزل العناصر المكونة للحياة الاجتماعية فنخضعها للأختيار والتجريب والضبط مثال ذلك أن ننظر في الجوانب التالية : — أثر المهنة في اختيار موضوعات القراءة - العلاقة بين تفتيت الملكية الزراعية والهجرة إلى المدينة - علاقة المستوى الاقتصادي بفرض التعليم ... لو أننا حاولنا ذلك لواجهنا مشكلة على جانب كبير من الخطورة . فإن عزل العناصر إذا جاز في الميدان المادي ؛ فهو متعذر بل مستحيل في الميدان الاجتماعي .**فان العناصر الاجتماعية متداخلة متشابكة متفاعلة مرتبطة فيما بينها في أعماقها ارتباطات معقدة** . وعلى ذلك فهناك موقف اجتماعي متكامل لا بد من استطلاع جميع زواياه بالبحث الاحصائي ومناقشة الاحصائيات على ضوء المقارنة والموازنة والقياس ، ويستلزم ذلك من الباحث ثقافة واسعة وخبرة عميقة وصبراً طويلاً .

ان البحث الاجتماعي أشبه بتلك الحلقات التي نستبينها حين نلقي بحجر في ماء بئر فإن هذه الحلقات تنتشر حتى تشمل البئر كله . وعلى ذلك فنحن لو جعلنا دائرة بحثنا في موضوع : « ماذا يتعلم الذين يذهبون الى المدارس ؟ » تعين علينا تحليل نظام التعليم ، والنظر في أنواع المدارس ، وتشريعات التعليم ، وعدد المدارس وإعداد التلاميذ وكيفية إعداد المعلمين ، ووسائل الإيضاح المستخدمة .. إلى آخر ما هناك من موضوعات متفرعة تسلمنا إلى دوائر أخرى لا تقل أهمية إذ ينبغي لنا النظر في الأهداف القومية المتمثلة في فلسفة التعليم من حيث إعداد المواطن الصالح . ولا بد لنا من النظر أيضاً في طبيعة النشاط الاقتصادي في المجتمع وصلته بالتعليم .

من هذا يتضح لـكم مبلغ ما في مجتمع مامن تعقد وتشابك بحيث أن الدراسة التشريحية وحدها لاتغني والدراسة الفسيولوجية أيضاً لا تكفي ، فلا غنى عن دراسة بيولوجية عامة لأنظمة المجتمع من حيث ترابطها وتأثيرهـــا في النظام التعليمي مثلاً .

من أجل ذلك اتجه علماء الاجتماع المعاصرون الى المنهج التكاملي بحيث ننظر الى المجتمع على انه صورة عامة تشمل عناصر عديدة ، وتستمد هذه العناصر وظائفها ودلالتها من حيث صلتها بالصورة الكلية التي هي ثمرة تفاعل هذه العناصر كلها . وفي المنهج التكاملي يستعين الباحث بالأصول العامية المتبعة في العلوم الطبيعية ويضيف إليها الدراسات التاريخية والجدل العقلي والخبرة.

وإذا شئنا أن نحقق نجاحاً لأبحاثنا في مجتمعنا العربي فعلينـــا أن نلحظ الاعتبارات التالية :

أولاً : يجب التحفظ في استخدام أدوات البحث من استبيانات واستخبارات واستمارات ومقابلات ، واختبارات عقلية ونفسية وضعت جميعهـــا لمستوى حضاري معين . وعلى ذلك فنجاحها مرهون باستخدامها في هـــذا المستوى . ومن ثمة فلا يصح النظر إلى هذه الأدوات والوسائل على أنها أجهزة دقيقة مثل الترمومتر في مقياس الحرارة . فنحن إذا استعنا باستمارات لحصر مساحة الأرض الزراعية وأنواع المحاصيل التي تنتجها والماشية والدواب والدواجن والأشجار ، فهل نعتمد في مثل هذه الاستمارات على الفلاح أو العمدة ؟ لو أننـــا اعتمدنا في ذلك على تكهنات كل منهما لجاءت البيانات متنافية تنافياً تاماً مع الواقع .

وعلى ذلك ففي دراساتنا في المجتمع العربي ينبغي لنا أن نراعي البيئات المحلية والمستويات الثقافية وألا نقتبس المقاييس العلمية التي نجحت في مجتمعات أكثر تقدماً كما هي بنصها وروحها .

ثانياً : يتخذ البعض أحياناً عدم استكمال البحث العلمي في مجالات الحياة الاجتماعية ذريعة لتأخير النهوض بالإصلاح الاجتماعي . وهذا اتجاه خطير قد يعطل أداة الإصلاح في كثير من المجتمعات التي يضمها العالم العربي ، وهي أحوج ما تكون إلى التعجيل بالإصلاح . والواقع أن ضرورة استكمال جميع البحوث الاجتماعية العلمية قبل الشروع في عمل ما ، ترف لا مبرر له في ملابساتنا الاجتماعية التي نعيش في كنفها . ان بعض الأسس العامة السليمة والتصور الواضح لما يراد النهوض به تكفي لاستهلال العمل ؛ وستثبت التجربة والممارسة ان الشروع في العمل الفعلي يساعد على تفتيح ابواب للبحث لم يكن في الوسع طرقها من البداية .

فالبحث الاجتماعي في مجالي حياتنا يجب أن يكون بحثاً ضرورياً أصيلاً لا مجرد عمل علمي موضوعي قد ننفق عليه أموالاً طائلة نحن أحوج ما نكون إليها في وجوه الإصلاح العاجلة . ولنسق إليكم مثلاً من «بحوث الترف» التي قد يتورط فيها بعض الباحثين في البلاد العربية :

« هناك من يريد أن يقوم ببحث عن العلاقة بين دخل الفرد الاقتصادي وبين التغذية في البيئات الريفية في الدولة الحديثة النمو . ويمكن أن يكون مثل هذا البحث أداة لإثارة الوعي ، ولكنه إذا كان الوعي متيقظاً لمثل هذا الموضوع ، فهل هو في حاجة إلى بحث علمي تجريبي ؛ تدرس فيه عينة ممثلة ، عشوائية ، أو طبقية ، وتوضع فيه الاستفتاءات وتناقش فيه ، أي النظريات الاحصائية أدق لإيجاد معاملات الارتباط ، وتستعمل فيه الآلات الحاسبة التي لا بد وأن تكون مستوردة بعملات صعبة ، ويجند له عشرات من الباحثين والمشرفين ، والمديرين بمرتباتهم ومواصلاتهم .. الخ ؟

وسوف ينتهي البحث إلى وجود معامل ارتباط عال بين الدخول المنخفضة واستهلاك المواد النشوية ، وبين الدخول المرتفعة والمواد البروتنية ، وبين الدخل

ومدى التعرض لأمراض التغذية إلى غير ذلك من النتائج التي يمكن استنتاجها دون بحث تجريبي استنتاجاً قياسياً أو استقرائياً من خبرات سابقة أو مقارنة ، أو بأي صورة من صور التفكير المنطقي في التراث البشري . فالمشكلة واضحة وما يضطرم به الموقف من مشكلات أخرى تجعل مستوى التدقيق في هذه الناحية ، وفي ذلك المستوى الحضاري من المجتمعات أمراً ثانوياً ..

ولو أردنا مثلاً أن نقوم ببحث تجريبي عن مدى إدراك القرويين للرسوم الكاريكاتيرية أو عن أي الوسائل السمعية البصرية أكثر قيمة في توصيل رسالتها إلى القرويين : الملصقة أو الفيلم الثابت ، أو الفيلم المتحرك ، فهل لهذه البحوث – بصرف النظر عن تصوراتها الأساسية – قيمة جدية تتكافأ مع ما يبذل فيها من جهد وما ينفق فيها من مال ؟ [1] .

خير لنا ان تكون ابحاثنا الاجتماعية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بواقعنا الاجتماعي بعيدة عن الترف العلمي ، جامعة بين النظرية العلمية والتجارب الاجتماعية التي نعيشها . وان تأتي الأبحاث مستجيبة لاحتياجاتنا الفعلية الضرورية . ويفضي بنا هذا الى الاعتبار الثالث .

ثالثاً : الابحاث الاجتماعية في المجتمع العربي يلزم ان تكون ابحاثاً موجهة . ذلك لأننا نسعى الى مستوى افضل من الحياة الانسانية ، ونتوخى ان نقطع في زمن قصير اشواطاً من التقدم في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والخلقية ما يعزز بنية مجتمعنا ويحقق لأفراده رخاء عاماً مشتركاً .

وعلى هذا فليس في الوسع أن تنهض بحوثنا الاجتماعية دون أن يكون لها

---

(١) د . حامد عمار : المنهج العلمي في دراسة المجتمع . معهد الدراسات العربية القاهرة ١٩٦٠ صفحة ٦٧ – ٦٨ .

فلسفة اجتماعية ترسم أهدافها وتحدد غاياتها . مجمل القول أن تجري هذه البحوث في كنف استراتيجية تخطيطية قومية عامة . ولنعرض على حضراتكم مثلاً لضرورة قيام البحوث على أساس استراتيجي ، ما ورد في مذكرة عن « ميادين البحث الاجتماعي المتصلة بالتخطيط القومي » .

« تقترح اللجنة أهم ميادين البحث في جوانب التنمية الاجتماعية ، وتركزها في خمسة عناصر هي : دالة التفضيل ، وأثر الاقتداء ، وحوافز النشاط والعمل ، والنظم الاجتماعية والمقاييس الاجتماعية » . وتبين المذكرة أهمية دالة التفضيل على الوجه الآتي : « من الناحية الاقتصادية يؤدي تغيير الدخل إلى نمط جديد من الانفاق ، ومن الناحية الاجتماعية يدفع كل تغير اجتماعي إلى مجموعة جديدة من الأفعال والاتجاهات السياسية والشعور بالانتماء إلى مجتمع ، ولهذا أهميته وخاصة بالنسبة للتطور القومي ، وله أثر بالغ في النشاط الاقتصادي. والتفضيل يؤدي إلى الطلب الذي يمكن تغطيته عن طريق العرض ، فيجب إذن دراسة نسبة الطلب والعرض من حيث توافرها وأثارها الاقتصادية والاجتماعية .

« وللجماعات تفضيلاتها وطلباتها ، وليست تفضيلات الجماعة هي مجموعة تفضيلات الأفراد الذين تتكون منهم الجماعة ، وإنما هي عملية تجميع وتوفيق ومزج وتمثيل تبدأ من الفرد وتنتهي بالجماعة ، لذلك كان من الواجب دراسة التماسك الاجتماعي وتضامن الجماعة عن طريق النظر إلى تفضيلات الأفراد »[١] .

وفي معرض الحديث عن أثر الاقتداء تشير المذكرة إلى أن ما يجري في البلاد حديثة النمو من تسابق على محاكاة الدول المتقدمة يؤدي إلى رغبة في رفع

---

(١) من مذكرة مقدمة لاجتماع ممثلي الدول العربية لبحث مصادر العلوم الاجتماعية ١٨ – ٢٥ نوفمبر ١٩٥٠ – انظر د. حامد عمارد المصدر السابق ص ٨٥ – ٨٦ .

مستوى المعيشة وفي الانفــاق على سلع الاستهلاك الحديثة . بينما يظل الانتاج القومي كما هو أو لا يصيبه من التقدم والعناية قدر ما ينفق على الاستهلاك، فيترتب على هذا اختلال اجتماعي خطير . وإذن فلا بد من يقظة الوعي بــين طبقات المجتمع جميعاً من أجـــل التوجيه الى الانتاج والتخفيف من الإقبـال على الاستهلاك .

من هذا العرض لطرف من الاتجاه الاستراتيجي نستبين أهمية الفلسفة العامة التي يدور في اطارها البحث الاجتماعي في محيط المجتمع العربي . بحيث لا تكون الأبحاث الاجتماعية علمية جافة على الورق ، بل تأتي متجاوبة مع الأهداف الاجتماعية .

٣ ــ تحليل المفهوم الحضاري

دراسة الحضارة تشغل مكان الصدارة من الدراسة الاجتماعية المعاصرة-ذلك لأن البحث الاجتماعي إنما ينصب على المجتمع الانساني . فالحيوان يعيش في نطاق محدود لا يتخطاه هو نطاق الغرائز، بينما ينطلق الانسان الى دائرة لا حد لها هي دائرة الفكر. والكائنات الحية تولد وقد استكملت أساليب تكيفها مع البيئة التي تعيش فيها بتكوينها الجسماني واستعداداتها الفطرية. ومن هنــا كانت طفولة الحيوان طفولة قصيرة الأمد لا كطفولة الانسان . ونلاحظ عند بعض الحيوانات الثديية كالقردة أنه هناك قدر من التعلم، ولكنه تعلم مستند الى المحاكاة وحدها، فليس ثمة اتصال لغوي وارتباط عقلي بين كبارها وصغارها .

أما المجتمع الانساني فهو مجتمع الحضارة ، يستند أبناؤه الى تراكم الخبرات وانتقالها من جيل الى جيل وترتبها وانتظامهــا بحيث تؤلف التراث الانساني . ولا شك في أن الاحتفاظ بالتراث الحضاري يعجـــل بالتعلم بالاستفادة بخبرات

الاجيال السابقة وتجاربها . وتعلّم الانسان مبني على الفهم . والاتصال اللغوي هو دعامة لهذا الفهم الذي يتم شفاهاً وكتابة . وعلى ذلك نلاحظ أن الطفل ينتقل بفضل التراث الحضاري من كائن حيواني الى كائن انساني اجتماعي يعيش في الحاضر بفضل خبرات الماضي ويحلم بالمستقبل ، يجدد في الحياة ويشكل ويبتكر .

فالحضارة تمثل ذلك الجانب الذي يضفيه الانسان من خلقه وابتكاره على الطبيعة والغرائز ... ولذلك نلاحظ أن حاجات الانسان البيولوجية ترتبط بتراثه الحضاري . ففي مأكله يرتبط قضاء هذه الحاجة بعادات ذوقية من تنظيم وإعداد والاستعانة بوسائل خاصة لتناول الطعام . وكذلك الملبس لا يسعى الانسان إلى ملبسه لمجرد أن يؤدي الملبس وظيفته بل يتفنن في إعداد أثوابه فتختلف الأزياء وتتباين أشكالاً وألواناً باختلاف البيئات والثقافات . وكذلك يصبح الجنس من حيث هو حاجة بيولوجية أمراً لاحقاً لتنظيمات اجتماعية من زواج وطلاق ، وأسرة .

وكما تؤثر الحضارة في أنواع العلاقات والمعاملات الاجتماعية من تحية ومرح ونكتة وهدايا ، فكذلك للتراث الحضاري أثر في تشكيل انفعالات الانسان من غضب وفرح وحزن . وللحضارة أجهزتها المادية المتمثلة في أدوات الصيد والزراعة والصناعة. ولها كذلك أنماطها التكنولوجية سواء أكان المجتمع بدائياً أو متقدماً . فوسائل الانتاج تختلف باختلاف المقومات الحضارية .

ويطلق علماء الاجتماع المعاصرون اسم المنظمات الاجتماعية Social Institutions على المواضعات والمصطلحات والارتباطات التي تتصل بحاجة من الحاجات الاجتماعية ، وهي كذلك أنواع من التفكير والسلوك والاجراءات تتمثل فيما يعرف بالعادات والتقاليد. ومن ثم فليست هذه المنظمات كما هو شائع ذات كيان مادي بالضرورة .

وفي إطار هذه المنظمات الاجتماعيـة ينتظم النشاط الانساني في المجتمعات فهذه المنظمات هي التي تضمن لهذا النشاط استقراراً فلا يكون معتمداً على جهد الفرد فحسب ، وإلا غدت الحياة ثقيلة بطيئة . فالمنظمات الاجتماعيـة هي التي ترتب أنواع النشاط وتضعها في مصطلحات من النظم والسلوك والافعال تيسر للفرد سبيل الحياة في المجتمع . ففي الفرح والعزاء وفي مولد الطفـــل هناك مصطلحات اجتماعية متبعة تعفي الفرد من التفكير في طريقة الاستجابة لهذه المواقف ، وهي على ذلك تقنن سلوك الفرد نحو الغير وسلوك الغير نحوه . وعلى ذلك يدخل في هذه المنظمات على سبيل المثال أيضاً ، اكرام الضيف ، آداب الاتيكيت ، مجالس الطرب ، والخوف من العفاريت وزيارة الأولياء .

والحضارة في أي مجتمع تتألف من مجموعات كبيرة من هـــذه المنظمات الاجتماعية. ولكل من هذه المنظمات إلزام نحو الأفراد إذا خرجوا عليه تعرضوا للعقوبات القانونية أو الأدبية .

وتتركز المنظمات الاجتماعية في تنظيمات اجتماعيـة أساسية . ويتميز التنظيم الاجتماعي بصفة الدوام والاتصال ، وهو من قبيل الأسرة ، الملكية ، المدرسة، وتتصل التنظيمات بمختلف وجوه الحياة من اقتصادية وسياسية وتربوية .

وتختلف الحضارات بعضها عن البعض الآخر ، ويختلف الأفراد في داخل الحضارة الواحدة . فللشخصيات الفردية اعتبارها ومكانتها ، والمجتمع الانساني يمتاز بأن لأفراده خصوصيات تنم عن شخصياتهم رغم انتظامهم في تيار حضاري واحد . ومن هنا كان المجال فسيحاً أمام العبقريات الفردية .

وللمجتمع البدائي حضارته كما أن للمجتمع المتمدين حضارته. وتتميز حضارة المجتمع البدائي بأن تراثه الحضاري ينتقل بالمشافهة وبالخبرة المباشرة. والحضارات البدائية تسعى للتكيف بالظروف الطبيعية المحيطة بها ، فليس لها تراث يمكنها

من التغلب على هذه الظروف . وفي المجتمعات المتمدينة تختلف الحضارة في الريف عنها في المدن ، مثل ذلك أن تقديم الأطعمة في مناسبات التهنئة مفضل على باقة من الزهور .

وتمتاز الحضارة البشرية بتوزيع الاختصاص والعمل بين الأفراد والجماعات. فكل فرد يتثقف ويتعلم بفضل الخبرات الحضارية ويتخصص في جانب من جوانب النشاط الانساني فيفيد ويستفيد. وبفضل هذا التخصص يتحقق التقدم والتطور في حياة المجتمعات البشرية .

ولنوع الحضارة أثر عميق في تشكيل الدوافع والحوافز السيكولوجية. وثمة فريق من علماء الاجتماع ينكر أن يكون للانسان دوافع غريزية أو استعدادات موروثة ، وإنما قدرات الانسان العقلية واتجاهاته الانفعالية ناجمة عن تفاعله مع البيئة الحضارية التي تكتنفه . وعلى ذلك فنظريات علماء النفس التي تعود بالنشاط الانساني الى معين واحد ، مثل نظرية « ماكدوجل » التي تجعل النشاط الانساني منبثقاً من قوى فطرية ، ونظرية « فرويد » التي ترد المبدأ الأساسي للحياة الانسانية إلى مبدأ اللذة والالم ، ونظرية « آدلر » التي تفسر سلوك الانسان بمبدأ السيطرة ، هذه النظريات قد تغفل أهمية التراث الحضاري إذ تفصل بين الطبيعة البشرية من ناحية وبين الحضارة من ناحية أخرى . بيد أن التفاعل بينهما جار لا ينقطع فالطبيعة البشرية نتاج للمقومات الحضارية ، والحضارة نتاج لنشاط الافراد .

ان تحليل المفهوم الحضاري على نحو ما بينا يجعل نظرتنا إلى المجتمع العربي نظرة فيها عمق ينفذ بنا الى مقوماته الحضارية ، من حيث أن الحضارة تعكس طريقة الحياة في جملتها وتفاصيلها في مواصفاتها وقيمها وتنظيماتها .

وفي وسعنا أن ننظر الى حضارة المجتمع العربي من زوايا أساسية ، الزاوية

الاقتصادية ، والزواية الاجتماعية ، والزواية الثقافية ، والزواية السيكولوجية ، والزواية الروحية .

فالزاوية الاقتصادية تقتصر على تحليل جانب المنفعة في علاقات الناس فتتناول ظواهر العرض والطلب والاستهلاك والادخار والاستثمار. فمن الناحية الاقتصادية البحت كان من الأفضل للملك خوفو ولمجتمعه أن يوجه جهوده وعماله وأمواله الى بناء السدود واستصلاح الأراضي بدلاً من أن يوجهها الى بناء الهرم الأكبر . بيد أنه من وجهة النظر السيكولوجية والروحية هناك من المبررات والدوافع ما يجعل بناء الهرم بالنسبة لخوفو ومجتمعه أمراً حيوياً جوهرياً بصرف النظر عن المنفعة الاقتصادية .

أما الزاوية الاجتماعية فيعنيها النظر الى طبيعة جماعات وطوائف المجتمع وما يجري بين أبناء المجتمع من علاقات ومعاملات . والمكانة الاجتماعية للفرد لها أثر عميق في تكييف سلوكه . وربما كان الهدف الأساسي من قانون الاصلاح الزراعي في الجمهورية العربية المتحدة التقريب بين الطبقات وإشعار الأفراد بالتقارب في المكانة الاجتماعية .

والزاوية الثقافية تشمل تيارات الفكر والخبرات والمهارات القائمة في المجتمع وأجهزة انتشار الوعي الثقافي والسياسي. وما يتمثل في الأدب الشعبي من انعكاس لوجدان عميق ينبث في الحكم والأمثال .

والزاوية السيكولوجية تعنى بدراسة سلوك الأفراد والجماعات، والانفعالات والعواطف المرتبطة بتاريخ الشعب وأمجاده ، فقد تقام الاحتفالات الضخمة في المناسبات القومية وينفق عليها أموال طائلة تعد اسرافاً من الزاوية الاقتصادية ولكنها من الزاوية السيكولوجية مجال لتعزيز العواطف القومية .

أما الزاوية الروحية فهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك العلاقة العميقة التي تجذب المخلوق الى الخالق ، وتشكل كثيراً من العادات والتقاليد في حياة المجتمعات . وتربط الانسان فرداً أو جماعة بأمل في المستقبل وبأهداف سامية .

ان حضارة المجتمع العربي هي نسيج من هذه الزوايا جميعها ، وكل زاوية من هذه الزوايا متفاعلة مع سائرها : وعلى ذلك فكلما تعمقنا النظر في مجتمعنا على ضوء هذه الجوانب بحيث نسلط الأضواء على مقوماته الحضارية ونستشف مجالات التفاعل العميقة التي تربط بينها جميعاً في كل متسق ، اننا لو تغلغلنا في اقتصادياتنا ولو نفذنا الى أعماق العوامل الثقافية والسيكولوجية والروحية التي تحرك شعوب المجتمع العربي ، لاستبنا تعاطفاً وتواجداً وتقارباً لا نستبينه بالنظرة العابرة أو بالدراسة التي لا تنهض على تحديد واضح للمفاهيم الاجتماعية الحضارية .

٤ ــ مستوى المعيشة ودلالته الحضارية

في مستطاعنا الآن أن نقبل على دراسة هذا الموضوع الخطير في حياة المجتمعات ألا وهو موضوع مستوى المعيشة . وقد سبق إلى ذهن حضراتكم أن أن مفهوم مستوى المعيشة هو ذلك المستوى الاقتصادي الذي يصل إليه الفرد في مجتمع ما . ولكن النظرة الحضارية تتطلب توسيع هذا المفهوم بحيث يشمل الجوانب الاقتصادية والسكانية والصحية والثقافية جميعاً . ولا ريب أن الحديث يتردد دواماً حول مستوى المعيشة عند أبناء المجتمع العربي ، وانخفاض هذا المستوى عن الحد اللائق .

لذلك سنتناول معاً دراسة جوانب هذا المستوى توطئة لبحث أسس التخطيط من أجل مجتمع أفضل . هذا ويمكن أن تعد دراسة مستوى المعيشة حجر الزاوية في بحثنا هذا عن تحليل المقومات الحضارية للمجتمع العربي .

ويتفق معظم الباحثين على أن مبلغ رقي المجتمعات ومدى مساهمتها في التقدم الانساني العالمي انما يقاس بارتفاع مستوى معيشة أفرادها . وقد اتسع نطاق الواجبات التي تنهض بها الدول فشمل بوجه خاص توجيه العناية القصوى للنهوض بمستوى معيشة المواطنين ، بحيث غدا ذلك هدفاً أساسياً تستهدفه من أجل تحقيق الرخاء الاجتماعي العام .

ولسنا بصدد تحليل مفهوم مستوى المعيشة وبسط التفسيرات المختلفة في هذا الشأن ، وانما حسبنا أن نستخلص تعريفاً متكاملاً لهذا المفهوم بما يتوارم مع دراستنا له من حيث ارتباطه بالمفهوم الحضاري العام. فمما لا شك فيه أن مستوى المعيشة يتحدد بمعرفة مبلغ التوافق بين مطالب الانسان وحاجاته وبين ما يبذله من جهد من أجل اشباعها . بيد انهذا التحديد ذاته لا يخلو من مشقة وصعوبة . فمن الحاجات والمطالب ما هو ضروري وما هو كمالي ، ومن الحاجات والمطالب ما هو مادي وما هو معنوي . والموازين في هذا الصدد تختلف بين مجتمع وآخر بل وتختلف في المجتمع نفسه بين جيلين متعاقبين .

ولكن الواضح أن مستوى المعيشة من الوجهة الحضارية يشمل عنصرين متلازمين متكاملين هما العنصر المادي والاقتصادي والعنصر الفكري المعنوي . وإذا كان ثمة نسبية في تقدير مستوى المعيشة في البيئات المختلفة والمجتمعات المتباينة ، فثمة اصول عامة تكفل تحقيق حد أدنى على أقل تقدير من المستوى الانساني اللائق .

فالعلم يكشف لنا عن الأسس الضرورية للمستوى المعيشي اللائق في التغذية

والسكن الصحي ، والماء النقي ، والطلب الوقائي والعلاجي . ونحن نضيف إلى ذلك توافر العدالة الاجتماعية ، ونشر التعليم وتيسير سبل الثقافة في اجهزتها العامة والخاصة من راديو وسينما وصحف ومسرح ... الخ .

بيد أن ارتفاع مستوى المعيشة إذ يقتضي زيادة الدخـل القومي يستلزم في الآن نفسه بث الوعي في المواطنين بحيث لا ينحرفون في تيار النشاط الاستهلاكي، فهناك جانب تربوي هام ينهض على تكوين العادات الاستهلاكية المفيدة والقضاء على الترف والاسراف في الأستهلاك .

ونعرض على حضراتكم فيما يـــلي بعض دلالات مستوى المعيشة متمثلة في دخل الفرد وحجم السكان والصحة والثقافة ، ونكتفي بتحليل الثقافة كدعامة أساسية من دعامات التكامل الاجتماعي في المجتمع العربي . وقد بينا من قبل أن الثقافة العربية هي القاعدة الوطيدة للتجاوب الوجـــداني ، والتعاطف الروحي بين أبناء المجتمع العربي . وهي الأداة الفعالة ليقظـة الوعي ومن ثم لأرتفاع مستوى المعيشة في جميع القطاعات كنتيجة لازمة لهذه اليقظة .

١ – دخل الفرد :

ويعتبر متوسط دخل الفرد مقياساً هامـاً من مقاييس مستوى المعيشة . ويحسب دخل الفرد بقسمة الدخل القومي على عدد السكان . ولكن هذا الحاصل لا يدل على متوسط الدخل الفعلي لكل فرد ولا على مدى توزيع الدخل على مختلف الفئات . إلا أن هذا المتوسط وإن كانت دلالته رمزية لا فعلية فإنها من حيث التقدير العام لمستوى المعيشة في المجتمع يمكن أن تكون معياراً من المعايير الهامة .

٢ – حجم السكان :

ويعيننا حجم السكان على تقدير زوايا ثلاث في مستوى المعيشة على جانب

كبير من الأهمية . فحجم السكان يمكننا من معرفة عـدد الأفراد المستهلكين للسلع ، ومقدار اليد العاملة المنتجة ، والربط بين حجم السكان ونموه وبـين مصادر الإنتاج . وتحسب الزيادة في عدد السكان كل عام من حسبان الفرق بين معدل المواليد ومعدل الوفيات .

ويذهب علماء الاجتماع والأقتصاد ، إلى أن تنوع الحرف والصناعات والأعمال في مجتمع من المجتمعات دليل واضح على ارتفاع مستوى معيشة . وتصنف الحرف في دوائر ثلاث رئيسية . أ – **الزراعة** ويدخل فيها الغابات والصيد . ب – **الصناعة** من تعدين ومحاجر وأنواع الصناعات المختلفة . ج – **الخدمات** وتضم التجارة والمواصلات ويذهب الباحثون إلى أن المجتمعات المختلفة يشتغل معظم سكانها بالزراعة ، ومن هنا كان المستوى المعيشي فيها أشد انخفاضاً منه في البلاد التي ترتفع فيها نسبة الاشتغال بالصناعة والخدمات .

وثمة علاقة وثيقة بين نمو السكان ومصادر الانتاج ، وأثر ذلك في مستوى المعيشة . فإن زيادة السكان قد يترتب عليها زيادة الانتاج أو نقصه أو احتفاظه بمستواه . « فإذا كان هنالك مجال واسع لاستغلال ثروات طبيعية كانت زيادة اليد العاملة عنصراً هاماً في زيادة الانتاج وذلـك على شرط أن يكون هنالك موارد وامكانيات للأستثمار كافية لتمد القوة العاملة بنسبة متزايده من معدات الإنتاج للفرد العامل ، وبذلك يرتفع مستوى معيشة الفرد حيث يزداد الطلب على السلع والخامات ، وتزداد القدرة على الأدخار والاستثمار ، وهكـــذا ... دواليـــك ...

« أما في الحالات التي لا تتوفر فيها الأستثمارات الكافيـــة لمصادر الإنتاج ومعداته تكون الزيادة في السكان عائقاً دون رفـــع مستوى المعيشة . فكل زيادة محدودة في الإنتاج تمتص أما في صيانـة أدوات الإنتاج أو في الاستهلاك الفردي أو في الخدمات العامة كالتعليم والصحة والإسكان وغيرها من الحاجات

اللازمة للمحافظة على المستوى المعيشي القائم. وبهذه الطريقة لا تتوفر مدخرات واستثمارات يمكن صرفها في مصادر الإنتاج ومعداته .

« فلو تصورنا حسب افتراض بعض الخبراء الاقتصاديين أن النسبة بين قيمة رأس المال وبين الدخل القومي هي نسبة خمسة إلى واحد فإن زيادة عدد السكان بنسبة ١ ٪ في السنة تحتاج للمحافظة على المستوى الموجود فعلاً إلى استثمارات جديدة تقدر ما بين ٤ ٪ و ٥ ٪ من قيمة الدخل القومي ، وإذا كانت الزيادة السنوية في السكان حوالي ٣ ٪ فإنها تحتاج إلى استثمارات جديدة للمحافظة على المستوى الموجود تقدر ما بين ٨ ٪ و ١٠ ٪ من الدخل القومي ، وإذا كانت الزيادة السنوية في السكان ٤ ٪ احتاجت إلى إثمارات تقدر ما بين ١٢ ٪ و١٥٪ من الدخل القومي . وهنا تأتي المشكلة الكبرى وهي مشكلة توفير الأستثمارات وتكوين رأس المال اللازم لزيادة الدخل القومي للمحافظة على مستوى المعيشة القائم على الأقل ، ومن هنا كانت الزيادة في عدد السكان تحتاج إلى جهود جبارة في التخطيط للمحافظة على مستوى المعيشة في المجتمع ومن باب أولى للعمل على رفع هذا المستوى [1] .

هذه حقيقة هامة لا بد أن تسترعي اهتمام حكومات البلاد العربية حيث ترتفع نسبة الزيادة في عدد السكان ، وحيث مستوى المعيشة القائم هو أدنى بكثير من المستوى اللائق . ومن هنا كان لا بد أن ينهض التخطيط على أساس حفظ التوازن بين زيادة عدد السكان من ناحية ، وارتفاع الدخل القومي من ناحية أخرى . والعمل قبل كل شيء في جهد متصل على التعجيل بتنمية الدخل

---

(١) أنظر في هذا . حامد عمار : بعض مفاهيم علم الاجتماع ض ٧٠ – ٧٣ القاهرة ١٩٥٩.

U. N. : Researches For The Economic Development of Underdeveloped Countreies , PP . 45 - 49

القومي بنسبة عالية حتى يمكن تيسير السبل بالتالي لرفع مستوى المعيشة .

٣ – الصحة العامة :

ومن أهم ما يدل على مستوى المعيشة من الوجهة الصحية معدل وفيات الأطفال دون السنة الأولى من العمر ، وترجع معظم وفيات الأطفال إلى عوامل متصلة بالبيئة نتيجة تلوث الغذاء في المرحلة التي تعقب مرحلة الرضاع كما ترجع أيضاً إلى الأهمال في الولادة وإلى عوامل وراثية .

ولمتوسط عمر الفرد في مجتمع من المجتمعات دلالة عميقة على المستوى الصحي في المجتمع . ويساعد على تقدير الحالة الصحية في مجتمع ما معرفة مدى انتشار الأمراض المعدية والطفيلية والوبائية . ويساعد كذلك على هذا التقدير نسبة العمى والعجزة وذوي العاهات .

وتعد الخدمات الطبية في ميدان الوقاية والعلاج دعامة أساسية لارتفاع المستوى الصحي في المجتمع . وتقاس فاعلية هذه الخدمات بمعرفة نسبة الأطباء والأسرة إلى عدد السكان . ويذهب الباحثون في هذا المجال إلى أن الحد الأدنى للخدمات الطبية يتمثل في طبيب لكل ألف نسمة ، وسرير لكل ثلاثمائة . ولا يفوتنا ما يرتبط بالخدمات الطبية من تخصص في مجالات الطب ومن توافر الفنيين والمساعدين من حكيمات وممرضات ، ومن مختصين بالتحاليل المعملية . ولينظر كل منا إلى الجدول التالي ليرى مبلغ حاجة الشعوب العربية إلى النهوض بمستوى الخدمات الطبية من أجل تحقيق التكامل الأجتماعي .

القطـــر	ما يخص كل طبيب من السكان	سنة الاحصاء	ما يخص كل سرير من السكان	سنة الاحصاء
ج.ع.م	٣٥٠٠	١٩٥٤	٦٠٠	١٩٥٣
سوريا	٥٠٠٠	١٩٥١	١٣٧٠	١٩٥١
العراق	٥٩٠٠	١٩٥٤	٨٧٥	١٩٥٢
الأردن	٦٨٠٠	١٩٥٠	٧٣٥	١٩٥٠
لبنان	١٢٠٠	١٩٥٤	١٥٥	١٩٥٢
السودان	٨١٠٠٠	١٩٥٥	١١٠٠	١٩٥٢
تونس	٩٦٠٠	١٩٥٠	٦٠٠	١٩٥١

ومن هذا الجدول الذي يشتمل على معظم الأقطار العربية نتبين أن هــذه الأقطار فيما عدا لبنان ، تحتاج إلى مضاعفة الجهد من أجـــل النهوض بالخدمات الصحية فيها .

٤ – الثقافة واجهزتها :

ذكرنا من قبل أن الثقافة هي الدعامة الوطيدة لتكامـل المجتمع . وكلما ارتفع المستوى الثقافي في جماعة ، نضج الوعي واستقرت الحياة العامة على أوضاع سليمة ، وشق المجتمع طريقه إلى التقدم المتصل . وتكامل الحياة الاجتماعية إنما يتحقق بتكامل شخصيات المواطنين ، واحساسهم بالتوازن السعيد بـــين حقوقهم وواجباتهم .

ومهما أختلف الأفراد في المشارب والميول والمهن والهوايات ، فإنهم يلتقون عند أطار ثقافي عام يؤلف بين جهودهم ويوفق بين رغباتهم ويربط بين بعضهم والبعض الآخر برباط وثيق . أن لكل شخصية قسماتها المميزة لهـــا ، وتمايز

الشخصيات في المجتمع شرط أساس لحركته وفعاليته وتطوره. بيد أن شخصيات المواطنين جميعاً في تمايزها تندمج معاً فيشملها أطار القومية التي تجمع أبناء مجتمع واحد على آمال وأماني وأهداف متجاوبة ومشتركة. ثم ينطلق الجميع إلى دائرة أوسع من هذا يلتقون في رحابها مع سائر شعوب الأرض، إلا وهي دائرة الإنسانية بقيمها العزيزة من خير وعدالة وسلام ومحبة ومساواة وصداقة.

ومن هنا كانت عناية الدول الناهضة بالتربية والتعليم والثقافة على أوسع نطاق. وتتجه الدول في المجتمعات حديثة النمو إلى ذلك بالنهوض بالتعليم وبمحو الأمية والتوسع في الأجهزة الثقافية كلها.

وليس من شك في أن التعليم في المدارس والمعاهد والجامعات يعد المواطنين للمساهمة مساهمة فعالة في الحياة الاجتماعية، بأداء واجباتهم في مختلف المرافق الحضارية، ويؤدي هذا بالتالي الى ارتفاع مستوى المعيشة في مختلف جوانبها. وتعتبر الأمية تقصيراً مشيناً في حق أبناء المجتمع وكلما اتسعت دائرة الأمية كان هذا دليلاً على تخلف المجتمع وعلى شلل مرافقه وهبوط مستواه.

ومع اختلاف التقديرات في مجال الأمية، فإننا يمكننا أن نصطنع بالنسبة لأبناء المجتمع العربي تقديراً متواضعاً، ونعتبر الأمي هو الذي يجهل القراة والكتابة وتخطى الثانية عشرة من عمره. والنهوض بالتعليم في البلاد العربية يقتضي على هذا اجراءين أحدهما وقائي بفرض التعليم الاجباري حتى مرحلة معينة تكفل إعداد المواطن الصالح، والآخر علاجي بمكافحة الأمية بين الكبار تمكيناً لمن فاته القطار من اللحاق بغيره من المواطنين في ركب النهضة.

والتعليم الاجباري هو القاعدة اللازمة للتعليم العام. وتختلف فترة الإلزام بين الدول بين خمس سنوات واثنتي عشرة سنة. والواجب أن يكون الهدف من هذا التعليم تزويد المواطن بالمعارف الأساسية في الميادين العلمية المتنوعة وتهيئته لأداء واجبه كمواطن صالح في مجتمع ناهض. وفي الجدول الاحصائي التالي بيان للمستوى التعليمي في معظم البلاد العربية.

القطر	من ٥-١٤ الى جملة السكان ٪	الابتدائي الثانوي والفني الى جملة ٪	الابتدائي جملة السكان ٪	عدد التلاميذ للمدرس الواحد	التعليم العالي لكل ١٠٠٠٠٠	المتعلمون ١٥ سنة فما فوق ٪
ج.ع.م	٢٣ - ٢٥	١٠,٣	٩,٧	٣٩	٢٣٢	١٩,٩
سوريا	٢٢ - ٢٧	٩,٨	٨,١	٤٥	١٠١	٢٠ - ٣٠
ليبيا	٢٢ - ٢٧	٣,٧	٣,٦	٣٢	–	٥ - ١٠
تونس	٢٤ - ٢٧	٧,٢	٦,٢	٣٨	٤٩	١٥ - ٢٠
السودان	٢٤ - ٢٧	١,٩	١,٨	–	٧	٥ - ١٠
العراق	٢٤ - ٢٧	٥,٢	٤,٤	٣٢	١٠٢	١٠,٩
الاردن	٢٢ - ٢٧	١٦,٨	١٤,٣	٣٩	٤١	١٥ - ٢٠
لبنان	٢٢ - ٢٧	١٧,٤	١٥,٥	٢٧	٣١١	٤٥ - ٥٠
السعودية	٢٢ - ٢٧	٠,٨	٠,٧	٢٦	٢	١ - ٥

من احصائيات هذا الجدول تتضح لنا ضرورة مضاعفة الجهد في الميـــادين التعليمية المختلفة ، لارتباط النهوض بها كما نوهنا من قبل بالنهضة الاجتماعية في مختلف جوانبها .

فإذا انتقلنا إلى أجهزة الثقافة العامة لرأينا أن تنمية هذه الاجهزة من كتب ومكتبات وصحف ومجلات وراديو وتليفزيون ومسارح وسينما يجب أن يسير جنباً إلى جنب مع النهضة التعليمية من أجل ارتفاع مستوى الوعي الاجتماعي . ولا يخفى أن هذه الاجهزة جميعاً تؤدي رسالة تربوية حضارية عميقة الاثر . وهي تساعد على تحقيق الهدف الذي تحدثنـا عنه من قبل ، ألا وهو إعداد المواطن المتكامل المثقف المتجـــاوب في المشاعر والعواطف مع غيره من المواطنين ، والمتعاطف مع القيم الانسانية الاصيلة .

ويمكننا الحكم على المستوى الحضاري لشعب ما بالنظر إلى عدد الكتب التي تصدر عن مطابعه وعدد النسخ التي توزع من كل كتاب ومبلغ ما يصدر فيه من صحف ومجلات ، والخدمات التي تؤديها المكتبات العامة لاكبر عدد ممكن من روادها ، والبرامج الاذاعية والتليفزيونية ومدى تنوعها ودسامة مادتها وارتقاء ذوقها ، والمسرح والسينما والموسيقى من حيث أنها غذاء روحي للمجتمع . وفي الجدول التالي بعض بيانات احصائية خاصة بالصحف والراديو والطباعة والكتب في معظم البلاد العربية يمكن أن نستدل بها استدلالاً تقريبياً على الضرورة العاجلة للنهوض بالاجهزة الثقافية ونشرها على أوسع نطاق .

القطر	ما يخص كل (١٠٠٠) من السكان من الصحف اليومية	ما يخص كل (١٠٠٠) من السكان من أجهزة الراديو	متوسط ما يخص الفرد من ورق الطباعة والكتابة بالكيلوجرامات
ج. ع. م	٢٥	٢٩	٩ و٠
سوريا	٤٤	غير معروف	٢ و٠
ليبيا	٦	» »	٣ و٠
السودان	٢	» »	٤ و٠٠
تونس	٣٣	٢٦	٣ و٠
العراق	٢١	١٣	٢ و٠
الأردن	٩	١٠	٢ و٠
لبنان	٧٧	غير معروف	٦ و٠
السعودية	٢	» »	٧ و٠

مما عرضناه يتضح لنا أن مستوى المعيشة في المجتمع يتبلور فيما يصل إلى أفراد هذا المجتمع من مأكل ومشرب وملبس ، وما يحظون به من صحة . وما

لديهم من وسائل للغذاء الفكري والمعنوي والروحي ، بحيث يساهمون مساهمة فعالة في الحياة الاجتماعية .

ولما كان المجتمع العربي متخلفاً في هذا المضمار ، وتختلف نسبة التخلف بين شعب وآخر من الشعوب العربية ، كان لا بد للدول العربية من أن تبادر بالعناية بالتخطيط الاجتماعي على أوسع نطاق . أي أن يأتي التخطيط شاملاً لجميع زوايا الحياة الاجتماعية المتصلة بمستوى المعيشة . وأن يستند التخطيط إلى معرفة سليمة صحيحة بتطبيق المنهج العلمي في البحث الاجتماعي وبالاستناد في تقرير الواقع الى احصائيات دقيقة عن السكان والمهن ، والدخل القومي ، والامراض والتعليم .. الخ ، فهذه الاحصائيات تعد بمثابة ضوابط لوضع الخطط الفعالة .

وقد جعلت الجمهورية العربية المتحدة من التخطيط دعامة لنهضتها بعد الثورة ، واصطنعت في هذا الاساليب العلمية الحديثة ، بحيث يأتي التخطيط على فترات زمنية محددة ويتمثل ذلك في مشروعات السنوات الخمس . وأصبحت الدولة تشرف على المرافق العامة وتوجهها توجيهاً فعالاً نحو خدمة أكبر عدد ممكن من المواطنين . وقد أخذت بعض الأقطار العربية تتجه نحو استكمال مقومات النهضة الاجتماعية في المجالات التعليمية والصناعية والاقتصادية . والامل معقود أن تتجه البلاد العربية كلها هذه الوجهة فتعمل على رفع مستوى معيشة أبنائها في أقصر فترة ممكنة ، وتتبادل فيما بينها العون وتتبادل الفنيين والباحثين تحقيقاً للهدف المشترك من أجل مجتمع أفضل .

٥ ــ التخطيط من أَجل مجتمع أَفضل

يقتضينا دراسة التخطيط في المجتمع العربي من أجل تكامل المجتمع ، أن نبسط بعض المفاهيم الاساسية التي تجعل طبيعة التخطيط واضحة في الاذهان .

ذلك لان التخطيط معناه العمل على تغيير الاوضاع القائمة في المجتمع ، والقضاء على وجوه التفكك القائمة فيه بالاصلاح العام الشامل .

التعريف بالتخطيط :

بدأ اصطلاح التخطيط يشغل مكان الصدارة من الابحاث الاجتماعية والاقتصادية في البلاد النامية في أعقاب الحرب العالمية الثانية .

والتخطيط معناه تعمق المشكلات الاجتماعية ورسم الخطة لمواجهتها وتحليل الأمراض الاجتماعية وتنسيق الجهود للبرء منها. وهو ينم عن فهم ناقد لحالة المجتمع ووعي سليم بإمكانيات وتدبير صحيح للوسائل التي تكفل الانتفاع بهذه الامكانيات تحقيقاً للرفاهية الاقتصادية وترسيخاً للعدالة الاجتماعية.

والتخطيط الاجتماعي كل متكامل وعمل شامل ونشاط مستوعب يتناول المجتمع في جميع جوانبه ومختلف قطاعاته . ولئن كان الإنسان الفرد يخطط لأهدافه ويتوسل اليها بوسائل خاصة فإن التخطيط الاجتماعي لا تنفع فيه النظرة الفردية ولا تنهض به إلا الجماعة ، فثمة جهاز منسق يتولى هذا العمل ويتفاوت حجم هذا الجهاز سعة وضيقاً بتفاوت حالة المجتمع رقياً وانحطاطاً .

والتخطيط بهذا المعنى لا يتم بفضل جهود جمعيات ومؤسسات وأفراد بل لا بد فيه من هيمنة الدولة وإشرافها . ولذلك فمن الملاحظ في تاريخ التخطيط أنه واجه في بداية الامر معارضة شديدة إذ اعتبر تدخلاً في الحياة الفردية . ولكنه سرعان ما اكتسب الرضى فغدا عملاً انسانياً لم يقتصر أثره على المجتمعات المتقدمة بل أصبح مثلاً يحتذى في البلاد الآخذة في النمو والتي هي أشد ما تكون حاجة إلى النهوض على أساس واضح وطبق خطة مثمرة .

وليس معنى هذا أن التخطيط أصبح أملاً وأمنية تداعب أحلام الجماهير من حيث كونه مجلبة للخير الوفير والنعيم المقيم . فليس التخطيط صورة مثالية

للمجتمع بل خطة منبثقة من واقع هذا المجتمع لا تصنع من الغايات إلا بقدر ما هنالك من امكانيات تكفل تحقيقها .

والتخطيط في لبه وجوهره عملية تعاونية . فما لم يكن هناك تعـاون بين مختلف الأجهزة التي تنهض بتنفيذ الخطط من أهلية وحكومية لدب الخلل فيها وعوق الفساد مراحلها .

إن التخطيط من حيث نهوضه على أساس التعـاون يعني التجاوب مع إرادة المجموع التي تتوخى إعمال التغير الاجتماعي بتوجيه السلوك الإنساني نحو غايات واضحة واستثمار الموارد الماليـة والكفايات البشرية والموازنة بينهـا وبين الاحتياجات . وإذا كان التعاون أساساً للتخطيط ، فالتخطيط وسيلة فعـالة لإصابة أهداف فلسفة اجتماعية معنية .

العوامل الدينامية والتغير الاجتماعي :

وتأسيساً على ما تقدم يتضح لنا أن التخطيط وسيلة فعـالة لإعمال التغير في المجتمع. والتغير الاجتماعي أمر ملازم للجماعة لا يمكن أن تتقدم إلا إذا تغيرت. ومن الحقائق المتعارف عليها أن المجتمع دائماً أبداً في تحول لأنه يشمل عوامـل دينامية تفضي إلى ذلك ونحن إذا تركنا المجتمع على سجيته لتحول فعلاً على مر السنين . ولكننا نعجل بهذا التحول ونوجهه بالتخطيط . فالتخطيط بمثـابة المخصبات التي نضعها في التربة لكي تونع الثمار على أكمل وجه .

والمعروف أن المجتمعات يطرأ عليها ألوان من التغير في وجوه متعددة من حياتها ، فكل مجتمع يشمل عدداً من السكان ، وقد يزيد هذا العدد وقد ينقص بالمواليد والوفيـات . وتتغير النظم أحياناً في مجتمع فيؤدي تغيرها إلى انقلاب في الحياة الاجتماعية داخلها . كل هذا دليل على أن هناك تغييراً اجتماعياً ملازماً لكل مجتمع أياً كان هذا المجتمع في طبيعته ومقوماته وقيمه وحضارته .

ولكن التغيير الاجتماعي يختلف في شكله، فقد يكون هادئاً يتحقق تدريجياً وعلى مراحل، وقد يأتي مباغتاً عنيفاً. وقد يشمل جميع نواحي الحيـــاة في المجتمع وقد يقتصر على جوانب دون أخرى من حياته.

والتطور معناه النمو التدريجي. فنحن نتحدث عن التطور الجسماني والتطور العضوي والتطور العقلي، ونتحدث أيضاً عن التطور الاجتماعي. بيد أننا نلاحظ أن التطور الجسماني والتطور العضوي والتطور العقلي تمضي على سنّة واحدة وتمر بمراحل محدودة بينما التطور الاجتماعي تفضي إليه ملابسات وتكتنفه ظروف تحدد طبيعته.

والتطور في مجتمع يختلف عنه في مجتمع آخر، بينما التطور في الجسم البشري أو الحيواني أو التطور في التفكير لا يختلف بين فرد وآخر. ولا شك أننا متى تحدثنا عن جماعة بشرية فإننا نتحدث عن التطور في هذه الجماعة، لأن التطور هو الحالة الطبيعية التي تكتنفها.

وقد يبدو لنا أن مجتمعات معينة لا تتطور بينما مجتمعات أخرى يتضح لنا فيها عنصر التطور. إلا أننا بالبحث والتحليل نرى في وضوح أن التطور قائم في المجتمعات كلها، ولكن مظاهره تتضح في بعضها دون البعض الآخر. فالمجتمعات البدائية بطيئة التطور بينما المجتمعات الحديثة سريعة التطور. ومجتمع واحـد قد يجتاز في سنوات قليلة مرحلة شاسعة من التطور لم يجتزها من قبل في سنوات عديدة. ذلك لأن ظروف المجتمع هي التي تحدد سرعة تطوره أو بطئه.

ولا شك أننا حين نتحدث عن التطور في المجتمعات الحديثة، وبخاصة في هذه السنوات التي نعيشها ينبغي أن نتنبه إلى تلك الآثار العميقة التي تأتي من تقدم العلم ونهضته في مختلف ميادينه، والتي يترتب عليها حتما التعجيل بحركة التطور في المجتمعات البشرية. ولنأخذ على ذلك مثلاً المجتمع المصري من سنة ١٨٦٠ إلى سنة ١٩١٠ ومن سنة ١٩١٠ إلى سنة ١٩٦٠. ففي الخمسين سنة

الأخيرة تحقق من التطور في وجوه الحياة المختلفة من ثقافية وتعليمية وصحية ووعي اجتماعي وقومي ما لم يتحقق في مائتي عام .

بيد أن كل تطور في أي مجتمع من المجتمعات لا يتم على قدم المساواة في جميع ظواهر الحياة الاجتماعية . فقد يحدث أن يتقدم المجتمع علمياً ويتأخر أدبياً أو خلقياً أو فنياً وقد يحدث العكس . وقد يحدث أن يتقدم المجتمع اقتصادياً ويتدهور أخلاقياً ، وهذا ما يطلق عليه علماء الاجتماع بالفجوات الاجتماعية Social Lags . لذلك نلاحظ أننا في التخطيط الاجتماعي نحرص على تتبع الأسباب التي أدت إلى تخلف المجتمع في ناحية دون غيرها ونضع وسائل العلاج حتى يمكن كفالة التوازن في عملية التطور .

الثورة الاجتماعيه :

وتختلف الثورة الاجتماعية عن التطور في أنها قفزة إلى الأمام ، وانفجار مباغت قد تكون له عوامل دفعت إليه ولكن النتيجة تبرز فجأة ودون مقدمات . والثورة الاجتماعية قد تأتي نتيجة لعوامل خارجية كما تحدث عن عوامل داخلية . والعوامل الخارجية هي الغزو والحرب . فألمانيا مثلاً قد حدثت فيها ثورة اجتماعية ضخمة قلبت المعايير رأساً على عقب . فقد كان لألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية نظام خاص هو الاشتراكية الوطنية وهو نظام مؤسس على الفلسفة النازية ، فلسفة الجنس الآري الأعلى . وتربى جيل بأكمله في أحضان هذه الفلسفة فنشأ مشرباً بها . فلما اندلعت نيران الحرب واكتوى هذا الجيل بها ، وفني عدد ضخم من أبناء البلاد ، وحل الخراب والدمار في مختلف أنحائها ، وتمزقت وحدتها بين روسيا من جهة وانجلترا وأمريكا وفرنسا من جهة أخرى . أدى هذا إلى ثورة اجتماعية . وفي خلال خمسة عشر عاماً احتضن الالمان مبادىء أخرى ، ورفعوا شعارات العمل والبناء ونسيان الماضي ، فاتجهوا إلى استعادة مكانتهم العلمية والصناعية . وأصبح للالمان اليوم مكانة مرموقة في عالم الصناعة والتجارة والعلم . فهذه ثورة اجتماعية تمت نتيجة الحرب .

وقد تمهد للثورة الاجتماعية ثورة سياسية على أنظمة الحكم الفاسدة . فالثورة السياسية هنا لا تؤدي إلى تغيير في الأوضاع السياسية فحسب ، بل تفضي أيضاً إلى انقلاب اجتماعي . فالثورة السياسية إجراء سريع لا بد منه لتغيير نظام الحكم بسحب مقاليده من الأيدي الفاسدة . هذا الإجراء السياسي يعقبه حتماً تطور ضخم يتغلغل في صميم المجتمع . وفي وسعنا أن نطبق هـــذه النظرية على الثورة المصرية . فالثورة المصرية أدت إلى سقوط الملكية وإلغاء الأحزاب على أساس أن الأحزاب وزعت المصالح الخاصة ولم تستهدف المصلحة العامة مما أدى إلى تدهور القيم وتخلف البلاد عن ركب التصنيع .

وبدأت الثورة الاجتماعية على أساس تخطيطي فكانت هناك عناية كبرى بيقظة الوعي القومي وإعداد المواطن الصالح ، واهتمام بالغ بتدعيم اقتصاديات البلاد في جميع المرافق في استثمار الأموال وتنظيم عمليــات النقد والمصارف . واتجهت الدولة إلى كفالة الضمان الاجتماعي بالتقريب بين الطبقات بالقضاء على الإقطاع وبث الروح التعاوني . وركزت الدولة خططها على تصنيع البــــلاد وإسقاط الشعار القديم الذي ظل أجيالاً متعاقبة : نحن بلاد زراعية . والتصنيع يعني البحث عن مصادر القوى وفي مقدمتها القوة الكهربائية ، ويعني زيادة الدخل القومي وارتفاع مستوى المعيشة .

لو نظرنا إلى هذه الأعمال والمشروعات وغيرها من البرامج المستندة إلى أساس تخطيطي علمي لتبينا أن كلا منها مرتبط بالآخر أوثق ارتباط ، وأنهـا تؤدي حتماً مع الأيام إلى تعزيز مكانة المجتمع والارتفاع بمستوى المعيشة .

فالهدف واضح في كل ثورة اجتماعية . ويتم تحقيقه تدريجيـــاً بالبحث عن وسائل التوسع الزراعي والنهوض الصناعي والارتقاء التعليمي والثقـــافي وكل حلقة من هذه الحلقات مرتبطة بغيرها وسلسلة الاصلاح التخطيطي مفضية حتماً إلى ارتفاع مستوى المعيشة بالمفهوم الحضاري .

إن الثورة الاجتماعية هي ثورة إصلاح تسعى إلى الرفاهية الاقتصادية وإلى

شد أزر البنيان الأجتماعي . ولا يمكن للثورة الأجتماعية أن تنجح في تحقيق الاصلاح المنشود وتطوير المجتمع نحو ما هو أفضل ، إلا على أساس من الدراسة الموضوعية والبحث العلمي ووضع البرامج السليمه المدروسة والمشروعات المخططة في جميع القطاعات ، والحرص على كفالة التأمين الاجتماعي والصحي ومحاربة التعطل والتبطل وحماية الطفولة ومكافحة الجريمة فهو إصلاح عام شامل يقصد به غاية معينة هي رفع مستوى المعيشة وهو ما نطلق عليه تغيير المجتمع تغييراً غائياً مخططاً .

التغيير الغائي والتخطيط :

يشتهدف التغيير الغائي رخاء المجتمع بتنمية الثروة الإقتصادية والفكرية ويتم ذلك بتنسيق العمل بين هيئات المجتمع المختلفة من أجل هذه الغاية العامة . وهناك أسس عامة تكفل نجاح المشروعات التخطيطية وتحقيق التقدم الإجتماعي. **أولاً** : الاستفادة من أكبر قدر ممكن من الامكانيات الطبيعية والاقتصادية والبشرية في المجتمع . **ثانياً** : تحقيق العدالة بين أفراد المجتمع وذلك بالتوازن في توزيع الحقوق، والواجبات والألتزامات بين المواطنين وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص . **ثالثاً** : حسن التقدير للأشخاص العاملين . وهو عمل بالغ الخطورة يتمثل في وزن الأشخاص وتقديرهم بمقتضى كفاياتهم ومؤهلاتهم وقدراتهم . ويترتب على ذلك نتائج عميقة في التكامل الإجتماعي . فكلما كان التقدير مضبوطاً صحيحاً كان ذلك حافزاً لذوي الكفايات أما إذا إختل التقدير واضطربت الموازين نجم عن ذلك تثبيط الهمم عند العاملين ، وتقدم المهرجين للصفوف ، فتفشل المشروعات التي بذل في إعدادها الجهد والمال .

والتخطيط الإجتماعي نوعان ، تخطيط عام شامل للمجتمع، وتخطيط خاص لبعض جوانب هذا المجتمع . فالتخطيط العام يشمل المجتمع كلا متكاملاً في جميع جوانبه وفي مختلف وجوه نشاطه . والتخطيط العام يقتض رسم برنامج

شامل طويل الأجل يختص بالأقتصاد والصحة والثقافة . وقد بـــدأت الدول الحديثة تنزل هذا النوع من التخطيط منزلته من عنايتها . فلم يعد هنالك اصلاح مرتجل أو محدود في جانب دون جانب آخر . وإنما أخذت الدول ، وبخاصة في البلاد التي ظلت فترة طويلة متخلفة في نشاطها الاجتماعي نتيجة لوضعها السياسي ، أخذت هذه الدول ومنها الهند ويوغوسلافيا ، والجمهورية العربية المتحده على سبيل المثال – تعني بوضع برامج عامة لسنوات طويلة تستهدف نهضة شامـــلة للمجتمع في جميع قطاعته .

أما في المجتمات التي قطعت شوطاً بعيداً في طريق التقدم والرقى واستقرت الحياة فيها على أسس سليمة من التكامل الاجتماعي ، فإننا نلاحظ أن التخطيط فيها بوضع لمجالات معينة . والمشروعات قصيرة الأجل ميسورة التحقيق .

أن التخطيط العام هو إعادة بناء الشخصية الاجتماعيـــة على أسس سليمة متكاملة ولو إننا نظرنا على ضوء هذه الحقيقة إلى المجتمع العربي لرأينا أن الشخصية الاجتماعية لمعظم الشعوب العربية أحوج ما تكون إلى إصلاح عـام شامل في مختلف المرافق . ولا بد أن ينهض هذا الاصلاح على أساس التخطيط المستوعب ، وعلى ضوء الموازنة بين احتياجات هذه المجتمعات وإمكانياتها .

ولا بد لنجاح التخطيط في المجتمع العربي من أن يكون تخطيطاً هادفاً شاملاً يستوعب جميع القطاعات . ومن ثم نلاحظ أن مثل هذا التخطيط يرتبط بالروح الاشتراكي إذ تعد الدولة مسئولة عــن المواطنين . فتتولى الأشراف على النشاط القومي بحيث توجهه إلى المصلحة العامة . ومن هنا كان الأجدى للدول العربية الأخذ بقواعد الأقتصاد الموجه . وهاكم مثلاً جميلاً ذكره البانديت نهرو في معرض المقارنة بين النظرة الإشتراكية والنظرة الرأسمالية : « الرأسماليون مثلهم مثل من يريدون إنشاء مصنع للأحذية ، فيقومون بدراسة السوق ليبحثوا عــن إحتياجات الناس الذين يشترون الأحذية ، أيهم يشتري حذائين وأيهم يشتري

ثلاثة وما نوع الأحذية التي تعجبهم . وينشأ المصنع بحيث يسد حاجة هؤلاء الناس . ولكن حينما تفكر الدولة في إنشاء مثل هذا المصنع فإنها تعد الحفاة لتوفر لهم الأحذية . وفرق بين من يعد لابس الأحذية ليبيع لهم أحذية أخرى ، وبين من يعد الحفاة » [١] .

والتخطيط بالنسبة للمجتمعات حديثة النمو إلزام وإجبار . فنحن في أمس الحاجة إلى النهضة . وعلى ذلك فالتخطيط في المجتمع العربي ليس مجرد أماني عذاب إنما هو إستهداف لغايات وتوسل إليها بالوسائل الفعالة . والتخطيط على هذا ينهض على قاعدة قومية عامة للتنمية الاقتصادية والإجتماعية ، تنمية مرسومة مدروسة في مختلف القطاعات الحكومية والأهلية والفردية . فيتجه المسئولون إلى تنمية الإنتاج الزراعي والصناعي ، بتحديد مجالات الإنتاج وتوجيهها طبقاً لمبدأ التوازن بين الإحتياجات والإمكانيات . وترقية مستوى المعيشة في جميع مجالاته على نحو ما نوهنا من قبل .

وليس ثمة شك في أن التخطيط يواجه مشكلات عديدة شائكة ويقتضي حرصاً وصبراً وتربية للمواطنين ويستلزم إيماناً ووعياً ونزاهة وإخلاصاً. والأمل معقود أن يشتد أزر التعاون والتضامن بين الدول العربية بحيث تواجه معاً وضع الخطط والبرامج المشتركة من أجل مستقبل أفضل .

الفلسفة الاجتماعية للتخطيط :

ذكرنا من قبل إنه ما من تخطيط إلا وله أهداف يرمي إلى تحقيقها ... هذه الأهداف تشكل الفلسفة الإجتماعية للتخطيط . فلا يمكن لنا أن نتصور

---

(١) محمد فؤاد جلال : أسس التخطيط الاجتماعي - ص ٨٢ ـ محاضرات البرنامج التوجيهي مركز التربية الاساسية بسرس الليان أكتوبر ١٩٥٥ .

تخطيطاً إجتماعياً دون أن تكون له فلسفه . والفلسفة هنا هي التصورات العامة التي نسعى لنملأها بالمضمون الفعلي الحي بعد أن امتلأت بالمضمون الفكري الدافع .

ان إتضاح الأهداف التي نسعى إلى تحقيقها بالتخطيط يؤدي بالتالي إلى إيضاح الأساليب التي نستخدمها في تنفيذه . والتخطيط الإجتماعي وبخاصة في البلاد النامية كمجتمعاتنا تخطيط عام شامل لا يقتصر على قطاع دون آخر . وذلك مراعاة للحقيقة العلمية القائلة أن الظواهر الإجتماعية تترابط وتتداخل بوشائج متينة .

والهدف الأساسي لكل تخطيط هو بلا مراء تحقيق العدالة الإجتماعية ، أعني أن يعتبر الفرد جزءاً من كل فلا يدلل فرد على حساب الكل ، ولا يضحي بمصلحة الكل من أجل مصالح الأفراد والفئات . بل أن العدالة تتمثل بالأحرى في تضحية الفرد ببعض إحتياجات من أجل تكامل الجماعة ، وبغية سعادة المجموع، وليس في الوسع له تصور عدالة إجتماعية إلا على الأسس التالية :

١ – أن تتوافر فرص العمل لكل قادر عليه مع حماية المواطنين من التبطل والتعطل .

٢ – أن يكون هناك توازن في توزيع الدخل القومي بحيث ينطمس التفاوت الصاروخ في توزيع الثروات .

٣ – أن توجد الرعاية لجميع المواطنين في مختلف المرافق العامة بحيث ينهض مستوى المعيشة صحياً وسكانياً وإقتصادياً وثقافياً .

٤ – توجيه العناية للأسرة باعتبارها الحلقه الأولى للمجتمع .

٥ – توجيه الإقتصاد توجيهاً من شأنه أن يكون إستخدام رأس المال مستهدفاً للمصلحة العامة .

ولسنا في هذه الفلسفة الإجتماعية مغالين فأمامنا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي صدر في ١٩٤٨/١٢/١٠ حيث نجد نصاً صريحاً على ضرورة توفير العمل للقادرين وأن يكون الأجر أجراً مرضياً يكفل للعامل وأسرتـــه عيشة لائقة بكرامة الإنسان .

وليس معنى توفير الفرص للعمل إنعدام البطالة إنعداماً تاماً . فمن الطبيعي أن يكون هناك نسبة من البطالة ولكن ينبغي ألا تتخطى هذه النسبة ٥٪ من عدد العاملين حتى يمكن القول بأن المجتمع يوفر فرص العمل لأبنائه .

وعند « كول » عرض لاتجاهات الفلسفة التخطيطية . فهو يذكر لنـا أن بعض من يدعون التخصص في ميدان التخطيط الإجتماعي يرون أن مهمة الدولة تقتصر على الأشراف على المنظمات الرأسمالية من أجل مصالح الجماهير ، ويرى البعض الآخر أن يقوم كل قطاع من قطاعات النشاط الإجتماعي بتنسيق تعاوني بحيث يصبح منها وحدة تعاونية ويوزع رأس المال توزيعاً متكافئاً على أن يرتبط هذا التوزيع بتحقيق أهداف إجتماعية محدده . وفريق ينادي بأن التخطيط لا بد وأن يستهدف إحلال الملكية الجماعية محل الرأسماليه .

ومهما يكن من أثر هذه الإتجاهات جميعاً إلا إننا نرى أن التخطيط الإجتماعي سواء في البلاد الرأسمالية أو الأشتراكية لا يمكن أن يعد تخطيطاً بالمعنى الصحيح إلا إذا توافرت فيه ثلاثة أركان لفلسفة إجتماعية نوجزها فيما يلي :

١ ــ أن يكون التخطيط للمجموع .

٢ ــ أن يأتي التخطيط متوافقاً مع الأمكانيات الفعلية .

٣ ــ أن يتشرب التخطيط بالروح الانساني .

والمجموع معناه فئات المجتمع دون ما إستثناء فبمواجهة الواقع الإجتماعي كما هو عليه بالفعل نرى الناس يتعاونون في إمكانياتهم وفي مطالبهم البيولوجيـــة

والسيكولوجية وفي مبلغ أهمية احتياجاتهم . التخطيط يستهدف رفاهية فئات المجتمع كله والعدالة الإجتماعية تقتضي التضحية ببعض الاحتياجات الثانوية من أجل المطالب الأساسية ، ومعنى هذا ضرورة التضحية بالأقلية من أجل صالح الأغلبية إذا استلزم الأمر ذلك .

ويتحقق ذلك بالعناصر التالية :

١ - أن تستهدف جميع النظم الاجتماعية الارتقاء بالمستوى الاخلاقي والعقلي والبدني للطبقة التي تمثل الغالبية العظمى في المجتمع والتي تعاني من الحرمان .

٢ - لا ينبغي أن يكون هناك حقوق وامتيازات مكتسبة بالحسب والنسب .

٣ - يجب أن توزع المزايا بحيث يمنح الفرد بنسبة ما ينتج وما لديه من قدرة .

على أساس هذه الأركان يمكن أن نقول ان التخطيط موجه لصالح المجتمع. على أنه لا ينبغي أن يكون تدخل الدولة متعارضاً مع الحرية الشخصية . ان تدخل الدولة هنا يقصد به أن تقف موقفاً حازماً وفي حكمة لكي تحول بين المجتمع وبين التفكك والتحلل ومثل هذا التدخل لا يمكن أن يسمى تقييداً للحريات الشخصيات ما دام هدفه إصلاح المجتمع بحيث يعود الخير على جميع أبنائه .

صالح المجموع هو على هذا العنصر الأساسي الذي ينهض عليه التخطيط فإذا ما تساءلنا كيف تضع خطة لتحقيق هذا الهدف لكان الجواب دون تردد أن تكون الخطة منبثقة من حاجاتنا الفعلية وأن تتجه لنفع أغلبية المجتمع من المحرومين ، وأن تستأصل الأوضاع التي ثبت خللها وفسادها . وأن تعمد هذه الخطة إلى تحقيق المساواة فعلاً لا قولاً ، وأن تحيل الصراع المحتدم بين الطبقات إلى تعاون مثمر بأن تقضي على استغلال الانسان لأخيه الانسان متجهة بقواه وخبراته إلى استثمار الطبيعة .

أن يأتي التخطيط متوافقاً مـــع الإمكانيات الفعلية : معناه أن يكون التخطيط تابعاً من معرفة واضحة سليمة مضبوطة غير مبالـغ فيها بامكانيات المجتمع فنتفادى بذلك الخطط الطوبائية المنقطعة الصلة بالواقع الاجتماعي ولكن هل معنى هذا أن تقيدنا بالامكانيات القائمة بالفعل يحول بيننـا وبين استخدام عنصر المخاطرة ؟

ليس المقصود بارتباط التخطيط بالامكانيات ، أن تحصر أهدافه في حدود متواضعة وأن يصحبه شيء من التردد والاشفاق ، فإن التخطيط في صميمه أمل في مستقبل .

ان فلسفة التخطيط هي فلسفة الاقدام والجرأة والتطلع ، فلا بد أن يصحبه عنصر من المخاطرة . كما ينبغي أن نجعل الحرية دعامة من دعامات التخطيط على أن تفهم الحرية فهماً اجتماعياً سليماً . أي أن تكون الحرية إطار المنفعة المشتركة في حدود التجاوب بين الشخصية الفردية والشخصية الاجتماعية . وأن يكون إحساس المواطن هو إحساس التوازن بين الحقوق والواجبات .

وتأسيساً على ذلك نقول أن المواطن من حيث هو شخصية فردية كلما تعمق وعيه بمكانته في المجتمع وبواجباته والتزاماته نحو مجتمعه كان إحساسه أعمق بحريته . ومن هنا ينهض التخطيط على التوعية التي تجعل المواطنين مقبلين في رضى على أداء التزاماتهم والتضحية ببعض احتياجاتهم وحقوقهم من أجل خير المجموع .

تشرب التخطيط بالروح الانساني :

يرى «جون شتراس» في كتابه عن الاشتراكية المعاصرة ، أن المقياس النهائي الذي نقيس به تقدم الأمة ينبغي أن يتبلور في طابع المواطنين وشخصياتهم . وتاريخ الفكر الاقتصادي من «آدم سميث» إلى «ماركس» و«كينز» يكشف عن

حقيقة جديرة بالملاحظة وهي أن رجال الفكر الاقتصادي والفكر الاشتراكي ماديين ومثاليين لم يعنوا بالجانب الذاتي والأخلاقي وهو الجانب الإيجابي لمشكلة التخطيط .

ويشير «لويس ممفورد» في كتابه «تحويل الانسان» الى أن حضارة العالم الجديد قد تخلق – خلال عملية تحول الانسان والمجتمع – طاقة روحية جديدة طاقة جبارة وليدة تسفر عن إمكانيات لا حد لها كانت خبيئة في الذات البشرية مثلما كان الراديوم خبيئاً في العالم المادي لقرن من الزمان مضى بالرغم من أنه كان موجوداً على الدوام .

وعلى ذلك لا ينبغي أن نحكم على مستوى المعيشة في مجتمع بمقدار المتع المادية والرفاهية بل بميزان القيم الأخلاقية . ولعل لحكمة غاندي هنا وقعها فهو يرى أن المعنى الحقيقي للمدنية لا يتمثل في تكاثر الاحتياجات بل في الحد منها عن عمد وطواعية .

فاشباع رغبة من الرغبات يقود الى رغبة أخرى بحيث يستبد الجشع بالبشر . فتأكيد « غاندي » للقيم الاخلاقية والروحية ينم عن حقيقة اجتماعية جليلة الشأن وهي أن القيم الاقتصادية والمالية بدون القيم الاخلاقية والروحية تغدو أطلالاً بلا حقيقة . وإلى مثل هذه الدعوة يتجه « والتر ليبمان » موضحاً حاجة الديمقراطيين الى الإيمان بالحقائق غير المادية أو القوى الروحية المميزة عن القوى المادية .

والكل اليوم يجمع على أن الاستثمار الانساني أهم بكثير من الاستثمار في السلع «فلويس ممفورد» في بحثه «باسم التعقل» يرى أن استمرارنا في السير وراء القيم المادية وحدها، بدون تدعيم مبادىء القيم الانسانية والروحية في الحياة، سيفضي إلى أن ثمار العلم والتكنولوجيا بدلاً من أن تنشر الصحة والحيوية في التنظيم الاجتماعي ستفسد مصادر الحياة وتقود الى خراب .

وينصح «الدوس هكسلي» في كتابه : «زيارة جديدة للعالم الجديد» بتطوير القيم الانسانية في المجتمعات الريفية الصغيرة فإن هـذا أيسر من تطويرها في المدن الكبرى ، حيث الميل الى الافراط في النظرة الاجتماعية ذات الصبغة الآليـة . من أجل هذا اتجه « غاندي » الى أن يكون التطور في الهند مختلفاً عن الطريق التقليدي للتصنيع الضخم في الغرب، فاتجه الى مجلس القرية والتعاونيات. وبدلاً من أن تلفظ القرى الناس لتمتصهم المدن تبعاً للضغط الاقتصادي الناجم عن البطالة تتطور حيـاة القرية إلى نمط أسمى من التنظيم الاقتصادي والاجتماعي. فالملاحظ أن أهل الريف حين يجبرون على النزوح الى المدن الكبيرة تتكدس المشكلات الاجتماعيـة وتتفاقم ، ولذلك يرى « الدوس هكسلي » اننا إذا شئنا أن نتجنب الاجداب الروحي للأفراد والمجتمعات ، فينبغي أن نترك العاصمة وننعش مجتمع القرية الصغير .

ألا أن اللمسة الانسانية هي خير تعبير نختم به موضوع التخطيط فبدونهـا لا تكون له قيمة ولا تكون حياة .

٦ ــ القيم الاخلاقية والرخاء الاجتماعي

موضوع القيم الاخلاقية من الموضوعات الشائكة في هذا العصر العلمي المادي الذي نعيش فيه فقد تعقدت الحياة الاجتماعية واضطربت الموازين الدولية وتباينت تأويلات العدالة والسلام والحرية . وقد ذكرنا من قبل أن المجتمعات المتقدمـة المتكاملة تنهض نظمها وعلاقاتهـا على أسس وطيدة من النزاهـة والاخلاص والإحساس بتجاوب الحقوق والواجبات عند المواطن . فإذا كانت هذه الأسس الاخلاقية لازمـة في المجتمعات المتقدمة فهي ألزم للمجتمـع العربي وهو في مستهل نهضته .

ومن المؤسف أن بعض المشروعات الاصلاحية قد أتت بعكس المقصود منها

لنقص في الاخلاص وافتقار للنزاهة عند القائمين بها. فربما كانت هذه المشروعات مبنية على أسس من الترف العلمي الذي أشرنا إليه من قبل فجاءت غير متوافقة مع البيئة الاجتماعية ، فضلاً عن قصور في أداء الواجب وفي الإقرار بالفشل من أجل معاودة النظر بالتعديل في المشروع أو العدول عنه الى غيره. وقد أثبتت التجارب أن ثمة تفككاً أخلاقياً في الكثير من جوانب حياتنا يرجع إلى أسباب معقدة . وعلى ذلك فعلينا حين ننهض بالتخطيط الاجتماعي أن ترتسم في أذهاننا ضرورة العناية بالتربية القومية الاخلاقية عناية قصوى .

والواقع أن يقظة الوعي الاجتماعي تقترن بالتكامل الاخلاقي . ويتمثل هذا التكامل في ظواهر اجتماعية عديدة تتكشف في العلاقات البسيطة والمعقدة التي تجري بين أبناء المجتمع . من ذلك مثلاً النظام العام في الحياة اليومية، من حيث الالتزام بقواعد المرور ، وانتظار الدور في ركوب السيارات العامة والترام ، وأمام شباك التذاكر في السينما والمسرح والملاهي ، وعدم التكالب على اختزان المواد التموينية لمجرد انتشار الاشاعة بنقصها . ومن ذلك أيضاً حرص الموظف على أن يكون في خدمة المواطنين، وأن يجعل من ضميره أولاً وبالذات رقيباً على حسن أدائه لواجبه ، وتفاني المدرس في النهوض بمهمته على الوجه الأكمل ، وإحساس الطبيب بأن المهنة التي ربط بها حياته هي في صميمها مهنة إنسانية يقصد بها الخدمة العامة قبل أن يقصد بها الكسب. وأن ثمة واجباً على الطبيب والمهندس والمحاسب والمدرّس نحو المجتمع الذي هيأ لهم سبيل العلم أن يسهموا كل في اختصاصه في خدمات الريف والصحارى إسهامهم في خدمات المدينة .

الخلاصة أننا نجد في جميع قطاعات المجتمع أساساً ينهض عليه العمل الصالح وتنجح بفضله المشروعات . هذا الأساس هو الاخلاق . ولا شك أنه كلما تقدم الوعي الاخلاقي في مجتمع ، نجحت مشروعات التخطيط فيه وحققت أهدافها في أقصر فترة ممكنة .

ونحن إنما نوجه النظر إلى ضرورة التشبث بالقيم الاخلاقية بعد ما اكتوينا

بقسوة التجربة التي تمرّ بها مجتمعاتنا العربية حيث تنتشر طرائـق الرشوة ، والإهمال والسفسطة ، والتهريج على ألوان وأشكال عديدة وفي قطاعات حياتنا المختلفة . ومن هنـــا كانت دعوتنا إلى أن تقترن النهضة العلمية المادية بنهضة انسانية أخلاقية وإلى ضرورة الارتقاء بمرافق التربية القومية والرياضية والفنون المسرحية والموسيقية ، فإن هذه جميعاً وسائـل وغايات معاً لصقل شخصية المواطن وتعزيز المعاني الاخلاقية الكريمة في أعماق ذاته .

وبعد .

فقد استعرضنا معاً جوانب من الدراسات الاجتماعية من حيث اتصالهـا بمجتمعنا العربي . وأملنا معقود على أن يواصل شبابنا الجامعي البحث والفهم والاقتراح في ميادين حياتنـا جميعاً . وأن تتكتل الجهود لتحقيق الرخاء الاجتماعي للمواطنين العرب في ظـل وحدة الماضي والحاضر والمستقبل . وليس هذا على الله بعسير .



أهم مراجـــع الباب السادس

ابراهيم حلمي عبد الرحمن : مبادىء عامة في التخطيط . رسائل لجنة التخطيط الفني ١٩٥٧ .

الأمانة العامة للجامعة العربية : حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية — بحوث وتوصيات .

برهان غزال التطور الاقتصادي الاجتماعي في دول الجامعة العربية ١٩٥٧ .

حامد عمار : التخطيط الاجتماعي في النطاق القومي والمحلي. مركز التربية الأساسية بسرس الليان ١٩٥٨

بعض مفاهيم علم الاجتماع — معهد الدراسات العربية ١٩٦٠ .

المنهج العلمي في دراسة المجتمع — معهد الدراسات العربية ١٩٦٠ .

ساطع الحصري : حولية الثقافة العربيـة . الادارة الثقافية بالجامعة العربية ١٩٤٩ — ١٩٥٤ .

عزة النص : أحوال السكان في العالم العربي. معهد العربية ١٩٥٥ .

محمد فؤاد جلال : أسس التخطيط الاجتماعي – محاضرات البرنامج التوجيهي ص٦٤–٨٣ مركز التربية الأساسية بسرس الليان سنة ١٩٥٥ .

CABOT HUGH : Human Relations , Concepts and Cases in Concrete Sncial Sciences .
Cambridge 1957 2 vols.

WILLIAM T. GOODE
PAUL K. HATT : Methods in Social Resaarch
New York 1952

PARSONS , TALCOTT : The Structure of Social Action
Glencoe 1958

SKINNER , B.F. : Sciece and Human Behaviour
New York 1958

SOROKIN , PITRIN : Social & Cultural Dynamics
Boston 1958

هذا والجداول الاحصائية التي استعنا بها مأخوذة من كتاب الدكتور حامد عمار « بعض مفاهيم علم الاجتماع » ص ٥٧–٩٣ .

